كلمة الوزارة

عصام خليل
وزير الثقافة

سورية تنتصر

لا ... ليس وهماً، ولا استجابةً عاطفيةً لرغبةٍ تعصف بالروح، بل هي حقيقة محسومة مؤسسة على وعي الواقع ومعطياته؛ سورية تنتصر، لأنَّ النصر في سورية فِعلٌ حضاريٌّ متواصل، يبدأ منذ وعي الإنسان لذاته على هذه الأرض المقدسة، مروراً بآلاف التحدّيات المصيرية، والمجابهات الصعبة، وصولاً إلى المنجز الأبهى للحضارة الإنسانية، في مراكمتها للإبداع، الذي كان العرب السوريون -ومازالوا، وسيبقون - عنوانه الأبرز وتاجه الأعلى.

✽ كلمة السيد وزير الثقافة، التي ألقاها في الندوة الفكرية الدولية «سورية تنتصر» بتاريخ ٩/٩/٢٠١٥م في مكتبة الأسد الوطنية في دمشق.

سنـوات المحنـة، وعذابـات الروح صقلت عزيمـة السوريـين. سالت أرواح شهدائهـم، فترسّخت أقدامهم في خصوبة الدم، حوصروا في لقمة أبنائهم، فانتزعـوا خبزهم من سنابل الشمس، أعزّاء... شامخين، وحقُّ السادةِ أبناءِ الشمس، شموخهم وعزّتهم.

خمسـ سنوات مـن صمم العالم، ومن تزوير الحقائـق، خمس سنوات في مواجهة الموت، أعاد فيها السوريون بناء الزمن، وترميم الحياة.

لم يعرف التاريخ في تاريخه حرباً سوداء، كالحرب التي شنّت على سورية. ولم يعرف البشر محنةً ظالمةً، كالمحنة التي مرّت على السوريين.

عقّنا الأهل، وخاننا الأقربون، ولا أشتكي الغرباء لا وعزّة سورية لا أشتكي الغربـاء، فلـم تكن سورية عبر تاريخها إلا شوكـةً في عيون الغرباء من أجل أهلها وأقربائها.

سوّغـوا ظلمهم بالكذب والافتراء، وجنّـدوا أدوات الموت إعلاماً وإرهاباً، وسلاحاً، وقتلةً، لتدمير سورية بشراً، وشجراً، وحجراً، وتاريخاً، وحضارة.

لكـنَّ روح السوريين راسخةٌ في الحياة، كجذور السنديان، تستعصي على الذبول واليأس.

لم تستطـع أدوات الموت أن تزوّر طبيعة المواجهة، وإن ضللت بعضهم حيناً مـن الوقـت. كنّا نـدرك أنّ الصراع مـع هذه الهجمة صـراعٌ ثقافيٌ حضاري، يستهدف الوجود والهوية، يستهدف كينونة الإنسان؛ ويسعى لاقتلاع العقل، ومحـو الفكـر، تمهيـداً لزراعة وتعميم مشـروعٍ ظلاميٍّ تكفـيري، يقوم على تسطيح الوعي، وتشويه القيم والمرجعيات الثقافيّة التي شكّلت –بمجملها– منظومةً معرفيةً أضافت روافد نبيلةً لحياة الإنسان، ولوجوده، ولمعارفه.

نحـن صنّـاع الحياةِ وسكّانها، لم نَنصبْ خيامـاً لاستقبال إخوتنا العرب القادمـين إلينا من أهوال مصائبهم؛ فتحنا قلوبنـا وبيوتنا لهم، وشاركنا في ترميـم أحلامهم، وكتابة مستقبلهم، فلماذا يتاجرون بآلامنا في قوارب الموت، والأسلاك الشائكة على الحدود، ومخيمات الإيواء؟

لماذا يتاجر الغرب بمصائر السوريين، وهو المسؤول عن تهجيرهم، بعد أن حاصر خبزهم، ودفع بالإرهابيين لذبح أبنائهم، وتدمير منشآتهم؟

يدفعـون مليـارات الـدولارات لتمويـل القتـل والتدمـير، ويتشدقـون بالإنسانيـة وهـم يوزعـون فتـات الخبـز، ويسرقـون البشـر، ويستقطبـون الكفاءات، لرفد شيخوخة مجتمعاتهم بالدماء الفتيّة.

لم يهاجـر السوريون حبّاً بالهجرة، فلا تهاجر الجذور من ترابها، لكنّهم افتقـدوا الحيـاة حيـث وجِد الإرهابيـون، وعاشـوا موتاً وتخريبـاً وانتهاكاً لإنسانية الإنسان.

وما يزال الغرب مستمراً في نفاقه، يدعم الإرهاب لابتزاز أموال الأعراب وهـم «أشدّ كفـراً ونفاقاً» فيما يدّعونه من دينٍ مشـوّه، لا يمت إلى حقيقة الأديان بصلة، ولا إلى المفاهيم الإنسانية بأية قربى. يدمّرون الآثار والإرث العظيـم الـذي أبدعـه السوريـون خـلال إشراقهم على العـالم فنـاً، وأدباً، وصباحاتٍ يانعة.

صنّاع الحياة لا تهزمهم المحن، لذلك تنتصر سورية، تنتصر بحضارتها، بجذورها التي علّمت التاريخ أبجديته الأولى، وموسيقاه الأولى، ومفاهيم العقـل الأولى، ووضعـت في يـد الدهـر مفاتيـح الزمـان، وعيـاً، وثقافـةً، وانفتاحاً، وتسامحاً.

تنتصر سورية بخصوبة إبداعها، الطالعة من رحم تاريخها الأخضر، المورق ببساتين العذوبة والجمال.

تنتصر سورية بجيشها العربي السوري المقدّس، ناطور السماء، الواقف على مشارف الفجر، كجبلٍ مناوب!

سورية تنتصر بأبنائها، بوحدتهم، بوعي المصير، بالحوار المسؤول، بالانتماء العميق لملامح ترابهم المقدس، بالتفافهم حول القامة الشامخة لرمز العنفوان العربي، القائد الإنسان بشار الأسد.

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

حاضنات الأعمال

في السنوات القليلة الماضية، بدأنا، في بلادنا، نسمع عن ما يعرف بـ«حاضنات الأعمال» التي تدير مشروعات ومؤسسات صغيرة، توفر من خلالها فرص عمل كثيرة للشباب، وتستفيد من وضع جديد ظهر في كثير من دول العالم التي استطاعت خلق تحديات جديدة، ومواكبة الطفرة التكنولوجية الكبيرة التي شهدها العالم، مما أتاح ظهور مصطلح يطلق على هذه النوعية من المؤسسات الصغيرة الرائدة المقامة على الإبداع والتطور والازدهار الحاصل في مجالات عديدة.

«حاضنات الأعمال» أو المشروعات الصغيرة، تحتضن المبادرين وأصحاب الأفكار والمشروعات التي تقدّم منتجات وخدمات جديدة ومتطورة تؤدي إلى إحداث تنمية متعددة الأهداف، من تكنولوجيّة واقتصادية واجتماعية في المجتمعات التي تقام بداخلها هذه الحاضنات، التي تعمل باختلاف أنواعها وتخصصاتها على خلق صور ذهنيّة للنجاح أمام صاحب المشروع الناشئ، حيث إنَّ الممارسات التي توفرها إدارة الحاضنة تمثّل عاملاً جوهرياً في تنمية هذه المشروعات الجديدة..

منذ أواخر القرن الماضي، لم تتوقف منظومة عمل الحاضنات عن التطوّر والتنوّع، حتى أصبحت -اليوم- تمثّل صناعة قائمة بذاتها يطلق عليها في بعض الأحيان «صناعة الحاضنات»، ومع تطور الحاضنات كأداة للتنمية المتكاملة، قامت بعض الدول بوضع برامج قومية لإقامة عدد من الحاضنات فيها، داخل حيّز مكاني محدد، صغير نسبياً، يقدّم خدمات أساسية مشتركة لدعم المبادرين وروّاد الأعمال من أصحاب الأفكار الجديدة والتكنولوجية، وتسهّل فكرة البدء في إقامة المشروع، وذلك على أسس ومعايير متطوّرة، ومن خلال توفير الموارد المالية المناسبة لطبيعة هذه المشروعات، ومواجهة المخاطر المترتبة على إقامتها، إضافة إلى توفير هذه المنظومة للخدمات الإدارية الأساسية فهي تقدم المعونة والاستشارات الفنية والمتخصصة والمساعدات التسويقية في بعض الأحيان، وتبعاً لطبيعة المشروعات.

في دراسة نشرتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» أعدها الدكتور عاطف إبراهيم، حول تجارب عالمية في هذا المجال. نجد أن اقتصاد معظم الدول الأوروبية أصبح يعتمد أساساً على المشروعات الصغيرة والمتوسطة وأن أكثر من ٧٠٪ من الشركات

في المملكة المتحدة، يعمل فيها أقل من مئة شخص، وتعتبر شركات صغيرة ومتوسطة، استفادت كثيراً من الوضع العالمي الجديد الذي سمح بالحصول على المعرفة ورؤوس الأموال والأسواق في آن واحد.

ونظراً للطبيعة المرنة لهذه المشروعات الأكثر استعداداً للتوافق مع متغيّرات السوق وحركة العرض والطلب، فقد باتت فرصة المشروعات الصغيرة في البقاء والنمو أكبر بكثير من فرص الشركات الكبيرة والمؤسسات ذات الهياكل الضخمة قليلة المرونة أمام متغيّرات السوق، ويعود ذلك، إلى قدرة المشروعات الصغيرة على التخصص وتخفيض تكاليف الإنتاج، وارتفاع قدرتها على التطوير والابتكار، وارتفاع مستوى المهارات نظراً للتخصص الدقيق.. لذلك تساهم في عمليات التنمية بمفهومها الشامل من حيث اعتبارها من أهم المحاور الإستراتيجية التي تعتمد عليها اقتصاديات دول العالم (في اليابان يعزى ٥٢٪ من الابتكارات إلى أصحاب هذه المشروعات).

❁ ❁ ❁

تمثّل حاضنات المشروعات أحد أهم أنواع الدعم التي يتم تصميمها لمساندة أصحاب الأفكار الخلّاقة والابتكارية الجديدة من أجل إقامة المشروعات الجديدة، بمختلف أنواعها، ومساعدتها على التكوّن والنمو، ومن هذه الأنواع نذكر:

١- حاضنة المشروعات العامة (غير التكنولوجية) وهي تلك الحاضنة التي تتعامل مع المشروعات الصغيرة ذات التخصصات المختلفة والمتنوعة في كل المجالات الإنتاجية والصناعية والخدمية، دون تحديد مستوى تكنولوجي لهذه المشروعات، وتركّز على جذب الأعمال الزراعية والصناعات الهندسية الخفيفة، أو ذات المهارات الحرفية المتميزة من أجل الأسواق الإقليمية بالدرجة الأولى.

٢- حاضنات تكنولوجية، وهي تمثّل الحاضنات ذات وحدات الدعم العلمي والتكنولوجي التي تقام داخل الجامعات ومراكز الأبحاث، وتهدف إلى الاستفادة من الأبحاث العلمية والابتكارات التكنولوجية، وتحويلها إلى مشروعات ناجحة.

٣- حاضنات الأعمال الدولية، تركز على التعاون الدولي والمالي والتكنولوجي بهدف تسهيل دخول الشركات الأجنبية إلى هذه الدول، وتطوير وتأهيل الشركات القومية للتوسع، والاتجاه إلى الأسواق الخارجية.

٤- الحاضنات المفتوحة أو «الحاضنات دون جدران» التي تقام في التجمّعات الصناعية لتعمل كمركز متكامل لخدمة ودعم المشروعات المحيطة.

٥- التجمّعات ذات وحدة الدعم المتخصص، وهي ذات صبغة صناعية صممت بشكل يساهم في تنمية صناعات محددة عن طريق توفير البيئة والبنية الأساسية المناسبة لها داخل تجمّعات صناعية كبرى.

٦- حاضنات ذات أهداف تختلف باختلاف المجتمع والبيئة المحيطة بها مثل (استيعاب المتقاعدين- احتضان الأفكار الجديدة- أعمال المرأة..).

وتلعب حاضنات الأعمال المتوسطة بأنواعها المختلفة عدة أدوار متباينة مبنية على الدور الأساسي، من خلال كونها وسيلة لدعم المشروعات الجديدة حيث أثبتت نجاحاً كبيراً في رفع نسب النجاح، وقد أشارت تقارير كثيرة إلى أن معدلات نجاح واستمرارية المشروعات الجديدة المقامة داخل الحاضنات وصلت إلى ٨٨٪ ومن بين الأدوار التي يمكن للحاضنة أن تلعبها يمكن الإشارة إلى ما يلي:

١- تشجيع خلق وتنمية المشروعات الصغيرة الجديدة.

٢- تنمية المجتمع المحلي، المحيط بالحاضنة، من حيث تطوير وتنمية الأعمال المحيطة بها، وجعل الحاضنة نواة تنمية إقليمية ومحليّة، ومركزاً لنشر روح العمل الحر لدى جموع الشباب والراغبين في الالتحاق بسوق العمل.

٣- دعم التنمية الاقتصادية، وتحقيق معدلات نمو عالية للمشروعات المشتركة للحاضنة، وذلك من خلال العمل على تسهيل توطين وإقامة عدد من المشروعات الإنتاجية أو الخدميّة الجديدة في المجتمع.

٤- دعم التنمية الصناعية والتكنولوجية، حيث إنَّ قدرة الحاضنات كبيرة على تطوير وتحديث عمليات الإنتاج بشكل أسرع وبتكلفة أقل كثيراً عن الشركات الضخمة ذات الاستثمارات العالية، وإقامة حاضنات تكنولوجية متخصصة في قطاعات محددة تعمل على تسهيل نقل وتوطين التكنولوجيا الحديثة والمتطورة، والتركيز على تنمية تكنولوجيات هذه القطاعات.

٥- دعم وتنمية الموارد البشرية وخلق فرص عمل كثيرة، لفئات مختلفة من الناس..

❀ ❀ ❀

خلال زيارتي للصين في صيف عام ٢٠١٠م، كان ضمن البرنامج المعد لنا، زيارة بعض الحاضنات الصغيرة، التي انتشرت في هذا البلد الحضاري العظيم، وهنا لابدَّ من الإشارة إلى أن الصين أجرت عمليات تحوّل وإعادة هيكلة كبيرة للسياسات الخاصة بالبحث العلمي منذ عام ١٩٨٥م، وذلك بهدف تحويل اتجاهات البحوث العلمية النظرية

إلى التطبيقات في الصناعة والاقتصاد على أساس ثلاثة محاور هي: تقوية وتنشيط عمليات الإبداع التكنولوجي، وتنمية وتطوير التكنولوجيات العالية وتطبيقاتها، وإتمام تحديث وتطوير عمليات التصنيع ورفع المحتوى التكنولوجي للمنتجات الصينية.

البرنامج الصيني في تطوير الحاضنات تمَّ التركيز فيه على تسويق الأبحاث، وتطوير التصنيع، والاتجاه نحو العولمة، وتشير الإحصائيات إلى أن هذا البرنامج الطموح قد أدى إلى خلق (٥٤) حديقة تكنولوجية خلال التسعينيات من القرن الماضي، ونجح في إقامة آلاف الحاضنات جميعها تقريباً حاضنات تكنولوجية، مما حقق للصين المركز الثاني في العالم في عدد الحاضنات بعد الولايات المتحدة، كما حققت مكاسب ومداخيل هائلة، مما جعل الجامعات الصينية، تعيد النظر في مناهجها بما يتناسب مع سياسة حاضنات الأعمال.

برنامج الحاضنات الصيني يتبع مركزيّاً، برنامج التطوير التكنولوجي المعروف باسم «تورش Torch» لذا فإن كل الحاضنات قد تمّت دراسة إقامتها وجدواها، وتمَّ اختيار مواقع إقامتها وكل تفاصيلها بشكل مركزي، كما تمَّ تدريب مديري الحاضنات من خلال البرنامج التدريبي نفسه في الحاضنة الدولية في بكين، وأنواع الحاضنات الصينية هي: حاضنات تكنولوجية عامة (دون تخصص تكنولوجي)، حاضنات تكنولوجية متخصصة، حاضنات تكنولوجية في قطاع أو سوق متخصص، حاضنات أعمال غير تكنولوجية، حاضنات الأعمال الدولية، وفي هذا النوع تقوم الحاضنات بجذب الشركات الكبيرة والصغيرة لإقامة المشروعات في الصين من خلال الإقامة في هذه الحاضنة التي يمكن من خلالها التعرف على خصائص مجتمع

الأعمال الصيني، كذلك تقوم هذه الحاضنات باستضافة شركات صغيرة تود التعاون مع شركات خارج الصين لمدة قصيرة يتم خلالها تدريب العاملين في الشركات على اللغات، وعلى إدارة الأعمال في الخارج، وبذلك يتم رفع مستوى الشركة إلى المستوى الدولي.

ويتم تمويل الحاضنات الصينية، من خلال التمويل الحكومي الكامل، وتمويل شركات رأس مال مخاطر (معظمها مملوكة للدولة).

لقد استطاعت الحاضنات الصينية خلال فترة قصيرة خلق عدد كبير جداً من الشركات والوظائف، ويعزو الخبراء هذا الإنجاز إلى الثقافة الصينية التي تتميز بالقدرة والطاقة الإدارية المرتفعتين للأفراد، والرغبة في إقامة شركات وأنشطة تجارية وصناعية، والمساحة الكليّة القابلة للتأجير للحاضنات (نحو ٣ملايين م٢) وعدد الشركات الملحقة بها (أكثر من عشرة آلاف شركة).. كما أن الحاضنات الصينية ساهمت في إحداث تغيير ثقافي كبير، حيث قام هذا البرنامج الضخم بسد الفجوة بين الأبحاث المموّلة من قبل الدولة، والأبحاث التي يموّلها القطاع الخاص، وتنشيط هذه الأخيرة، إضافة إلى تنمية حب العمل الحر، والرغبة في إقامة مشروعات خاصة، بعيداً عن الثقافة السائدة في دول شيوعية مثل الصين، حيث العمل الحكومي الجماعي هو السائد..

لقد نجحت الجمعية الصينية للحاضنات في إحداث عمليات نقل وتبادل الخبرات وتأهيل عدد كبير من مديري الحاضنات لمواكبة هذا العدد الكبير من المشروعات، حيث قام هؤلاء المديرون بحضور عدد كبير من الندوات والمؤتمرات في الخارج لاستيعاب هذا المفهوم، والخروج برؤية واضحة لطبيعة أنشطة الحاضنات، وقد استطاع

البرنامج الصيني للحاضنات التطور والتعلم من الأخطاء واختيار أفضل الممارسات، وقامت هذه الحاضنات بضبط إيقاع أعمالها من «حاضنات اجتماعية»، تدار بشكل فيه كثير من التسامح والنظرة الاجتماعية للأعمال، إلى «حاضنات أعمال» تدار تبعاً لقواعد العرض والطلب والمنافسة.

النجاح الكبير للحاضنات الصينية لم يمنع من وجود بعض المعوقات التي يحاول برنامج (تورش Torch) التغلب عليها، وتحسين الأداء من خلال:

- التركيز على الخدمات أكثر من المباني والوحدات الإنتاجية.
- زيادة الاهتمام بإدارة الحاضنة كأنها مشروع تجاري.
- التركيز على اختيار عناصر ذات خبرة بإدارة الأعمال للعمل على إدارة وتسيير أعمال الحاضنات.
- تنمية معايير اختيار المشروعات في الحاضنة.
- زيادة الكفاءة المالية وزيادة الفاعلية.
- تنمية معايير التعاون والشراكة مع الحاضنات الأخرى.

في الختام لابدَّ من الإشارة إلى أن الجامعات والمعاهد البحثية، يمكنها أن تلعب الدور الأنسب في ترجمة ونقل الأفكار الإبداعية إلى الصناعة، وتطوير عمل حاضنات الأعمال، تلبية للحاجات ولتوفير الظروف والمناخات الملائمة في مختلف جوانب التنمية، ومنها التنمية الثقافية، التي نحن أحوج ما نكون إليها في عالم اليوم، من أجل الترسيخ للتنمية المستدامة.

❁ ❁ ❁

اللغة والبنى الشعرية في أدب الأطفال

ترجمة: د. ملكة أبيض ❁

يؤثر الشعر في الكبار أكثر مما يفعل النثر. ولكن الصغار أكثر تأثراً به أيضاً. إنَّهم يحفظونه بسرعة، ويغنونه، ويرقصون على إيقاعه، ويبقى في ذهنهم طويلاً، وقد يبقى بعضه مدى الحياة.

وأول ما يشد الانتباه في الشعر لغته الجميلة الجذابة التي تأسر القارئ بألفاظها وأصواتها، وصورها وأخيلتها..

إلا أنَّ هناك أيضاً بنيته التي تتخذ أشكالاً شتى بحسب موضوعاته وأغراضه.

من هنا يأتي تقسيم هذه الدراسة إلى عنوانين رئيسيين: اللغة الشعرية، والبنى الشعرية.

أولاً: اللغة الشعرية:

يتصرف الشعراء باللغة بغية إيجاد تأثير أقوى مما يفعله النثر. واقتصاد اللغة لديهم، ودقتهم في اختيار الكلمات ووضعها في المكان المناسب، إضافة إلى عنايتهم بالأدوات الشعرية التي تستخدم الصوت والصورة لخلق المعنى... كل ذلك يتحالف لإبداع شعر مذهل. وهكذا يشبع تألق الأسلوب لغة الشعر المكثفة.

❁ باحثة ومترجمة وأستاذة التربية في جامعات عربية.

١- الكلمات كصوت:

من بيــن جميــع عناصر الشعــر، ربما كان الصوت أكثر ما يجلــب السرور للقرّاء الصغــار. فمنــذ العمــر الباكــر يستمتع الأطفال بسماع الإيقاعات وألعاب الأصابع والتهويدات وغنائهــا. والأطفال الأكبر سناً يســرّون أيضاً بالقافية والإيقاع في أغنيات قفز الحبل، والسيــر الجانبي؛ والمراهقون يحبّون موسيقاهم.

إنَّ استخــدام العناصــر الموسيقيــة المرتبطة بالصوت محبَّب من خلال الألفة؛ وهو يدعو القــرّاء الصغار إلــى القصيدة لاختبــار بهجة أليفة بطريقــة جديدة. كما أن اختيــار الأصــوات وترتيبهــا يجعــلان الشعر موسيقياً ويدعمان المعنى. والإيقاع Rythm، والقافيــة Rhyme، والجنــاس Alliteration، والسجــع Assonance، ومحــاكاة أصــوات الطبيعــة بالكلمــات Onomatopoeia تمثــل بعضــ مــوارد اللغة الصوتية.

فالإيقــاع Rythm أداة شعريــة عامة مألوفة يستخدمها كثيــر من الشعراء. وهو يُصادف في الحيــاة أينما كان - في أمواج المحيط، وتــكّات الساعة، وضربات حوافر الخيل، والنبض الإنساني ذاته. ومن الشعراء من يخلق الإيقــاع عن طريق تكرار ضربات خاصة للمقاطع المشــدَّدة وغير المشدّدة، والاستخــدام المتكرر للمقاطــع والنبرات، والصعود والهبوط فــي الكلمات المنطوقة أو المقروءة.

والإيقاع في الشعر موزون في الغالب، أو يتبع ترتيباً معيناً، تكون فيه بعض المقاطع مشدّدة بصــورة منتظمــة أو منبورة ضمن نمط ثابت إلى حد ما.

أمــا الوزن فهــو «قيــاس»، ويمكن للغة الموزونــة فــي الشعــر أن تقاســ. ويمتد الــوزن في الشعر من النظم المقيد بأنماط محددة، إلى غير المقيّــد أو الحر. كما أن هنــاك إيقاعات هامة للنظــم الحر. وحين يكون الوزن بــارزاً فإنــه يساعد على خلق معنى القصيدة أو تقويته.

لذلك حين تقرأ قصيــدة بصوت عال، فكّرْ بإيقــاع الأبيات.. انقــرْ الإيقاع الذي تسمعه.. مــا هو نمط المقاطــع المشدّدة وغير المشدّدة؟

والســؤال الأكثر أهميــة الذي يجب أن يتبــادر إلى ذهنك هو: كيــف يستطيع هذا النمط من الإيقاع الارتقاء بالمعنى؟

أمَّــا **الجنــاس** Alliteration، فهو يعنــي تكرار الحــروف الصامتة الأولى مــن الكلمــات ضمن فواصــل قصيرة. ويطلــق اسم «Consonance الجناس

الداخلي» حين تتكرر الحروف الصامتة الداخلية ضمن فواصل قصيرة؛ كما تطلق كلمة Assonance على تكرار الحروف الصوتية ضمن فواصل قصيرة.

ولا بأس هنا من إثبات قصيدة قصيرة تستخدم فيها «رودا و. باكمايستير Rhoda W. Bacmeister» الجناس، وتكرار الحروف الصامتة والصائتة في عدد من الكلمات، كما تستخدم الكلمات المشتقة من الأصوات الطبيعية ذات الصلة بالموضوع، الـ Onomatopoaiea.

Galoshes

«Susie 's galoshes
Make splishes and sploshes
And slooshes and sloshes
As susie steps slowby
Along in the slush
They stamp and they tramp
On the ice and concrete
They get stuck in the muck and the mud;
But Susie likes much best to hear
The slippery slush
As it slooshes and sloshes
And splishes and sploshes
All around her galoshes!»

Rhoda W. Bacmeister

تتحدث الشاعرة عن الأصوات التي يحدثها حذاء سوزي المطاطي حين تدوس على الثلج نصف الذائب والمختلط بالوحل. ويلاحظ أنها تعمدت استخدام المحسِّنات اللفظية كالجناس وتكرار الأحرف الصائتة والصامتة والأصوات الطبيعية في معظم كلمات القصيدة.

٢- الكلمات كنماذج

يسهم ترتيب الكلمات في صوت الشعر ومعناه أيضاً. فترتيب الكلمات مركزي في إبداع قصيدة؛ وتزداد المتعة في الشعر حين نلاحظ كيف أن ترتيب الكلمات بطريقة خاصة، وصوتها، وإيحاءاتها تؤثر في المعنى؛ كما رتبت «جين يولين Jane yolen» كلماتها في قصيدتها التالية بعنوان: «ناطحة السحاب/ صورة المدينة/ Sky scrape/ city scape» لتعكس ارتفاع ناطحات السحاب التي تصفها. وهذه هي القصيدة:

city scape	**Sky scrape/**
sky scrape	ناطحة السحاب
city scape	صورة المدينة
high stone	مرتفع من الحجر
steel bone	عظم من الفولاذ
cloud crown	تاج من الغيم

smog gown	معطف من الضباب والدخان
hurry up	اسرع صعوداً
hurry down	اسْرِع نزولاً

هكــذا يعالج الشعــراء تراكيــب اللغة ليتوصلــوا إلى نمــوذج يُدْخِــل السرور إلى قلوبهــم، ويتجــاوز الصيغــة الحرفية في إيصال ما يريدونــه. وكما لاحظ «نودلمان Nodelman» أنَّ الشعــراء يعبــرون عن أفكار «فــي كلمات تقول وتفعــل أكثر مما تفعــل النسخة النثرية، وتقولها بصورة أكثر خصوصية: عن طريق خلــق نماذج تتوقف على هــذه الكلمات بالــذات، لأنها اتخذت الترتيب نفسه».

ونــود أن نثبت هنا أيضاً نموذجاً طريفاً أبدعته «غويندولين بروكس Gwendolyn Brooks» مــن خلال الجناســ، والسجع، والقافية، وموضعة الكلمات بعناية فائقة في قصيدة بعنوان «نحــن العاقلون الحقيقيون We real cool»، مدرجــة في مجموعتها «قصائد مختارة Selected poems»:

We real cool	**نحن العاقلون الحقيقيون**
We real cool. We	نحــن العاقلــون الحقيقيون، نحن
Left school. We	غادرنا المدرسة، نحن
Lurk late. We	نتأخــر فــي الاختباء، نحن
Strike straight.	نضرب بشكل مستقيم،
We	نحن
Sing sin. We	نُنوِّم الخطيئة، نحن
Thin gin. We	نخفف الخدعة، نحن
Jazz june. We	نسرِّع حزيران، نحن
Die soon	نموت عما قريب
Gwendolyn Brooks	**غويندولين بروكس**

ويلاحظ «نودلمان، Nodelman (1996)» أن تكــرار كلمة «we نحــن» ينشئ الإيقاع، ويتيح فهم غيابها في نهاية البيت الأخير.

إنَّ ترتيــب الكلمــات أو النمــاذج يخلق المعنــى، ويلفت الانتباه إلى الكلمات نفسها مثلمــا يفعل بالنسبة للصــور التي يبدعها. وربما كان جوهر الشعر يتمثل فيما إذا كان هذا الترتيــب مفروضاً جزئيــاً من أشكال معينة، أو كلياً من المعنى، وهو – أي الشعر – علــى كل حال، الطريقة الوحيدة الممكنة للإيحاء بفكرة الشاعر، وبالتالي لإثارة أفكار جديدة لدى القارئ.

٣- الكلمات كصور

إنَّ اختيــار الكلمــات وموضعتهــا، أي كيفية وضــع الكلمات جنبــاً إلى جنب أو فصل بعضها عن بعض، يساعد على خلق المعنى. كمــا أن تحت تصــرف الشعراء أدوات شعرية عديدة، ومنها: إعطاء معنى

خاص (Connotation)، واستخدام اللغة المجازيــة (Figurative language)، والصـــور (Imagery). وهم يستخدمون جميع هـــذه الأدوات الشعرية للإيحاء بأن الكلمات تعنـــي أكثر مما تصادفه العين أو الأذن. وكمـــا هو الحال في «نحن العاقلون الحقيقيون We real cool» هناك شيء لم يُقلّ، وهو في الغالب لا يقل أهمية عما يوجد على الورق.

إنَّ الشعـــر يحمل غالباً عدة طبقات من المعنى، وهو، كما يحصـــل مع أنواع أخرى مـــن الأدب، معرّضـــ لتفسيـــرات عديدة. والمعنى الذي يخلقه القرّاء يرتبط مباشرة بمـــا أعدّتهم خبرتهم لفهمه. فما نحن عليه يحدِّد ما نستطيع فهمه.

وعلـــى الرغـــم مـــن أن الكلمـــات التي يختارهـــا الشاعر لها جمهورهـــا ومعانيها المشتركـــة، أو معناها العام، إلا أن المعاني الخاصة التي تحيط بتلك الكلمات هي عامة وخاصة فـــي آن معاً. وغالباً ما يكون صدى كلمة معينة في نفس قارئ ما هو الذي يخلق خبـــرة شعرية قوية. فكِّر في كلمة «مدرسة» وما تعنيه لك!

وعلـــى الرغم مـــن أن اللغـــة المجازية توجـــد في النثر أيضاً، إلا أنها - بمجازها، وتشبيهاتهـــا، والشخصنـــة التي تنتشر فيها - غالبـــاً مـــا تجعل لغـــة الشعـــر مشبعة. والتشبيهات المعقـــدة التي تستخدم أدوات المجـــاز والتشبيـــه، تلك التي تقـــارن شيئاً بآخر، أو تـــرى شيئاً بلغة شيء آخر، شديدة التكرار في الشعر.

إنَّ المقارنـــة في «التشبيه» تعتمد استخدام كلمات «مثـــل» أو «كَ» لإقامـــة المقارنة. ولكن المقارنـــة فـــي «المجاز» يجـــري استخلاصها: فشيء ما تجري صياغته كما يصاغ شيء آخر.

ولمـــا كان الشعراء يرغبـــون في إيجاد خبـــرات حية، ويستخدمـــون اللغة مجازياً، فإنهم يساعدوننا على رؤية الأشياء والشعور بها بطريقة جديدة، كما هو الحال في هذه القصيدة لـِ «إيف ميريام Eve Myriam» من مجموعة «لا يجب أن تكون دوماً مقفاة It doesn't always have to rhyme»

Metaphor	**مجاز**
Morning is	الصباح
A new sheet of	صفحـــة جديـــدة من
paper	الورق
For you to write	تهـــدي إليـــك لتكتب
on	عليها
Whatever you want to say	كل ما تريد قوله
All day,	طول النهار
Until night	حتى الليل
Fold it up	اطوها حتى آخرها
And file it away.	وضعها بعيداً

The bright words and the dark words	فالكلمـات المضيئـة والمعتمة
Are gone	ذهبت
Until down	حتى بزوغ الفجر
And a new day	ومجيء يوم جديد
To write on	تكتب عليه
Eve Mariam	**إيف ميريام**

هـذه القصيـدة تشكل، فـي الوقت نفسه، مثلاً كاملاً للعنوان، وطريقة رائعة للنظـر إلـى الإمكانات الكامنـة في يوم جديد.. إنها عاطفة جـرى التعبير عنها حتى الحزن على أفواه العديد من الكتّاب والمتحدثيـن، ولكنها تظهـر طازجة من خلال مجاز ميريام.

أمَّا «الشخصنـة Personification» فهي تعنـي تمثيل شـيء أو فكـرة مجردة بصفتها كائنـاً إنسانياً. فحين نقول «الحظ ابتسـم لنا» أو «إذا سمح الطقس»، نكون قد أعطينا صفـات إنسانية للفكرة - الحظ - وللطقس. والشعراء يعطون غالباً مشاعر أو أفكاراً إنسانية للنباتات والحيوانات.

ففي قصيدتها «الجداجد Grickets» تستخدم فاليري وورث Valerie Worth الشخصنة لجعل الأفكار أكثر حيوية أو غير اعتيادية حين تقـول إن الجداجد «تتكلم»، وإن العشب الجاف «يهمس».

كمـا أن «لانغستون هيـوز Langston Hughes» يستخدم الشخصنة في «أغنية مطـر نيسـان April rain song» حين ينصح قارئـه بقوله: «دع المطـر يقبِّلك»، و«يغني لك تهويدة».

لاحـظ كيـف تستخـدم «سـارة هانسن Sarah Hansen» التشبيـه والشخصنة معاً لتنحت طريقاً جديداً للتفكير حول الصباح في قصيدتها. «الشـروق Rising» من مجموعة «لي بيرنيت هوبكنز Lee Bernett Hopkins» «سحر السماء Sky Magic»:

Rising	**الشروق**
Like a fresh loaf	مثل رغيف طازج
Sun rises	تشرق الشمس
Tempting dawn	وتغري الفجر
To break	بأن يكسر
Her golden crust	قشرتها الذهبية
Taste morning!	تذوّق الصباح!
Sarah Hansen	**سارة هانسن**

إنَّ الشمس المزوّدة بطاقة بشرية مميَّزة، تغري الفجر بأن يكسر قشرتها. وهكذا فإن شروق الشمس لم يعد مجرد نتيجة لدوران الأرض، بل إنه دافع الشمس لتتملق الصباح وتجعلـه يطلع. والشمسـ، شأنها شأن قرّاء هانسـن، طافحـة بالفاعليـة. وهي تجعل الأشيـاء تحدث بطريقـة مختلفة، كبيرة أو صغيرة، يمكننا أن نرتبط بها.

وهكـذا فـإن الشخصنة، فـي أحسن حالاتهـا، تدعونا لا لأن نلاحـظ النباتات، والحيوانات، والأشيـاء الجامدة، التي تملأ كوننـا فحسب، بـل لأن نرتبط بهـا أيضاً بطرق تكشف أو توضّح أفكارنا، ومشاعرنا، وتصرفاتنا.

إنَّ الشعراء يخلقـون الصور باستخدام كلمات تأسـر حواسنا. فنحـن نستطيع أن نتخيل أننا نرى تقريباً، أو نتذوق، أو نلمس، أو نشم، أو نسمع ما تصف. وقلّة من القرّاء تفلت من رؤيا الشاعر أو الشاعرة، ولا شيء يحدّ من التخمين بما يراه أو تراه.

ففي قصيدة من مجموعة «كل القصائد الصغيرة، وأربـع عشرة قصيدة أخرى All the small poems and fourteen more» تخلـق «فاليـري وورث Valerie Worth» رؤيـة طازجة لزهـرة عادية من خلال المجاز والصور، تقول:

Dandelion	هندباء برية
Out of	خارج
Green space,	مكان أخضر
A sun:	هناك شمس:
Bright for	تشع يوماً
A day, burning,	وتحترق
Away to	فتصبح
A husk, a	قشرة،
Cratered moon:	قمراً أجوف:
Burst	تتفجر
In a week	في أسبوع
To dust:	فتصبح غباراً:
See ding	زارعة
The infinite	في المرج
Lawn with	اللانهائي
Its starry	فتاتها
Smithereens	النجمي
Valerie worth	**فاليري وورث**

إنَّ تشبيـه الهندبـاء البريـة بـ«شمس» و«قمـر أجوف»، يستدعـي رؤى من أصفر حار، إلى رمادي بارد شاحب. فكلمات مثل: مـكان أخضر، وإشباع، واحتـراق، وقشرة، تخلق صورة للزهرة في مراحل دورة الحياة لديها.. وعبـارة «فتات نجمـي أو كسرات نجمية» تغيّر إلى الأبد طريقة رؤيتنا للعشبة المتواضعة التي تنمو في كل مكان. فالصور القوية تتيـح للقارئ الحصـول، من خلال اللغـة، على خبـرات وأفكار، قـد لا يكون حصل عليها من قبـل؛ وهي تساعد القرّاء على توسيع ذواتهم الحسية.

ثانياً: البنى الشعرية

تبـدو القصائـد مختلفة عـن الكتابة النثرية، ذلك أنه يوجـد فيها قدر أكبر من المساحـة البيضاء. وداخـل تلك المساحة البيضـاء يوجـد تنوع مذهل مـن الأشكال

الشعريـــة. ونحن نتكلم هنا عـــن نموذجين أساسيين مـــن الشعر: الســـردي والغنائي. ولكن هناك وفـــرة من الأشكال التي يتعامل معها الشعر، إما لسرد قصة، أو للتعبير عن انفعال، أو للتسلية.

١- الشعـــر الســـردي Narrative poetry:

تقص القصائد السردية قصة، أحياناً في أسطـــر قليلة جـــداً، وأحيانـــاً أخرى بصورة مطوّلـــة. ويمكن للقصائد السردية أن تتخـــذ أشكالاً عدّة تتـــراوح بين النظم الحر الخالـــي من البنيـــة، والأغاني ذات البنية المتماسكة.

وفيما يتعلق بالقصائد السردية، يستمتع العديد من القرّاء بالنظـــم السردي. وليس مفاجئـــاً أن يستمتـــع كثيـــرون بالقصص، ويشعروا بألفة معها بجميع أنواعها.

حين تكون القصة طويلة بحيث تستغرق كتابـــاً (أطـــول من كتاب تصويـــري) تسمى ملحمـــة. ولكن معظم القصـــص المعاصرة للقراء الصغـــار قصيرة نسبياً، ولا تضم إلا حدثاً، أو عدة أحداث قليلة.

٢- القصائد الغنائية Ballades:

وهـي نـــوع خاص من الشعر السردي، له «قواعد» يتعيّن علـــى الشعراء أن يتبعوها. وفـــي إطار هـــذه القواعـــد، يقصّون قصة تروي حادثة أو فكرة واحدة. وبعض الشعراء يستخدمون الحوار لرواية القصة مع لازمة متكررة.

وهناك قصائـــد غنائية شعبية وقصائد غنائية أدبيـــة. فالقصائد الشعبية لا يعرف لهـــا مؤلـــف، لقد أصبـــح مؤلفهـــا مجهولاً وراحت تنتقل بالغناء من جيل إلى جيل.

ولما كانت القصائد الغنائية، في الأصل، «قصة في أغنية» فإن العديد من الناظمين الحديثين يعبِّرون عن أنفسهم من خلالها.

٣- القصائـــد السرديـــة وروايـــات النظـــم Narrative poems and verse novels:

إنَّ القصائـــد السرديـــة تتضمن قصة، مـــع أشخاص، وحبكة،وثيمـــة – شأنها شأن أيـــة قصة أخرى- في إطـــار شعري؛ وذلك يمكـــن أن يجعل من القصة المتواضعة أثراً لا ينسى. مثال ذلك كتاب «إيلويز غرينفيلد EIoise Greenfield» بعنـــوان «الهجرة الكبـــرى: الرحيل إلى الشمال The great migration: Journey to the north» الـــذي تحدثت فيه عـــن قـــوة الأمريكيين الأفارقة وتصميمهم.. أولئك الذين غادروا جيم كراو Jim Grow في الجنوب للعمل، والوعد بحياة أفضل في المناطق الشمالية الغنية.

وروايات النظم، طريقة أخرى لرواية قصة من خلال الشعر. وهي مثل القصائد الغنائية، وقصائد سردية أخرى تروي قصة، ولكن من خلال سلسلة قصائد، كل منها في صفحة أو صفحتين بدلاً من قصيدة طويلة واحدة.

٤- الشعر الغنائي Lyric poetry:

يعرض الشعر الغنائي شعوراً أو عاطفة، بدلاً من رواية قصة. وهو يقدم فيضاً مباشراً وقوياً من الأفكار والانفعالات. ومعظم القصائد الغنائية تعبر عن مشاعر فردية. وقد كانت تغنى في الماضي بمرافقة القيثارة lyre، كما يدل على ذلك اسمها اليوناني.

لقد جمعت «جويس كارول Jojce Carol» العديد من تهويدات الأمهات والآباء لتنويم الأطفال، ومنها هذه التهويدة:

All the pretty little horses	**كل الخيول الجميلة الصغيرة**
Hush – a – bye	إش – وداعاً
Don't you cry	لا تبكِ عينك
Go to sleep	اذهب إلى النوم
My little baby	يا طفلي الصغير
When you wake	حين تفيق
You shall have	ستكون عندك
All the pretty little horses	كل الخيول الجميلة الصغيرة
Anony mous	**مجهول**

كما عبّر ولتر دين مايرز Walter Dean Myers عن مشاعر سكان «هارلم Harlem» وانفعالاتهم خلال أربعينيات القرن الماضي في: «هنا في هارلم: شعر بأصوات عديدة :here in Harlem Poetryin many voices». وهو مثال ممتاز للشعر الغنائي للقرّاء الأكبر سناً. فوصف مايرز لمشاعر الكرامة، والأوجاع، والطموحات، والتصميم، والزهو لدى شعب هارلم يتردد صداها في النص، وكلماته تصف عالماً انفعالياً تصرخ فيه خبرات الأفراد أحياناً، وتهمس أحياناً أخرى- خلال حدود الزمن، وهي تخاطب مباشرة حساسية القرّاء المعاصرين.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن «إيلويز غرينفيلد Eloise Greenfield» قدّمت لتلاميذ الصفوف الأولى شعراً غنائياً في مجموعتها: «يا حبيبي، أحِبُّ وقصائد حب أخرى Honey، I love and other love poems».

خاتمة: الشعر في غرفة الصف

أن يكون لدى المعلم مجموعة شعرية جيدة للقراء الصغار، يشكل الخطوة الأولى لمساعدتهم على معرفة الشعر ومحبته. وعلى الرغم من أن معرفة الشعر ومحبته

لهما مكافآت داخلية خاصة، إلا أن هناك أيضاً فوائد أكاديمية لملازمة الشعر.

إنَّ الشعر يدفع القراء الصغار إلى الإصغاء. والتلاميذ يعيرون انتباهاً للشعر لأنه يتعامل مع أصوات اللغة، ويستخدم كلمات جذابة آسرة، ويتناول موضوعات ساحرة. وهو يزيد في موارد القراء اللغوية، فجميعنا يتعلم اللغة التي يسمعها. وإذا كنا نسمع لغة حديث عادي، فإننا سنستخدم لغة عادية حين نتكلم ونكتب...

ولحسن الحظ، نحن نتعلم أيضاً اللغة التي نقرؤها. وإذا كنا نقرأ أو نسمع لغة شعرية، فإننا سنستخدم لغة شعرية في كتابتنا وكلامنا. إنَّ الشعر مادة ممتازة لتنمية الوعي اللفظي، أي القدرة على تقطيع أصوات الكلام والتعامل معها. والأطفال يتعلمون تمييز الأصوات، ويسمعون أجزاء من الكلمات، ويربطون بين الأصوات التي يسمعونها والأحرف التي يرونها.

ونظراً لأن الشعر والنظم يوضعان غالباً في نماذج قابلة للتنبؤ، ومتكررة، فإن الأطفال يتوقعون الكلمة التي ستأتي، أو ينتظر أن تأتي. وحين يتعرفون الأحرف التي تبدأ بها الكلمات أو تنتهي، فإنهم سيقولون الكلمة الصحيحة على الأرجح. فالجناس والقافية يساعدان القرّاء المبتدئين على فهم المادة المطبوعة التي تقدم إليهم.

إنَّ الشعر يساعد التلاميذ على أن يتعلموا كيف يكتبون بإعطائهم مخزوناً من الكلمات والنماذج يستعينون به في كتاباتهم الخاصة. كما أن التعامل مع أشكال شعرية متنوعة يتيح للتلاميذ أن يستكشفوا الخيارات المتنوعة. وهذا غالباً ما يدفع التلاميذ للعمل في إطار بنية معينة، وهو تمرين مثير للتحدي والثقة بالذات.

إنَّ الشعر يساعد التلاميذ على التفكير بتنبيههم للنظر إلى عالمهم بطريقة جديدة، وهو يعرض منظورات طازجة للحياة.. فالشعر يبنى على الأشياء المتناقضة، والمتعارضة، والغامضة، ويبرز هذه المعالم بشكل سافر، مما يجعلها، واضحة للقراء السذَّج.

المرجع

- Lee Galda, Lawrence R. Sipe, Lauren A. Liang, Bernice E. Cullinan, 8th edition 2015: Literature and the child, wads worth, Cengage Learning, United States.

بين البلاغة والأسلوبية

د. صلاح الدين يونس ✽

لم نعثر في حدود معاينتنا للتراث اللغوي، وما نتج عنه من نحو أو بلاغة أو نقد أو رسائل على مصطلح «الأسلوبية»، وإنّما قد تنبئ -بشكل غير مباشر- بعض الأقوال المتناثرة عن يمين المتون أو عن يسارها بما يتناسب طبيعة أو وظيفة- مع المصطلح المعاصر «الأسلوبية»، أمّا في الدرس الغربي الحديث وخاصة في المدرسة الشكلانية الروسية وحلقات براغ. فقد انبثقت «الأسلوبية» كنظرية تستمد معاييرها من النظرية العلمية، أو من العلم الذي تنتمي إليه، وتخضع لشروطه العامة في التحقيق والتزييف، ولهذا فإنه في مقابل «علم اللغة التطبيقي» تقوم عملية «البحث الأسلوبي»... ينبغي أن تستكمل دراسة الأسلوب في مستوياته اللغوية باستخدام المقولات المتصلة بالأدب وبالعلوم الفلسفية والاجتماعية والتاريخية.[١]

وأما البديل الذي يقابل - بالعربية- الأسلوبية هو «ما وراء الصياغة اللغوية» كما يراها الناقد والبلاغي تمام حسّان ويرمي من خلال فهمه للأسلوبية إلى «الصياغات

✽ أديب وناقد وأستاذ الأدب العربي في جامعة تشرين.

المجازية التي تواتر استخدامها لدى الناقد للدلالة بها على أشيــاء تضيق عنها العبارة ويصعب وصفها».[٢]

ومن أهم مظاهرها «المسافة بين القصد والإنجــاز» وقد أفصــح عنها محمد مندور بقوله: «كثير من الأشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديهــا الصفة»[٣] وتظهر في متن النقد القديم في نســق التركيب السلس «ديباجة، سبك، سلاسة، جزالة، رونق» أمّا في الدرس الحديــث فتبدو المسألة فــي الكشف عمّا وراء تلك العبارات، لعــل الاكتشاف يساهم فــي ابتناء فضاء من التصورات حول الفكر النقدي والآخر «التصالحــي» في الذهنية العربية.

إسقاط الراهن على العابر:

حــاول المعاصــرون أنّ يكتشفــوا في المتــون العربيــة «نحــو، نقــد، بلاغــة» أسلوبيتهــم الخاصــة، أي محاولة إيجاد ما يناســب للصيغ الغربية في المتون التراثية كمعــادل الغاية منه «ما أبــدع الغرب شيئاً إلا وعندنــا أصوله»، من موقع آخر، يحاول السلفي الديني، ونظيــره القومي امتطاط الدرس اللغوي العربي باتجاه الحداثة كلما وسّع الغرب من دراساتــه التطبيقية، وكلما عبّر عنهــا بمصطلحاته التي يراها مناسبة لمكتشفاتــه، لقد حاول ابن معصوم – علي خــان – ت١٧٠٧م وهــو شيــرازي ومؤرخ، عندما كتب «سلوة الغريب» و«سلافة الدهر في أعيان العصر» أنّ يعرِّف ظاهرة التكرار، وأن يتوصــل إلى استنتاج «الأسلوبية» يقول: «التكــرار- التكريــر، الأول اســم والثاني مصــدر، وهو تكرير كلمــة أو أكثر بالمعنى واللفظ إما للتوكيد، أو للتنبيه أو للتهويل أو للتعظيم أو للتلذذ».[٤]

ويبــدو الناقــد العربي غير مبــرّأ من السلفيتيــن السابقتيــن، فيكــرر النظــرة الإسقاطية، ليرى في الإبداعات الغربية أنها ذات صلة بالمتون التراثيــة العربية، ويبدو شكري عيّاد الناقد المعــروف شاهداً على الإسقاط المذكور، فيقرأ كتاب سيبويه قراءة أسلوبية، وسيبويه هو أبو بشر عمر بن عثمان ت٧٩٦م، نحوي مولــود في شيراز، نشأ في البصرة وهــو إمام نحاة البصرة بعد شيخه الخليل، وقد شرح كتابه «الكتاب» ابن السراج والمبرمان والسيرافي والرماني. ولكن كيف شرّع قرّاء اليوم إنجازات الأمس؟![٥]

يُعدُّ كتــاب سيبويه «الكتــاب» واحداً من الأصول اللغوية المعتمدة في الدرس القديم ونظيره المنبثق عنه الحديث، بل يتجاوز «الكتــاب» وصيغته كعمل فردي، ليغــدو امتداداً للمدونــات الآخذة بشيء

مــن القداسة، ومن هنــا كان البحث في كتاب سيبويــه يتخذ شكليــن: الأول هو الاستمرار في التكرار، كالبحث في نظام الجملــة، أو قضيــة الحــذف، أو قضية الإسنــاد، أو وثوقية الشواهــد الشعرية وتوزعهــا علــى القبائــل، أو مــا يُعرف بمشكلــة الاحتجاج، الثاني هــو إسقاط النظم البحثيــة المعاصرة على «الكتاب» ليحقق الإسقاط بدوره هدفين: الأول هو أنَّ العالم «الغرب» المعاصر لم ينجز شيئاً إلا وجذور الإنجاز قد توصّل إليها العرب في القرون الزاهية (الهجرية الأولى).

والثانــي: هــو امتحــان أدوات الخارج بمتون الداخل في سعي للتواصل بين التراث اللغوي العربي والنظرية الحديثة، والتواصل ليــس انكماشاً داخلياً، بل هو تعمير التراث النقدي واللغــوي بأدوات مــن خارجه، أي إعادة تجهيزه بغية الاستمرار.

وإنّ كانــت محاولة شكــري عيّاد قراءة كتاب سيبويه بمنهج أسلوبي، فإنما يبدأ من مسلمة أساسها: أن الدرس البلاغي قد نشأ -تاريخيــاً- من رحم الدرســ اللغوي، ويعدُّ إمام البلاغة الجرجاني عبد القاهر ٤٧١هـ أحــد اللغوييــن المؤسسيــن، وما كان له ولا لمــن جاء من بعــده أنّ يؤسس لعلم البلاغة، أو النقد ما لم يكن «لغوياً».

ومن موقع قياس الماضي على الحاضر، فقــد وجــد الناقد شكــري عيّــاد القياس مناسباً فالدرســ الأسلوبي المعاصر -عند الغرب- إنّما نشأ هو الآخر من مخاض علم اللغــة، وخاصة بعد إفادة العلم المذكور من المنهج التجريبــي الدارويني، ولاسيما علم البيولوجيا.

ينطلــق علــم الأسلوب -فــي جملة ما ينطلــق بــه- من إظهــار الفــارق الصيغي بين «القاعــدة» وكيفيــة «استعمالها»، وقد حــاول **الفرديناند سوسيــر** ١٨٥٧ - ١٩١٣، أنّ يفصــل بين اللغــة والــكلام، وسوسير عالم لغوي سويســري، مؤسس ألسني، قدّم أطروحته بعنوان «استعمــال المضاف إليه المطلق فــي السنسكريتية»، وهــو مؤسس النقد البنيوي، وعلم اللغة المقارن، ثم حاول تشومسكــي التمييــز بين الفطــرة اللغوية والمهارة في توظيــف الفطرة أو تجاوزها، هــذه المحاولات تُنبئ: أنَّ الأسلوبية لم تغدُ علمــاً، أو إحدى منظومــات الفكر الغربي الحديــث إلا من مخاضــات الدرس اللغوي الغربــي نفسه، «وكانت فكرة الجنس الأدبي ملازمة لفكرة الأسلوب، فلكل جنس أشكال تعبيــره الضروريــة التــي لا تقتصر على تكوينه، بل تشمل مفرداته، ونحوه، وبلاغته، وأدواته الفنيــة، وكان الإغريق يميّزون بين

ثلاثة أنواع من الأساليب: البسيط والوسيط، والرفيع»[6]. وبالمقابل فإنّ! الأسلوبية نتجت عن تطور داخلي في المنظومات الفكرية والمنهجية، في حين نشأت الأسلوبية العربية -إنْ كانت قد نشأت فعلاً- من موقع الاقتباس أو التقليد، فالقراءة الأسلوبية لنصوص تراثية تفرض أسيقة الثقافة الغربية المتحركة على سكونية التراث العربي، فالتراث ساكن من موقع «المقدس» المتجاوز للأزمنة، فالإجراءات التي يُجريها الناقد العربي المعاصر ساهمت في فك الارتباط بين النصوص الموروثة وبين قدس اللغة الساكن، ولاسيما عندما يثبت الناقد قدرة المنهج «الخارجي» على اختراق النصوص المغلقة، لتدخل من بعد الاختراق مناخ التحول.

لقد اكتشف الناقد عيّاد أنَّ سيبويه -في استنتاجاته وفي تطبيقاته- لجأ إلى التجريد مبتدئاً من طبيعة اللغة المتداولة أو المستعملة - وفي اختلاف الاستعمال تختلف الاستنتاجات، ثم يتطارح الناقد المذكور مع نفسه، وكأنه يحاور سيبويه نفسه، القضية التالية: هل الطاقة الإبداعية «الفنية» أعلى بوتائر عالية من إمكانية «المبدع» بالعربية شاعراً كان أم ناثراً؟ وعندما سلَّم بتقدم العربية على الكاتب بها استخلص نتيجة مؤداها: «تقدم العربية على مُبدعيها هو السبب الأوجه في سكونية الشعر العربي والدرس البلاغي فيها».

إذا كان «عيّاد» قد عاد إلى «التراثية» العربية ليراها بالمنظار الأسلوبي، فإنَّ عودته مسوغة من خلال ما رآه من علماء التنوير الفرنسي في القرن الثامن عشر، يقول الكاتب الفرنسي أنطون رفارول: «إنَّ الأساليب تحتل طبقاتها في لغتنا مثلما يحتل الرعايا طبقاتهم في مملكتنا، وإذا اعتقد أن هناك تعبيرين يصلحان لشيء واحد، فإنهما لا يصلحان له بدرجة واحدة»[7] فالكلام يُفضي إلى ما مؤداه: إنَّ التقسيم الطبقي للأسلوب التقى مع التقسيم الطبقي الاجتماعي، ولكن هل التقسيم الغربي يلقى نظيره عند الأسلوبيين العرب، وهل يُقاس ذاك على هذا؟

عند قراءة د. **موسى ربابعة** لقصائد أبي كبير **الهذلي** قراءة أسلوبية لامس فكرة التحول داخل الطبقات النفسية، يقول: «تتخذ هذه القصائد من الزمن موضوعاً لها، فتتحول من زمن فيزيائي ليصبح موضوعاً شعرياً... تشكل الظاهرة الأسلوبية المتداخلة سلسلة من الحلقات: نداء+ استفهام+ تكرار، وكل واحدة تندمج مع الأخرى»[8].

بين البلاغة والأسلوبية اللسانية:

عند التفكير في العلاقة بين الطرفين المذكورين ينبثق السؤال متجهاً نحو طبيعة العلاقة بينهما؟ من حيث هي مباينة معرفية؟ أم مباينة منهجية؟

إنَّ قراءة التصنيف أو مراجعة ما صُنِّف في هذا -ونعني القراءة على القراءة- قراءة المعاصرين للمتون التراثية تفضي إلى نتيجتين: الأولى هي أنّ نتائج الدرس التراثي في اللغويات والبلاغيات لا يمكن أن تكون هي نفسها التي توصلت إليها لغويات العالم الحديث ولسانياته، ولاسيما الغربية منها، وعلى الأخص بعد تقدم أدوات التجريب.

الثانية وهي أنَّ تلك المباحث التراثية -رغم تقدمها في زمنها- إلا أنها لم تواصل تقدمها، ليس بسبب العجز البنيوي، أو القصور المنهجي، وإنّما بسبب القراءات التي جاءت بعدها، والتي أحالتها إلى نصوص مغلقة، وهنا كان المدخل لفك الاتصال المزعوم بين المدونات الموروثة وبين الدراسات اللغوية الحديثة.

حاول سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكّاكي ت٦٢٦هـ- في كتابه «مفتاح العلوم» أن يصوغ منظومة عمل منهجية، تشمل علمي النحو والصرف من جهة، والمعاني والبيان من جهة ثانية، ثم امتد إلى الاستدلال وعلم الشعر، فالمنظومة التي حاول السكاكي إنشاءها كان لها غاية، وهي دراسة الأجناس الأدبية من خلال الحتميات المشروطة باجتماع المنظومة المذكورة، أي لا يقوى أيٌّ من العلوم اللغوية منفرداً بالدراسة.

أما منهج السكاكي في «مفتاح العلوم» فهو الفصل بين البلاغة وفنونها، فقد جعل الكتاب «أربعة أقسام: قسماً في علم الصرف، وقسماً في علم النحو، وقسماً في علوم البلاغة، وقسماً في علم الشعر، وهو هنا يؤصّل منهاجه في دراسة البلاغة على أسس منطقية، حوّلت البلاغة من فن إلى علم له قواعده ونظرياته، والتي إن نجحت في تكوين طبقات من البلاغيين فقد فشلت في تكوين البلغاء»[٩].

ولعل منهجية السكاكي -على أهميتها- قد ساهمت في عدم انفتاح الدرس البلاغي التراثي على العصور التالية له، فقد أحكم على البلاغة الطوق، إذ لم يقف عند ذاته، إنما امتدّ خلفاً إلى من تقدموه، ولخّص عليهم واستخلص منهم، ثم استتبع بعمل لاحق مؤداه: هو إحالة العام إلى الخاص، أي قوي على «استقلاب» آراء البلاغيين من قبله ومن معاصريه، لتغدو منتظمة في ملكه «مفتاح العلوم».

وحتى يتمكن باحث اليوم من مقاربة البلاغة كـ«موروث» فاعل في لغتنا وحياتنا بالدرس اللساني المعاصر، لابد من إعادة القراءة والتصنيف لما قدّمته الذهنية البلاغية في العصر الوسيط تحت شرط دولة الخلافة الإسلامية، والشرط أساسه المثاقفة الأممية، وينضاف إلى التاريخي السالف شرط الراهن العلمي، وهو الفرق الفاصل بين أمتين وبين شرطين متباينين هما: الخلافة الإسلامية، التجريب والفلسفة الغربيان في ظل الدولة العلمانية، وهنا يبدو «مفتاح العلوم» مدخلاً للمقاربة بين الطرفين.

فالسكاكي يرى في علم المعاني «إنّه تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، ومايتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»[10].

وأمَّا «تراكيب الكلام» فهي ذات مدلول خاص، وقد عنى بها تراكيب البلغاء، وأمّا «خواص التركيب» فتعني عنده «ما يسبق إلى الفهم منها عند سماعها لكونها صادرة عن البليغ» وكذلك منح «الإفادة» خصوصية الفهم أو التلقي الخاص من أصحاب الفطرة أو النباهة، وإذ يتركز خطاب السكّاكي في «المفتاح»، على «الخاص» دون «العام» فقد كثر شرّاحه ومفسّروه وملخّصوه، أهمهم الشيرازي ت٧١٠هـ، وقد أطلق على عمله «مفتاح المفتاح»، والخلخالي محمد بن مظفّر ت٧٤٥هـ في «شرح المفتاح»، والسيد الشريف الجرجاني ت ٨١٦هـ، وأما الملخّصون فنذكر أهمهم، بدر الدين بن مالك ٦٦٨هـ، الذي أطلق على عمله «المصباح في اختصار المفتاح»، والخطيب القزويني ت ٧٣٤هـ الذي أطلق عليه «تلخيص المفتاح»، ومحمد بن يوسف ناظر الجيش ت ٧٧٨هـ في عمله «شرح تلخيص القزويني» وممن نظموه شعراً خضر بن محمد مفتي أماسيّة، وسمى عمله «أنبوب البلاغة»، ومن الناظمين له شعراً جلال الدين السيوطي٩١١هـ-١٥٠٥م وسمّى عمله «عقود الجُمان»[11]. وأهم مؤلفاته الدرس المنثور في التفسير بالمأثور و«المزهر» في فلسفة اللغة، و«بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة».

الالتفات واصل بين بلاغي ولساني:

الالتفات ظاهرة بيانية، وهي إحدى جماليات الدرس البلاغي العربي، وفي اللغة «لفت الشيء لواه على غير وجهه، وصرفه إلى ذات اليمين وذات الشمال- ولفت الكلام- صرفه إلى العجمة، والشيء عصره كما يُلفت الدقيق بالسمن[12]، ومن

الجذر اللغوي تمتد الأواصر نحو المصطلح البلاغي، ولأنّه بالغ الأهمية وعلى الأخص في البلاغة القرآنية كان أول شيء تناوله ابن المعتز٢٩٦هـ- ٩٠٨م، ويعني به «الانتقال من الكلام المباشر إلى الكلام غير المباشر أو بالعكس» وهذه الصورة تعني: «الانصراف من معنى يكون فيه إلى معنى آخر» أو الانتقال من فكرة إلى أخرى، يُشار إليها بمعنى في الجملة، وقد دمج العلماء في العصور اللاحقة هذه الصورة بالصورة التالية، حتى أصبحوا يستعملون هذه الصورة تارةً وتلك الصورة تارة أخرى[١٣]، وفي العمدة لابن رشيق يرى في باب الالتفات هو الاعتراض عند قوم وسماه آخرون الاستدراك»[١٤].

ويرى عز الدين إسماعيل في الالتفات أنّه «الانحراف بالنسق الكلامي على مستوى الضمائر بين الحضور والغيبة، وعلى مستوى زمن الأفعال بين الماضي والحاضر والمستقبل، حيث لا تطّرد الصيغة النحوية المؤسسة للعبارة، أو لمجموع العبارات المشكلة لذلك النسق الكلامي، وذلك لتحقيق أهداف معنوية لا تنهض بها هذه الصيغة في حال اطّرادها، على أنّ هذه الأهداف المعنوية لا تتحقق في مستوى يجاوز الصيغة المنحرفة ذاتها»[١٥].

واللافت أنَّ البلاغيين القدماء والمحدثين يرون أنّ «الالتفات» مكمل جمالي انبثق من المخاض البياني، ومن المرجح أن الإعجاز القرآني كان المصدر الأول له، فاللغويون والنحويون والبلاغيون يمتحنون أدواتهم بالنصوص الأولى، فإن تأبّت تلك النصوص على بعضها وجدوا للتأبي مخرجاً، من حيث إعادة التسمية، أو إطلاق المصطلح مضافاً إليه بعض التعديل، أو إقالة بعض العناوين من التداول، وإذا كان الالتفات مقولة بيانية -وهو كذلك- فإن كثيراً من البلاغيين المعاصرين والأسلوبيين من بعدهم يرون أنّ «الالتفات» صيغة عربية بحتة، وهذه الرؤية وليدة الرؤية الأعم وهي «العربية فوق اللغات»، وقد أُفصح عنها بمقولة «شجاعة العربية» وتبدو هذه المقولة على معنيين: الأول يشير إلى المقدرة الذاتية أو المرونة عند العربية في النمو والتطور الدلالي، الثاني وضع العربية فوق التاريخ «ضمن منظومة السلفيّتين: القومية والإسلامية، وكلتاهما غير تاريخيتين».

ويمكن -من خلال الدرس البلاغي الدرسي والأكاديمي- توظيف «الالتفات» العربي القديم في بنية السرد الحديثة، لعل إعادة قراءتها - في ضوء الموروث النقدي- يُسهم في تشكيل منهج عربي

للتعامل مع التحليل الأسلوبي، ويبدو كتاب «المثل السائر عند الكاتب والشاعر» لضياء الدين بن الأثير ٦٣٧هـ- ١٢٣٩م، مدخلاً مناسباً لتوظيف التراث النقدي في المصطلح المعاصر.

وابن الأثير يعترف صراحةً أنه أفاد من «الخفاجي والآمدي» وفي هذا يقول: «الموازنة فقط هي الكتاب الذي جمع معارف هامة ومفيدة في نتائجها... يشغل الآمدي المكان الأسمى بين الآخرين في فن النظريات الأدبية والدراسة البلاغية، وكتابه «الموازنة» يشهد على ذلك بوضوح»[١٦] ومن الضروري التنويه بأن الآمدي يدين بما ليس قليلاً لكتاب البديع، وأهمها إشارة ابن الأثير إلى الشاعر **صالح بن عبد القدوس** على الوتيرة نفسها التي أشار إليها ابن المعتز، ومنذ القرن العاشر وابن المعتز (٢٤٧- ٢٩٦هـ)- ٩٠٨م يغدو مرجعاً مؤثراً على ذوي الكتب البلاغية.

ومن الكتب التراثية التي نجد فيها ما يتعلق بـ«الأسلوبية» هو كتاب الخوارزمي «مفتاح العلوم» وثمة ثلاثة علماء حملوا هذا الاسم: الأول محمد بن موسى الخوارزمي ٨٤٤م أحد منجمي المأمون، والثاني الخوارزمي أبو بكر ٩٢٣-٩٩٣م، عرف بالرسائل وبالأنساب وهو ثقة باللغة، والثالث هو الخوارزمي أبو عبيد الله ت٩٩٧م من خراسان، أول من ألّف موسوعة بالعربية «مفاتيح العلوم» والكتاب غني بالحديث عن الأساليب الشعرية، عندما أفرد فصلاً منه خاصاً للحديث عن الكتاب، واصفاً الأساليب الخاصة كالرسائل الديوانية والإخوانية والأدبية، ثم انتقل إلى كتاب «ديوان الخراج، وديوان الخزن، وديوان البريد، وديوان الجيش»[١٧] والفصل الثامن كله مخصص لكتاب الرسائل، وأما الخامس فقد خصصه للشعر والعروض، ثم تناول نقد الشعر ومواصفات نقاده، ويبدو أن الخوارزمي قد أفاد من كتاب البديع لابن المعتز كغيره من كتّاب القرن العاشر.....

وفي إثر الامتداد المنهجي لـ«بديع» ابن المعتز يظهر أبو هلال العسكري ٣٩٥هـ-١٠٠٥م في كتابه «كتاب الصناعتين» متقدماً في قراءته «الأسلوبية» ولاسيما في غزارة المصادر والشواهد الكثيرة التي أوردها واستند إليها، وعلى الرغم من ميل الدارسين إلى تأخر العسكري عن ابن رشيق وابن المعتز وقدامة بن جعفر في المستوى البلاغي أو النقدي، إلا أننا نرى- من جانب آخر- العسكري قد مارس فعلاً وظيفياً في دراسة الأسلوب الشعري عند العرب، ويرى المستشرق بلاشير أنّ العسكري قد ابتكر

ستة أنــواع جديدة من البديع فــي أسلوب الشعــر[١٨]، ومما هــو رافــد لخصوصية العسكري أن الدارسين لم يجدوا بينه وبين الجاحظ علاقة التلميــذ المتأخر بالأستاذ المتقــدم – لكنه كان كثيــر «الالتفات» إلى قدامة بن جعفر، ولعــل ذلك عائد إلى وله العسكــري بالفصــل بين نظامــي الكتابة: الشعر – النثر.

الموشّح الأندلسي من الانتظام إلى العدول:

تعد خطوة ابــن سناء الملك هبة الله بن جعفر ١١٥هـ- ١٢١١م خطوةً رائدة فــي تعميم الإنجــاز الموشحــي في خارج المنشأ الأم «الأندلــس»، فهو أول من أجاد صناعة الموشــح وهندسته وفق المتطلبات الفنيــة في المشــرق، وابن سنــاء مصري ولد فــي القاهرة ومات فيها، درس القرآن والحديث، وبالاستتبــاع اللغة والأدب، وفي فترة لاحقة صار أشهــر الشعراء الأيوبيين وأغزرهــم، حتى حاز على لقــب «القاضي السعيد»، ورغــم بعده الزمني عن الصناعة اللغوية، فقد أكثر من البديعيات وما شاكلها، ثم ألّف أهم كتاب –حتــى زمنه- يضع فيه أسساً منهجية لفن «الموشح» إذ جمع الأمثلة وآنس بين المختلف والمؤتلف، ثم أطلق على عملــه ذي المنهج الموسوعي «دار الطراز»، ولعل موشحه المعروف:

كللي يا سحبُ تيجان الربى بالحلي

واجعلي سوارها منعطف الجدول

دالاً علــى شهــرة الموشّــح وصاحبــه، ثم تابــع التأليف فكتب «فصــول الفصول وعقود العقول» ثم اجتهد في اختصار كتاب الحيوان للجاحظ بعنوان «الجاحظ في روح الحيوان». وغني عن البيان أنّ له ديواناً من الشعر[١٩].

والموشّح ذاك الطارئ على شكل القصيدة العربيــة لــم يكن قــد سقط مــن الأعلى، ولــم يفِدْ من عالم آخــر، إنّما ولد من رحم الشعريــة العربية تحت شروط ديموغرافية وجغرافيــة طارئتين، فـ«الشيفــرا» الوراثية للنظام الشعري وقعت ضمن جدلية السائد والمتنحــي، وإذا كان معظــم الباحثين في الأدب الأندلسي يــرون أنّ العامل الطبيعي هو الحاسم فــي نشوء فن الموشح[٢٠] فإنّنا لانــرى «الطبيعــة» الإسبانيــة وحدها هي الباعــث على نشــوء هذا الفــن، إنّما تعود أية ظاهــرة فنية إلى أكثر من عامل، أهمها العامل الداخلي، ونعني أنّه في ظرف تاريخي ماتنسدُّ آفاق الأشكال التقليدية، لكن جدلية الطبيعــة والتاريخ ولاسيما الجانب الثقافي لا تعترف على السكــون، فيصادف العامل

الخارجي من «مكان وبشر ولغات وأديان، وثقافات» قلق البنية الداخلية في البحث عن الشكل الذي يجعل استمرارها «ضرورة» من ضرائر الوجود وجودَها هي أولاً، ووجود الفن ثانياً.

ولعل أهم ما يميّز طبيعة الموشّح تلاقي الصيغ اللغوية في بنيته الفيلولوجية، فالصيغة الأولى هي الفصحى المعرّبة، والثانية العامية المفصّحة، والثالثة هي الأعجمية، وهنا يُقدم الموشح على خطوة «انفصالية» و«اتصالية» في الآن نفسه، أما أنها انفصالية فقد عملت على فك الارتباط مع القصيدة العربية «المشرقية»، وأما أنها اتصالية فقد شكلت انحرافاً جزئياً في المنظومة الموسيقية للشعر، ولكنها أبقت على بعض الروابط، وفي الوقت نفسه «ناصّت» -عبر الخرجة- العامل الخارجي، وهو موسيقا الشعر الشعبي غير العربي «التروبادور» أو غيره، ومن المغني الإشارة إلى ظاهرة جديدة في التوشيح وهي تعدد الأصوات بديلاً عن صوت الشاعر الواحد في القصيدة التقليدية، وصوت الشاعر طليق والعالم من حوله حبيس أو مستمع، والشاعر الناظم متكلم في بعد زمني واحد، في حين فرض الموشّح -عبر البنية- حواراً بين الوشّاحين في الأزمنة المختلفة.

وبعد الجيل الأول من الوشّاحين، انبثق جيل آخر يقيس على ما قبله من إنتاج وعلى من قبله من الوشاحين، لكنه شرع يحقق ذاتاً جديدة تغادر البنية الأم خطوة خطوة.

وعند دراسة الموشّح من خلال المعيارين: الانحراف والتناص نتوصل إلى وعي جديد لبعض ظواهر التراث الأدبي، إلّا أنّ هذه الدراسة تعد امتحاناً للأدوات التقليدية الوافدة في قدرتها الإجرائية خارج منابعها الأم «الغرب»، وسواء نجحت هذه الأدوات الخارجية أم لم تنجح يبقى تجريبها ضرورة معاصرة، إذا ما قيست بأدواتنا المستدعاة من القرون الهجرية الأولى، ويكفي أن تراثياتنا- تحت أضواء الآخر ازدادت إضاءاتُها الذاتية، من دون أن تتخلى عن خصوصيتها أو عن تاريخيتها، وربما ساهمت القراءات بالأدوات التي تبناها الآخر المتقدم مساهمة فاعلة في تشكيل وعي متقدم للتراث الأدبي وغير الأدبي، ووعي آخر بالكيفيات المناسبة للربط بين إنجازاتنا السابقة والراهنة من جهة وبين الإنجازين المذكورين والعالم الجديد من الجهة المقابلة.

الهوامش

١- د. صلاح فضل، علم الأسلوب وصلته بعلوم اللغة، مجلة فصول، مجلد ٥، ج١ ١٩٨٤، ص٤٧.
٢- راجع بحث تمام حسان «موقف النقد العربي التراثي من دلالات ما وراء الصياغة اللغوية»، ١٩٨٨م، ندوة قراءة جديدة لتراثنا النقدي.
٣- في الميزان الجديد، ص١٣٧.
٤- ابـن معصوم، أنوار الربيع في أنواع البديـع ج٥ ، ٣٤٥، تحقيق شاكر هادي شكر، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ط١، ١٩٦٩م.
٥- البحث مقدم من شكري عيّاد لمؤتمر قراءة جديدة لتراثنا النقدي، النادي الأدبي، جدة.
٦- د. صلاح فضل، علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، النادي الأدبي، جدة ١٩٨٨م، ص٣٨٣.
٧- مجلة فصول، مجلد ٥، ديسمبر، ١٩٨٤م، ص٦٧ الهيئة المصرية للكتاب
٨- قراءة أسلوبية في الشعر الجاهلي، دار الكندي، إربد، الأردن ٢٠٠١م، ص١٤٢.
٩- د. عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٥م، ص٢٧.
١٠-الخطيب القزويني، تلخيص المفتاح+ الإيضاح، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت ١٩٨٥م.
١١-للمزيد راجع، علم المعاني لعبد العزيز عتيق، مصدر سابق، ص٢٩- ٣٠- ٣١.
١٢-الوسيط ج٢، ص٨٦٤، المجمع العلمي المصري ١٩٦٠، ط٣.
١٣-إ. ج. كراتشكوفيسكي، علم البديع عند العرب، إعداد محمد الحجيري، دار الكلمة ١٩٨١م، ص٤٧.
١٤-العمدة، ج٢ باب الالتفات.
١٥-جماليات الالتفات، مؤتمر قراءة جديدة لتراثنا النقدي.
١٦-المثل السائر، ج١، ١٤٨، تحقيق بدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض ١٩٨٣م.
١٧-مفتاح العلوم، ص٣٦، الباب الرابع في الكتاب.
١٨-تاريخ الأدب العربي ج٢٦، ٢٧٠.
١٩-راجع الموسوعة العربية الميسرة ج٢ ص١٨، مصدر سابق ١٩٨٧م.
٢٠-د. عمر الدقاق، عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز عتيق، جودت الركابي.

الأفعال المتعدية بحروف الجر

د . شوقي المعري ❁

-١-

من أسس دروس النحو والإعراب اللزوم والتعدية، لأن فيهما أشياء كثيرة مفيدة ومهمة، تتصل بالمعنى المراد الوصول إليه من استعمال الفعل. وقد وقف القدماء على هذا الباب ولحق بهم المعاصرون، إذ لا يجوز لعالم أو دارس أو باحث أن يتجاوزه، ووصلوا جميعاً إلى بعض التقسيمات والتفريعات، وبعض العناوين الرئيسية، أهمها:

١- الفعل اللازم:

وهو الفعل الذي يكتفي بالفاعل، ولايأخذ مفعولاً به، مثل: جلس - انطلق - جَبُنَ - شَجُعَ - اصفرَّ - اسودَّ...

٢- الفعل المتعدي:

ووُزِّع في ثلاثة عناوين:

١/٢- المتعدي إلى مفعول واحد، وهو كثير لا يحصى، إلا بعد رصد المعجم كله، وشواهد الفعل في دواوين الشعراء ومؤلفات الكُتّاب قدماء ومعاصرين، هذا غير القرآن الكريم الذي نستطيع حصر الأفعال فيه.

❁ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

٢/٢- المتعدي إلى مفعولين وقسموه إلى نوعين اثنين:

الأول: المتعدي إلى مفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبراً، ولا نستطيع حصرها أيضاً لأننا مضطرون إلى رصد الأفعال التي كانت متعدية إلى مفعول واحد فصارت متعدية إلى مفعولين بالتضعيف أو بهمزة التعدية..

الثاني: المتعدي إلى مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر، وتحصر بأفعال الظن واليقين والتحويل.

٣/٢ المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل، وتكاد أفعاله لا تتجاوز السبعة اللهمّ إلا إذا أضفنا عليها ما في معناها، وهي: خبَّر - أَخْبر - نبَّأ - أنبأ - علَّم - أَعْلَمَ - أرى (بصيغة الماضي).

إنَّ ما تقدم هو ما وقف عليه القدماء والمحدثون على حد سواء، ولكننا نادراً ما نلقى جانباً من هذا البحث محدداً ومعرفاً وله عنوان يتصل بما نقف عليه في هذا البحث، أقصد التعدية إلى المعنى بحرف الجر، بل إنه أُهْمِل إهمالاً شبه كليّ من كتب المعاصرين والمناهج التعليمية.

-٢-

ما معنى التعدية؟

التعدية لغةً أن يتجاوز الفعل إلى غيره، ونحواً أن يتعدى الفعل إلى المفعول، لكننا لو دققنا النظر في المصطلحين لوجدنا أنهما يؤديان وظيفة واحدة، أقصد أن الفعل قد يتجاوز إلى المعنى بوساطة أحد حروف الجر، ثم نعلّق الجار والمجرور بالفعل، فتكون شبه الجملة (الجار والمجرور) كالمفعول به، فهما معمول وقع عليه الفعل. ويؤيد مانذهب إليه أمور، أهمها أمران اثنان:

١- ثمة أفعال كثيرة وردت متعدية بنفسها ومتعدية بحرف الجر، مثل: نصحته ونصحت له، وشكرته وشكرت له...

٢- إنَّ بعض الأفعال الأصل فيها أن تتعدى بحرف الجر لكن سُمع حذف الحرف فنُصب الاسم بعده شبيهاً بالمفعول به، وهذا ما يُسمى المنصوب بنزع الخافض، كقوله تعالى «وَاختارَ موسى قَومَهُ سَبعينَ رَجُلاً» والتقدير (من قومه)، وقد ورد مثل هذا في شعر الأقدمين، منه قول الشاعر:

تمرُّون الدِّيار ولم تعوجوا
كلامكم عليَّ إذن حرامُ

أي تمرون بالديار أو على الديار...

-٣-

على هامش البحث: حروف الجر

يقوم البحث على تعدية الأفعال إلى المعنى بوساطة أحد حروف الجر، وهذا يفرض علينا عرض حروف الجر، وحروف الجر ثلاثة أنواع يتفرع عنها أيضاً عناوين فرعية.

تتوزع حروف الجر في ثلاثة أنواع هي:

آ- **حروف الجر الأصلية**: وهي التي تُعلّق مع مجرورها بالفعل وغيره، وهي:

إلى - الباء - على - عن - في - اللام - من.

مع ملاحظة ما يلي:

١- ورود «الباء» و«من» زائدتين.

٢- يلحق بها حروف الجر والقسم الواو والباء والتاء التي تُعلّق بفعل القسم ظاهراً أو مقدراً.

٣- يلحق بها (مذ - منذ - لات - متى) بخلاف.

٤- يلحق بها (حتى) في أحد أوجهها الثلاثة.

٥- أما الكاف فقد نجرؤ على القول: إنها ليست حرف جر، بل هي اسم بمعنى (مثل)، لأنها تخالف حروف الجر الأساسية إذ لا يتصل بها الضمير، والأهم من ذلك أن لا شاهدَ واحداً في العربية تُعلّق فيه الكاف بالفعل!! وهذا كلام مُطوّل ليس هنا محله.

ب- **حرفا الجر الزائدان**: وهما «من» و«الباء»، لكن بشروط في«من» ومواضع محددة في الباء، ومن مواضع الاسم المجرور بـ (من) الزائدة المفعول به، وهذا يتصل بما نحن فيه.

جـ - **حروف الجر الشبيهة بالزائدة**: وهي رُبَّ وعدا وخلا وحاشا والثلاثة الأخيرة يجوز فيها الفعل الماضي، وما بعدها مفعول به وهذه النقطة تتصل بالبحث.

-٤-

الأفعال المختارة:

فإذا حذفنا الحروف الزائدة، والشبيهة بالزائدة، وما يلحق بالحرف الأصلي يبقى عندنا سبعة أحرف فقط هي: إلى والباء وعلى وعن وفي واللام ومن. وهذه الحروف هي التي قام عليها البحث، فالأفعال التي اختيرت هي الأفعال المتعدية بأحد هذه الحروف، لأنها تؤدي معنى التعدية، أما ما اختير من أفعال فهو المستعمل في كتابتنا ومؤلفاتنا، ولم نرصد كل الأفعال، لأنَّ كثيراً منها أُهْمِلَ، فهي لأصحاب

الاختصاص، وغيره فإذا ما أراد أن يعرفها يمكنه العودة إلى المعجم، أمَّا ما أثبتناه هنا فهو مما وجدناه خلال الكتابة والقراءة مستعملاً استعمالاً واسعاً، وبعضه كان خاطئاً، وقد يكون هذا هو السبب الرئيسي لتقديم هذا البحث، تصويب الخطأ إن وقع، وقد صار قريباً من الخطأ الشائع، فيكون لهذا البحث وظيفة محددة هي تصحيح اللغة.

وقد تجاوز عدد الأفعال التي وردت في البحث (٢٥٠) فعلاً، رُتبت في كل حرف بحسب الجذر اللغوي، أمَّا حروف الجر فأثبتت أيضاً بحسب الحرف الأول، وقد لاحظت قاسماً مشتركاً بين كل الحروف وهو أن عدداً من الأفعال تعدى إلى المعنى بحرفين اثنين وقليلاً تعدى بثلاثة أحرف، وأن عدداً من الأفعال تعدى بحرف الجر، وتعدى بنفسه، وقصدت إلى إثبات الفعل في جملة سهلة واضحة، وأرى أن مثل هذه الأبحاث الدقيقة تساعد كثيراً في تصويب الخطأ وتصحيح اللغة شريطة أن تقوم على الإحصاء والأحكام الدقيقة التي تعتمد العقل والعلم فيصل البحث إلى النتائج الصحيحة.

١ - الأفعال التي تتعدى بـ إلى:

١- أدى إلى النتيجة.

٢- بَرَز إلى المكان.

٣- بغَّضه إليَّ.

٤- تاب إلى الله

و: تاب على الأمر.

٥- تاق إلى الشيء.

٦- جَنح إلى الخطأ

و: جَنَح للخطأ.

٧- احتاج إلى العمل

و: احتاجه.

٨- خَلَد إلى المكان.

٩- دَلَف إلى الخمسين.

١٠- رَغِب إلى الله

و:رغب في الأمر إذا طلبه.

و: رَغِبَ عن الأمر إذا رفضه.

١١- رَكَن إلى الظلم.

١٢- زفَّ العروس إلى زوجها.

١٣- استمع إلى الشعر

و: استمع للشعر

و: تسمّع للشعر.

١٤- شفَع إليه.

١٥- أصغى إلى الخطاب.

١٦- اضطُرَّ إلى السفر.

١٧- تطرَّق إلى الموضوع.

١٨- طلب إليه أمراً

و: طلب أمراً.

١٩- عزى النصَّ إلى صاحبه.
٢٠- عَمَدَ إلى الكذب
و: عمد للكذب.
٢١- فَزِع إلى...لجأ
و: فزع من....خاف.
٢٢- أفضى إلى الحل.
٢٣- فَطِن إلى المسألة
و: فطن بالمسألة
و: فطن للمسألة.
٢٤- فوَّض إليه الأمر.
٢٥- ندبه إلى عمل آخر.
٢٦- نَزَع إلى وطنه.
٢٧- نمى إليَّ الخبر.
٢٨- أوحى إليه
و: أوحاه.
٢٩- توسَّل إلى الله.
٣٠- أومأ إليه.

٢- الأفعال التي تتعدى بالباء:

١- استأثر بالمال.
٢- ائتزر بالثوب.
٣- ائتمّ بالإمام.
٤- أنِس بالضُّيوف.
٥- أهَّل بصديقه.
٦- تبجَّح بالأمر.
٧- بشَّره بالنجاح.
٨- أبطأ بالحلِّ.
٩- بعث بالرسول
و: بعثه.
١٠- بالى بالأمر=لم يبالِ.
١١- ثنّى بالشيء
و: ثنّى عمله.
١٢- حَدَجَه ببصره.
١٣- حَفَل بالضُّيوف.
١٤- احتفل بالضُّيوف.
١٥- أدلى بحديث.
١٦- ضَجِر به
و: ضَجِر منه.
١٧- طمِع بالمال.
١٨- ظننت به
وظننته.
١٩- عَشِق به
وعشقه.
٢٠- تعلّل بالأمر.
٢١- غصَّ بالماء.
٢٢- لَبِق بك
و: لَبِق لك.
٢٣- مثَّل بالشعر.
٢٤- تمثَّل بالشعر.
٢٥- تمرَّس بالعمل.
٢٦- انتفع بالعمل.
٢٧- نقَّط به الزمان.
٢٨- نوّه بالجواب.

٣- الأفعال التي تتعدى بـ على:

١- أتى على الطعام.

٢- تأسَّف على الأمر.

٣- أسِيَ عليه

و: أسي له.

٤- تأمَّر على الناس.

٥- بارك الله عليك

و:بارك الله لك

و: بارك الله فيك.

٦- تَبَغْدد علينا.

٧- تاب الله على فلان

و: تاب إلى الله

و: تاب عن عمله.

٨- ثنّى على عمله.

٩- أثنى على عمله.

١٠- تجنّى على أصدقائه.

١١- حَجَر على المريض.

١٢- حظَر عليه الكلام

و: حظره.

١٣- تحامل على الناس

و:تحامل في الأمر.

١٤- استحوذ عليه الخوف.

١٥- حام على الفريسة

و: حام حولها.

١٦- أخْلَف عليك الله

و: أخْلَف لك.

١٧- أُرْتِج عليه الكلام.

١٨- ران عليه الخوف

و: ران به

و: رانه.

١٩- زنَق عليه الأمر.

٢٠- أساء على نفسه

و: أساء إليها.

٢١- شطَّ عليه الحديث.

٢٢- شَغَب علينا

و: شغَب فينا

و: شغَب بنا.

٢٣- اشتمل على المهمّ.

٢٤- أصرَّ على الأمر.

٢٥- صَلَى اللحم على النار.

٢٦- صال على العدو.

٢٧- ضربه على يده.

٢٨- تضافروا عليه.

٢٩- أضاف على النصّ

و: أضاف إلى النصّ.

٣٠- تطفّل على النّاس.

٣١- اطّلع على البحث.

٣٢- تطاول على أقرانه.

٣٣- عزَّ عليَّ المُصاب.

٣٤- عَزَم على الأمر

و: عزم الأمر.

٣٥- عطَف على الفقير

و: عطف عنه: ابتعد.

٣٦- عكَف على الدرس.

٣٧- اعتمد على صديقه
و: اعتمد إليه.
٣٨- أُغْلِق عليه الحلّ.
٣٩- غاص على اللؤلؤ.
٤٠- فَتَح الله عليك.
٤١- أفْضَل عليه.
٤٢- أقبل على العمل.
٤٣-أقدم على الخير.
٤٤- أكبَّ على الدرس.
٤٥- التفَّ على العمل
و: التفَّ حوله
و: التفَّ في ثوبه.
٤٦- تمرَّد على الشرِّ.
٤٧- مرَّ على أصدقائه
و: مرَّ بأصدقائه.
٤٨- مضى على المعاملة: وقَّع.
٤٩- ملَك عليَّ فِكْري.
٥٠- منَّ عليَّ بماله.
٥١- تنبَّه على الأمر: شعر به
و: تنبَّه من الأمر: استيقظ
و: تنبَّه إلى الأمر: فَطِن.
٥٢- أنحى عليَّ باللائمة.
٥٣- نَذَر على نفسه.
٥٤- نمَّ على زملائه.
٥٥- أناف على العدد.

٤- الأفعال التي تتعدى بـ عن:

١- تاه عن الطَّريق
و: تاه الطَّريق.
٢- أجاب عن السؤال.
٣- تجوّز عن الأمر
و: تجوَّز فيه.
٤- أحجم عن العمل.
٥- حَرَفه عن الطريق.
٦- حكى عنه
و: حكاه.
٧- حامَيْت عن الحقّ.
٨- حَمَيْتُه عن الخطأ
و: حميته منه.
٩- حال عن العهد.
١٠- حاد عن العهد.
١١- خزله عن....
١٢- خلا عن الشيء
و: خلا منه.
١٣- خلّى عن....
١٤- تخلّى عنه.
١٥- ذبَّ عن المرأة.
١٦- رَحَل عن البلاد.
١٧- زَحَل عن مكانه.
١٨- زاغ البصر عن الصواب.
١٩- سكت عن الكلام.
٢٠- سها عن الأمر.
٢١- صدَّ عني الخطر
و: صَدَّه.

٢٢- صدر عنه.
٢٣- صَفَح عن المُتَّهم.
٢٤- صام عن الطعام
٢٥- ضلَّ عن الطريق
و: ضلّ الطريق.
٢٦- اطمأنَّ عن صحته
و: اطمأنَّ إلى المكان.
٢٧- أعرضَ عن الناس.
٢٨- اعتزل عن الأمر
و: اعتزل الأمر.
٢٩- عَفا عن المخطئ.
٣٠-تغاضى عن الخطأ.
٣١- غَفل عنه.
٣٢- انْفَطَم الطفل عن الحليب.
٣٣- قَعَد عن الدراسة.
٣٤- كَشَر عن أنيابه.
٣٥- انتهى عن الأمر.
٣٦- نَبا عن الضريبة.
٣٧- أنحى عنه باللائمة.
٣٨- نقَّب عن الجواب
و: نقَّب فيه.
٣٩- هدأ عن البكاء.
٤٠- تولّى عني الأمر.

٥- الأفعال التي تتعدى بـ في

١- أثّر في غيره.
٢- تأنى في عمله.
٣- تَبَصَّر في الأمر.
٤- بصَق في وجهه.
٥- تثَبَّت في المسألة.
٦- جدَّ في الدرس.
٧- أجْمَل في طلبه.
٨- تجوَّز في كلامه.
٩- حطَّ في شأنه
و: حطَّ من شأنه.
١٠-انخرط في العمل.
١١-خفّ في اللعب.
١٢-دأَبَ في دراسته.
١٣-ارتبك في إجابته.
١٤-ارتقى في المناصب.
١٥-ارتاب في الأمر.
١٦-سُقِط في يده.
١٧-شَرَع في العمل
و: شرع يعمل.
١٨-شمَّر في الأمر
و:شمَّر عن ساعديه.
١٩-صمَّم في رأيه.
و: صمَّم على رأيه.
٢٠-غلا في تصرُّفه.
٢١-فتَّ في ساعده.
٢٢-فرَّط في القضية.
٢٣-لجَّ في الطلب.
٢٤- ألَحَّ في طلبه
و: ألح عليه.
٢٥- أمْعَن في الخطأ.
٢٦- نَجَع الدواء في المريض.

٢٧- نكَّت في كلامه.

٢٨- وُجِد في حبِّه.

٢٩- تورَّط في الفساد.

٣٠- توسَّم فيه الخير.

٣١- توغَّل في الغابة.

٦- الأفعال التي تتعدى باللام:

١- أبَّ للعمل.

٢- أبَه للشيء

و: أبَه بالشيء.

٣- تأتى لي الأمر.

٤- أذن له.

٥- تأهَّب للحرب.

٦- بدا له الأمر

و: بدا الأمر.

٧- بارَكَ له الله

و: باركه الله

و: بارك الله فيك

و: بارك عليك.

٨- انبرى للعمل.

٩- بَهِج للنجاح

و: بهج به.

١٠- بوَّأ له منزلاً.

١١- تاح له الأمر.

١٢- أتاح له الأمر.

١٣- تجرَّد للأهمِّ.

١٤-أجْزَل له العطاء.

١٥- جعل له أجراً.

١٦- جلب لنفس الضرر

و: جلبه إليه.

١٧-تجهَّز للأمر.

١٨-جَهَش للبكاء.

١٩-جوَّز له الرأي.

٢٠-أجاز له الرأي.

٢١- حبا للخمسين.

٢٢- حاش لله.

٢٣- تَخَصَّص للأمر

و: تَخَصَّص به.

٢٤- خفَّ للعمل.

٢٥- أذْعَن له.

٢٦- رثى لحاله

و: رثى حاله.

٢٧- رَحَلَت له نفسي

و: رحلت إليه.

٢٨- رَخَص له.

٢٩- أرصد له المال.

٣٠- ترصّد له المال.

٣١- رَطَنَ له.

٣٢- راح لذلك الأمر.

٣٣- استمع للشعر.

٣٤- سما له: ارتفع

سما به: عَلا

سما الشيء.

٣٥- سوَّلَتْ له نفسه.

٣٦- أشرف له

و: أشرف عليه.

٣٧- شكر لله

و: شكر الله.

٣٨- شمَّر للعمل: شمَّر عن ساعديه.

٣٩- تشمَّر للأمر.

٤٠- أصاخ للأغنية.

٤١- ضَرَع لله

و: ضرَع إليه.

٤٢- عَمَد للشيء

و: عَمَد إليه.

٤٣- فرغ للأمر

و: فرغ إليه.

٤٤- فسَح له المجال.

٤٥- تقيَّض له الأمر.

٤٦- لطَف الله لك

و:لطف بك.

٤٧- تلطَّف له.

٤٨- نبَّهت للأمر.

٤٩- انتحى للأمر

و: انتحى عليه.

٥٠- نَدَبه للعمل

و: ندبه إليه.

٥١- نَسَك لله.

٥٢- تَنَسّك لله.

٥٣- نَصَح لصديقه

و: نَصَحه.

٥٤- وطَّد له الأمر.

٧- الأفعال التي تتعدى بـ من:

١- أَنِف من العمل السَّيِّئ.

٢- احترز من الخطأ.

٣- احْترس من العدو.

٤- حسَّ منه.

٥- أحسَّ منه

و: أحسَّ به.

٦- تحلّل من يمينه.

٧- حَيِيَ من الآخرين.

٨- تخلّى من العمل

و: تخلَى عنه.

٩- سَخِر من الممثّل

سَخِر به.

١٠- تشفّى من زميله.

١١- ضَجِر من الصوت

و: ضَجِر به.

١٢- طُلِّقَتْ من زوجها.

١٣- اعتبر من الخطأ

و: اعتبر بالخطأ.

١٤- تعوَّض منه.

١٥- استكثر من المال

و: استكثره.

١٦- تمغَّص من الطعام.

١٧- انتصف من فلان.

١٨-هزأ من العمل

و: هزأ بالعمل.

١٩-تورَّع من فلان.

قراءة في الأمثال الشعبية ومصادرها ودورها في الحياة

❀
عبد الكريم قميرة



الأمثال هي خلاصة تجارب الأهل والسلف وقديمة بقدم الإنسان.. وهي نتاج مواجهته للبيئة والطبيعة والحياة.. وقد ظهرت مع ظهور المجتمعات البشرية..

فهي كاللغة وليدة التجربة الإنسانية وتشيع الأمثال، كالحكاية والرواية بين الناس عن طريق النقل الشفهي أو عن طريق المحاكاة والتقليد.... ولا بد من التمييز بين المثل الشعبي بوصفه أدباً وبين الأدب البدائي.. ويكون ذلك في درجة الحضارة التي يمثلها هذا أو ذاك...

❀ أديب وباحث.

فالبدائية صفة المجتمعات التي عاشت على الصيد وجمع الثمار مع صفات التخلف والتوحش.. ومايزال بعضها يعيش حتى الآن مع حظ قليل من الثقافة والمعرفة...

أمَّا الأدب الشعبي بما فيه الأمثال فقد ظهر مع تحضر الإنسان، وهو أدب المزارعين في قراهم والعوام في مدنهم.. وقد صار متداولاً على مر السنين في البيئات كافة لأنه فن وأدب كل يوم.

والأمثال الشعبية تفيض عن خاطر الجماعة الإنسانية بشكل مباشر وهي تعبير تلقائي يتفجر وينبثق ليواجه ضروريات الحياة الجارية، بينما الأدب الحضري المثقف يفيض عن مخيلة أفراد موهوبين نالوا قسطاً من التعليم والتثقيف فسطروا أفكارهم وأدبهم وأمثالهم وأصبحت أعمالهم صالحة للقياس المنطقي....

والأدب الشعبي بما فيه الأمثال، يضبطه منطق الاستعمال وتحفظه الرواية الشفهية، وهو لا يخضع لقواعد الفن الحضري بل لضوابط السيرورة والشيوع دون التقيد بقواعد اللغة والنحو....

يقول ابن المقفع «إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع للحديث».

ويقول المعلم الثاني الفيلسوف الفارابي عن المثل ما يلي:

«المثل هو ماتراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه وقنعوا به في السراء والضراء.. وتواصوا به عند المكربة وهو أبلغ من الحكمة. لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير بالغ المدى في النفاسة).

وقد تولع بعضهم برواية الأمثال وجمعها، وتعقب فصيحها ودارجها في كل البلدان فصنفوها في كتب ومجلدات ووضعوا لها التعاريف والشروح..

وفرقوا بينها وبين الحكمة مع أنها تحمل في طياتها أبلغ الحكم.. لأن الحكمة نتاج الفلاسفة والعلماء أما المثل فهو نتاج البشر العامة، يصدر عفواً دون تفكير وإعمال جهد كما تصدر الرائحة عن الوردة والحرارة عن النار.

والمثل دائماً يصدر في أسلوب بلاغي قصير يحمل في طياته حكمة أو قاعدة أخلاقية أو مبدأ سلوكياً فتأخذه الأوساط الإنسانية وكأنه دستور غير مكتوب يعبر عن تجارب العامة ويصور مواقفهم من مشكلات الحياة في مختلف وجوهها وأحوالها ولذا فإن الأمثال هي قمة السليقة الشعبية.

ولاعجب إن اهتمّ العلماء والأدباء والباحثون خلال التاريخ بالأمثال، وفي مقدمتهم المؤرخ أحمد النيسابوري الميداني

المتوفي عام ١١٢٤م الذي ألف كتاباً كبيراً عن الأمثال سماه «مجمع الأمثال» ويضم أكثر من ستة آلاف مثل.

وكذلك ثمة أدباء ومؤرخون من علماء أوروبا وأمريكا اهتموا بالأمثال كل في بلده وبلغته فجمعوها ووضعوا تعريفات لها...

فالمؤرخ الأمريكي آرثر تايلور قال «المثل أسلوب تعليمي ذائع بالطريقة التقليدية يوحي بعمل من الأعمال أو يصدر حكماً في وضع من الأوضاع».

وقال البروفسور داهل «أسلوب المثل أسلوب الجملة القصيرة أبداً المنغمة عالياً والمجازية أحياناً».

وقد تَتبَّعَ الأمثال جمعاً وتعريفاً بوركهارت السويسري وكارلو لندنبرج السويدي، وأحمد تيمور ونعوم شقير ومحمد العبودي في مصر.

وهناك آخرون في لبنان مثل أنيس فريحة ومارون عبود وسلام الراسي ومنهم من نال شهادة الدكتوراه في الأمثال مثل عبد الرزاق رحمة عام ١٩٨٢م.

وتلتقي الأمثال في جميع البلدان في معان وأهداف مشتركة وقد لاحظ الأدباء والمؤرخون أن كثيراً من المأثورات الشعبية لدى العرب ولدى الشعوب الجرمانية والهندية تحمل تشابهاً كبيراً في الحكايات والأمثال وهذا يدل على أن هذه المأثورات هاجرت خلال أزمان مختلفة من أوطانها وبيئاتها واتجهت غرباً وشرقاً حتى وصلت إلى أوروبا فخالطت مأثوراتها واندمجت بأدبياتها وأصبحت جزءاً منها.

ونحن نعرف خلال دراستنا للمصادر التاريخية أن الأجناس الآرية في فارس والهند أخذت ثقافتها من معين البلدان العربية خلال العهدين الأموي والعباسي، فلا عجب إنْ تفرّقت هذه العناصر الآرية وانتقل قسم منها إلى أوروبا حاملاً عاداته وأفكاره وثقافته وأمثاله...

نحن لا نستبعد أثر هذه الهجرات الثقافية من الشرق إلى الغرب ولكن في الوقت نفسه يجب أن لا ننسى وحدة التجربة الإنسانية لدى الشعوب.... لأن المجتمعات البشرية كافة تمر بمراحل تاريخية متشابهة فتؤلف حكماً وأمثالاً متماثلة.

والمعروف أن العالم العربي الإسلامي استوعب حضارات متعددة فهضمها وأسس منها بيئة ثقافية فكرية متجانسة في الأدب الفصيح أو اللغة العامية الدارجة..

ولذلك لا عجب إن قلنا إن الأمثال العامية والحكايات الشعبية تمثل الوجدان الجماعي العربي.

والأمثال العربية في الجاهلية والإسلام وصلت لنا مع اللغة الفصحى وآدابها ولذلك فهي تحمل خصائص العهد الذي ظهرت فيه... وقد تأثرت بالقرآن الكريم وبالكتاب المقدس وأناجيل السيد المسيح.....

والقرآن الكريم حضّ على الأمثال وذكرها.. فجاء فيه:

«**وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**» (من سورة إبراهيم- الآية:٢٥)

«**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**»(من سورة الزمر- الآية:٢٧)

«**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**» (من سورة الفرقان- الآية:٣٣)

وقد ورد ذكر الأمثال في مئة وست عشرة آية خلال ثلاث وثلاثين سورة، وهذا ما دفع الأدباء والحكماء أن يستنبطوا الأمثال في كل مناسبة تدعو إلى ذلك..

وقد تعددت الآراء في وصفها وتعريفها والحديث عنها.. فهذا ابن عبد ربه(١) يقول:

«الأمثال هي وشي الكلام وجوهر اللفظ وحلي المعنى.. فهي أبقى من الشعر وأشرف من الخطابة» وكذلك الأزدي(٢) قال:

«الأمثال حكمة العرب في الجاهلية والإسلام» وقال أرسطو:

«المثل هو العبارة التي تتصف بالشيوع والإيجاز وجدة المعنى وصحته».

وقال أبو اسحاق النظّام (توفي ببغداد عام ٨٣٥م) «يجتمع في المثل أربعة لاتجتمع في غيره: إيجاز في اللفظ وإصابة في المعنى وحسن في التشبيه وجودة في الكتابة فهو نهاية البلاغة».

وقد توصل الأدباء المتأخرون إلى تعريف جديد وأشمل للمثل وهو «إن المثل عبارة قصيرة بليغة شائعة الاستعمال، يتوارثها الخلف عن السلف وتمتاز بالإيجاز وصحة المعنى وسهولة اللفظ وجمال جرسه».

وللأمثال أهمية كبيرة في كل مجتمع فهي مرآة صادقة لحضارة الشعب وكيفية تفكيره وأخلاقه... يقول الشعب الإنكليزي:

«المثل صوت الشعب، ولذا فإننا نستطيع اكتشاف عبقرية الأمة وفطنتها وروحها عن طريق أمثالها».

وتقوم الأمثال بدور تربوي لأنها تتضمن خلاصة التجربة الإنسانية فتساهم في تهذيب الأجيال الجديدة وتقويم أخلاقها وفي إرشاد الناس إلى الطريق المستقيم..

وقد يفعل المثل في النفس أكثر مما تفعله محاضرة أخلاقية مليئة بالمواعظ والمثل العليا أو من قراءة كتاب غني بالحكم والتوجيهات...

والأمثـال بالنسبة للناس وصفة شعبية شبيهـة بالوصفة الطبيـة، ومهمتها الحفاظ علـى سلامة الناس وأمنهم فـي تعاملهم مع أنفسهم ومع غيرهم.. كما أنها وصفة للحفاظ على كيـان المجتمعات والأوسـاط الشعبية التي تتكون منها الجماهير في كل بلد.

والأمثال زينة الكلام والمحادثات كالملح الذي يطيب به الطعام ولذا تسعى كل فئة من الناس أن تحفظ من الأمثال ما تراها مناسبة للحياة فهي ضرورية لدعم الحجج والأقوال والأفكار.. فهي كالدساتير التي عليها ترتكز المعاملات والتبـادلات التجارية والفكرية والاجتماعية لدى احتدام المناقشات.. وقد أشار إلى ذلك الأديب اللبناني الكبير مارون عبود في كتابـه «الشعر العامي» فقال: «إن كتب حقـوق القروي موجـودة تحت لسانه وهو لا يحتاج إلى مراجعة الدساتير ليصدر أحكامه.. وهي تتناول جميع شؤون حياته»

ومصادر الأمثال الشعبية متعددة المنابت والمناهل بعضها مشتق من الأمثال العربية الفصيحة أو من أقوال الديانات السماوية، وبعضها الآخر مأخوذ عن الأمثال الأجنبية، ولن ننسى أيضاً التجارب الفردية أو العامة لدى الأمـم والشعوب وما تستنتجه سليقتها الفطرية حيال ما يعترضها من أحداث تمر بها فتتجاوزها وتتـرك بصماتها الواضحة في أمثال تتردد علـى الألسنة بعد انقضاء المحنة.......

والأمثال الفصيحة القديمة كانت ينبوعاً سخيـاً أخذهـا الجمهور العامـي ولفظها بطريقته الخاصة ولكنتـه العامية المتأثرة بالآرامية القديمة والتي تلغي بعض الأحرف في أثناء الكلام كما نلاحظ خلال أحاديثنا اليومية... وهذه اللهجة العامية تختلف من مدينة لأخـرى، ومن قرية إلـى قرية ومن قطر إلى آخر...

لكـن بعض الأمثـال العاميـة احتفظ بفصاحته كما نرى في الأمثال التالية:

«مـن جد وجد ومن زرع حصد-صاحب الحق سلطان، العفو عند المقدرة....» وبعض الأمثـال العاميـة جاءت من أصـل فصيح وتعرضت لبعض التحوير والتغيير والحذف كما في الأمثال التالية:

«صاحب الحاجة أرعن- البعوضة تدمى مقلة الأسد- غيرة المـرا مفتاح طلاقها- اليد يلي مافيك تقطعها بوسها وادعي عليها بالكسر...».

هـذه الأمثال مأخوذة مـن أصل فصيح وكانت كما يلي:

صاحب الحاجـة أعمى، غيـرة المرأة مفتاح طلاقها...إذا لم تستطع أن تقطع يد عدوك فقبّلها..

أما أصل المثل الشعبي: البعوضة تدمي مقلة الأسد، فهو مأخوذ من بيت الشعر التالي:

لا تحقرن صغيراً في مخاصمة

إن البعوضة تدمي مقلة الأسد

وقد استلبته القريحة الشعبية فحولته إلى هذا الشعر العامي..

وهذا مثال آخر شبيه بالسابق وإن اختلف في اللفظ:

لا تستصغر حداً بالعين

الحرش بيولعوا عود الثقاب

وهذا المثال يتردد كثيراً في الأغاني والمواويل الشعبية.

وكذلك المثل القائل «إذا زاد الشيء عن حدو انقلب إلى ضده» وهو مستلب من قول الشاعر الكبير المتنبي:

متى ازددت في بعد التناهي

فقد وقع انتقاصي في ازدياد

ولعل شاعرنا المتنبي اقتبسه عن أقوال الأقدمين وأمثالهم.

وهذا المثل الشائع «ما عندك عسل مابتمك عسل» مستلب أيضاً من شعر المتنبي التالي:

لا خيل عندك تهديها ولا مال

فليحسن النطق إن لم يحسن الحال

والمثل العامي: المؤمن قلبو دليلو مأخوذ من الشعر التالي:

قلب ابن آدم دوماً

في كل شيء دليله

وكذلك المثلان العاميان:

ع قد بساطك مد رجليك

يا عبد لا تهوش غير رزقك ما بتحوش

مأخوذان من الشعر التالي:

سيطلبني رزقي الذي لو طلبته

لما ازداد والدنيا إقبال وإدبار

كما أن المثل الشعبي الشائع جداً وهو «بحاكيكِ يا كنه واسمعي يا جارة» مأخوذ من حادثة طريفة في تاريخ العرب.... فقد مر ذات يوم سيد بني فزارة في البادية لزيارة أحد أصدقائه فلم يجده لكن استقبلته شقيقته، وكانت خارج المضارب فرحبت به وأمرت بتحضير الطعام له.. نظر إليها وهي تنتقل بين جواريها وتعطي الأوامر لهن فأعجب بها جداً وقرر أن يتزوجها فخاطبها بالشعر التالي:

ياأخت خير البدو والحضارة

كيف ترين في فتى فزارة

أصبح يهوى حرة معطارة

إياك أعني واسمعي ياجارة

فغضبت الأميرة وجاوبته قائلة:

إنــــي أقـــــول يـافـتـى فــزارة

لا أبـتـغـي الــزوج ولا الــدعــارة

ولا فــــراق هـــذه الــجــارة

فـارحـل إلـى أهـلـك باستخارة

فاعتــذر لهــا بأنه معجب بهــا ويرغب بطلب يدها للزواج فقالت له:

«إنما تُطّلَبُ الحرةُ من أبيها أو من أخيها ولا تُطّلَب من نفسهــا» ولما رجع من سفره مر على مضارب أهلها وكان أخوها موجوداً فأرسلت له جاريتهــا تعلمه بموافقتها على الزواج به فتزوجا..

والمثل الشعبي «كل لسان بإنسان» مأخوذ من الشعر التالي:

فبادر إلى حفظ اللغات مسارعاً

فكل لسان بالحقيقة إنسان

وكذلــك المثــل الشعبي القائــل: «يلّي بيعمــل المعروف مع يلــي مابيستحقو مثل واقد الشمع ببيت العميان» مأخوذ مع بعض التحريف من البيت الشعري التالي:

من يصنع المعروف مع من ليس يعرفه

كـواقـد الشمع في بيت لعميان

وربما جاء المثل الشعبي العامي بشكله الفصيح كما في البيت الشعري التالي:

إن أقبلت باضَ الحمامُ على الوتد

أو أدبـرت بـالَ الحمارُ على الفهدِ

وقد يكون المثل الشائع جزءاً من حكمة قديمة كقولنا:

«اتق شر من أحسنت إليه»

وهو مأخوذ من قــول للإمام علي (كرم الله وجهه):

«اتــق شر مــن أحسنت إليــه بدوام الإحسان إليه»

ومن قوله أيضاً:

عـاتـب أخـاك بـالإحـسـان إلـيـه

واردد شَــرَّهُ بـالإنـعـامِ عليه

وقريب مــن هذا المعنى قــال الرئيس إبراهام لنكولن:

«عجبتُ لمــاذا يكرهني فــلان فأنا لم أخدمه قط»

كما أن بعض الأمثال مأخوذ من التاريخ العربي القديم فالمثــل الشعبي الشائع بين الناس

«اتغدى وتمدى واتعشى وتمشى»

مأخوذ من الحارث بن كلده[٢] «إذا تغدى أحدكم فلينم على غدائه وإذا تعشى فليخط أربعين خطوة».

ولعل الإرشادات الطبية تقول ذلك أيضاً في الزمن الحاضر. وقد نجد بعض الأمثال مرتبطاً بأعلام تاريخية مثل:

«قالوا لعنتر مين عنتــرك قال ماشفت حدا ردني».

والمعروف من المصادر التاريخية أن عنتره بن شداد العبسي كان بطلاً في حرب داحس والغبراء وكتب معلقة شهيرة تغزل فيها بابنة عمه عبله وقد تعذب كثيراً كي يتزوجها وهو العبد الأسود فاضطر أن يظهر من الشجاعة والفروسية والتفوق ما يفوق الوصف.

وكذلك ثمة مثلان شعبيان شهيران يتعلقان بحادثة تاريخية واحدة وهما «بيشيل الزير من البير» و«أشأم من البسوس» الأول للدلالة على قوة واستطاعة المتحدث عنه.. والمثال الثاني يدل على شؤم وحزن وسواد طالع المعني بالكلام.

وهذان المثلان مأخوذان عن حادثة تاريخية ماضية وقعت قبل ظهور الإسلام عام ٤٩٤ ميلادية وتقول إن حرباً اندلعت نيرانها بين قبيلتي تغلب وبكر بسبب ناقة تدعى سراب تخص البسوس خالة جساس عقرها الأمير كُليب وائل بن ربيعة لتعديها على أملاكه فلجأت البسوس إلى أولاد أختها أبناء الأمير مرة وشكت لهم فعل كليب وائل وحرضتهم على قتله فأقدم جساس «الأمير عمرو» على طعن صهره كليب غدراً في ظهره.. فمات، وقام أخوه الزير الأمير عدي ابن ربيعة يطلب ثأره فاندلعت المعارك بين القبيلتين وأنصارهما... وخلالها أسر الزير وسجن في البحرين في بئر لمدة سبع سنوات ثم خرج من سجنه وتابع قتاله ضد آل بكر لمدة أربعين عاماً مات خلال الحرب عدد كبير من الناس وسبب النزاع كانت البسوس وعقر ناقتها واتخذت مثلاً في الشؤم.

وثمة أيضاً مثال شعبي يتردد دائماً للدلالة على حظ أحد الناس فيقال عنه «أبو زيد خاله» وهذه العبارة إشارة إلى الأمير أبي زيد الهلالي المشهور بالشجاعة والكياسة والحصافة والقدرة على التصرف بلباقة وحزم عند الشدائد وكان خالاً للأمير مرعي بن الأمير حسن الهلالي.... والمعروف حسب السيرة الهلالية أن مرعي عشق سعدى ابنة الزناتي خليفة والي تونس حسب القصة ووزير والي تلمسان كما يقول ابن خلدون وبسببه جاءت قبائل بني هلال وسليم لإنقاذه من سجنه في تونس وهذا يبين مقدار قيمته لدى أهله وقبيلته والقبائل المتحالفة معهم.

ونجد بعض الأمثال مأخوذةً عن الإسلام والمسيحية.... وكلاهما سعى إلى تعليم الناس الأخلاق الحميدة وإلى إصلاح النفس البشرية خلال توعيتها كي نفعل الخير وكي نساعد على إيجاد الإنسان الأفضل.

فالمثلان الشائعان «خير الزاد ما ينفع العباد -وأفضل الزاد ما تزود للمعاد»

مأخوذان من الآية القرآنية الكريمة: «وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»(سورة البقرة- الآية: ١٩٧).

والمثل الشعبي الشائع «كون مع الله ولاتبالي» مأخوذ من الآية القرآنية الكريمة التالية: «**إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ**» (سورة آل عمران- الآية:١٦٠).

والمثل الآخر: الساكت عن الحق شيطان أخرس... مأخوذ أيضاً من الآية القرآنية الكريمة:

«**وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**» (سورة البقرة-الآية: ٢٨٣).

كما أن الأحاديث النبوية الشريفة شكلت معيناً عزيزاً للأمثال الشعبية وقد أُخذ الكثير منها وشاع بين الناس مع بعض التحوير والحذف والتبديل:

«الجار ولو جار» مأخوذ عن الحديث الشريف «ظل جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

والمثل الشعبي الآخر: «الأعمال بالنيات» مأخوذ عن الحديث النبوي «إنما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرئ ما نوى» والمثل الشعبي «اعقل وتوكل» مأخوذ من الحديث الشريف «أعقلها وتوكل» والمثل الشعبي الشائع: «الساعي بالخير كفاعله» مأخوذ عن قول الرسول العظيم مع بعض التحريف:

«من دل على خير فله أجر كفاعله»

وثمة مثل شعبي يتردد على ألسنة الناس صادر عن الثقافة الإسلامية وهو «مات محمد وما تعطلت أمته» أي أن العقيدة الصحيحة تبقى حتى بعد موت صاحبها إن حَسُنَ الإيمان بها.

والأمثال الشعبية التي استلبت من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد كثيرة العدد، ويرددها الناس أحياناً دون أن يعرفوا مصدرها لكنها شاعت لما تلقى في نفوس البشر من قبول وجاذبية... فالمثل المعروف أيها الطبيب طبب نفسك هو نفسه قول السيد المسيح في إنجيل لوقا (٤:٢٣).

والمثل الآخر عن المرأة «طب الجرة ع تما بتطلع البنت لإما»

مأخوذ من الكتاب المقدس:

«**مثل البنت أمها**» (حزقيال ١٦: ٤٤)

والمثل الشائع: اعطنا خبزنا كفاف يومنا مأخوذٌ عن صلاة السيد المسيح وهي الصلاة اليومية لدى كل مسيحي:

«**اعطنا خبزنا كفاف يومنا**» (إنجيل متى ٦:١١)

والمثال الشعبي الموجه إلى بعض المتنفذين المسيطرين:

«**اسمعوا أقوالن ولا تفعلوا أفعالن**» مأخوذ أيضاً عن قول السيد المسيح في

إنجيل متى (٣/٢٣) متحدثاً عن أحبار اليهود «**لكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون**» وكذلك المثل الشعبي الشائع كثيراً «لا نبي في قومه» مأخوذ عن قول السيد المسيح في إنجيل لوقا (٤ /٢٤):

«**ليس نبيٌّ مقبولاً في وطنه**»

وقد نجد مثلاً شعبياً مستلباً من الكتاب المقدس والقرآن الكريم فقولنا الشائع «يلّي ما بيسمع من والديه غضب الله عليه» ورد في الديانة السومرية ونقلته التوراة في الوصايا العشر كما يلي:

«اطع أباك وأمك كي تطول أيامك في الدنيا».

وورد في القرآن الكريم كما يلي:

«**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً... وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**» (سورة الإسراء- من الآيات: ٢٣-٢٤).

ويجدر بنا أن لا ننسى أن اختلاط الشعوب بالتجارة أو الرحلات وانتقال الأفكار والثقافات كتابياً أو شفهياً، أدى إلى ذيوع بعض الأمثال ذات الأصل الأجنبي القادمة من وراء البحار والحدود وإن كنا في الوطن العربي نتقبلها فلأن النفس البشرية تتلقى ما يناسبها من تجارب الشعوب وأحكامها ولذا فإننا قد نجد أمثالاً أوروبية وأجنبية من بلاد أخرى.

فالمثل الشعبي الشائع جداً «كل ديك على مزبلتو صيّاح».

مستلب من قول الإسكندر المقدوني:

إني أفضل أن أكون الأول في قريتي ولا الثاني في روما ......

للدلالة على حب الوطن والتعلق به.

ومثل آخر مأخوذ عن الأوربيين وهو: «من بعدي الطوفان» وهو ترجمة حرفية عن اللغة الفرنسية لقول مدام بومبادور عشيقة لويس الخامس عشر ملك فرنسا والتي رافقت وجوده ووجود حفيده الملك لويس السادس عشر ثم أعدمت بالمقصلة لصلتها بأمراء العائلة المالكة...... والتاريخ يشير إلى أن مدام بومبادور كانت تتصرف بشؤون المملكة كما تشاء.. وكانت غارقة في الفساد مع من معها من الطبقة الحاكمة ولما سمعت تحذير الفلاسفة جان جاك روسو وفولتير وغيرهما..

قالت قولتها المشهورة «ومن بعدي الطوفان».

ولعل لهذا القول مثيلاً عند العرب القدماء شديد القرب منه أو بعيداً عنه بعض الشيء فالشاعر الأمير أبو فراس الحمداني في قصيدة كبيرة قال شعراً هذا هو الشطر الأخير منه:

«**إن مت عطشاناً فلا نزل القطر..**»

وهناك المثل الشعبي الشائع «من بعد حصاني ما ينبت حشيش».

وهذان المثلان يدلان على أنانية القائل وعدم اهتمامه بما سيأتي بعده، وثمة مثل مأخوذ عن الرومان وهو «ما كل ما يلمع ذهب» للدلالة على ضرورة عدم الاهتمام بالمظاهر فقد تكون كاذبة.

وقد ورد مثل هذا المثل لدى العرب وبأشكال مختلفة ففي كتاب ألف ليلة وليلة الجزء الأول نجد ما يلي:

ما كل حمرا لحمة، ولا كل سودة فحمة، ولا كل بيضة شحمة...

وورد فيه أيضاً:

ماكل مدورة جوزة، وما كل طويلة موزة، وما كل عوجة لوزة

مع المثل التالي:

ما كل حمرا جمرا، ولاكل سمرا تمرا، ولاكل شربة خمرا....

هذه الأمثال المتشابهة في المعنى والمختلفة في الشكل والمبنى لا ندري أيها سابق للآخر الأجنبي أم العربي لكننا نعود فنقول إن تجارب الشعوب والأمم حيال مشكلات معينة متشابهة تأتي متشابهة في المضمون وإن اختلفت في التعبير والأسلوب.

وهناك مثلان ذائعان كثيراً على ألسنة الناس من أصل إنكليزي وهما:

«الكلب مابيعض خيو، والتاريخ يعيد نفسه».

ونستشهد كثيراً بالمثل التالي:

«يلي بيتو من قزاز ما بيراشق الناس بالحجارة» فهو من أصل إسباني وهو كناية عن عدم التعرض لأخطاء الآخرين في الوقت الذي لا يخلو إنسان من أخطاء وهو شبيه جداً بهذا البيت من الشعر الذي أصبح مثلاً شهيراً وحكمة بليغة:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ

فكلك عورات وللناس أعين

وكذلك فإننا نردد مثلاً من دون أن نحاول معرفة أصله وهو:

«أشْكَرْ خبر» أي إتمام العمل أمام الناس جهاراً.. وهو من أصل تركي.. استمر شائعاً منذ وجود العثمانيين الأتراك في هذه الديار وذهبوا هم وبقي المثل موجوداً يتردد ويتكرر.

وكلمة أشكر أصلها أشكار ومعناها الشيء الظاهر. والأمثال مع أنها عامية باللهجة الدارجة تختلف فيما بينها في الصيغ والأشكال والأسلوب والقصر والطول...لقد استلبت من اللغة الفصحى وتعرضت للتحريف والإيجاز وإلى إدغام

بعض الحــروف أو حذفها إلا أنها أصبحت جزءاً لا يتجزأ مــن الأدب الشعبي المتعدد الوجوه والألوان والأطياف.

ويأتــي المثــل أحيانــاً موجــزاً قصير العبــارة خفيــف الحركة لما فــي ذلك من سهولــة للحفظ والتكرار والتناقل والانتشار وقد رأينا ذلك في الأمثــال السابقة الذكر وغيرها مثل:

(الجــار لو جــار) (أعقل وتــوكل)... (الفزع بيطير الوجع..) (يلي بياخد أمنا منسميه عمنا).

ولا بد من التعليق على المثل الأخير... فهــو يدل على مدى الــذل والانكسار الذي وصــل إليه العربي وأهله خلال فترات حكم الأتراك طوال أربعمئة عام ونيف..

وكان الحــكام والــولاة يتغيــرون وكلهم أجانب عن الديــار العربية فاعتاد الأهالي على الإذعــان والطاعة والخضوع لمن ولي الأمر.. فخرجوا بهذا المثل:

«يلي بياخذ أمنــا منسميه عمنا» نردده من دون أن نشعر بمــرارة الألم الحارق في ثناياه.

وكذلك نــرى فــي الأمثــال استعمالاً للتشبيه من أجل التقريب والإيضاح وإظهار المعنى المقصود بجلاء كأن نقول:

«الناس متل سمــك البحر الكبير بياكل الصغير».

أو «متل شق اللفت أي كناية عن البياض الشديد».

أو «متــل خيال الزريعــة هيئة بلا فعل، والمعنى واضح».

ونجد في الأمثــال الشعبية سائر أنواع الكنايات والرمــز والسجع والموسيقا وكلها تساعد على الحفظ.. والذاكرة يسهل عليها الاحتفــاظ بالعبــارات القصيــرة الموشاة بالصور والكنايات كأن نقول:

(القرايب عقــارب.......... عدو جدك مابيودك).

(من صبر ظفر، ومن لج كفر. ومن سار على الدرب وصل......).

وأحيانــاً نجــد أمثــالاً علــى صيغــة الاستفهــام مع جوابه، كأن نقول على سبيل المثال لا التعداد:

(شــو أحلــى مــن العسل؟ قلــو الخل ببلاش).

(مين أدرى بحالك؟ ربك وجارك).

(قالو لجحا متى تقوم القيامة؟ قَلُّن لما بموت أنا).

وكمــا سبــق وذكرنــا فــإن الأجداد والأسلاف لم يتركوا فرصة تمر بهم تغنيهم بالتجربة والحكمة إلا وسجلوها وتناقلوها شفاهياً ثم كتابيــاً كي تبقى دستوراً دائماً لأولادهم وأحفادهــم وللأجيال اللاحقة

بهم... ولذلك نجد أقوالهم حكيمة صائبة مفصلة لكل مناسبة ولكل قضية.. وهي مرتبة منظمة في ذاكرة الأيام وطياتها لكنها تبقى جاهزة مستعدة كي تنطلق من الخزان الفكري كي تبرز واضحة لدعم حجة أو تبيان حق أو للتخفيف عن ألم أو شكوى أو مصيبة.

ولذلك نستطيع أن نضم هذه الأمثال مع الحكايات والسير الشعبية إلى مقام التراث الشعبي والأدبي... فهو لا يقل قيمة لدى عامة الناس عن المعلقات السبع أو العشر وعن دواوين الشعراء الفحول في العصور العربية كافة وكذلك عن كتب الفلسفة التي جاد بها كبار مفكري العرب والذين انتشر تأثيرهم إلى أوروبا والعالم الغربي ولايقل قيمة أيضاً عن كتب التاريخ القديم والحديث.

وأقول إن أدبنا الشعبي بما فيه الأمثال والحكايات بقي راسخاً في عقول الناس يجتاز عباب الزمن ليرتسم في كل مناسبة... وهو أكثر شيوعاً من الأدب الفصيح.. لأن أدب الفصاحة يتردد فقط على ألسنة المثقفين والأدباء والمفكرين والمؤرخين والفلاسفة.

أما الأدب الشعبي بما فيه الأمثال فهو يشاركنا الحياة، يشارك العامة في همومهم وقضاياهم ومشكلات حياتهم مهما كانت مضطربة ومعقدة ويجد لها الحل الأسرع والأنسب.

إن الأمثال الشعبية تناولت كل شيء وتحدثت عن الوطن والبيت والسياسة والتعاون والأسرة والفضائل والرذائل والتعامل بين الناس والعلم والتربية والزمان والشهور الاثني عشر كل بمفرده وعن الصفات والمزايا الخاصة والعامة وعن الحياة الاجتماعية من مال وغنى وفقر وظلم وحاجة وشدة وصحة وألم. وتحدثت عن كل ما يخطر في البال من حوادث ومفاجآت... لأن العقل القديم عقل الأجداد كان متفوقاً يحسن الاستنتاج ويزن الأمور بدقة وإتقان، ومن كل الجوانب سلباً وإيجاباً ثم يخرج بنتيجة يطرحها كوسام على جبين الأيام والدهور.

إن أجدادنا عامة لم يبتعدوا عن الفكر والثقافة والحضارة فقد اطلعوا عليها وهضموها وطرحوا منها كل معقد متداخل وتركوه لأناس رغبوا بالتعمق به وهم فئة قليلة يعيشون في برج عاجي وصومعة كهنوتية.... وخرجوا إلى الدنيا المعاصرة حينذاك وللناس كافة في المراحل التالية وتكرموا على الناس بدستور شعبي ما يزال يتردد في خضم

الأيام منذ القـدم واقتحم عباب السنين وجـدران الزمـان فوصلنا فـي العصر الحاضر جاهزاً مرتباً متطوراً ملائماً لكل الوقائـع والأحداث... إنه دستور الأمثال الذي لا يختلف عن أرقى الدساتير التي وضعها علماء الحقوق والأخلاق.

والفرق بينهما أن الدساتير الحقوقية مسطورة في الكتب والمصادر لا يطلع عليها إلا نفر قليـل من رجال القانون أمـا دستور الأمثال فيتـردد يومياً في الأفـواه وتسمعه الآذان لدى كل الناس لدى العامة ولـدى الخاصة لأن مواده هامه تتعلق بـأدق أمور الحياة التي لم تغفلها الأمثال الدارجـة والشعبية بل وضعـت لها قواعد ما نزال نتبعها كلنا عامة وخاصة ولم نجـد لها بديلاً مع أنها باللغة العامية الشعبية فهي دستور الحياة....

لقد تناولت الأمثال الشعبية موضوعات الحـق والجمـال والدين والصحـة والأكل والحيـاة والموت والحظ والألـم... وكأنها توطيء لإنسان الحاضر والمستقبل الطريق المستقيـم كـي يمشي عليه بأمـان بعد أن شرحت له قيمـة الصبر والرضـا بأحكام الدهر وبينت لـه أنه لا يعيش وحده بل في وسـط أناس مثله لهم حقـوق عليه وعليهم واجبات حياله...

وكثيرة هي الكتب التي جمعت الأمثال الشعبيـة ودرستها فالاهتمام بها قديم جداً قـدم الانسان ولا يعرف اسم أول من درسها وصنفها. وفـي الوقت الحاضر ثمة من نال شهادة دكتوراه في الأمثال الدارجة العامية منها والفصيحة كما قلنا سابقاً.

وكمـا جمع علمـاء الحقـوق والدستور ومـواد القانون في كل بلـد وصنفت حسب موضوعاتها ......كذلك فعل أسلافنا القدماء جمعـوا الأمثال الشعبية فبلغ عددها ١٦٢٥ مثلاً مبوبة حسب الموضوعات في المجتمع والناسـ وذكروا حوالـى ٤٦٥ للموضوعات المتفرقة....

وهـذا يدل بجـلاء ووضـوح أن عقول الأسـلاف كانت ناضجة وغنيـة بالتجارب فأبـت أن تترك لنا تـراث الأمثال الشعبية الوافـرة الاحتـرام عرضة لعبـث الجهلة والحمقى فدوّنت أكثرها لتحفظه بالسطور كما هو محفوظ في الصدور..

الهوامش

١- ابــن عبد ربه (٨٦ هـــ -٩٤٠م) من شعراء الأندلس وعلمائها، مؤلف كتـــاب «العقد الفريد» سماه المتنبي «مليح الأندلس».

٢- عوف بن عبد الله الأزدي من شعراء الشيعة كان معاصراً للأمام علي (كرم الله وجهه).

٣- الحارث بن كلده الثقفي طبيب معاصر لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) توفي في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

مراجع بحث الأمثال الشعبية

١- القرآن الكريم.

٢- الكتاب المقدس والأناجيل.

٣- معجم لأعلام الشرق والغرب، فردنيان توتل.

٤- الفنون الشعبية، رشدي صالح.

٥- الأمثال الشعبية، أحمد تيمور باشا.

٦- الأمثال والحكم، علي بن محمد الماوردي.

٧- الأمثال الشعبية اللبنانية، الدكتور إميل بديع يعقوب.

٨- أروع ما قيل في الأمثال، إميل ناصيف.

٩- أمثال دمشق الشعبية، مطيع المرابط.

١٠-مدام بومبادور، ميشيل زيفاكو.

١١-ألف ليلة وليلة الجزء الأول، طبعة شعبية قديمة.

١٢-المهلهل، فؤاد أفرام البستاني.

١٣-فارس بني عيسى، حسن عبد الله القرشي.

١٤-أبو فراس الحمداني، فؤاد أفرام البستاني.

١٥-الأمثال في القرآن، محمود بن الشريف.

١٦-في أصول الأدب، أحمد حسن الزيات.

١٧-سيرة بني هلال، طبعة شعبية قديمة.

١٨-تاريخ الدولة الفاطمية، الدكتور حسن إبراهيم حسن.

مواقف إنسانيّة لشعراء أندلسيِّين

محمود محمد أسد ❀



من الطّبيعــي أن يتجاوبَ الإنسان مع المشاهــدات والمواقفَ التي تثير فيه الفــرحَ أو الحزنَ والأسى. وكثيراً مــا تؤثِّــرُ بمســار حياتــه، وتجاربه الحياتيــة. فأَوْلى للشعر أن يعبِّر، وأنْ يستلهــم مــا تجودُ بــه قريحتُه. وفي حياة الإنسان محطّــاتٌ تهزُّه، وترمي أعباءَها وأثقالهــا على كاهِلِه. فيكونُ الشّعْرُ خيــرَ معبِّــر وترجمان، وخير ناطقٍ وشاهــد. وجلُّنا يذكر مواقفَ مرَّ بها امرؤُ القيس ولقيط بن يعمر الإيادي وحطّان بن المعلّى وابنُ الرومي والمتنبّي وأبو فراس وأحمــد شوقي ومحمود سامــي البارودي وبدر شاكر السيَّاب وأمل دنقل وغيرهم.

❀ أديب وشاعر وناقد سوري.

والقارئ المتأمّلُ لدواوين الشعر العربي يُدرك بفطنته وذوقه أهميَّةَ هذه القصائد وغيرها، لأنَّها تُنتزَعُ من أعماقِ الشّاعر، وتُكتَبُ بمدادٍ من دموعِه ودمِه. والشعر العربي في الأندلس حافلٌ بمثل هذه القصائد والمواقف التي تُفضي عن مكنونات نَفْسِه. وتسكب نميراً من الأشعار الفيَّاضةِ بالأحاسيس. وندرك أنَّ المواقف العظيمة مبعثُ الإلهام، ومحرِّكة القرائح. فلا عجبَ أن نقرأ الكثير من القصائد الأندلسيّة المفعمة بالمواقف الإنسانية. وهي مواقف جَرَتْ أحداثُها مع الشّعراء، ودفعوا ثمنَها ألماً ودمعاً وحرماناً وأسراً. أو كانت مواقف رؤوها عن مقربة من أعينهم وأفئدتهم. فكان لها عظيم الأثر.

والموقف الإنسانيّ يتجاوز صاحبَهُ إلى الآخرين فيترك أثرَه ويزرَعَ غصَّته، وعَبْرَتَهُ وعِبَرَه في النّفوس. فالحدث الإفرادي قد يكون سببُهُ جماعيّا على مستوى الأسرة أو المجتمع أو الدولة، ولكنه سرعان ما يترك أثرَهُ فيصبح حكايةً أو قصَّةً أو مسيرةً أو مضربَ مثلٍ تتناوله الأجيال، وتتداوَلُها الكتبُ والألسنة..

في الأندلس حيث الطّبيعةُ والجمالُ والثّراء والرّخاء. في الأندلس التي كانت جنّةَ المشارقة الوافدين من الصّحارى والبادية وَجَدَ العربُ مُتَنَفَّساً للجمال والانطلاق وتجاوز الذّات المغلقة. فانتقلوا إلى عالمِ القصور والغناء والموشّحات، فوجدوها جنَّتَهم، وفضّلوها على غيرها ألم يقلِ ابنُ خفاجة:

يا أهْلَ أندلسٍ للّه درُّكُمُ
ماءٌ وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارُ
ما جنّةُ الخلدِ إلاّ في ديارِكُمْ
ولو تخيَّرْتُ، هذي كنتُ أختارُ

سأكتفي ببعض المواقفِ الشّفّافةِ التي بإمكاننا أنْ نُسْقطَها على واقعِنا العام عبر التّاريخ. فالموقفُ أكثرُ التصاقاً عبرَ التاريخ، ويبقى محرِّضاً، وحامِلُهُ شِعْرٌ صادقٌ معبّر..

أوّل المواقف يتبدّى في موقف عبد الرحمن الداخل «صقر قريش» الذي وطّدَ الملك للأمويين في الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية على يدِ العباسيين في بلاد الشام. لجأ إلى أخوالِهِ في المغربِ العربي وقطع المضيق والماء ليصل إلى الأندلس فارّاً من سيوف ملاحقيه. وهو شاعر مجيدٌ ومُقِلٌّ، وخطيبٌ يملك البيانَ كما ذكر «المقرِّي» في نفخ الطّيب.

في الأندلس لم تُنْسِهِ الإمارة بلاد الشام وموطنَه الأصلي فحَنَّ إلى الأرض والوطن الذي رَحَلَ عنْهُ مكرَهاً فقال أبياته وكأنَّها مُنبّهٌ دائمٌ للأحاسيس:

أيُّها الرّاكبُ الميمِّمُ أرضي
اقْرَ بعضَ السّلامِ عنّي لبعضِ
إنّ جسمي كما تراهُ بأرضٍ
وفؤادي ومالكيهِ بأرضِ
قدّرَ البينُ بيننا فافترقنا
وطوى البَيْنُ عن جفونيَ غمضي
قد قضى اللّه بالفراقِ علينا
فعسى باجتماعنا سوف يقضي

هذه الأبيات الرقيقة والعذبةُ تلامسُ وجداننا، وتوحي بالكثير من الأحاسيس المرهفة، وتكشف ما يكابده الشاعر. فالموقف يكشف عن نفسه والأبيات ترسم معالمَ الحسرة، وعمقَ الحزن الذي لا يفارقه الرّجاء بالعودة. أهناك ما هو أصعب من اقتلاع المرءِ عن جذوره ووطنه؟ ولا يفوتُنا جمالُ اللغةِ والأسلوبِ ولَفَتَ نظري حُسْنُ توفيقِهِ في اختيار الرّويِّ الذي يقضُّ المضاجع، ولكنّه أجادَ توظيفه (الضاد المكسورة) كانكسار نفسه.

وللشاعرِ الأميرِ موقفٌ آخرُ في الأندلس ويتجلّى الموقفُ برقّة الإحساس، وحسن توظيف اللحظة الشعريّة التي تهربُ في أكثر الأحيان. إنَّ الحنينَ يلازم الشاعر، ويجدُ منفذاً له في التعبير مع كلِّ مناسبة. فتوقَّفَ عند النخلة الفريدة في حديقة قصره بالرّصافة والذي بناه على نَسَقِ رصافةِ الشّام. ومع ذلك بقيت هذه النخلةُ رمزاً وأمّاً ومنهلاً للشوقِ والحزنِ وتوليد الآهات:

تَبدّتْ لنا وسطَ الرّصافة نخلةٌ
تناءَتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النَّخلِ
فقلتُ: شبيهي في التّغرُّب والنّوى
وطولِ التّنائي عن بنيَّ، وعن أهلي
نشأْتِ بأرضٍ أنْتِ فيها غريبةٌ
فمثلُكِ في الإقصاءِ والمنتأى مثلي
سقتْكِ غوادي المُزْنِ في المنتأى الذي
يصحُّ، ويستمري المساكينَ بالوبْلِ

إنَّها لأبياتٌ قليلةٌ حملَتْ مغزىً عميقاً، وتجربةً قاسية. أبدَتْ انسجام الشاعرِ مع حالتِهِ. فربط المسافات وقرَّبها، وأثار الشجن وما أكثر هذه المواقفَ وأمرَّها في حياة المرء! وشبيه بموقف عبد الرحمن الداخل موقفُ ابنِ عمِّهِ الأميرِ مروان بن الحكم الأمويّ. وهو من الذين فرّوا طالبين النجاة من العباسيين. واستقرَّ به المقامُ في الأندلس. وعُيِّنَ أميراً على إشبيلية. وله أبياتٌ قيلتْ في نخلة متفرِّدة في حديقة إشبيلية. ذكّرتْهُ أهلَهُ ووطنه. فقال بصورة مطابقة لحال ابن عمّه عبد الرحمن الداخل. وقد اتفقا برويِّ الكلام المكسور المناسب لنبرة الحزن واختلفا بالبحر:

يـا نـخـلُ أنـــتِ فـريـدةٌ مثـلي
فـي الأرضِ نـائـيـةٌ عـن الأهـل
تـبـكـي، وهـل تـبـكـي مكـمَـمـةٌ
عـجـمـاءُ، لـم تُـجْـبَـلْ عـلى جَبْلي
لَـوْ أنَّـهـا عَـقِـلَـتْ إذاً لـبـكـتْ
مـاءَ الـفـراتِ ومـنـبـتَ الـنَّـخْـلِ
لـكـنَّـهـا حُـرِمَـتْ وأخـرجـنـي
بُـغْـضـي بـنـي الـعـبّـاس عـن أهـلـي

وبعضهـم نسـبَ هـذه الأبيـات لعبد الرحمن الدّاخل. فالموقف واحد والإحساس واحدٌ والتجربة مشتركة ولكنها لا تخرج عن الإحاطة بالحالة الشّعريّة المؤثِّرة..

فهـذا الشاعر ابـن درّاج القسطلي يُقـدّم لنا لوحـةً إنسانيّـةً لا تخلو من المؤثِّرات، ولا تبدو غريبة عنَّا، وهناك من يقول: هذا موضوع مطروق. ولا أرى مانعاً. أهناك أصعب من فراق الزوجة وبيـن يديها طفلٌ صغير يبكـي. وكأنّه يستوقف والدَهُ الـذي دفَعَتْهُ الضرورة للترحال. فابن درّاج يمدَحُ في قصيدته (المنصور بن أبـي عامر) والفنُّ يجيز للشاعـرِ أن يستحضـر، وأن يستـدرَّ العواطـف. نـراه يُقدِّم لوحـة إنسانية يتجسَّد فيها الصراع في نفس الشاعر الـذي أجـادَ بالتعبير والفـنِّ والتأثير ومطلعها يمهِّد لذلك:

ألـم تعلمي أنَّ الـثَّـواءَ هـو الـنَّـوى
وأنَّ بـيـوت الـعـاجـزيـنَ قـبـورُ

ثم يقول:

ولـمـا تـدانَـتْ لـلـوداعِ وقـد هفا
بـصـبـريَ مـنْـهـا أنَّـةٌ وزفـيـرُ
تـنـاشـدُنـي عَـهْـدَ الـمـودَّةِ والـهـوى
وفـي المهدِ مبغُوم الـنّـداءِ صغيرُ
عـيِـيٌّ بمرجوعِ الخطابِ، ولفظُهُ
بـمـوقـعِ أهـواءِ الـنّـفـوس خَـبـيـر

فالشاعـر يقـرِّب الصـورة بالإحساس سمعاً وبصراً ويجسِّـدُ الحالة برسم صورة الأم الراجية والطفل الذي يتكلَّم مناغاة.

هذه الأبيـات متروكةٌ للقـارئ للتوقُّفِ عندها. ويتجـاوز الشاعرُ بنا هذا الموقف لينقلنا إلى أعماقِهِ. وكأنَّنا نقاسي ما يقاسيه، ونعاني ما يكابده من صـراعٍ انتصرتْ فيه رغبتُـهُ وطموحُـه. لينقلنا إلـى محطَّة من الآلام المفجعة التي تهدُّ الكيان:

عصيْتُ شفيعَ النّفس فيه، وقادني
رَواحٌ بـتـدآبِ الـسُّـرى وبـكـور
وطارَ جناح البين بي وهفَتْ بها
جـوانِـحُ مـن ذعـرِ الـفِـراق تطيرُ
لـئـنْ ودَّعَـتْ مـنّـي غـيـوراً، فـإنَّـنـي
على عَزْمتي من شجوها لغيور

هذا الصـراع والتماسك الـذي أحسَنَ رسْمَهُ بما يملك مـن أدوات لغوية وتصوير

فنّــي، حيث ترقُّ اللغــة وتنسابُ الجمل في موقف، وتصلُّبُ متناسبة مع صلابته وعزمه. ولكنــه ينقلنا من جديد إلــى نفسِهِ الموّارة باللّهب والقلق والأسى:

ولو شَهدَتْني والهواجِرُ تَلْتظي
عـلـيَّ، ورقــراقُ السّـرابِ يـمـورُ
أسلِّطُ حرَّ الهاجراتِ إذا سطا
على حُرِّ وجهي، والأصيل هجيرُ
وأستَنْشِقُ النكباءَ، وهْيَ بوارِحٌ
وأستوطِئُ الرّمضاءَ وهْيَ تفورُ
وللموتِ في عينِ الجبانِ تلوُّنٌ
وللذُّعْرِ في سَمْعِ الجريءِ صفيرُ

أعتقِــدُ أنَّ الشاعرَ أجــادَ في كشفِ خبايــا نفسِــه، ونقلَهــا إلينــا لتتجاوز صدورَنا ومفازاتِنا، فتستَقِرُّ في أعماقنا، ونتصوّر الريــح النكباء البــاردة والنار الهاجرة وهذا حال البعد والحسرة. هذا التوصيف الذي واكبَــهُ الجانبُ الماديُّ والحســيُّ الطاغي دافِعُــهُ كسْبُ عطاءِ السلطــان، وجــوده. وما هــذا التكسُّبُ والسَّعْــيُ والمغامــرة إلاَّ لتأميــن قوتِ الأســرةِ في عَصْرٍ عزَّ على الأدباءِ كسْبُ معيشتهم مــن غيرِ سُــؤالٍ وسُؤْلٍ وهنا يستيقظ السؤال: لماذا نوصِلهم إلى هذا الواقــع؟ ولماذا لا نحفــظ ماء وجههم؟ ونبقي مكانتَهم سامية؟

ابــن درّاج حالُه كحال الكثيرين ويذكِّرنا بموقف وخيبة ابن زريق البغدادي الذي وَفَد إلى الأندلس فاختطفــه الموتُ جرّاءَ خيبةٍ مريرة ترك وراءَها قصيدَته المشهُورة:

لا تعذليه فإنَّ العذْلَ يولِعُهُ
قد قلتِ حقّاً، ولكن ليس يسمعُه
جاوزْتِ في نُصْحه حدّاً أضرَّبه
من حيثُ قدَّرتِ أنَّ النُّصْحَ يَنْفَعُهُ

إلى أن يذكــر لحظة الــوداع ومرارتَها ويستعيد صورة الفراق:

ودَّعْــتُــهُ وبـــودِّي لـو يـودِّعـنـي
صفوُ الحياةِ وأنّــي لا أودِّعُــهُ
وكـم تـشـفَّـعَ بـي ألاَّ أفــارقَــهُ
ولـلـضّـرورات حـالٌ لا تـشـفِّعُـهُ

والموقف الإنسانــيُّ يحفُر في النفس، ويتّخــذُ حيِّــزاً منها. فيُطْبَعُ فــي الذاكرة لتتناوَلَهُ الأقوال والحكــم، ويوظَّفُ للعبرة والاعتبــار وهــذا ســرُّ خلــودِ الكثير من القصائد التــي خلّــدت أصحابَها عندَها ينتصــرُ الموقفُ والجانــب الإنساني على الفــنِّ. ولكــن إذا التحم الموقــفُ والفنُّ ارتقت القصيدة إلى صفوةِ الأدب المختار. وتصبح مضربَ مثــلٍ، وتكون صالحة لكلِّ عصــرٍ لنبلِ الموقــف والمقصــد وسموِّ الفنّ. فالشاعر الوزيــر الكاتبُ ابنُ شُهيَد له مكانةٌ في الحياة السياسية والأدبية في

الأندلس. وصاحبُ رأي وفوق ذلك كان أشدّ جنايةً على حالِـهِ، وأشاد به ابن بسام في ذخيرته «الذخيرة فـي محاسن الجزيرة» هذا الإنســان اشتدَّ عليه المرض في آخر حياته وتزايد ألمه بإصابته بالفالج والجاء إلى العصـا والاعتماد على الآخرين وقبل وفاتـه بعشرين يوماً صـار حجراً لا يبرح ولا يتقلّب مع شدّة ضغط الأنفاس وقد همَّ بقتل نفسه فلجأ إلى الشعر يقول في هذا الوضع الذي يصعب على الإنسان العاديّ، فكيف إذا كان شاعراً ووجيها؟...

أنـوحُ على نفسي، وأنـدُبُ نُبْلَها
إذا أنا في الضَّرّاء أزمعتُ قتلَها
رضيْتُ قضاءَ الله في كلِّ حالةٍ
عليَّ وأحكاماً تيقَّنْتُ عَدْلَها
أظلُّ قعيدَ الدّارِ تُجنبني العصا
على ضعفِ ساقٍ أوهنَ السَّقمُ رجْلَها
ألا رُبَّ خَصْمٍ قد كفيْتُ، وكربةٍ
كشفْتُ، ودارٍ كنْتُ في المحلِ وَبْلها

❀❀❀

وربَّ قريضٍ (كالجريض) بَعَثْتَه
إلى خطبةٍ لا ينكر الجمع فضْلَها

❀❀❀

فمَنْ مبلغُ الفتيانَ أنَّ أخاهُمُ
أخو فتكةٍ شَنْعاءَ ما كان شِكْلُها؟

❀❀❀

عليكمْ سلامٌ من فتىً عضَّهُ الرّدى
ولم ينسَ عيناً أثبتَتْ فيه نَبْلَها!
يُبينُ وكفُّ الموتِ يخلعُ نَفْسَهُ
وداخلُها حبٌّ يهوِّنُ ثُكْلَها!

الجريض: الغصّة.

ولابـن شُهيد عدّة قصائـد مؤلمة ومعبّـرة في مرضـه تناقلهـا وأرسَلَها لأصدقائه يتمنّى لهم السلامة والعافية ويدعو لهم بدوام الصحة، ويصف سوء منقلبه بعاطفة لاتعرفُ البهتان ومشاعر رقيقةٍ تهطِلُ من سماءِ نفسٍ آلَمها سوء الحال:

تأملتُ ما أفنيْتُ من طولِ مُدّتي
فلم أرَهُ إلاّ كلمحةِ ناظرِ
وحصَّلْتُ ما أدْركْتُ من طولِ لذَّتي
فلم ألْفَهُ إلاّ كصفقةِ خاسرِ

إنَّ موقفَ ابن شُهيد من المرض والموت وعلاقَتِـهِ بالآخرين فيه الكثيرُ من العاطفةِ المشبوبَـةِ بسعير الوجـع والحسرة ويطولُ الحديثُ فيه إنْ أردْت ذلك.

هـذه المواقـفُ الإنسانية التـي تُليِّنُ النفسَ القاسيـة وتطرِّيهـا أغلبُها حَدَثَ مـع شخصيـات لهـا دورُهـا السياسي والاجتماعـي والثقافي. سُرْعانَ ما ينتشِرُ صداها، ويشيعُ أمرُها. فصَعْبٌ على المرءِ أن يكـونَ صاحبَ قولٍ وفعلٍ ونفوذ، يَصِلُهُ

الآخـرون، ويتقرَّبـون منه. ينعـم بجمال الحدائق والقصـور ويتلذّذ بالمشتهى من الأطعمةِ والطيِّبات والغناء واللقاء ثمَّ يجدُ نَفْسَـهُ في غياهبِ الوحشَـةِ وبين جدران السجن محروماً من الأنسِ والمتَعِ والأهل. وهذا مـا تعرَّض له الشاعـر الوزير ابن زيدون والـذي لُقِّبَ بـذي الوزارتين وقد امتلـك زمام التعبير الجيـد شعراً ونثراً. وقـد خاض تجربة السياسـة وغاصَ في بحر الحبّ والأشواق مع ولاّدة التي أذاقتهُ مرارة الحرمـان وسعيرَ تقلّب الأهواء. كلُّ هـذا أيّام فتن ملـوك الطوائف فقال في سجنه الكثير مـن القصائد وكتب رسالَتَه النثريـة «الرسالـة الجدِّيّـة» وفيها ذكرٌ لمعاناته وتدخل في آداب السجون.

وفي السجـن اشتدَّ صراعُـه مع نفسهِ والآخرين، وفي السجن قرأ نَفْسَهُ والآخرين واسترجـع سِفْـرَ الحياة الـذي طمَسَتْه أو أبعَدَتْـهُ أيّام اللهو والرّخاء. فينطلق الشاعِرُ مكابراً ومتحدِّياً الظـروف. وفي مثل هذه المواقف يجـدُ المرءُ نفسَه أمـام امتحانٍ نفسيٍّ وجسدي وهو القائل:

لا يُهْنِئ الشامتَ المرتاحَ خاطِرُهُ
أنّي معنّى الأماني ضائعُ الخطرِ
هل الرِّياح بنجم الأرض عاصفةٌ
أم الكسوفُ لغير الشّمس والقمرِ؟
إن طالَ في السجن إيداعي فلا عجبٌ
قد يودعُ الجفنَ حدُّ الصارمِ الذكرِ

والنجم: ما لا ساق له من النبت.

ووقفتـي ستكون مع قصيدتـه السينيّة والتي كتبها إلـى الوزير الكاتب أبي حفص ابـن برد: في هـذه القصيدة التـي تسارع إيقاعُها وجـاء على مجـزوء الرّمل وكأنها تخطو خطوات متلاحقـة تتناسبُ مع حالة القلق وتداعي المواقف التي تنتاب الشاعر واللافت هذا الروي «السين» وما يوحي من همسٍ وملامسة:

مـا عـلـى ظـنِّـيَ بـاسُ
يـجـرحُ الـدّهـرُ ويـاسـو
ربّـمـا أشـرفَ بـالـمـر
ءِ عـلـى الآمـالِ يـاسُ
ولـقـد يُـنْـجـيـك إغـفـا
لٌ ويـرديـكَ احـتـراسُ
والـمـحـاذيـرُ سـهـامٌ
والـمـقـاديـرُ قـيـاسُ

والقياسـ جمـع قوسـ. هـذه الحكم التـي استهلَّ بها قصيدتـه هي قراءة لواقعٍ فرضـ عليه التأمّل والتدبّـر. وأتساءَل هل أدرَك وأمثالُـهُ هذه المقولـة الفكرية قبل خوض هذه التجربـة فالسجنُ والشيخوخةَ والاغتـرابُ والمرضـ توقظُ فـي الإنسان رمادَ السنيـن، ولكنّه رمادٌ سيشتعل إبداعاً،

ويُوقِد تجربة إنسانيّة تصبح من حقِّ الجميع فتتجاوز التجربــة الخاصّةَ إلى ما هو عام. فابن زيدون في هذه القصيدة حكيم وطبيبٌ وصديق وفقيه في الشرع:

يـا أبـا حـفـصٍ ومـا سـا
واكَ فـي فـهـمٍ إيـاسُ
مـن سَـنـا رأيـك لـي فـي
ظُـلَـمِ الـخـطـبِ اقـتـبـاسُ
ووِدادي لـك نـصٌّ
لـم يـخـالـفْـهُ الـقـيـاسُ

سرعان ما تنطلق نفسُه رافضةً الضعفَ والوهن والاستسلام. يدفعه إلى ذلك أمل وتفاؤلٌ بالخلاص ومجيء الغيث بعد انقطاع:

كـلُّـهـمْ يـسـألُ عـن ما
لـي ولـلـذّئـبِ اعـتـسـاسُ
يـلـبـدُ الـوردُ الـسَّـبـنـتـى
وَلَـهُ بـعـدُ افـتـراسُ
إن أكـنْ أصـبَـحـتُ محبو
سـاً فـلـلـغـيـثِ احـتـبـاسُ
لا يـكـن عـهـدُكَ ورداً
إنَّ عـهـدي لـك آسُ

هـذا الاستحضارُ والتداعي للمواقف وليدُ تجربة، أيقظتها المرارةُ، وجدران السجن فاختلط الذاتي بالعام وارتبطا معاً بمصير العلاقات الإنسانية. وأدب السجون أدبٌ جديرٌ بالدراسة والغوص في أعماقِه، لأنَّهُ أدبُ تجربة لم يُكتَبْ ترفاً، بل كُتِبَ بمدادِ القهرِ والحرمان والأرق.. وهذا الموقف من ابن زيدون كتم عليه أو حجبه لحدٍّ ما غزليّاتهُ الرقيقة التي قدّمت ابن زيدون عاشقاً من الطّرازِ الصافي في وفائِهِ حسبَ زعمي..

وموقف ابن زيدون يُحيلني إلى المعتمد بن عباد وهو أحد أمراء بني عبّاد في إشبيلية وقد خلف والده المعتضد في الحكم. ومن أشهر ملوك الطوائف وبعهده وبتساهل منه سقطت مدينة طلَيطلة وبتعاونه مع أمير المرابطين يوسف بن تاشفين كان الانتصار في معركة الزّلاقة ثم انقلب ابن تاشفين على دولة بني عبّاد بعد استشراء فسادها ومات المعتمد في الأسر بعد حياة حافلة بالترف والقلق والاضطرابات والحروب مع الخصوم.

ومع سقوطِه ورميه في السجن انطلقت صيحات الألم والحسرة فرسَم صوراً حزينة ومأساوية لأسرتِه وبناتِه اللواتي نعمْنَ في العزِّ ثم انقلبت الحياة عليهنَّ وهو يراهنَّ من وراء القضبان.

في أيام لهوه وقد ناولته بعض نسائِهِ كَأسَ بللور:

ريـعَـتْ مـن الـبـرقِ وفـي كفِّها
بـرقٌ مـن الـقـهـوةِ لـمّـاعُ

يا ليت شعري وهيَ شمسُ الضّحى
كيف من الأنوارِ ترتاعُ؟

وقال في جاريته «سِحْر»:

عفا الله عن «سِحْرٍ» على كلِّ حالةٍ
ولا حوسبَتْ عنّي بما أنا واجدُ
أ«سِحْرُ» ظلمتِ النّفس واخترتِ فرقتي
فجمّعْتِ أحزاني وهنّ شواردُ
وكانَتْ شجوني باقترابك نُزَّحاً
فها هُنّ لمّا أن نأيتِ شواهدُ
فإنْ تستلذّي رَدَّ مائك بعدَنا
فبعدك ما ندري متى الماءُ باردُ

هذه الأبيات قليلٌ من كثيرٍ قالَه الأميرُ اللاّهي ومع ذلك أتعاطَفُ مع الموقفِ الإنساني لأسرتِهِ وله، وفي داخلي وبيني وبين نفسي أقول: ما نالَهُ نتيجةٌ حتميّة لتصرّفاته التي جاءتْ على حساب رعيّته. وقصته مع جاريته اعتماد معروفه التي أصبحت زوجته وممّا قاله المعتمد يوم كبِّل:

إليكَ فلو كانتْ قيونُك أسْعرَتْ
تضرّم منها كلُّ كفٍّ ومعصمِ
مهابةَ من كان الرّجال بسيبه
ومنْ سيفهِ في جنّةٍ أو جهنّمِ

وبعد زوال سلطانِه وضعف بنيانه ودخولِ بلده خرج مدافعاً عن ذاته وحرماته فأبدى ثباتاً في البداية، ودافع عن هيبته:

لمّا تماسكتِ الدّموعْ
وتنبّه القلبُ الصّديْع
قالوا: الخضوعُ سياسَةٌ
فَلْيبدُ منكَ لهمْ خُضوعْ
وألذُّ من طعم الخضو
عِ على فمي السمُّ النقيعْ
إن تستلبْ عنّي الدُّنا
مُلكي، وتُسْلمني الجُموعْ
فالقلب بين ضلوعه
لم تُسْلمِ القلبَ الضّلوع

إلى أن يقول:

ما سِرْتُ قطُّ إلى القتا
لِ وكان من أملي الرّجوعْ
شِيَمُ الأُلى أنا منْهُمُ
والأصلُ تتبعُه الفروع

هذا الموقفُ الكاشفُ أحوالَ ابن عبّاد هو صرخةٌ ربَّما لا تتجاوز اللّسان. فهذا الثباتُ والبوحُ الصارخ في وجه القيودِ نراه تبدَّل إلى حالةٍ إنسانيّة محزنةٍ. رَسَمَها الشاعر بلوحةٍ مأساويةٍ مدادُها الدّمع، وألوانُها حال بناته وحاله معاً:

تبدَّلْتُ من عِزِّ ظلِّ البُنود
بذلِّ الحديدِ وثُقلِ القُيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً
وعَضْباً رقيقاً صقيل الحديدِ
لقد صارَ ذاك وذا أدْهما
يعَضُّ بساقيَّ عضَّ الأسودِ

هنا التحوّل القاسي، تنكشف نفس الشاعر الكسيرةُ والأسيرة في أغمات أهناك أقسى وأمرَّ من هذه الصورة التي وصفها ابن عبّاد وهو في السجن وقد جاء العيد ودخل عليه بناتُه، وبدَتْ عليهنَّ آثار الفقر والحاجة على ثيابهنَّ وأشكالِهنَّ.. هي لوحةٌ تطفح باللوعة بعيداً عن شخص الشاعر فيقول:

فيما مضى كنْتُ بالأعيادِ مسرورا
فساءَك العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتَك في الأطمارِ جائعةً
يغزلنَ للناسِ، لا يملكنَ قطميرا
برزْن نحوكَ للتسليمِ خاشعةً
أبصارُهنَّ حسيرات مكاسيرا
يطأْن في الطينِ، والأقدامُ حافيةٌ
كأنّها لم تطأْ مسكاً وكافورا
قد كان دهرُك إنْ تأمُرْهُ ممتثلا
فردَّكَ الدّهرُ منهيّاً ومأمورا
من بات بعدك في مُلْكٍ يُسَرُّ به
فإنّما باتَ بالأحلامِ مغرورا

والبيت الأخيرُ يلامِسُ كلَّ إنسانٍ مهما كان شأنه وأينما كان. فهو ملمَسُ الحقيقة لمن لا يعيها ويا ليتها تأتينا ونحن في ذروة الصحة والموقع والجاه.. ولذلك قال وهو حزِين:

أرى الدّنيا الدّنيَّة لا تؤاتي
فأجمِلْ في التصرُّفِ والطّلاب
ولا يغرُرْكَ منها حسن بُرْدٍ
لَهُ عَلَمانِ من ذهَبِ الذّهابِ
فأوَّلُها رجاءٌ من سرابٍ
وآخرها رداءٌ من تراب

هذه الأبيات على بساطتِها غنيَّةٌ بمدلولاتها التي لم تخبُ مع زوال ملكه وعمره. التجارب الشخصيّة لها دورُها في التأثيرِ وإيقاظ ملكة التعبير. وهناك من نَظَرَ إلى العالم بعينٍ بصيرة، وفؤادٍ متبصِّرٍ لما يجري ويستدلُّ منه. هذا ابن خفاجة الشاعرُ الوصّافُ المتقدّمُ على شعراء عصره. فقصيدته في وصف الجبل قدّمتْ رؤيَته وقراءَتَهُ لمسارِ الحياة ولعلاقة الإنسانِ الذي يفنى لا محالة، وعلاقةِ الإنسان مع الجماد الذي لا يبلى واتخذ من الجبل ومحادثته سبيلاً للتعبير عن تجربته ورؤيته الفلسفية التأمليّة. وما زالت القصيدةُ تحيطُ بذهننا الذي يعلوه الصّدأ في بعض الأحيان، فتنزع عنَّا الرُّكام، وتغسِلُ الصّدأ. فتلمع الأفكارُ جليّة سنيّة: وهو يحاورُ الجبل ويستمع إليه. واستخدامُ عقلِه وذهنيَّتِه طاغيةٌ على الكثير من قصائده. ومن قصيدته البائية في وصف الجبل يقول:

وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي
وجوهَ المنايا في قناع الغياهب
وأرعنَ طمّاح الذؤابةِ باذخٍ
يُطاوِلُ أعنانَ السّماءِ بغاربِ
يسدُّ مهبَّ الريح عن كلِّ وجهةٍ
ويزحَمُ ليلاً شُهْبَهُ بالمناكب
وقورٌ على ظهرِ الفلاةِ كأنّه
طَوالَ اللّيالي مُطْرِقٌ في العواقب

وها هو الشاعر يلامِسُنا عن قرب بإجراء الحوار الصامت بينه وبين الجبل الذي استنطَقَهُ، واستمع إليه ومن حقّنا أن نسمعَ بعقولنا وأعيننا إلى مظاهر الطبيعة التي تتكلّم بالصمت، فالمواقفُ الإنسانيةُ لدى المبدع مبعثُ تأثيرٍ. ودافعُها التغييرُ والبعثُ لخلجات النفس وإيقاظ ما هو خامد أو مستسلمٌ في الإنسان. فتأملْ بوح الجبل وتساؤلَه وضيقَ نفسه:

أصَخْتُ إليه وهْوَ أخرس صامتٌ
فحدّثني ليلَ السُّرى بالعجائب
وقال: ألا كم كنْتُ ملجأ فاتك
وموطنَ أوّاهٍ تبتّل تائب
وكم مرَّ بي من مُدْلجٍ ومؤوِّبٍ
وقال بظلّي من مطيٍّ وراكب
وكم سَفَرَتْ لي من شموسٍ وأقمرٍ
وباتَتْ تراءى من عيونٍ كواكب

فما كان إلاّ أن طوتهم يدُ الرّدى
وطارت بهم ريحُ النّوى والنّوائبِ

هذه السيرورة للزمان وهذا الامتداد في استحضار ظواهر الطبيعة التي تتطلَّبُ منّا التأمُّلَ والتَّساؤل وكأنَّنا تركْنا النيابةَ للشاعر. ومكانةُ المكان في استخدامِهِ وحسنِ الإقامةِ فيهِ فالإنسان يعطبه الطّهرَ والإنسان يلبسُهُ الموبقات والجرائم. وهذا حال الزمان. وهذه خلاصته وليست فلسفة بكلٍّ ما تعنيه الكلمة ويتابع:

فما كان إلاَّ أنّ طوتْهمْ يدُ الرّدى
وطارتْ بهم ريحُ النّوى والنوائبِ
فما خفق أيكي غيرُ رجفةِ أضلعٍ
ولا نوحُ وُرْقي غيرُ صرخة نادب
وما غيَّضَ السُّلوانُ دمعي، وإنّما
نزفْتُ دموعي في فراقِ الأصاحبِ
فحتّى متى أبقى ويظعن صاحبٌ
أودِّع منه راحلاً غيرَ آيبِ؟
وحتّى متى أرعى الكواكب ساهراً؟
فمن طالعٍ أخرى اللّيالي وغاربِ

وعلينا أن نتأمل الخلاصة التي باح بها الشاعر وأراد أن يوصلها إلينا وهي خلاصةُ ما يريد:

فرحماكَ يا مولايَ دعوةَ ضارعٍ
يمدُّ إلى نُعماكَ راحةَ راغبِ

فأسْمَعَني من وعظِه كلّ عِبرةٍ
يُترجِمُها عنه لسانُ التّجاربِ
فسرّى بما أبكى، وسرّى بما شجا
وكان على ليلِ السُّرى خيرَ صاحبِ
وقلتُ وقدْ نكّبْتُ عنهُ لطِيَّة
سلامٌ فإنّا من مُقيم وذاهب!

ولنا أن نتأمل هذا الموقف وأن نفكّ ما وراء السطور والأبيات من عمق إنسانيٍّ استلهمه الشاعر. فمن منَّا توقّفَ هذه الوقفةَ أو غيرَها.

وتقسو المحنُ والمواقف على الإنسان عندما يُحاصَرُ وتُلْقى فوق كاهِلِه التُّهم، وتشتدُّ الوطأة عندما يكون مفكّراً، له آراؤه ونظرتُهُ في الحياة. ولا يجدُ من يقدِّرُ آراءَه وإبداعَهُ بل يرى العداءَ الشديد. هذا حال المفكر الفقيه الشاعر ابن حزم الأندلسي. الذي قدَّم دراسة وافية وعميقة في علم الأديان وتاريخ الفرق والمذاهب والسيرة النبويّة.

وقال فيه الذهبي في تذكرة الحفاظ «ابن حزم رجل من العلماء الكبار، فيه أدوات الاجتهاد كامله. وقال فيه عبد الواحد المراكشي في «المعجب» وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار الرجل.. لأنّه أشهر علماء الأندلس اليوم، وأكثرُهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب... ولهذا العالم مناظرات ومجالسات وهو صاحب كتاب «طوق الحمامة» وهو القائل في نفسه الميّالة إلى الجدل والتنوع:

لا تستقرُّ له دارٌ ولا وطنٌ
ولا تدفّاً منه قطُّ مضجعُهُ
كأنّما صيغَ من رهْو السّحابِ فلا
تزالُ ريحٌ إلى الآفاق تدفعُهُ

ومن الطبيعي أن يتعرَّض للسّوء والطعن، وأن تشتدَّ عليه الخصومات عندما عارض الكثير من آراء الأكثرية ومنها «الحقُّ لا يصيرُ حقّاً بكثرة معتقديه، ولا يستحيل باطلاً بقلة منتحليه» ولم يتخلَّ عن قناعاته التي جادَل ودافع عنها والتي أدّت إلى إحراق كتبه على مرأى من الناس في إشبيلية، وذلك عندما ألَّبَ العلماءُ والمعارضون المعتضد بن عباد حاكم إشبيلية. ومن الطبيعي أن تترك الحادثةُ عظيم الأثر. لكنه دافع عن نفسه وهاجم المعتضد في قصيدة طويلة حسبَ ما ورد في كتاب ياقوت الحموي «معجم الأدباء» في الجزء الثاني: وتهمُّنا هذه الأبيات

التي تكشف الكثيــر، وتعبِّر عن الأسى. ولا شــكّ أننا سنتفاعلُ معه، ونتأثَّرُ لهذا الموقف الذي نرى إعدام وإحراق الفكر ومصادرة الآراء بصورٍ بعيدةٍ عن المنطق وعن الجدل الحقّ وليس دفاعاً عن آرائه بل دفاعاً عن الموقف الذي تأباه النفس الإنسانية الحضارية.

فإن يحرقوا القرطاس لا يحرقوا الذي
تضمّنَهُ القرطاس، بل هو في صدْري
يسيرُ معي حيث استقلَّتْ رَكائبي
وينزلُ إنْ أنزلْ ويُدْفَنُ في قبري
دعونيَ من إحــراقِ رقٍّ وكاغَدٍ
وقولوا بعلمٍ، يرىَ الناسُ من يدري
وإلاّ فعودوا في المكاتب بداْةً
فكمْ دونَ ما تبغونَ للّهِ من سَتْرِ

من المؤلم أن تجد المفكِّرَ محاصَراً لتمسُّكــه بمواقفــه واعتــزازِهِ بآرائه ومن المؤلم أن تــرى المفكِّرَ مستكيناً ومتنازلاً عــن تكوينــهِ وشخصيته في سبيــل مكاسبَ لا تغنــي ولا تشبع من جوع. وابن حزم اختار الدّرْب الأصْعَبَ ولكنَّهُ الأنْظَفُ من وجهة نظرِهِ، ولذلك تجلّــى موقفُه ليكــون أمثولة في وجه أعداءِ الفكر فقال:

قالوا: تحفَّظْ فإنّ النَّاسَ قد كثرتْ
أقوالُهم، وأقاويلُ العِدى مِحَنُ
فقلتُ: هل عيبُهم لي، غيرَ أنّي لا
أقول بالرأي إذْ في رأيهم فتنُ
وأنّني مُوْلَعُ بالنّصّ لسْتُ إلى
سواهُ أنحو ولا في نصرِه أهِنُ
لا أنثني نحو آراءٍ يقال بها
في الدِّين، بل حسبيَ القرآنُ والسُّنَنُ
وحسبيَ اللّه في بدءٍ وفي عقبٍ
بذكرِهِ تُدْفَعُ الغمَّاءُ والإحَنُ

والقــارئ لسيرة ابــن حــزم والمتعمِّقُ بأفكارِه يرى مدى أهميَّته في فكرنا العربي الإسلامي.

مواقف الأدبــاء تبدو ذاتَ خصوصيَّةٍ وهــذا واردٌ، ولكنّهــا تصبّ فــي مسارِ المجتمعات والحياة دون تحديد لزمنٍ أو مــكانٍ أو لشخص. هي مواقف لو ذكرت دون أشخاصِها لتركت أثرها. لأن ما قيل فيها مؤثِّرٌ ومثيرٌ للأسى واللوعة ومدعاةٌ للتقريــع والاستغراب ولذلــك ما ذكرْتُها ليس على اعتبــار الأشخاص بل لاعتبار الموقف وما يستدعــي. وأقرُّ بأن هناك مواقــفَ أخرى للسان الدين بن الخطيب وأبي البقاء الرنــدي وابن حمديس وابن رشــدٍ وغيرهــم كثيــر. هــي محطّات ومنبّهات وحسب.

المراجع

١- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ابن بسام.
٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المقرِّي.
٣- وفَيَات الأعيان لابن خلّكان.
٤- ابن حزم الأندلسي، الدكتور زكريا إبراهيم.
٥- المعتمد بن عبّاد، علي أدهم.
٦- في الأدب الأندلسي، الدكتور جودت الرّكابي.
٧- ملامح الأدب الأندلسي، الدكتور عمر الدقّاق.

حرب اللغات هل خسرها العرب؟

❀
ديب علي حسن



شهد القرنان التاسع عشر والعشرون اهتماماً متزايداً باللغة العربية، حيث ادلهمت الأخطار المحدقة بها، وتعرضت للتتريك والفرنسة، وغزتها الأوضار من كل حدب وصوب، وتجمدت المفردات والأساليب وأصاب اليباس اللغة في مبناها ومعناها، حتى غدا السجع والمحسنات البديعية غاية بحد ذاتها، لا محسنات ولا أسلوباً بلاغياً يزين النص كما الملح في الطعام، إن زاد أضر، وإن نقص ظهر النقص واضحاً جلياً.

❀ كاتب وصحفي سوري.

هذه الحال، من العنت اللغوي والإهمال ناتجة عن ضعف الإنجاز المعرفي والفكري، وانعدام المساهمة العربية في الإنجاز الحضاري العالمي، وهذا يعني بالتالي إهمال اللغة ويباسها، الأمر الذي جعل الكثيرين من الكتاب والشعراء والمفكرين العرب يستنهضون الهمم ويشحذون العزيمة من أجل نهضة علمية وفكرية شاملة، تنعكس خيراً وتطوراً على اللغة العربية، وبالتالي الخروج من بوتقة الاتباع الذي فرض قسراً، أو ساهمت به الوقائع والمعطيات من خلال فرض مئات المفردات والمصطلحات الغربية والتركية على لغتنا العربية.

وهنا لابد، من التنويه بأهمية ما أنجزه الأدباء العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين من خلال التجديد والابتكار، وتخليص اللغة العربية مما علق بها من شوائب لا يمكن أن تبقى معها، وكان للصحافة دور هام في تجديد المفردات وجعل اللغة السهلة يومية التداول، والبحث عن مفردات مناسبة لكل ما هو وافد، الأمر الذي استدعى إنشاء المجامع اللغوية وأولها: المجمع العلمي العربي بدمشق (فيما بعد مجمع اللغة العربي).

هذا الوعي اللغوي المبكر، هو وعي حضاري ومعرفي، وصون لهوية الأمة ومعارفها وشخصيتها، والدفع بها قدماً نحو آفاقٍ أكثر رحابة في المساهمة بالإنتاج الفكري والعلمي، والقدرة على الانعتاق من أسر الآخر ومصطلحاته.

الغريب في الأمر، أن هذه الحال بدأت تتغير منذ منتصف القرن العشرين المنصرم، وغدت اللغة العربية مرقعة بألف شكل ولون، ولم تعد اللغة الأنقى والأصفى والأكثر قدرة على التعبير عن المصطلحات والعلوم والمعارف، بل يمكننا القول بكل يسر وسهولة: إن ما حققه أدباء ومفكرو القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، قد بدده الإهمال اللغوي، وعدم الانتباه إلى أهمية وصون اللغة والأخذ بها إلى مدارج الحياة، فغدت لغتنا في الكثير من المعاني والمباني يابسة، جامدة، لا حياة ولاتطور، ليس لعلة في مبناها ومعناها إنما لأن أبناءها غادروا عالم الفكر والحياة والإبداع، ودخلوا الاتباع والنقل، وانغمسوا في أتون لغات أخرى ظنوا أنها تعطيهم الهوية وجواز السفر إلى العالمية، فمنهم من صار يدندن ببضع كلمات غربية ليرطنها بمصطلح، وهو بالكاد يعرف لفظ بعضها، وحتى إنَّ بعض الباحثين ممن لايعرفون اللغات زينوا أبحاثهم بقائمة طويلة من المصطلحات الأجنبية لعلها تكون جواز السفر إلى لقب

باحث أو ناقد، الواقع هذا استدعى قرع جرس الإنذار، وكان لابد من الحديث عن الوعي اللغوي، والعمل قولاً لا فعلاً من أجل حماية اللغة العربية والارتقاء بها، ولاضير هنا أن نقف عند جوانب مبكرة من هذا الوعي اللغوي وقد نهض به كتّاب ولغويون سوريون حقيقيون همهم الارتقاء باللغة وصونها، ومن المعروف أن سورية الدولة الرائدة في تعريب التعليم وتقديم الشاهد على أن لغتنا العربية، قادرة على استيعاب علوم العصر ومعارفه مهما تطورت وتقدمت وتنوعت.

إمبراطورية اللغة:

في الحوار الذي أجري مع المفكر العربي المصري محمد حسنين هيكل (نشرته السفير) يقول المحاور: سألنا الأستاذ هيكل: هل أمريكا أعظم إمبراطورية في تاريخ البشرية؟ فأجاب قائلاً:

لا، أبداً. انكلترا هي أعظم وأكبر. في النفوذ والاقتصاد والتحول والعصر الصناعي. هي نشأت في وقت مثالي. فترة التجارة والصناعة والبحر. لا إمبراطورية وافقت زمنها وعصرها بقدر الإمبراطورية البريطانية. أمريكا قوية جداً لكن «ده كلام ساكت» كما يقولون. الحقيقة إن الإمبراطورية الحقيقية في التاريخ بعد الإمبراطورية الرومانية هي الإمبراطورية البريطانية.. لكل إمبراطورية نهاية بالسيطرة ولكن ليس بالنفوذ. الإمبراطورية البريطانية باقية بقوة ما دامت اللغة الإنكليزية باقية. الإنكليزية صارت لغة التكنولوجيا وهذا من حظهم. الإمبراطورية باقية باللغة. ليس بالضرورة أن تبقى بالقواعد والجغرافيا. يجب أن نسلم أن الإمبراطوريتين البريطانية والرومانية هما نموذجان مهمان ومختلفان تاريخيا. الوعاء لكل حاجة هو اللغة. حظ الإنكليز أن الثورة التكنولوجية قد منعت سقوطهم. فالإنكليزية هي اللغة المعتمدة في وسائل التواصل والتقنيات والإعلام واللغة السائدة هي اللغة الإنكليزية.

قلت مرة لمارغريت تاتشر: أنتم فقدتم إمبراطورية في الجغرافيا ولكنكم وجدتم إمبراطورية في اللغة. قالت لي: ما أصح هذا الكلام!

هذا ما قاله هيكل، وهو حقيقة واقعة لامناص من الاعتراف بها، فاللغة الإنكليزية هي الآن الإمبراطورية الأكثر انتشاراً واتساعاً، ما جعل أحد القادة البريطانيين يقول ذات يوم: إن استدعى الأمر فإن بريطانيا تتنازل عن إمبراطوريتها ولا تتنازل عن شكسبير، وهذا يعني تحصيل حاصل

أن شكسبير درة اللغة الإنكليزية، ومخزنها اللغوي، (الإمبراطورية الإنكليزية)، وكون اللغة الحامل الأساس للفكر، فما تريده بريطانيا سيجد وبطريقة سلسة دروباً إلى العقول والقلوب.

ولا نأتي بجديد إذا ما ذكرنا بأن أجدادنا العرب قد وعوا هذه الأهمية للغة، وانكبّوا على جمع مفرداتها في قواميس ومعجمات، ووضعوا النحو ودرسوا خصائص اللغة وأساليبها، يضاف إلى ذلك وعيهم بضرورة معرفة اللغات الأخرى وخلصوا إلى هذا الوعي بالقول: من عرف لغة القوم أمن شرهم، والشر هنا يمكن أن نوزعه إلى مفردات واسعة وهامة، ونضيف إلى القول أيضاً: كسب علومهم ومعارفهم ومهاراتهم.

وإذا ما استعرضنا بعضا مما قيل باللغة العربية ودلل على وعي لغوي مبكر وعلى سعة الرؤيا والاستشراف فإننا نقف عند بعض ما قاله الأوائل من جيل الفصاحة والبيان، فها هو أبو بكر الصديق يقول: لأن أقرأ فأسقط أحب إلي من أن أقرأ فألحن، وبدوره عمر بن الخطاب يقول: تعلموا العربية فإنها من دينكم، وكان علي بن أبي طالب أول من دفع أبا الأسود الدؤلي إلى وضع علم النحو من أجل ضبط إيقاع اللغة وصونها بعد أن شاع فيها اللحن.

والعالم البيروني يقول: والله لأن أُهجى بالعربية أحب إلي من أمدح بالفارسية، وهذا ليس من باب التعصب والشوفينية أبداً، إنما لأن اللغة العربية كانت حينذاك لغة المعارف والعلوم والابتكارات.

هذا الوعي، ليس حكراً على العرب الذين صانوا لغتهم وحموها، إنما هو زرع عالمي، فالغرب الذي يحتكر الآن العلوم والمعارف ويقدم نفسه المركز والمحور لكل العلوم والمعارف عمل على نشر الوعي اللغوي والاعتزاز باللغة التي تتكلمها كل دولة غربية بحد ذاتها بعد أن تمزقت اللاتينية وصارت أشلاء ولغات.

يرى فختة (اللغة تجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصاً خاضعاً لقوانين، إنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم من الأجسام وعالم الأذهان).

أما فوسلر فيذهب أبعد من ذلك: (إن اللغة القومية وطن يؤوي من حرم وطنه على الأرض).

نعم اللغة وطن، ومن تنقطع أسباب صلته بلغته فقد وطنه، وقيمه ومعارفه وتراثه وأعز ما يملك، من معارف وعلوم وغير ذلك، لذا تجد من يهاجر إلى بلد لايعرف لغته، تجده تائها في محيط لجب من الحيرة والاغتراب إلى أن يتعلم شيئاً من

لغة الوطن المهاجر إليه وتبقى لغته الأصل والأم ملاذه الحقيقي.

وربما من الفائدة بمكان أن نذكر أن مجلس الثورة الفرنسية دعا مواطنيه إلى توحيد اللغة الفرنسية والقضاء على اللهجات وجعلها لغة واحدة (اللغة حارسة الإيمان كونوا مسيحيين صالحين وناطقين بالفرنسية).

أيد هذا الموقف الراهب (غريغوري) الذي دعا إلى تسليم المواقع الرسمية أي الوظائف العليا إلى من يحسنون الفرنسية (إن مبدأ المساواة الذي أقرته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظيف أمام جميع المواطنين ولكن تسليم زمام الإدارة مبدأ المساواة فيترتب على الثورة والحالة هذه - أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية، وذلك بمحاربة اللهجات المحلية ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين).

حروب لغوية

لم ينتبه العرب إلى أن ثمة حرباً لغوية تخاض ضدهم، وهي ليست ضد لغتهم فقط، إنما شأن عالمي بين اللغات كافة، ولكنها موجهة إليهم أكثر من غيرهم، والفرنسيون هم الأكثر براعة في هذه الحروب والعمل على تطوير أسلحتها وأدواتها، والدفع بها قدماً إلى ساحات أُخرى، وليس من باب المصادفة أنهم هم من طرح قضية تحريم البحث في أصل نشأة اللغات، أهي اصطلاح أم محاكاة للأصوات، أم كما يقول العرب: (وقف من السماء، وعلم آدم الأسماء كلها) الأمر الذي يستدعي توقف عملية البحث أيضاً توقف الاستعارات الفرنسية من اللغات الأخرى وغير ذلك من قضايا تشغل اللغويين، لكن ذلك لم يثنهم من العمل على صون لغتهم وأصدروا القرارات التي تحميها وترتقي بها، وقد أشرنا في البداية إلى بعض مما قاله الفرنسيون في هذا المجال، ولابأس أن نشير أيضا إلى المزيد مما فعله الفرنسيون وكان وعياً مبكراً لأهمية اللغة يورد لويس جان كالفي في كتابه (حرب اللغات والسياسات اللغوية،) أن (الهم الأكبر للدولة - الفرنسية-في المجال اللغوي بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر، أن تؤمن تفوق الفرنسية وسيطرتها على اللغات الأخرى، في داخل فرنسا وقد صدر قرار عام ١٥٣٩م في شهر آب ينص القرار -وهو المشهور- على أن الأحكام القانونية ينبغي اعتباراً من تاريخه أن (تعلن وتسجل لأصحاب العلاقة باللغة الفرنسية الأم) وهناك أيضاً قرارات أخرى أبعد من ذلك، ومن المعروف أن شارل التاسع جدد

هذه التعليمـــات في المادة (٣٥) من القرار المعــروف بقرار منطقة روسيون ووسع بعد ذلك نطاقهــا لتشمل الأحكام الكهنوتية في عام ١٦٢٩م وتــمّ فرض استخدام الفرنسية في منطقة بيـــارن عام ١٦٢١م وفي منطقة فلانـــدر وفـــي الألزاس وفـــي روسيون عام ١٧٠٠ثم عام ١٧٥٣م.

وكانت الثورة الفرنسيـــة أصدرت قراراً يمنـــع كتابـــة أي قـــرار أو عقـــد إلا باللغة الفرنسية، ومن يخالف ذلك يحكم بالسجن لمدة ستـــة أشهر، والموظفـــون المخالفون يقالون مـــن وظائفهم، استمرت هذه العناية باللغـــة الفرنسية، إذ لم تكـــن موسمية كما لدينا ولم تتـــم القرارات في الأدراج وتخبأ، بل تـــم تفعيلها والحرص عليهـــا لأن صون اللغة من السيادة.

وعلـــى سبيل المثـــال، أيضـــا كما يورد صاحب كتاب (حرب اللغـــات)، فإن فرنسا أصدرت قـــرارات تتعلق باللغـــة وذلك عام ١٩٧٣ وعـــام ١٩٨٠م وقـــد عملـــت هـــذه القرارات على أن تحل المفردات الفرنسية محل الألفاظ الإنكليزية في مجالات شديدة التنوع كالوسائل السمعية البصرية، والأشغال العامة، والنفط والنقل، والحوسبة، والطب وعلم الملاحة الفضائية، وغيرها، ثم صدرت قرارات وزاريـــة أخرى متعلقة بمصطلحات السياحة ١٩٨٢/٣/١٧م والاتصالات السلكية واللاسلكيـــة: ١٩٨٢/٤/٢٧م، والدعايـــة والاشهار والرصـــد، وليت الأمر توقف عند ذلـــك بل وصل إلى المسنيـــن إذ صدر قرار بالمفردات التـــي يستخدمها هؤلاء بتاريخ: ١٩٨٥/٣/١٣م.

وفـــي مـــوازاة اقتراحـــات التوليـــد المصطلحـــي صـــدرت قـــرارات تشريعية جديـــدة فيهـــا نصوص جزائيـــة، كالقانون المتعلق باستخـــدام اللغة الفرنسية الصادر فـــي ٣١كانـــون الأول عـــام ١٩٧٥ ويعرف بقانون (با) والذي يسمح بتغريم المؤسسات التـــي لا تستخـــدم الفرنسية فـــي فرنسا، والقانون يفرض استخـــدام اللغة الفرنسية في النصوص المكتوبة، وفي النقوش ويمنع اللجوء إلى عبـــارات أجنبية حين تكون لها ألفاظ فرنسية مكافئة في المجالات التالية: العرض والطلب للسلع والخدمات، الأخبار وعرض البرامج في الإذاعة والتلفزة.

مؤسسات داعمة (الفرنكفونية)

لم يكتـــف الفرنسيون بالقـــرارات التي أصدروهـــا عبـــر خمسة قرون مـــن الزمن ونيـــف، وحرصوا على وضع عقوبات رادعة لمن لاينفذها، لم تبـــق حبراً على ورق، لا، بـــل عمدوا إلى دعمها من خلال عمل فعال

وحقيقي يستطيع أن يؤسس لانتشار لغوي وثقافي ليس في فرنسا وإنما حيث امتد نفوذها، وحيث يجب أن تصل كما يرى قادتها، بمعنى آخر: إنه نوع من الاستعمار الثقافي المنظم، وربما الجاذب للمئات ممن يرون بفرنسا دولة الفكر والحضارة والثقافة، وبلد كل ماهو جديد في الفنون والآداب والمعارف، ولاسيما الفلسفة، ومما سموه الحرية الفكرية والتنوير والحداثة وما بعدها، وصرعة المذاهب الأدبية والفكرية، هذه الأجواء أدت إلى ماسمي الفرنكفونية الناشطة ثقافيا وفكريا، وهي بالوقت نفسه تلعب دوراً سياسياً داعماً لفرنسا حيث تنتشر.

ظهر مصطلح الفرنكفونية في القرن الماضي، بمعنى شبيه بالمعنى كما يرى صاحب كتاب (حرب اللغات) إذ يقول: ابتدع اللفظة أونزيزيم ريكلو في أثناء تصنيفه لسكان العالم انطلاقاً من اللغة التي يستخدمونها، هذه اللفظة التي ولدها عالم الجيولوجيا عادت إلى الظهور في عام١٩٦٢م، بقلم رجل دولة وشاعر هو ليبولد سنغور، وستأخذ الفكرة شكلها السياسي شيئاً فشيئاً، عبر إنشاء عدد من المنظمات الفرنسية أو الدولية التي يمكن الإشارة إليها وكان ذلك في عهد رئاسة شارل ديغول وجورج بومبيدو للجمهورية الفرنسية، أما المنظمات العابرة للحدود فهي:

– ١٩٦١م/ تم إنشاء رابطة الجامعات التي تتعامل بالفرنسية كلياً أو جزئياً.

–١٩٦٦م/ إنشاء اللجنة العليا لحماية الفرنسية ونشرها التي أصبحت في عام ١٩٧٣ اللجنة العليا للغة الفرنسية.

– ١٩٦٧م/ إنشاء الرابطة الدولية للبرلمانيين الناطقين باللغة الفرنسية.

– ١٩٦٧م/ أيضاً إنشاء المجلس الدولي للغة الفرنسية وعقد أول اجتماع من الاجتماعات الدورية في كل عامين للغة الفرنسية.

– ١٩٧٠م/ إنشاء لجنة التعاون الثقافي والتقني.

– ١٩٧٣م/ إنشاء لجنة الفرنكفونية.

– ١٩٧٤م/ إنشاء اللجنة الوزارية المشتركة للشؤون الفرنكفونية.

يضاف إلى ما سبق كله وعلى شكل متتابع إلى يومنا هذا اجتماعات دورية لمؤتمرات البلدان الناطقة بالفرنسية وتشمل وزارات التربية والثقافة والشباب والصحة، وإنشاء جمعيات مهنية فرنكفونية مختلفة.

هذه الآراء في الوعي اللغوي التي يوردها الأستاذ مازن المبارك في كتابه:

نحو (وعي لغوي)، في طبعته الأولى، لم تكن الآراء الحصرية أبداً، إنما ثمة قائمة تطول ولا تنتهي في هذا المجال، وقد وعاها المفكرون العرب في القرن العشرين من خلال ما قاموا به من إنجازات على أرض الواقع، وأيضاً الدراسات المستقبلية للغة العربية من خلال آراء واستطلاعات شملت عينات واسعة من الكتّاب والمفكرين والعلماء والمستشرقين والشعراء.

ولابد من الإشارة إلى أن الجهد الفرنسي لنشر لغتهم خارج فرنسا عن طريق إنشاء هيئات متعددة وتخصيص أموال كبيرة للعمليات اللغوية والتربوية مثل: إعداد حلقات تلفزيونية مدرسية معدة للخارج والمساعدة على نشر الكتب المدرسية، وكان هذا الجهد يتطور بمقدار تطور الخطاب الذي يحذر من أخطار اختراق اللغة الإنجليزية للفرنسية.

وهنا لابد أن نذكر إضافة إلى ذلك انتشار المراكز الفرنسية خارج فرنسا، وعملت فرنسا بمواجهة الثقافة الأميركية إلى دعم السينما والمعاهد الخارجية وخصصت أكثر من ثلاثة مليارات يورو لدعم اللغة الفرنسية في خارج فرنسا ودعم المراكز الثقافية.

وعي عربي مبكر ولكن؟

كما أسلفنا في البداية من هذا المقال، فإن العرب وعوا أهمية اللغة العربية، لأنها أولاً لغة القرآن، وحافظة تراثهم وعلومهم ومعارفهم، ورأينا الجهد المبذول في القرنين التاسع عشر والعشرين من أجل نهضتها والارتقاء بها، جرى استفتاء هام توجه بالسؤال إلى مجموعة من الكتّاب والباحثين والمستشرقين، من أجل رسم ملامح اللغة العربية في المستقبل، وكانت الأسئلة محددة كالتالي:

- **ما هو مستقبل اللغة العربية في نظركم؟**
- **وما عسى أن يكون تأثير التمدن الأوروبي والروح الغربية فيها؟**
- **وما يكون تأثير التطور السياسي الحاضر في الاقطار العربية؟**
- **هل يعم انتشارها في المدارس العالية وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم؟**

وهل تتغلب على اللهجات العامية المختلفة وتوحدها؟

وما هي خير الوسائل لإحيائها؟

من النظرة الأولى لهذه الأسئلة ومقارنتها بحال اللغة العربية اليوم، يرى المرء مقدار التعثر الذي أصاب لغتنا، وبالوقت نفسه يجد نفسه أمام الأمراض التي تعانيها

اللغة اليوم، ويجد بعض الإجابات وقد تحققت ليس من خلال الكتّاب والمبدعين والمفكرين الذين أدلوا بما لديهم، لا، بل من خلال التجربة السورية في التعليم باللغة العربية، وقدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم كلها، والإبداع في هذه العلوم.

وبالعودة إلى إجابات المستفتين يمكن الإشارة سريعاً إلى ما قاله الأب لامنس، يدل على خبث ما كان يخطط له الغرب نحو الشرق، وتحديداً نحو اللغة العربية، يرى لامنس أن مستقبل اللغة العربية يتوقف على اتحادها اتحاداً وثيقاً بالمدنية الغربية.

ويذهب إلى دعوة العرب إلى ضرورة تعلم اللغات الأجنبية والعناية بها، والأخطر أنه يرى أن التعليم باللغة العربية يجعل البلدان العربية تنعزل شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة إذ تصبح اللغة الوطنية حاجزاً دون مواصلة التقدم. التراث العربي الأصيل. طرحه من جديد على بعض المفكرين والكتّاب العرب، كلهم تحدثوا عن ضرورة الوعي اللغوي، وربطوا تطور اللغة العربية بمقدار ما ينتجه العرب من علوم ومعارف وثقافات.

ولكن ما هو واقع الحال، وإلى أين نتجه بلغتنا وثقافتنا وفكرنا ونحن نعيش الثورة العلمية والمعرفية وتدفق السماء المعلوماتي، وحرب المصطلحات.

ماذا فعلنا؟

ربما علينا أن نسأل ما جدوى التنظير والقرارات والإجراءات التي اتخذها العرب من أجل لغتهم، وفي سبيل الارتقاء بها؟ عملياً لم يقصر الباحثون والمفكرون العرب أبداً في الحديث عن الوعي اللغوي وضرورة الاهتمام باللغة العربية قولاً وفعلاً فها هو طه حسين يحذر أولئك الذين لايتقنون لغتهم العربية: إن المثقفين العرب الذين لم يتقنوا معرفة لغتهم ليسوا ناقصي الثقافة فحسب، بل في رجولتهم نقص كبير ومهين أيضاً.

وهل أشد من ذلك وجعاً واتهاماً وربط اللغة بالرجولة، الرجولة بالمعنى الفكري والثقافي، واللغة هذه حسب مصطفى صادق الرافعي هي: مظهر من مظاهر التاريخ، والتاريخ. صفة الأمة كيفما قبلت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها وجدتها الصفة الثابتة التي لاتزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها.

ومن نافلة القول إن التطور اللغوي إنما يرتبط بتطور الأمة وقدرته على الإبداع والإنتاج ومساهمته في الثقافة والاقتصاد والابتكار العلمي والمعرفي العالمي، ومدى قدرته على الضخ المعرفي في الشابكة

التي غدت الآن مخزناً معرفياً وعلمياً، ومدى حاجة الآخر إلى تعلم لغته من أجل التواصل والتفاعل، وهنا لا نأتي بجديد إذا ما قلنا أننا كأمة عربية في الدرجات الدنيا لهذا السلم، لذلك نعاني من فوضى لغوية ومصطلحية، لم يكفنا ما يترجم من مصطلحات غير مضبوطة على الرغم من انتشار المجامع اللغوية العربية، ومراكز التعريب، ولجان المصطلحات وغيرها من المؤسسات التي تعنى بالشأن اللغوي لكنها حقيقة غير فاعلة على أرض الواقع، لأن العمل المشترك من أجل صون اللغة وحمايتها والارتقاء بها، لايأتي عبر التسلسل الذي يجب أن يأتي منه، فالأسرة والمدرسة والجامعة الركن الأساس لهذ الوعي، وهذه الأركان غير معنية حقيقة بشيء مما تحدثنا عنه، إذ غالباً ما تجد مدرس اللغة العربية يقدم درسه باللهجة العامية، فكيف بغيره، ولايشكل الهمّ اللغوي عندهم شيئاً، ولاقيمة له أبداً.

ومع ذلك فإن الإشارة إلى المنظمات العربية المعنية بالتربية والثقافة والعلوم عنيت بهذا الشأن، تدعمها المجامع اللغوية العربية، وأقدمها المجمع اللغوي العربي بدمشق، ومن يراجع الكتب التي تعنى بهذا الشأن يقف على عشرات التوصيات التي طرحت، وكان يجب الأخذ بها، لكنها بقيت حبراً على ورق.

التجربة السورية

كانت سورية السباقة دائماً في هذا الإطار، ولاسيما في مجال التدريس باللغة العربية، ومعروفة تجربتها الخلاقة في هذا المجال، ولن نقف عندها لأنها أخذت مدارها وأتت ثمارها، لكننا نتحدث بإشارات سريعة عمّا جرى في العقود الأخيرة من هذا القرن وما سبقه.

في كتابه الهام: (في سبيل اللغة العربية) يقف الأستاذ الدكتور محمود السيد عند محطة هامة من محطات الاهتمام باللغة العربية في سورية إذ يشير أنه عندما تبين أن ثمة ضعفاً في الأداء اللغوي لدى المتخرجين من الجامعات صدر المرسوم الجمهوري عام ١٩٨٣م الذي ينص على تدريس اللغة العربية في المرحلة الجامعية الأولى في سنوات الدراسة في الكليات والمعاهد العليا في سورية، ما عدا قسم اللغة العربية والسنوات الأخيرة في كلية الطب البشري.

وكانت اللجنة الثقافية برئاسة مجلس الوزراء عام ١٩٨٤م أوصت بضرورة العناية باللغة العربية في جميع الكليات الجامعية

واختيار المعيدين وأعضاء الهيئة التدريسة من الذين يحسنون العربية في التدريس، واعتماد شرط إتقان اللغة العربية في ترقية أعضاء الهيئة التدريسية وذلك في مؤلفاتهم وبحوثهم وتدريسهم.

ومع ذلك كما يقول الدكتور السيد: بقيت الشكوى من ضعف الأداء اللغوي مستمرة فما كان من القيادة إلا أن أصدرت القرار الجمهوري ذا الرقم /٤/ الرامي إلى تشكيل لجنة تمكين للغة العربية والمحافظة عليها، والاهتمام بإتقانها، والارتقاء بها، وحدد القرار الجمهوري مهمة اللجنة متمثلة في إنجاز خطة عمل وطنية تستهدف التمكين للغة العربية والحفاظ عليها والاهتمام بإتقانها والارتقاء بها، ومتابعة خطوات التنفيذ بالتعاون مع الجهات المعنية.

هذا وقد وضعت اللجنة خطة وطنية لتمكين للغة العربية شملت مختلف المؤسسات والوزارات المعنية،، ويأتي في مقدمتها: وزارة التربية / التعليم/ الثقافة/ الإعلام الأوقاف، وغيرها....

أما الحديث عن الخطوات العملية على أرض الواقع فهي حقيقة فاعلة لو أنها تدعم بقرار ملزم، وقد عبر الدكتور محمود السيد عن هذا الشأن إذ يقول: (إني لعلى يقين بأن العبرة ليست في كثرة التوصيات، إنما هي في التنفيذ، وكلي أمل في أن تعمل الجهات المعنية على إنفاذ بعضها، وياليت قرار هذا الإنفاذ كان بيدنا، ورحم الله الدكتور طه حسين القائل: من المؤلم حقاً أن تكون لديك الرغبة، ولكن ليس بيدك القرار).

ويختم هذه الحسرة مستشهدًا ببيت من الشعر كان يردده الراحل عبد الكريم اليافي:

لم يبق شيء بأيدينا سوى لغة
نصونها بسواد القلب والهدب

ولعلنا لانبالغ، إذ استعرنا من لويس جان كالفي عنوانه وقلنا: إنها الحرب اللغوية، ونحن خسرناها مبدئياً، وما في الزاد ليس إلا بقايا لغة عربية نقية لن تبقى طويلاً، لأننا أبناء الحياة، واللغة بنت الحياة، وهي كائن حي ينمو بنمو متحدثه، وينتشر بانتشار فكره وإبداعه، وبمقدار مايصل إلى العالم تصل اللغة التي تستعملها، واللغة العربية وإن كانت تحتل المرتبة الرابعة عالميا من حيث الانتشار، فإن هذا ليس مقياساً أبداً، يدل على أنها بخير وعلى أنها مصانة من قبل أبنائها ومتحدثيها، الأمر مختلف تماما، له أسبابه، وعوامله التي يمكننا الوقوف عندها في مرات قادمة.

اللغة العربية في حرب اللغات تخسر ويخسر أبناؤها فكراً وثقافة وتراثاً،

ويصابون بالجمود والتكلس، ورصيدها الهائل من المفردات والأساليب لن يكون ذا فائدة بعد نصف قرن من الزمن، لأن الحياة بتطور هائل، وما لقيه العلم من إنجازات معرفية وتقنية لايساهم فيه العرب إلا بالنزر اليسير، ومن المعروف أن من ينجب الولد يطلق عليه الاسم، وكوننا لا نساهم إلا بالقليل في هذه الإنجازات، فإن ما نضخه من مصطلحات هو نزر قليل، وبالتالي فإننا نستورد المنجز واسمه، وندخله بيوتنا وحياتنا، وربما نعجز عن الاتفاق على مصطلح واحد، يتم تداوله في أرجاء الوطن العربي.

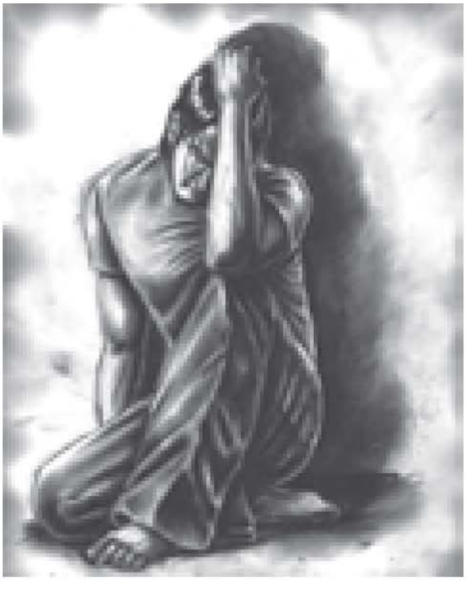
ناهيك عما يمثله التحدي الأكبر من الآلام وما يضخه من مصطلحات ومفردات لنا عودة إليها، يضاف إلى ذلك مشكلة العامية وأساليب التنفير من اللغة، واليوم يضاف إلى هذه المشكلات نتاج الحرب الإرهابية على سورية وما ضخته من مفردات ومصطلحات، هي موضوع القراءة والتحليل من خلال مفهوم العنف اللغوي، ونحن في حرب ثقافية ولغوية ومعرفية، حرب وجود، لدينا إستراتيجيات للنهوض بلغتنا وثقافتنا ونحتاج كما قال الدكتور السيد إلى انفاذ القرارات وإلى أن نفعل ذلك نسأل: هل فعلاً عبقرية الأمة بلسانها كما قال الأرسوزي وأن هذه الأمة تخلت عن عبقريتها ولسانها وصار حالها إلى الأسوأ وطحنتها حروب الكلمات على رأي نزار قباني، وأي دور أدَّته هذه الحروب القذرة، وما فعلت باللغة العربية، وما مصيرها بعد نصف قرن من الزمن، أليس من حقنا أن نبحث في الدلالات المتغيرة للمعاني والمفردات والمصطلحات؟

المراجع

- نحو وعي لغوي، مازن المبارك، مكتبة دار الفارابي.
- اللغة العربية والوعي القومي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة، بيروت ١٩٨٦م.
- فتاوى كبار الكتّاب والأدباء العرب في مستقبل اللغة العربية، سلسلة آفاق ثقافية، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٣م.
- في سبيل العربية، د.محمود السيد، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق ٢٠١٥م.
- حرب اللغات والسياسات اللغوية، لويس جان كالفي، ترجمة د.حسن حمزة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٨م.

اضطراب ما بعد الصدمة النفسية

❀
د. معمر نواف الهوارنة



إنَّ تعرض الإنسان لخطر مفاجئ أو رؤية مشهد مفزع أو سماع خبر مفجع يتسبب في حدوث صدمة نفسية للمتلقي. وكلمة «صدمة» تستخدم عادة للتعبير عن التأثر النفسي الشديد وتعريف هذه الحالة المعروفة بـ «Trauma» بشكل مبسط: هي حالة من الضغط النفسي تتجاوز قدرة الإنسان على التحمل، والعودة إلى حالة التوازن الدائم بعدها من دون آثار مترسبة؛ وقد قام المختصون بتعريف الصدمات النفسية بأشكال مختلفة يعتمد كل منها

❀ أستاذ مساعد بقسمي علم النفس والتربية الخاصة كلية التربية - جامعة دمشق.

على التجربة الفردية الخاصة نحو الحدث، أو حدوث الإصابات الجسدية والمفاجآت الخارقة للعادة، فتجعل الإنسان في مواجهة الخوف من الموت أو الإبادة أو الإيذاء بشتى أشكاله.

وتُعدّ الصدمات التي يتعرض لها الإنسان بفعل الإنسان أقسى مما يتعرض له من جراء الكوارث الطبيعية وأكثر رسوخاً في الذاكرة، ويزداد الأمر صعوبة إذا تكررت هذه الصدمات لتتراكم في فترات متقاربة. ومن معوقات الكشف عن هذه الحالات هو أنه يصعب عليهم التعبير عن الشعور، أو الحالة النفسية التي يمرون بها بسبب حالة الجمود التي يشعرون بها عقب الصدمة بينما يختزلها العقل وتؤدي إلى مشاكل نفسية عميقة خاصة إذا لم تتمكن البيئة المحيطة بهم من احتواء هذه الحالات، ومساعدة الشخص على تجاوزها. والحدث الصادم عادة حدث لا يوقف له على حال ولا يمكن التحكم به وهو يحطم إحساسنا بالأمن ويتركنا عرضة للإصابة وفي حالة مضطربة ولا داعي لأن يكون الحدث حدثاً يتعرض له الشخص بصورة مباشرة فنبأ وفاة مقرَّب إلينا أحياناً، أو مشاهدة اعتداء إرهابي على شاشة التلفاز يمكن أن يكون حدثاً صادماً. ويتعافى معظم من يتعرضون لحادث صادم بعد بضعة أشهر أو أكثر دون أن يحتاجوا لمساعدة معينة، فالعقل كالجسم يعرف كيف يتعافى من الإصابات؟ وكيف يتغلب عليها؟

تعريف اضطراب ما بعد الصدمة PTSD:

تعرف اضطرابات ما بعد الصدمة بأنها أعراض نفسية وجسمية مؤلمة يعانيها الإنسان بعد تعرضه لصدمة نفسية شديدة بسبب فقد شخص عزيز أو ضياع ثروة، أو مرض صديق أو فصل من عمل أو طلاق أو تصدع أسرة أو حادث فظيع كالكوارث والحروق أو غيرها من الأحداث التي تصيب الإنسان في نفسه أو ماله أو وطنه أو دينه أو تجعله مأزوماً أو مصدوماً أو مكروباً.

تعريف «DSM-IV» لاضطراب ما بعد الصدمة:

يعرف «DSM-IV» اضطرابات ما بعد الصدمة التي يعرفها على أنها الأعراض التي تتبع التعرض لضاغط صدمي شديد يشمل الخبرة المباشرة للشخص الذي يتعرض للحدث الذي يضم تهديداً حقيقياً أو متخيلاً أو جرحاً خطيراً أ وأي تهديد لجسد الشخص نفسه أو لشخص آخر أو مشاهدة الحدث الذي يشمل الموت،

أو العلم عن مـوت عنيف، أو غير متوقع أو إيـذاءً خطيراً أو تهديـداً بالموت أو إلحاق الجـرح أو الإيـذاء بفرد قريـب أو عزيز. ويمكن تعريفه أيضاً بوصفه رد فعل الشخص نتيجة تعرضه بشكل مباشر، أو غير مباشر لتهديـد قوي لجسده أو نفسـه أو لتعرضه لحـدث صـادم أو رؤية مشاهـد عنيفة أو سمـاع أصـوات مخيفة تجعلـه في خطر أو يشعـر أنه في خطر شديـد. والصدمة النفسية هـي ردود الأفعال السلبية وخاصة الانفعـالات السلبيـة كالغضـب والحـزن والخـوف وبعضـ الاضطرابـات النفسية والجسميـة «السيكوماتية» كالصداع والأرق وفقـدان الشهية وغيرها من الأعراض. أي بمعنى حادث صادم يهاجم الإنسان، ويخترق الجهـاز الدفاعي لديه مـع إمكانية تمزيق حياة الفرد بشدة، وقد ينتج عن هذا الحادث تغيرات في الشخصية أو مرض عضوي إذا لم يتم التحكم فيـه بسرعة وفاعلية وتؤدي الصدمة إلى نشـأة الخوف العميق والعجز أو الرعب.

أمَّا منظمة الصحة العالمية «WHO» فتحدد اضطراب الضغوط التالية للصدمة في التصنيـف الدولي العاشر (ICD-١٠) علـى نحو يتفـق إلى حد كبيـر مع تحديد الرابطة الأمريكية للطب النفسي فيما يلي:

ينشأ اضطراب الضغوط التالية للصدمة على أنه استجابة متوقعة، أو متممة لحدث أو موقـف ضاغط ويتصـف بأنه ذو طبيعة مهـددة أو فاجعة ويحتمـل أن يتسبب في حـدوث ضيق وأسىً شديدين غالباً لدى أي فرد يتعرض له.

كل واحـد منا يتعرضـ لأحداث صادمة بشدات مختلفة في مراحل حياتنا المتعاقبة ولكن استجابتنـا للصدمات تختلف من فرد إلـى آخر، ومن ظرف إلـى آخر. ويعود هذا الاختلاف إلـى جملة من العوامـل منها ما يتعلق بالفرد نفسه ومنها ما يعود إلى خصائص الحدث الصادم نفسه، ومنها ما يتوقف على الظـروف المحيطة بالصدمـة بشكل عام. وتبيـن الدراسات أن أهم العوامل التي ترفع احتمال تفاقم آثار الصدمات ما يلي:

١- ارتفـاع الخسـارة، أو الأذى اللاحق لهـا: كلما ارتفعـت شـدة الأذى الجسدي، والمادي والمعاناة النفسية المرافقة للحدث الحاسـم زاد هذا من احتمـالات فقدان أو تحطم إيمان المصـاب بقيم كانت أساسية لديـه كفقدان مصادر التـوازن والاستقرار النفسي الداخلي في حياة الفرد.

٢- تعـدد مجالات الحيـاة التي تتأثر بهـذه الأحـداث «الأسرة، العمـل، الحياة الاجتماعيـة»، ومن أهم الأحداث الحاسمة

التي تصيب مجالات الحياة كلها: «الحروب، الكوارث الطبيعية، السجن، الاعتقال».

٣- درجة العجز أو مشاعر العجز التي تثيرها عند الفرد بعد الحدث وفي أثنائه.

٤- درجة الدعم الاجتماعي «الرسمي والفردي» المتاحة للفرد في أثناء الحدث وبعده.

٥- التعرض لتهديد جدّي مباشر لحياة الشخص نفسه، أو لحياة أحد المقربين منه.

٦- طول فترة التعرض للحدث الصادم «التعذيب، الاضطهاد المستمر، تعدد الاغتصاب».

كيف يتشكل اضطراب ما بعد الصدمة؟

١- النموذج السيكولوجي:

حاول كل من «غرين وويلسون» أن يصيغا أنموذجاً نفسياً، واجتماعياً لتفسير اضطراب ما بعد الصدمة، وهم يعتقدون بأن مصير الصدمة يتوقف من جهة على حدّتها وطبيعتها؛ ومن جهة أخرى على شخصية المصدوم ودور البيئة إذ كلما كانت العوامل النفسية والبيئية ملائمة كلما كان المصدوم قادراً على تخطي آثار الصدمة واستعادة التكيف إلى حدٍّ معقول. ومن المؤسف أن نقول: بأن ضحايا الكوارث الطبيعية بصورة خاصة هم الذين يلقون الاهتمام والعون من جانب الأفراد والمنظمات والجمعيات الإنسانية بعكس ضحايا التعذيب والحروب والاعتداء، وهذه الحالة تنطبق مثلاً على الجنود الأمريكيين الذين قاتلوا في الفيتنام. فالمجتمع ينظر إليهم نظرة احتقار ويعتبرونهم جماعة من المنحرفين والمجرمين.

٢- نظرية التعلم والتشريط:

هناك نوعان من التعلم القائم على الإشراط:

أ. **التشريط الكلاسيكي** الذي يدرس ردات فعل الجسم أو الكائن إزاء ضغوط البيئة «المنبهات»، وفيه يكون الشخص خاضعاً لتلك الضغوط وليس له الخيار في تبديلها «بافلوف».

ب. وهناك **التشريط الفاعل «سكينر»** بحيث يكون فيه الشخص قادراً على التحرك والرد على منبهات البيئة بالشكل الذي يراه مناسباً. وكلما كان الرد صحيحاً يكون التعزيز «مكافأة» حافزاً لاستمرار العمل والعكس بالعكس.

إنَّ الشخص المصدوم «حرب، تعذيب، اغتصاب» يحاول أن يهرب من المنبهات التي تذكّره بالصدمة «التجنب» وهذه المنبهات قد أصبحت مؤلمة للشخص لأنها اقترنت مثلاً بعمليات التعذيب أو تزامنت معها.

من هنا يبدو أن الماضي المؤلم «للتجربة الصادمة» يستمر عبر الحاضر والمستقبل وكأن الصدمة تطغى على كل شيء بحيث لا يعود التفكير المنطقي يعمل بشكل سليم. إن النموذج السلوكي يساعدنا إذن على فهم اضطراب ما بعد الصدمة من خلال نظرية التشريط، فالصدمات والنكبات والحروب وأعمال العنف تُعدّ منبهات مطلقة غير مشروطة تؤدي إلى استجابة الخوف وردّات فعل فيزيولوجية مطلقة.

٣- النموذج المعرفي:

يرمي النموذج المعرفي إلى إدراك معنى الحدث عند الشخص وكيف تظهر لديه المعاناة، ويبدو أن هذا الأمر يتوقف على نظرة الشخص إلى ذاته والعالم. هنا ندخل في صلب القيم والمعتقدات والنماذج المعرفية التي تميز شخصاً عن آخر ومما لاشك فيه أن الصدمة تؤدي إلى زعزعة هذه البيانات الشخصية ويرى «إيبستن» أن نظرة الشخص إلى الواقع وتكيفه معه يرميان إلى تحقيق الأهداف التالية:

- الحفاظ على التوازن القائم بين كفتي اللذة والألم.
- الحفاظ على اعتبار الذات بشكل مقبول.
- الرغبة في التواصل والكلام مع الآخرين.

وعلى هذا الأساس يرى «إيبستن» أن هناك ثلاثة معتقدات شخصية تفسر موقف الإنسان السوي من الواقع أو العالم الخارجي:

- أن هذا العالم مصدر الخير والانشراح.
- أن لهذا العالم قيمة ومعنى ويمكن التحكم به.
- أن الأنا لها قيمتها وأهميتها الخاصة «أنا شخص محبوب وجدير بالتقدير والاحترام».

إنَّ المعتقدات المذكورة موجودة عند الشخص السوي أو العادي والذي يثق بنفسه، ويبني آماله من خلال الواقع الذي يعيش فيه، وبالتالي لا يتصور بأنه سوف يتعرض لفشل محتم أو لكارثة تخرج عن نطاق المعقول.

وعندما تقع الكارثة تتحطم المعتقدات والآمال المذكورة ويشعر الشخص بالذهول والنقمة واليأس وكأنه لا يصدق ما جرى، وهكذا تتحول المعتقدات الإيجابية إلى معتقدات سلبية ويصبح العالم الخارجي مرعباً وتافهاً للغاية إذ تنسحق الأنا تحت وطأة الكارثة وتفقد معناها وقيمتها.

وهنا تظهر أهمية العلاج المعرفي الذي يتناول بدقة معالجة الأفكار والمعتقدات السلبية حتى يتمكن الشخص المصدوم من

إعادة بناء تجربته وتبديل مفهومه عن نفسه والواقع والآخرين.

٤- **نظرية ويلسون وغموض الهوية:**

اعتمد «ويلسون» على نظرية «أريكسون» لدراسة الهوية عند الجنود المقاتلين في فيتنام ووجد أن الجنود المراهقين والذين تتراوح أعمارهم ما بين (١٨-٢٤) سنة يتعرضون لضغوط ومخاوف شديدة تعرقل لديهم نمو الهوية الإيجابية ومن المعلوم أن مرحلة المراهقة المتأخرة هي مرحلة الاستحقاقات «النجاح الأكاديمي، الشهادة والاختصاص، بناء الشخصية وعالم القيم، تحديد المهنة والمستقبل» غير أن الحرب لا تسمح بتحقيق هذه الطموحات وبناء الهوية الإيجابية بشكل ملائم.

وجد «ويلسون» أن الجنود المراهقين في حرب فيتنام تنقصهم الهوية الإيجابية، والأهداف الواضحة والطموحات ومن الصفات البارزة لديهم: التبلد العاطفي والفكري، اليأس، عدم الثقة بالنفس، قلة الطموح، العزلة وهذا يعني أنهم قد أخفقوا في تحقيق متطلبات النمو، وأن هذا النمو قد توقف عند حدود المرحلة السادسة «العزلة بدل الألفة»، فالعزلة قد حلّت مكان الألفة وانخفض لديهم تقدير الذات وسيطر الغموض على هويتهم.

ويردّ «ويلسون» هذا الواقع المؤلم إلى إخفاق الشباب المقاتلين في فيتنام في تحقيق استحقاقات المراهقة وإلى غياب الدعم اللازم لهم من جانب المجتمع. هذا الإخفاق لن يسمح للشخص بتحقيق النجاح والتقدم في حياته المقبلة لأنه إخفاق كبير في بناء الهوية الإيجابية.

أما «بريند» فيرى أن المقاتلين في فيتنام يعانون من انشقاق عميق داخل الذات إلى جانب سمات مرضية بارزة مثل التوحد مع شخصية القاتل وشخصية الضحية، الانطواء على الذات والعدوانية والاكتئاب وهبات الغضب والدفاعات النفسية البدائية مثل النكران والإسقاط.

إنَّ العدوانية البارزة عند المقاتلين تخفي وراءها الكثير من الآلام الجسدية بما فيها الصراع، وتُعدّ هذه العدوانية بمثابة وسيلة دفاعية لإخفاء ما ألمّ بالذات من ضياع وآلام.

وهنا يشير «بريند» إلى أن المقاتل توحد مع فريقه وزملائه في حركة نرجسية مرضية وعلى هذا الأساس يرى أن هناك تشابهاً كبيراً بين المقاتلين والمرضى النفسيين الذين يعانون من اضطرابات في الشخصية.

٥- النموذج البيولوجي:

حاول بعض الباحثين أن يربط اضطراب ما بعد الصدمة بعمل الدماغ وما يطرأ عليه من تبدلات كيميائية وفيزيولوجية ووظائفية ويرى «Vonderkolk» أن الصدمة تؤدي إلى اضطراب في وظيفة الدماغ وبعض أنحاء الجسم، وهذا الاضطراب يظهر على الشكل التالي:

- ارتفاع في نسبة الكاتيكول أمين في الدم.
- ارتفاع في نسبة الأستيل كولين.
- انخفاض نسبة النورأدرينالين.
- انخفاض نسبة السيروتونين والدوبامين في الدماغ.

إنَّ استنزاف مادة النورأدرينالين يرتبط بعدم قدرة الشخص على الهروب أو التخلص من الصدمة التي يتعرض لها وهذا ما يؤدي بدوره إلى استنزاف مادة الدوبامين لأن الاستجابة الفعالة إزاء الصدمة غير ممكنة.

فالتعرض المتكرر للصدمة ولذكراها يؤدي فيما بعد إلى حالة من التبلد أو التخدير العاطفي كحلّ حتمي للصدمة، وهناك يفرز الدماغ مواد مخدرة شبيهة من حيث مفعولها بالأفيونات.

إنَّ مصير اضطراب ما بعد الصدمة يتوقف إذن على نشاط الإفرازات المذكورة، وكذلك على المواد المخدرة التي يفرزها الدماغ ويبدو أن الدماغ يقوم بهذه الوظيفة عندما يتعرض الشخص للصدمة وبعد أن تمرّ الصدمة تحدث حالة شبيهة بالانسحاب والذي نلاحظه في عوارض الانقطاع الفجائي عن تعاطي المخدرات.

ومن المعلوم أن الانسحاب يترافق بعوارض نفسية فيزيولوجية شديدة الألم، أما «Delpina»، فقد حاول أن يربط اضطراب ما بعد الصدمة بطبيعة الجهاز العصبي، وهو يرى بأن الأشخاص الذين يعانون أكثر من سواهم هم الذين يسيطر لديهم الجهاز البراسمباوي لذا لا يتوصلون إلى تحقيق ترميز كافٍ للإنباءات المؤلمة والمفاجئة بشكل صحيح، كما أنهم يستجيبون فيزيولوجياً وبشكل غير اعتيادي لتلك المنبهات. ومن هنا شدة العوارض الفيزيولوجية مثل اضطراب النوم والكوابيس والاحتراز الشديد وهبّات الغضب والعدوانية وهذا ما يشير إلى أن معالجة الإنباءات تتم بشكل خاطئ وناقص لأنها تعقد على المنبهات الحسية بالدرجة الأولى.

الأعراض الشائعة «الاضطراب ما بعد الصدمة»:

• أعراض جسدية: صدمة، غثيان، برد، رجفة، ظاهرة التبول اللاإرادي، لامبالاة، خفقان القلب، إثارة حالات سابقة كالأزمة الصدرية، إغماء، صداع، صعوبة في النوم.

• أعراض عاطفية: غضب، حزن، شعور بالذنب، شعور بالإخفاق، ثورة، إنكار، ارتياح، لامبالاة، خوف، ملازمة الغير، اليأس، القلق، الذعر.

قد يعاني من صعوبات في النوم، ومن المفيد اتباع ما يلي في حال التعرض لصعوبات في النوم:

- تأكد من وجود نظام معين في حياتك. احتساء الحليب الدافئ لاحتوائه على حمض «التريبتوفان»، فهو يساعد على النوم.

- خذ حماماً ساخناً مستخدماً زيوت الاسترخاء.

- تجنب النوم في أثناء النهار.

- تجنب مادة الكافيين لكونها مادة مهيجة مسببة للأرق.

- تجنب الوجبات الدسمة والعشاء متأخراً.

- مارس الكثير من التمرينات الرياضية خلال النهار، وقد يكون من المفيد مزاولة تمرينات عصراً أو خلال ساعات الليل الأولى.

- تأكد من كون نومك مريحاً قدر الإمكان، ومعتدل الحرارة، وأطفئ الأدوات الكهربائية لتجنب همهمتها.

- مارس تمرينات الاسترخاء.

ويعاني بعضهم من الكوابيس بعد صدمة الحادثة وفي هذه الحالة يكون من المفيد اتباع الآتي:

- دوّن المنام مستخدماً ضمير الغائب أولاً (حُبسَ فُلان) ومن ثم ضمير المتكلم (أنا محبوس) حتى تشعر بالارتياح تجاه المنام.

- فكّر بفحوى المنام أهو إعادة لتسجيل الحادثة، أم أنه وميض لصدمة الحادثة، أو كان حلماً مختلفاً كلياً؟

- فكّر في كيفية تغيير مجرى الأحداث. مثلاً: إذا كنت ترى نفسك محبوساً في المنام حاول إيجاد مخرج أو طاقة وقوة فجائيّة تعينك على إزاحة ما يحبسك. تخيل النموذج الجديد من الحلم أوقات يقظتك.

- كرّر تخيلك لنموذج المنام الجديد عند شعورك بالتعب أو الاسترخاء قبل النوم.

- اختبر نفسك أنك ستستبدل النموذج الجديد بالمنام إذا عاودك ثانية. قد تضطر لتكرار هذا التمرين مراراً قبل أن يثبت فعاليته، سجل لحظات الكرب لكل كابوس.

كيف يتم تشخيص اضطراب ما بعد الصدمة:

يُبنى التشخيص على قصة المريض لكن ذلك قد يكون صعباً للأسباب التالية:

١- أحد مظاهر الاضطراب هو أن المريض يتجنب مناقشة خبرته التي مرّ بها.

٢- أحياناً نجد، كأطباء، صعوبة في سؤال المريض عن خبرته فقد نخشى من «تذكيره بأوجاعه وخبراته المؤلمة».

٣- عادة ما يتواجد اضطراب الكرب بعد الصدمة مع اضطراب نفسي ثانٍ يكون أكثر جاهزية للتشخيص.

٤- قد تقلد أعراض الكرب بعد الصدمة أعراض الاضطرابات الأخرى كالاكتئاب أو القلق.

الخصائص الشخصية لاضطراب ما بعد الصدمة:

إنّ السمة المرضية الأساسية في هذا الاضطراب هي «الذاكرة الصدمية»، وهذا ينعكس في أعراض نفسية محددة وردت في الدليل التشخيصي والإحصائي الرابع للأمراض النفسية كالتالي:

أ) تعرض الشخص لحادث صدمي «أذى» وحدث التالي:

١- مرّ الشخص بخبرة، أو شاهد، أو واجه حدثاً، أو أحداثاً تضمنت موتاً حقيقياً، أو تهديداً بالموت، أو إصابة بالغة أو تهديداً شديداً لسلامة الشخص أو الآخرين.

٢- تضمنت استجابة الشخص لخوف شديد وإحساس بالعجز والرعب وفي الأطفال يظهر هذا في صورة سلوك مضطرب.

ب) وتتم إعادة معايشة الحدوث الصدمي بطريقة، أو بأخرى من الطرق التالية:

١- تذكر الحدث بشكل متكرر ومقتحم وضاغط وذلك يتضمن صوراً ذهنية أو أفكاراً.

٢- استعادة الحدث بشكل متكرر وضاغط في الأحلام.

٣- التصرف أو الشعور وكأن الحدث الصدمي عائد.

٤- انضغاط نفسي شديد عند التعرض لمثيرات داخلية، أو خارجية ترمز إلى أو تشبه بعض جوانب الحدث الصدمي.

٥- استجابات فسيولوجية تحدث عند التعرض للمثيرات سابقة الذكر.

ت) التفادي المستمر لأي مثيرات مرتبطة بالحدث إضافة إلى خدر عام.

ث) أعراض زيادة الاستثارة بشكل دائم.

ج) الأعراض مستمرة لمدة شهرين على الأقل «أما إذا كانت أقل من شهرين فيطلق عليها اضطراب الكرب الحاد».

ح) هـذا الاضطراب يسبـب انضغاطاً إكلينيكياً واضحـاً، أو يؤدي إلى تدهور في الأنشطة الاجتماعية أو الوظيفية أو جوانب أخرى مهمة.

وفي الأطفال ربما لا نجد عملية استعادة الحدث بالشكل المألوف لدى الكبار، وإنما نجد عملية تمثيل الحدث في أثناء اللعب أو نجد أحلاماً مفزعةً لا يستطيع الطفل ذكر محتواها.

تصنيف هذه العمليات الفيزيولوجية العصبية في ضوء ثلاث فئات وهي:

- حالات فرط الاستثارة.
- حالات الإحجام – الاكتئاب.
- حالات الاتزان.

ففـي حالة فـرط الاستثـارة يزداد للغاية نشاط مـواد الكاتيكول أمين من النورأدرينالين والسيروتونين والدوبامين إلـى حد يفوق تحملها في النهاية ويؤول إلـى دورة الإحجـام – الاكتئـاب، وفي هذه الحالة يزداد نشـاط مواد الكولين الذي ينتـج عنه أعراض مـن الاكتئاب والسلـوك الإحجامي، أمـا في حالات الاتزان، فلا يؤدي التعرض للصدمة إلى استجابة مرضية وتبايـن هذه الحالات الفيزيولوجيـة العصبية من حيث المدة والشدة والدوريـة استناداً إلى تنشيطها بواسطـة المنبهـات الخارجيـة، أو من خلال التعلم الترابطـي ويمثل التنشيط المزمن لدورة فرط الاستثارة – الإحجام الأساس الفيزيولوجي العصبي لاضطراب الضغوط التالية للصدمة.

الفـروق الفرديـة فـي الاستجابـة للصدمة:

تختلف استجابات الأفراد لخبرة الصدمة اختلافاً كبيراً، ويعتمد هذا الاختلاف على عدد من العوامل أهمها ما يلي:

١- ظـروف الصدمة «من صنع البشر، عمر الضحية، دوام الكارثة».

٢- الفـروق الفرديـة فـي الاستجابـات الإنسانيـة للصدمـة نفسهـا تبعـاً للفروق بيـن الأفراد فـي السمـات «Traits»، وتفسير السمات، ووجود الضغوط الصدمية وما بعد الصدمية.

٣- العمليـات المعرفيـة التي تتضمن الافتراضـات، والنظريـات الفرديـة عـن خبرات الحياة.

الفئات الأكثر تعرضاً للنتائج السلبية للصدمات النفسية:

١- الأطفال «خاصة الذين فقدوا آباءهم أثناء الحوادث».

٢- الذين تنقلوا أكثر من مرة من مكان لآخر مثل المهجرين الذين يتم إيواؤهم في مكان أو مخيمات مؤقتة.

٣- المسنون والأشخاص الذين تكون حالتهم الصحية سيئة، والأفراد ذو الإعاقات الجسدية، أو الأمراض المزمنة.

٤- المرضى النفسيون، ومتعاطو الكحول والمخدرات.

٥- المراهقون الميالون إلى المغامرة.

٦- الحوامل وأمهات الأطفال الصغار وخاصة أمهات الرضَّع.

٧- المختصون والمهنيون الجدد الذين انخرطوا في جهود الإغاثة وقت الكارثة «ممرضات، أطباء، رجال إطفاء».

٨- الذين عاشوا خسارات كبيرة «كفقدان الأولاد، الأزواج، أملاك كبيرة».

لماذا يتعافى بعض الناس من آثار الصدمات بينما لا يتعافى بعضهم الآخر؟

بعض المشاكل المحددة التي ترافق اضطرابات ما بعد الصدمة:

• **النوبات العنيفة:**

بعض المصابين قد يتعرضون لنوبات حادة عند مرورهم بمواقف وأحداث تذكرهم بالصدمة التي تعرضوا لها كرؤية شرطي خاصة شرطة مكافحة الشغب، وقد تشمل الأعراض الجسدية هنا سرعة، واضطراب ضربات القلب والتعرق الشديد والشعور بضيق التنفس أو الاختناق، الارتعاش في الجسد، آلام الصدر، الغثيان، الدوخان، ارتفاع حرارة الجسم، الخدر في الجسم، أو الشعور بوخز في الجسم. كما يمكن أن يشعر المصاب بأعراض نفسية كالشعور أنه غير حقيقي أو الخوف من الإصابة بالجنون أو الخوف من الموت ومن الإصابة بنوبات قلبية.

• **السلوك الانزوائي الحاد:**

في أحيانٍ كثيرة لا يقتصر التجنب على المواقف المرتبطة بالحادث، وإنما يصبح الانزواء سلوكاً يومياً يطال جوانب حياة المصاب كافة، وقد تزداد حدة هذه الحالة لدرجة يحبس المصاب نفسه في البيت.

• **الاكتئاب:**

يتعرض المصابون أحياناً كثيرة للشعور بالاكتئاب، وعدم الرغبة في القيام بالأعمال التي كانت تشكل مصدر متعة

لهم فيما مضى، وأحياناً يلومون أنفسهم على ما حدث ويحملون ذاتهم المسؤولية عن الخطأ الذي قادهم للتعرض للصدمة على الرغم من أن هذا يبدو غير صحيح بشكل قطعي، فمثلاً يمكن للبعض أن يحملوا أنفسهم مسؤولية تعرضهم للعنف من قبل الشرطة، أو يحملون أنفسهم مسؤولية عدم قيامهم بتقديم الحماية لشخص تعرض لمثل هذا الموقف أمام أعينهم.

- **التفكير والشعور بالرغبة في الانتحار:**

يصل الاكتئاب -أحياناً- بالمصاب إلى مرحلة التفكير بالانتحار إذ إنَّ ما نسبته (٥٠٪) ممن تعرضوا للاغتصاب أشاروا إلى أنهم فكروا بالانتحار. إذا شعرت أنك أنت أو شخص قريب منك يفكر بالانتحار بعد التعرض لصدمة من المهم بمكان استشارة الاختصاصي المناسب لتقديم المساعدة في هذه الحالة.

- **العنف الشديد:**

إنَّ المصابين بصدمة ما قد يلجؤون سواء بوعي، أو بغير وعي لتناول المشروبات الكحولية والمخدرات من أجل التخفيف من حدة الألم الذي يعانونه، وفي الواقع فإنَّ اللجوء إلى المخدرات والكحول يزيد من صعوبة التعافي من آثار الصدمة حيث إن الكحول والعقاقير قد تزيد الوضع سوءاً.

- **التأثير السلبي على المهام اليومية:**

إنّ بعض من يتعرضون لاضطرابات ما بعد الصدمة يعانون من صعوبة في القيام بوظائفهم الاعتيادية اليومية، فبعض المصابين قد يصبحون عاجزين عن القيام بالأعمال الاعتيادية التي اعتادوا القيام بها أو الالتزام بمهام جديدة وواجبات يومية.

- **عدم القدرة على السيطرة على البكاء:**

يأخذ المصابون أحياناً بالبكاء لفترات طويلة متواصلة، فتذكُّر الحدث يسبب للمصاب شعوراً بالحزن العميق والذي يعبِّر عنه بالبكاء المتواصل الذي يكون أحياناً صامتاً وأحياناً يترافق مع الصراخ.

- **الاضطرابات التي تظهر على المدى البعيد:**

على الرغم من أنَّ أعراض اضطرابات ما بعد الصدمة تظهر مباشرة بعد الحادث «خلال أسابيع عدَّة» إلا أن بعض الأعراض لا تظهر إلا على المدى البعيد، أي بعد شهور أو حتى سنوات، وقد تظهر هذه الأعراض في الذكرى السنوية لتعرض الشخص للصدمة أو ربما لدى تعرضه لحدث أو موقف مشابه للحدث الأصلي.

ما الذي يساعدنا على أن نتجاوز الصدمات التي نمر بها؟

القدرة على التعبير عن المشاعر المرافقة للصدمة، واسترجاع الموقف بكامله، وهذا يتطلب منا إتاحة الفرصة بأن نروي الحادثة «لأنفسنا ولأشخاص آخرين» أكثر من مرة كي نفهم ونركّب التفاصيل من جديد. واكتساب الفرصة لاستعادة السيطرة بشكل تدريجي على مجال الضبط المفقود، وهذا يبدأ ربما بمهمات بسيطة مثل تحضير الطعام أو العناية بالمظهر وما شابه ذلك. ونحن نرى أن شفقة الآخرين، وتعاطفهم قد تجري أحياناً على عكس هذا الاتجاه تماماً، إذ يقوم محبو المصدوم بتولي تلبية جميع احتياجاته عن حسن نية دون أن يعلموا أنهم يؤذونه بهذا ويكرسون أو على الأقل يؤخرون بدء عملية التعافي. إضافة إلى تلقي الدعم الاجتماعي المناسب كما يلي:

١- مجموعات الدعم النوعية التي تتشكل من أفراد تعرضوا لخبرات متشابهة ليرى بعضهم معاناة بعض، وربما يتعلم الواحد منهم من الآخر بشكل أيسر مما لو تم إلقاء المحاضرات، والعظات عليه ممن لم يتعرضوا لما مرّ به.

٢- تلقي الدعم من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية المعتادة في حياة الأفراد.

٣- توافر الخدمات الاختصاصية.

٤- القدرة على إيجاد أو إضفاء معنى للمعاناة «تعديل الفلسفة الشخصية في الحياة».

٥- زيادة المهارات الشخصية وخاصة القدرة على إدارة الانفعالات.

علاج اضطراب الضغوط التالية للصدمة:

لقد تحدد اضطراب الضغوط التالية للصدمة بوصفه فئة مرضية محددة في وقت حديث نسبياً عام (١٩٨٠م)، ومع ذلك فقد طُوّرت برامج علاجية عدّة لمن بقي على قيد الحياة بعد الحوادث الصدمية غير العادية وعانى من الاضطراب. وعلى الرغم من أن الملامح المحددة لبرامج العلاج هذه تختلف من صدمة إلى أخرى، فإن كل هذه البرامج تشترك معاً في عدد من الأهداف الأساسية، وأهمها أنها تساعد الفرد الذي بقي على قيد الحياة بعد الصدمة أن يقلل من الأعراض المتبقية لديه، أو أن يتغلب عليها. فالمعالج يساعد المريض على أن ينظر إلى خبرته الصدمية من منظور أشمل، وذلك حتى يعود إلى العيش المنتج البنّاء. ويوصي «بيترسون وآخرون» Peterson, et.al. 1991 بضرورة أن

يبــدأ العلاج بأسرع ما يمكن ودون إبطاء أو تأجيل، كما يجب أن يكون العلاج مختصراً موجزاً.

وأكثــر أنــواع العــلاج المستخدمة في هــذا المجال: العــلاج السلوكي، ثم العلاج المعرفي، أو العلاج الذي يجمع بينهما. مع التركيز على أهم الطرق الفنية المستخدمة، وفيما يلي فكرة عامة عن العلاج:

١. العلاج السلوكي:

يُعــدّ العــلاج السلوكــي «Behavior Therapy» مناسبــاً لكثيــر مــن حــالات اضطــراب الضغــوط التاليــة للصدمــة، وخاصة للمرضى الذيــن يكشفون عن هذا الاضطراب في إحدى صورتيه: المزمنة أو المؤجلة، وقد برهنت المقاييس الموضوعية على نجاح هذا العلاج.

وعلــى الرغم من أن استخــدام الطرق السلوكيــة يوصّــى به في عــلاج الذكريات الصدمية فإن هذه الطرق يجب ألا تُستخدم وحدهــا، بــل يتعيــن أن يُستخــدم العلاج السلوكــي لأعراضــ هــذا الاضطراب في سياق يجمع بينــه والعلاج النفسي المساند «Supportive».

وتتلخص الافتراضــات النظرية في العلاج السلوكي في أن استجابة المريض لذكريــات الحــوادث الصدميــة هــي التي تُنتج المظاهــر الأولية لاضطراب الضغوط التاليــة للصدمة، كما افتُرض أن الملامــح الثانوية لهــذا الاضطراب تتسبب -بشــكل مباشر أو غير مباشر- في ردود فعل المريض لهذه الذكريات. ومــن ثم فــإن تذكُّر المريضــ للحادث الصدمي هو بؤرة الاهتمام في المدخل السلوكــي لعلاج هذا الاضطراب. وفيما يلــي طرق سلوكية للعــلاج الفردي لهذا الاضطراب وهي:

• العــلاج الانفجــاري والغمــر المتخيــل «Imaginal Follding & Implosive»:

يعــد العلاج الانفجاري والغمر المتخيل أكثر الأشــكال الشائعة في العلاج السلوكي لاضطــراب الضغوط التالية للصدمة الذي يؤيده تراث من الدراسات المتراكمة. ويتكون العــلاج الانفجــاري من التقديــم التخيلي للحــادث الصدمي الذي واجــه المريض، ويحدث ذلــك بشكل متكرر حتــى الدرجة التي يصبح فيها المنظر الصدمي غير مثير لمستويات مرتفعة من القلق «الانطفاء خلال التعرض». ويتلخص الهدف من هذا الإجراء فــي أن نقلل من تجنب الذكريات الصدمية والقلق الذي يسببــه تذكرها. وهناك ثلاث مراحل في طريقة العلاج الانفجاري وهي:

المرحلة الأولى: التدريب على الاسترخاء:

يتعلم المريض باضطراب الضغوط التالية للصدمة شكلاً من أشكال الاسترخاء المتدرج للعضلات «Progressive Muscle Relaxation»، ويبدأ المريض بتعلم الاسترخاء خلال عملية «الشد – الاسترخاء» لست عشرة مجموعة عضلية. وتُشَجَّعُ مواصلة التدريب على الاسترخاء في المنزل، ويرتقي التدريب على الاسترخاء بقدرة المريض على تخيل منظر ما، ويزيد من خفض القلق التالي لتقديم المنظر الصدمي في المرحلة الثالثة. ويستغرق التدريب على الاسترخاء عادة حوالى أربع جلسات.

المرحلة الثانية: التدريب على التخيل السار:

بعد أن ينجح المريض في اكتساب استجابة الاسترخاء، يتم تعليمه أن يتخيل صوراً أو تخيلات سارة Pleasant Imagery، ولهذا الأسلوب هدفان، فإن التخيلات السارة تزيد من الاسترخاء، وتسمح للمعالج بأن يحدد طاقة المفحوص على العمل التخيلي.

المرحلة الثالثة: العلاج الانفجاري:

تشتمل هذه المرحلة على المراحل الفرعية الآتية:

١- **تكوين مدرج الذكريات الصدمية:** يُطلَب من المريض أن يحدد الذكريات الصدمية، وإذا كان هناك أكثر من خبرة صدمية، فيجب أن ترتب الصدمات المختلفة تدريجياً، ابتداءً من أقل الذكريات إثارة للقلق إلى أكثرها. وإذا كان هناك صدمة واحدة فقط تشتمل مناظر متعددة فإنه يمكن تكوين مدرج «Hierarchy» واحد للمناظر الخاصة بها.

٢- **تقدير درجة الضغوط الناتجة عن الذكريات الصدمية:** تقدر كل ذكرى صدمية على مقياس تتراوح درجاته من (١ إلى ١٠) (١ = لا يثير القلق، ١٠ = مثير لأكبر قلق)، ويكون تقدير المريض للضغوط على أساس ذاتي وشخصي، وعندما توجد أكثر من ذكرى، فإن الذكرى التي حصلت على درجة ضغوط أقل هي التي يبدأ المعالج في التعامل معها.

٣- **الاسترخاء:** قبل تقديم الذكريات الصدمية في الجلسات، يُشجَّع المريض على أن يسترخي مستخدماً مهاراته في الاسترخاء المتدرج للعضلات، ويزيد ذلك من قدرة المريض على التخيل، ويُنقص من الأفكار غير المرتبطة بالمهمة التي يضطلع بها المريض مع المعالج.

٤- **وضع المشهد:** بمجرد أن يسترخي المريض فإن المعالج يستخدم العلامات أو الهاديات الحسية «بصرية، سمعية، تذوقية، شمية» كي يُولّد في خيال المريض مشهد الصدمة أو المنظر الخاص بها، وإن معرفة أدق التفاصيل عن هذا المشهد من المريض يسهل المهمة، ويجعل الصورة واقعية جداً في عقل المريض.

٥- **تقديم العلامات الصدمية:** بعد وضع المشهد فإن المعالج يقود المريض خلال الحادث الصدمي، ويسمح التفاعل المستمر بين المريض -مرة ثانية- وتفاصيل الحادث بأن يتم تخيلها إلى أقصى درجة. ويتم التركيز على أكثر العوامل إثارة للقلق في الحادث، ويتم كذلك إطالتها ومد أجلها.

٦- **تقديم علامات إضافية:** يساعد المعالج المريض على تذكر نوعين إضافيين من العلامات التي تُستخدم في العلاج الانفجاري، أولهما: العلامات التي تنبع من داخل المريض، ويمكن أن يقررها أي يضعها في ألفاظ، وتشتمل هذه الفئة على ما لدى المريض من أفكار ومشاعر وصور منفرة وكريهة ترتبط بالحادث الصدمي. وتمثل هذه العلامات استجابة المريض المعرفية للحادث، ويمكن أن تتضمن مشاعر مثل: «الذنب، والغضب، والحزن». وثانيهما: العلامات المفترضة، وتتضمن: «الخوف من الضرر البدني، والخوف من الموت، والخوف من السلوك العدواني، والعقاب على سوء التصرف، والخوف من النبذ». ويُعتقد أن هذه العلامات المفترضة ترتبط بالإشراط من الرتبة الراقية التي ترتبط بالصدمة الأصلية. ومن ثم فإنه يتسبب في كثير من مشكلات المريض.

٧- **إنهاء المشهد:** يُستخدم الاسترخاء مرة ثانية في نهاية الجلسة، ثم مناقشة المريض لما جرى في هذه الجلسة.

وإنَّ تشجيع المريض على مواجهة المنبهات الصدمية التي سبق له أن تجنبها، يجعله يكتسب شعوراً بالسيطرة عليها والتحكم فيها، ولهذا العلاج نتائج مفيدة بالمقارنة إلى المجموعة الضابطة التي تقف على قائمة الانتظار، حتى بالنسبة للاضطراب الذي استقر لدى المريض، ولهذه الطريقة العلاجية تأثير كبير على الأفكار المقتحمة، مع تأثير أقل بقليل على التجنب.

• **طريقة التعرض العلاجي المباشر «Direct Therapeutic Exposure»:**

للتعلم الشرطي دور أساسي في نشأة هذا الاضطراب، ولذا فإن العلاج السلوكي،

والعلاج المعرفي السلوكي لهذا الاضطراب هو الشائع في هذا المجال، ومن أهم الطرق المستخدمة هنا التعرض العلاجي المباشر، ويُعرَّف بأنه التعرض المتكرر والممتد - سواء أكان في الواقع أو في الخيال - لمنبهات ليست مؤذية من الناحية الموضوعية ولكنها مخيفة للمريض، وذلك بهدف تقليل قلقه، ويشتمل هذا التعرض نوعين هما: التعرض المتدرج «Graded» كالتسكين المنظم «Systematic Desensitization»، والتعرض غير المتدرج كالغمر «Follding» والانفجاري «Implosive». ويُطلب من المريض في هذه الطريقة أن يَسْتَحْضِرَ في ذهنه - بشكل متكرر ومتخيل - الأحداث المرتبطة بالخبرة الصدمية، مع التركيز عليها حتى يتناقص القلق، وينتج عن التعرض المتكرر من هذا النوع - تحت إشراف المعالج وتوجيهه - انخفاض كبير في التنبه الفيزيولوجي والشخصي للمريض استجابةً للصور الخيالية، ويلي ذلك عادة اختفاء الأفكار التي تقتحم عقل المريض، كما تختفي اضطرابات النوم.

وفي تطبيق عملي لهذه الطرق تم الاستفادة منها في علاج طفل في السادسة من عمره يعاني من اضطراب الضغوط التالية للصدمة، وذلك بعد تعرضه لانفجار قنبلة، ورؤية أشخاص مصابين، ونجح هذا العلاج من خلال استخدام الاسترخاء المتدرج والغمر المتخيل، وقد طُلِبَ من الطفل تخيل أفراد مصابين، ورائحة الدخان، وصيحات الأفراد. وقد خَفّضت هذه الطريقة الفنية بوضوح من هذه الأعراض.

وفي إحدى الدراسات استُخدمت طريقة الغمر مع التدريب على الاسترخاء «Relaxation»، حيث ساعدت هذه الطريقة محارباً سابقاً في الحادية والثلاثين من عمره على التخلص من استعادة شريط الذكريات المتصلة بالحرب ومن الكوابيس، وقد قام المتعالج والمعالج في البداية بتحديد مناظر الحرب وعزلها، تلك المناظر التي يعود المتعالج فيَخبُرها ويعايشها بشكل متكرر، وعندئذ يقوم المعالج بمساعدة المضطرب على أن يتخيل أحد هذه المناظر بتفصيل شديد، ويحثه على أن يحتفظ بالصورة إلى أن ينخفض قلقه. وبعد كل تمرين من تمرينات الغمر هذه ينتقل المعالج إلى التخيل الإيجابي، ويقود المتعالج خلال تمرينات الاسترخاء، وقد استجاب المتعالج لهذا العلاج، وتناقصت استعادته لذكريات الحرب وإلحاحها عليه وكذلك الكوابيس.

٢- العلاج السلوكي المعرفي:

تم تطوير مداخل معرفية سلوكية أيضاً للعمل مع ضحايا اضطراب الضغوط التالية للصدمة، على أساس أن أعراض هذا الاضطراب قد تسبب في حدوثها رؤية الفرد للعالم على أنه مكان للعيش لا يمكن التنبؤ به ولا التحكم فيه. وتتضمن الإستراتيجية العلاجية أن نمكّن الفرد مما يلي:

- إعادة تحديد الحادث حتى يكتسب معنى متسقاً في هذا العالم «وذلك بمقارنة الفرد بأولئك الذين هم أقل حظاً منه»، والنظر إلى الاستفادة الممكنة من هذه الخبرة.
- إيجاد معنى وغرض في هذه الخبرة.
- تغيير السلوك لمساعدة الفرد على منع الحادث من أن يعاود الحدوث.
- البحث عن المساندة الاجتماعية.

وعلى الرغم من أن الطرق العلاجية التي تركز على شفاء الأعراض تُعدُّ مفيدة بوجه عام، فإن معظم الإكلينيكيين يعتقدون أن المحاربين الذين يعانون من اضطراب الضغوط التالية للصدمة لن يشفوا تماماً ما لم ينشأ لديهم أيضاً استبصار في أمورهم، وأن يتسع مجال رؤيتهم لخبراتهم في الحرب والتأثير المستمر لهذه الخبرات عليهم. ويساعد الإكلينيكي المَرْضَى أحياناً على استخراج المشاعر عميقة الغور، وتقبل ما فعلوه وجَرَّبوه «أو ما فُعل فيهم وكان شديداً» إذ يُصبح حكمهم على ما فعلوه «أو فعله الآخرون فيهم» أقل تشدداً. ومن ناحية أخرى وجد علماء النفس أن الكلام عن الخبرات الصدمية التي تم قمعها يساعد على التقليل من الأعراض المتبقية للقلق والتوتر. كما يركز كثير من الإكلينيكيين على أثر المساندة الاجتماعية «Social Support» التي تُقَدَّم للمريض من خلال الأسرة أو العلاج الجماعي.

٣- العلاج الجماعي:

يتضمن العلاج الجماعي «Group Therapy» كما يستخدم في علاج اضطراب الضغوط التالية للصدمة مجموعة من المرضى الذين يشتركون في الاضطراب ذاته إضافة إلى المعالج بطبيعة الحال، وهنا ميزة أنهم يشاركون بعضهم بعضاً الخبرات ذاتها، ويتقاسمون المشكلات عينها، ويقدمون سنداً انفعالياً لبعضهم بعضاً، ويتيح ذلك جواً من الثقة الجماعية والخبرة المشتركة، ذلك أن كثيراً من الأفراد - في مثل هذا الموقف الجمعي - يجدون سهولة في استرجاع الأحداث ومواجهة المشاعر التي حاولوا تجنبها سنين عدة، ومن أهم الموضوعات

التي يجب أن تتعامل معها المجموعة العلاجية موضوع الذنب «Guilt»، ونقصد بالذنب فيما يتصل بالأشياء التي فعلها الأعضاء حتى يبقوا أحياء، أو الذنب فيما يتعلق بالحقيقة العارية من أنهم بقوا أحياء على الرغم من موت أصدقائهم المقربين، وما دام المضطربون «من ضحايا الحرب والاغتصاب وغيرهما» قادرين على الحديث بصراحة عن خبراتهم التي مروا بها ومشاعر الذنب التي يشعرون بها، فمن الممكن أن يقوموا بالخطوة الأولى للشفاء منها.

وهناك موضوع آخر مهم يجب أن تعالجه المجموعة العلاجية وهو مشاعر الغضب التي يَخْبُرها كثير من الضحايا «في الحرب أو الاغتصاب بشكل خاص»، وتتلخص - من وجهة نظر المحارب - في أنه يحارب في سبيل قضية مشكوك فيها، ويواجه ظروفاً لا يمكن تحملها. وأخيراً قد يأخذ الغضب شكل الحزن، ويمكن أن يكون البكاء الناتج عن الغضب أمراً مُشَجّعاً بوصفه جزءاً من النمو المهم في الجماعة أو الفرد.

المراجع

- الشيخ، كمال كامل، (٢٠٠٩م). اضطراب ما بعد الحوادث المؤلمة، غزة: فلسطين.
- الصبوة، محمد نجيب.(٢٠٠٠م). مراجعة نظرية نقدية لأثر الصدمات النفسية، مجلة الثقافة النفسية المتخصصة، العدد الرابع والأربعون من المجلد الحادي عشر، تشرين الأول، مركز الدراسات النفسية والجسدية، طرابلس: لبنان.
- بركات، مطاع.(٢٠٠٧م)، الإسعاف النفسي الأولي لضحايا الصدمات والكوارث، دمشق.
- American Psychiatric association.(1994). Diagnostic and statistical manual of mental disorders. a THED (DSM-IV). Washington. DC.
- Kaplan, H. & Sadock, B.(1994). PTSD, in Synopsis of psychiatry. seventh edition. Williams and Wilkins. Middle East Edition. Cairo.
- Macksoud,(1993). Traumatic war experience and their effect on children. Wilson, Raphael. International handbook of Traumatic stress. London and New York: Plenum Press.
- Van Eenwyk, J. & El Masri, M & Abo Tawahina, A.(1992). Adaptation Disorder. the Gaza syndrome. unpublished article.

قبول الذات وتغييرها

ترجمة: عبير حمود ❀

ما هي علامات التوازن؟



إننا متوازنـــون بدرجات متفاوتـــة، بشـــكل أو بآخر. الشيء الوحيـــد الذي يجب أن يُقلـــق، هـــو معرفة لماذا لا نختـــار أن نحب ذواتنا في هذا الزمان وهـــذا المكان، كما نحن دون جَلَدٍ أو احتقار لها.

❀ باحثة ومترجمة سورية.

منذ أن نقرر تدريب أنفسنا على احترام ذواتنا، نضع أنفسنا على أرض الكينونة (جوهر الشخصية) وليس الفعل (الظاهر). لنتذكّر: أننا حين نتأمل النموذج الوجودي، فإننا لا نحكم، لا نقارن؛ بل نحن ما نكون عليه في اللحظة الحالية، أما إذا أردت الإحساس بشكل أفضل تجاه ذاتك، فابدأ بمعاملة نفسك بحب. اطرح بشكل مستمر السؤال الآتي: «كيف أحسّ بنفسي الآن؟» مهما يكن الجواب، تصرَّف إزاء ذاتك برأفة. إذا تملكك شعور بأنك تكره ذاتك، تذكّر أنه خيار سيّئ.

من الجوهري تمييز الشخص عن أفعاله. إنه لمن الأسهل والأقل ألماً كره تصرفه أكثر من كرهه لذاته. إذا كرهت تصرفك، حاول أن تعدّله في المرة القادمة. قدّم لنفسك عقوبة مشرفة وسامحها. استرخِ. مع الوقت، ستلاحظ بأنه من السهل تبنّي تصرفات إيجابية، حيوية ومبدعة تغني طاقاتك، وشيئاً فشيئاً يصبح من الصعب ارتكاب أفعال تزعجك. ستشعر برغبة أكبر في التصرف بطريقة ترضيك. سيصبح ذلك بالنسبة إليك طبيعة ثانية: ستختار تصرفات تعجبك وتقوي الإدراك الإيجابي الذي كونته عن نفسك. ستريح ذاتك بالسيطرة عليها، ستكون فخوراً بنفسك أكثر فأكثر، ستحس بنفسك أنك أكثر توازناً. كل هذه التصرفات والأقوال الإيجابية ستصبح «دائرة فاضلة». درّب نفسك على محبة ذاتك، أعدّ نفسك للتعامل معها بطريقة ودودة، وستلاحظ أنه سيكون من السهل شيئاً فشيئاً محبة ذاتك، بشكل طبيعي.

كيف أقبل نفسي كما أنا؟

ربما يكون هذا السؤال الأكثر أهمية في المقال كله. وها هو ذا الجواب: يجب علينا تعلم قبول حقيقة وجودنا، وليس بالضرورة تأييد وحب مشاعرنا كلها، ولا كل سلوك نقبله. هذا يعني بأننا نستطيع التوافق أو الأخذ على عاتقنا مجمل- كل- كينونتنا، دون موافقة أو تأييد لكل صفاتنا. إن ذلك يتناقض مباشرة مع تربيتنا، والتي أرادت أن نكون كاملين قبل التمكن من قبول وتأييد أنفسنا. في الواقع، نستطيع تماما قبول أنفسنا دفعة واحدة، في واقعنا، تماماً مثلما نكون هنا والآن، دون الموافقة على كل من أعضائنا وأدوارنا، وأفعالنا أي نستطيع نقد ذواتنا من دون مهاجمتها بعنف.

لا يعادل قبول الذات فهمها، غالبيتنا لا نفهم أبداً كل تعقيدات الحياة: من حروب، مجاعات، ألم؛ موت....إلخ وبالمثل، لا نفهم أبداً كل الأسباب التي تجعلنا نحن أنفسنا

معقدين جـــدا. لا يعادل القبول التغيير. إن حقيقة قبول الحياة لا يغيرها؛ حقيقة قبول ذواتنا لا يغيرنا كثيراً.

مــا هــو إذن القبــول؟ يعنــي الأخــذ، الاستقبال بصدر رحب، الرضى بعمق. يبدو من الصعب إطراء الذات حين نحبها أن تكون مختلفة كثيــرا؛ لكن، لتطوير تقدير الذات، فإنه من الحيوية الانطلاق من الواقع وقبول الذات بالكامل. إن قبول الذات يعني رؤيتها كما هي في اللحظــة الحالية والسماح لها بأن تكون. كقول بوبوي في حكمته العظيمة: «أقبــل ذاتي كما أنا ولا شــيء أكثر.» وهذا يكفي جدّاً الآن.

إنَّ قبول الذات يعني أن نشاهدها وننظر إليها، داخلياً وخارجيــاً، من دون أن نحكم عليها. هذا يعادل تأمل الأعماق وملاحظتها بطريقة موضوعية. ارجــئ كل حكم نقدي وشاهدْ ما تراه؛ تفحص بانتباه ما أنت عليه في الواقع. هذا الاستبطان ليس سهلاً لكنه ضروري. تقوم طريقــة التصرف هذه على أن تبرز ذاتك عاريــا أمام مرآة كبيرة لترى نفسك. لا تهتم عندما تلاحظ أمراً يغضبك. استمرّ بالمشاهدة حتى تملك نظرة محايدة: لديك الآن نظرة موضوعية. استمرّ بالتفحص حتى ترى أبعد من بشرتك، من شحمك، من سطح جســدك. استمــرّ بملاحظة نفسك حتى تتخطّى المظاهر السطحية. لا تخفْ. أنت في حالة تأمُّل لما أنت عليه في الواقع. وعندما تــرى كل شيء، اقبلْ. ما أنت عليه، في الحقيقة. تلاحظ أشياء جميلة، داخلية وخارجية، تتمنى أن تحافظ عليها، وأخرى أقــل جمالاً ستحــب أن تتخلص منها. ترى كائناً، لا تقم بفعل أو رد فعل تجاهه؛ اكتفِ بملاحظتــه. عندما تنتهي من ذلك، اطمئن أن ما رأيته حسنا: لا جيد ولا سيِّئ، لا صح ولا خطأ، ببساطة حسن. هذا هو، القبول.

ثمة طريقة أخرى لتعلم قبول الذات، أن تأخذ ورقة وترســم بالوسط خطاً عمودياً. عنونْ عمــود اليسار «ما أحــب في نفسي» والعمود الآخــر «ما لا أحبه في نفسي». ثم املأ العمودين. خذْ وقتــك، ضِعْ خطوطا متناوبة مع ما يــراود ذهنك من أفكار. من جديد، لا تخف. غالبية الناس يملؤون العمود السلبــي بسهولة أكثر مــن العمود الإيجابي وهذا دليل على الخطــأ في تربيتهم. ثابرْ حتى تحصل على صورة مختلفة عن نفسك. إذا أحسست بالحاجة إلى المساعدة اطلبْ مــن أهلك وأصدقائــك، وبشكل خاص من الشخصيــات التي اخترتها قــدوة لك. ثم فكرْ بقطعة نقود لها وجهان: (طرّة ونقش). مــا من وجــه أفضل من الآخــر. وازنْ بين عامودي قائمتــك: لتملك جانبــاً إيجابياً،

عليك أن تملك الآخر السلبي أيضا. حاولْ أن تؤسس رابطاً بين العامودين. مثلا، ربما تحب في نفسك الجانب المنظم، لكن لا تحب الطريقة المهووسة التي تتوصل بها إلى عدة أشياء؛ اسعَ لرابط بين الاثنين: من الصعب أن تكون منظماً بشكل كامل دون أن تظهر أحياناً مهووساً قليلاً بهذا التنظيم.

مثال آخر: إذا كنت فخوراً بصبرك لكنك خجل من جانبك البطيء والمتحذلق، اسعَ من جديد لإقامة رابط بين هذين الجانبين في شخصيتك. أو أيضا، لنفترضْ بأنك فخور بكرمك، المادي كالعاطفي، لكنك تأسف لأنَّ بعضهم انتفع منك واستغلك أحيانا. أتوصلت لملاحظة العلاقة بين الاثنين؟ هذه الميزة نفسها لها جانب مضيء وجانب مظلم، جانب نحبه ونظهره للآخرين وجانب نندم عليه ونحاول إخفاءه.

بشكل عملي جوانبنا «السيئة» كلها لها جانب «جيد». إذا لم تتوصلْ لإيجاد الصلة الإيجابية مع السلبية، ساعدْ نفسك.

تذكرْ بأنك لا تستطيع أن تكون إنساناً كاملاً، لا تنسَ أن ترجئ كل حكم (قيمة). كما من المستحيل أن تكون كاملاً، فإنه من المستحيل أيضا أن تكون سيئاً تماماً. في كل جانب لا تحبه في شخصيتك ثمة على النقيض جانب تحبه فيها. قفْ عن التمعن بالنقاط السلبية، اقبل الإيجابية. اسعَ لإيجاد التوازن بين الاثنين.

إنَّ القبول هو بداية كل شيء: إنه مفتاح التغيير. وليس من الضروري التغير لقبول الذات. ترى الشخصية التي اتخذتها قدوة لك، جوانبك الإيجابية في أعماقك. وبرؤية جوانبك الجيدة، فإنها ستساعدك على تفحصها. لا تخفْ: يوجد خير في داخلك.

كيف أُقبل نفسي إذا لم أكن متفقا مع ذاتي؟

إنَّ قبول الذات هو سيرورة عقلية وسلوكية معا. كما حددناه في السؤال السابق (كيف أقبل نفسي كما أنا)، ثمة طرق عدة يمكن أن تساعدك على تنسيق هذه السيرورة. الخطوات الأولى لقبول الذات هي الآتية:

١- قفْ عن الهروب من الواقع. قفْ عن التفكير بأنك عاجز عن قبول نفسك. إن ذلك ممكن وستتوصل إليه بشكل كلي إذا قررت ذلك حقا.

٢- أرجئ كل حكم. لا يجب رؤية العالم بشكل ثنائي. كل شيء ليس بالضرورة جيد أو سيِّئ، صحيح أو خطأ، إيجابي أو سلبي؛ تعلم أنْ تلمس الفروق الدقيقة والظلال إذ لا يوجد في الحياة شخصية بيضاء بالمطلق أو سوداء.

٣- اعترف بوجود دفاعاتك (مشاعر وأحاسيس مزورة تقيك من آلام الحياة). هي التي تمنعك من التحرك. لديها أهميتها في الماضي لكن من الآن فصاعداً، أنت ناضج، وهي تعيقك.

٤- هدّمْ أوهامك. الحقيقة ليست مظهراً. الحقيقة موجودة، أنت بنفسك موجود تماماً. كل الناس الذين يحيطون بك يدركون ما يكوّن واقعك. والآن دورك لتفهمهم.

٥- استدعِ جلسات للملاحظة الواعية والمفكرة. لاحِظْ نفسك كما يلاحظك الآخرون، انظر بعيونهم، أنت ما تفعل، وليس ما تتمنى فعله. إن تصرفك أساسي، وتستطيع السيطرة عليه. لا تشكلُ مشاعرك، أحلامك، آمالك ورغباتك حقيقة شخصك؛ بل تشكل جزءاً مما تكون فقط.

يوجد عدد من الأشياء التي نقبلها من دون فهمها ومن دون الانتماء إليها. الموت، الحرب، المجاعة، ظلم الحياة،....إلخ. هي وقائع نصارع عبرها الأيام كلها. نتقبل هذه الوقائع حتى وإن لم نحبها، وبشكل بديهي حتى لو لم نفهمها. نشكل جزءاً من الكل الذي يتجاوزنا، وحتى وجودنا هو الحجة في أن نعيش أشياء غير مفهومة نسبياً. ربما لا تحب حياتك، ربما لا تحب نفسك بما يكفي؛ ربما تحب أن تكون شخصاً آخر، أو أن تكون في مكان آخر. هذه الأحاسيس لا تغيّر حقيقة ظروفك؛ بالمقابل، أفعالك ممكن أن تغيّرك. قبول الذات هو تصرف: يمكنك اختياره.

لا يعادل القبول التخلي أو التنازل. إنه أقل صعوبة وتعباً من إنكارها وعلى المدى الطويل، إنه أسهل بكثير؛ ستلاحظ بنفسك أن القبول يحرر في داخلك الطاقات التي تحتاجها لتثقيف وتقدير ذاتك ولتكون أفضل في كل الظروف. إنه ليس صعبا وغريبا إلا في البداية.

تذكرّ: يجب عليك أن تتعلم مجدداً . وذلك يحتاج لوقت: سيظهر لك غير مناسب، في البداية. استمرّ. ثابر. القبول، يسير مع الوقت. وما إن يُكتسب القبول، حتى يصبح كل شيء سهلاً.

في الواقع، إذا لم تتوصل لتقبل ذاتك، لن تتوصل أبداً لمعرفة نفسك. إذا لم تعرف ذاتك، لن تتوصل للإيمان بثقة بأنك تحب نفسك. ولا أنك «محبوب» بعمق. اقبل حقيقة أنك «محبوب». طبيعتك طيبة تستحق أن تكون محبوبة. آمنْ بها بعمق وستحصلُ من ذاتك على التقدير والحب.

حب الذات: من أين يبدأ؟

إنَّ الوقوع في حب الذات يشبه إلى حد ما الوقوع في حب شخص ما. في البداية، نبدأ بملاحظة النفس؛ ثم نهتم بأشياء قليلة نقوم بها: ما قلناه، طريقة القول، الطريقة التي نضع فيها أنفسنا مكان الآخر، طريقة ضحكتنا، الأشياء التي نحب والتي لا نحب....إلخ. نتقبل الذات بالطريقة نفسها التي نتقبل بها شخصاً يهمنا. نعذر أخطاءه، نمدح نجاحاته، نكون لطفاء معه، نتساهل عندما يلطّخ السجاد بقدميه. نأخذ بعين الاعتبار نجاحاته ونمنحه الثناء عليها.

إذن نمنح أنفسنا التهاني ونهمس بكلمات لطيفة تُقال لشخص نحبه. نكرس لأنفسنا وقتا نحتاجه، نواسي أنفسنا عندما نتألم. نبتسم في المرآة ونقول كل يوم «أحبكِ». إنه لمن المجازفة أن يظهر ذلك غريبا في البداية: إن هذا لا يمنعك من فعله! تتذكر المرة الأولى التي قلت فيها لشخص بأنك تحبه؟ لم تكن فخوراً، كنت خائفا أن ترفض، أو تشعر بالالتزام الكبير نحوه. هذا ما يحصل بشكل عام في المرة الأولى حين ننظر في المرآة لنقول لأنفسنا: «أحبك». حاولْ، واقبلْ ما حدث إذن. إنَّ ذلك أشبه بعلاقة غرامية، تحتاج وقتا قبل أن نصدّقها ونؤمن بها تماماً. إذا ألححت القول وأعدته مرات عدّة، ستنتهي بأن تقتنع به.

لكن الكلمات التي نقولها، للذات كما لشخص ما، لا تكفي. يجب تبنّي سلوك غرامي أيضا، والتمسك به. لن يؤمن شخص أبدا بأنك تحبه إذا اكتفيت بأن تقول له مصرّا بأنك تجهله، تهينه، وتسيء معاملته، لن يصدق شخص، على الأقل، من أصحاب الحس السليم بأننا نحبه في هذه الشروط؛ بالطريقة نفسها، أنت لن تقتنع أبداً بأنك تحب ذاتك مادامت تصرفاتك لا تتطابق مع أقوالك. من المهم أن تقول لنفسك «أحبكِ» لأننا بحاجة لسماع هذه الكلمات؛ لكن بالمقابل من المهم التصرف بحب إزاء الذات في أغلب الظروف (الأغلب وليس الكل لأننا لسنا كاملين، وننسى ذلك أحيانا). ومن ثمّ، يجب التفريق بين «أحبك جداً» و«أحبك». إذا عرفت تجربة حب غير متبادل، فستفهم هذا الفارق: إنه كبير. تقدير الذات يعادل حب الذات، حتى لو لم تحب مجمل تصرفاتها.

عندما نقول للناس بأن ينظروا لأنفسهم في المرآة ويقولوا «أحبكِ» ثم يتصرفوا بحب إزاء ذواتهم، يحس الغالبية بأنهم محبطون كليا لأنهم لا يحسون بأنفسهم لا محبوبين ولا عاشقين. إذا كان هذا ما حصل لك

فعليا، فاعرف بأنه طبيعي. لاتيْئس. إنَّ شعور الحب هو نتيجة التصرف بحب. في يوم ما، ستنظر في المــرآة وستحس بأنك محبوب. تذكــرّ بأن «أحــب» هو فعل نشــط، يصف حدثــا ما. محبة الذات شيء نقوم به، وحين نمارسه بما فيه الكفاية، نشعر بنتيجة ذلك. نحن أسياد تصرفاتنا، وليس مشاعرنا.

يُسمح لــك أن تعتني بذاتك تماما مثلما تعتني بشخص ما. في البداية، اسألْ نفسك عمّــا تريده، إذا لم تعرفه، اسأل نفسك عمّا تحتاجــه. إذا كان الجــواب واقعيــا وقابلا للتأمل، فعليك أن تتبناه بنفسك؛ في الحالة النقيضة، جِدْ بديلاً واقعيــاً وقابلاً للتأمل والتبني. امنحْ نفســك دائما شيئا ما. تذكرّ طفولتك: عندمــا كان لديك رغبة بشيء ما يتعــذر بلوغه، كنت ترضى بالبديل! لكن إذا لم يكــن لديك البديل، كنــت تشعر بنفسك مخدوعاً ومكروهــاً! لتكن كريما، تعاملْ مع نفسك بكــرم. قُدْ نفسك، كمــا تحب: ولن يتأخر الحب بالمجيء.

أمِنَ السيئ خداع الأوهام؟

كمــا قيل سابقا، من الضــرورة التخلي عن أوهامنا لتعلــم القبول. لماذا؟ الأوهام، الآمــال الرومنسية، الأساطيــر والأمنيات النقية تساعد بقــوة على أن نحصر أنفسنا فــي حياة متقشفة. أحياناً نستدعيهم لنمنع حقيقــة الحياة المؤذية. ويستعان بهم غالباً كي لا يُعاش الحاضر. إنهم ليسوا خطيرين، إنهم فعّالون جــدًا لتعيش الحياة والمشاعر سواء أكانت جيدة أم مؤلمة. غالباً ما نحاول استدعاءهــم باســم حــام أو درع لنتجنب اللحظة الحالية. يمكن أن يمنعونا فعلاً من المعاناة مؤقتاً، لكنه ثمن باهظ: يحذروننا، يغمروننا في نوع مــن الذهول الذي يبقينا بعيدين عــن الحياة. عندمــا نحافظ على الأوهام لنحمــي أنفسنا مــن الألم، تصبح أوهامنــا هذه كمخــدرات، تمنعنا للحظات من أن نكــون يقظين، متنبهيــن، مسؤولين وواعين بلحظتنا الحالية. باختصار، نضيّع السيطرة على ذواتنا.

تُعــرّف الأوهــام بأنهــا خيــالات؛ لا تحسب حسابــا لحقيقة وجودنا؛ غالبا ما تشمل أهدافــا لا يمكن بلوغهــا؛ تجعلنا نفقــد وقتا ثمينــا وتمنعنا مــن استقبال الحيــاة ومواجهتها كليا؛ إذا أمضينا وقتا بالاستغراق بأحــلام يقظة بما نرغب في ملكيته، يبقى لنا قليل من الوقت لنستفيد مما نملــك. إن نموذجنا الغربي لا يمنعنا من تذوق اللحظــة الحالية؛ على النقيض يعلمنا أن نركز انتباهنا على المكان الذي جئنا منه (الماضــي) وذاك الذي نقصده

(المستقبل)؛ لا يوجد مكان للأوهام في اللحظة الحالية.

وبالطريقة نفسها علينا تقبّل ذواتنا لنعرف أنفسنا، كما علينا اكتشاف أنفسنا أيضا. هذا التأمل الباطني يجب أن يكون واقعيا: الجزء غير المكتشف في حياتنا لا يشكل جزءاً منها بل من الحلم. ومن أجل استمرار التعلم من الحياة ومن ذواتنا؛ علينا أن نكون مستعدين للاستكشاف. الوهم، إنه سهل؛ الآمال غير المجدية، إنها قاتلة: لا يساعدنا أحد على أن نعيش اللحظة الحالية، ويميل الجميع إلى إحداث صعوبات عندما نكون مجبرين على مواجهة حقيقة وجودنا بشكل مباشر. إذا توهمنا بأن كل شيء سيكون أفضل بحدوث (س)، فلسنا مستعدين لتغيير حياتنا. نفضل بشكل سلبي انتظار مجيء (س)، أو بالأحرى نركّز كل طاقاتنا لنجبر(س) على المجيء، عندما يظهر(س) بالنهاية، هناك كل الفرص لكي لا نتقدم. حتى إنه ثمة احتمالات قوية كي لا نكون في موقف سيِّئ، محبطين ومكتئبين أيضاً. تنتج الأوهام تصرفات سلبية، أو بالأحرى حاجة أقل واقعية للسيطرة على عوامل بعيدة تماماً عن متناولنا. تكوّن الأوهام طرقا لتخليصنا من مسؤوليتنا ولتجنب الواقع إذن. إننا نضيّع بسببها لحظاتنا الحالية رامين أنفسنا في المستقبل، في مملكة خيالية لـ«وإذا .....؟» تشبه كثيراً التوقعات العبثية والأوهام، تشير إلى أننا نعيش في المستقبل. تشمل التوقعات العبثية تخيل شيء ما، جيد أو سيِّئ، لا يتعلق بنا. إنَّ الوقت الذي نضيّعه بأحلام اليقظة يُفقد إلى الأبد. الشيء الوحيد الذي نستطيع القيام به لمستقبلنا، هو أن نعيشه عندما يصبح حاضراً. نستطيع أن نفعل الكثير في الحاضر، لكن بشرط ألا نحلم ولا ننتظر المستقبل.

يمكن للأوهام أن تكون مضحكة إذا لم نأخذها بشكل جدّي. إن الحلم، التمني والتخطيط لمشاريع خيالية هي أنشطة بناءة إذا كانت مرتكزة على حقيقة اللحظة. يمكن للرؤى المستقبلية أن تكون منتجة بشرط أن تكون واقعية وسهلة البلوغ. إذا عرفت بأنك ستقيم في مدينة ما ستة شهور، تستطيع أن تحلم كيف ستكون حياتك الجديدة، وأن تبني مشاريع لإقامتك: إنه طبيعي، إنه مرتكز على حقيقة. يبدأ الخطر عندما يتجاوز الوهم الحقيقة ونبدأ بالحلم بأن كل شيء سيتغير بحقيقة- أي حقيقة واحدة- أنك ستُقيم هناك. حيث تبدأ ببناء توقعات عبثية لا يمكن أن تقود إلا للفشل. تذكرّ: أينما ستقيم، ستأخذ شخصيتك معك؛ ومشاكلك

غير المحلولة أيضاً. إذا استدعيت أوهامك، توقعاتك العبثية، أحلامك وأمانيك النقية؛ لتهرب من ذاتك ومن حياتك، لن تتأخر لتلاحظ أنها عناء ضائع.

لا أحد يستطيع الهروب من ذاته، إنه أسهل بكثير من الاهتمام بالذات في الوقت الحاضر، ومن التخلي عن الأوهام. الواقع كاف بسخاء؛ تستحق الحياة العناء لتعاش، إن الحياة هي اللحظة الحالية. إن أحلامك بالمستقبل وجهودك لتشكيلها لن تحسّن حاضرك إلا بشرط واحد، ضروري وكافٍ: أن لا يستند تقديرك لذاتك على نجاحاتك المستقبلية.

إنَّ الحاضر أحيانا، موجع جداً لا يبقى منه سوى أمل يدفعنا للحياة لذلك يصبح المستقبل أقل ألما. إن حقيقة معرفة أن الألم سيمضي ليس وهماً. الاعتراف بحقيقة أن التغيرات ستحدث وأنها ستفضي إلى وضع أفضل، يسمى الأمل. إذن فإن اتخاذ إجراءات لعلاج حاضر مؤلم، هو نقيض إنكار وجود المشكلة. بدلا من استخدام الأوهام لإنكار الألم، يجب على النقيض:

- الاعتراف بأن الألم موجود.
- الاعتراف بأننا عانينا ذلك الألم.
- تذكرّ حقيقة أن الألم سيخفّ مع الوقت.
- أن تُقرَّ بأن التجربة المؤلمة ستجعلنا أكبر.

إنَّ الألم جزء من الحياة. تتضمن الحياة الجيدة جزءاً من الاستكشاف. إنَّ الأوهام، الأحلام، التوقعات العبثية والأمنيات النقية تعرقل سيرورة الاستكشاف: لذلك يعد كل ذلك خطراً.

لماذا لا أستطيع الاحتفاظ بدفاعاتي النفسية؟

نملك جميعا دفاعات نفسية. تُستخدم لحمايتنا مما لا نستطيع تحمله. يفقد الجسد وعيه حين يُصاب بصدمة (لكي يحمي نفسه من ألم مفرط) وبالطريقة نفسها نلجأ إلى الدفاعات لنحمي أنفسنا من معاناة أخلاقية مضنية. تذهب المقارنة أبعد من ذلك: ضياع الوعي لا يحمي الجسد إلا للحظات، بعد مدة، تصبح الغيبوبة خطرة، بالأحرى قاتلة؛ بالشيء نفسه، يصبح تعسف الدفاعات عاجلا أم آجلا قاتلا بشكل مؤثر. استخدام الدفاعات على المدى الطويل يخلق تبعية، كجميع المخدرات، تمنعنا من أن نبقى على اتصال مع الواقع.

ما هي الدفاعات؟ إنَّ أكثرها شيوعا هي نفي الواقع، قمع المشاعر، رمي المسؤوليات

علـى عوامل خارجيـة، التبريـر المفرط والعقلاني. تسمح لنا بشرح تصرفات نرفض تغييرهـا ثانيـة. تساعدنا علـى حفظ ماء الوجه، إزاء ذواتنا كما الآخرين، عندما نكون عاجزين عن رؤية أو قبول الأشياء كما هي. تميـل الدفاعات لإخفاء الحيـاة ولتزويدنا بأعذار لنظهر كريهين في أفكارنا، مشاعرنا أو تصرفاتنـا. نستدعـي دفاعاتنا عندما نرفض معالجـة نواقصنا أو نواقص الناس الذيـن نحبهـم. تخدمنا لإنـكار أن الحياة شاقّـة، أن الموت موجود، أننا نملك جميعا جانباً سيئاً يزعجنـا. نمضي إلى دفاعاتنا عندمـا نحاصر بإدراك أننـا لسنا كاملين، وأن الحيـاة غير عادلة، وأننا نشعر بأنفسنا ضعفـاء ومن دون مورد. كلمـا استدعيناها أكثر كنا بحاجـة إليها أكثر. الدفاعات هي عُقار: لا تأخذ وقتـا طويلا بالسيطرة على شخصيتنـا ونلاحـظ قريبا أنـه لا يمكننا الاستغناء عنها. تصبح عادة لا إرادية.

ما هـو الترياق الـذي نستخدمه ضد الدفاعات؟ كيـف نتوقف عن استخدامها، بينمـا نحـن لسنـا واعيـن دائمًـا حين نستخدمها؟ بالبداية، لنتحمل مسؤولياتنا: لنتقبـل حقيقة أننا بشر ولن نكون كاملين، يحدث أننـا نرتكب أخطاءً، ولدينا جوانب سيئة، أشباح تضايقنا. نقوم أحياناً بأشياء سيئـة، أشياء ساذجة وأشيـاء تؤذي. نحن هنا كلنا. إن من أعظـم سخريات الحياة، أن أناساً نعرفهم هم أفضل وعياً لحدودنا ويخترقون دفاعاتنا حتـى اليوم. سخرية أخرى، هـي أنه عندما نعتـرف بالوجود السري لجانبنا السيِّئ، يفقد القسم الأوسع مـن سلطته علينا. إن تحمـل المسؤولية؛ هي طريقة اعتراف بارتكابنا أخطاء وبأننا بشر عاديون.

بما أنَّ دفاعاتنـا تقينا من آلام الواقع، فالطريقة الثانية للاستغناء عنها هي قبول الألم. إنه لمن غيـر المفيد الإنكار، القمع أو التفسير المفرط لأشياء عدّة رضينا بها أو تقبلناها. يزودنا القبول بالقوة الضرورية لتجاوز الألم. يلزمنا طاقة للاعتراف بأننا نتألـم، وأننا نواجـه الألم أقـل بكثير من إنـكاره، أو عقلنة ما نحس بـه. ليس من الضعـف الإحساس بالألم: إنـه إنساني. في المرة التـي تتقبل فيها نفسك كما هي وتعتـرف بأنك تشعر بالألم، ستحرر نفسك من متطلبات مفروضـة عبر دفاعاتك. إنَّ آليات الدفـاع لا تعمل جيدا إلا بمقدار ما نكون غير واعيـن لها كليـا. بالنسبة لمن يتقبـل نفسه ويتقبـل تصرفاتها، لن يكون بحاجـة لدفاعات. حيـن نعترف بالضعف ونقبل هـذه السمة في الطبيعـة البشرية،

فإننا نعطـــي أنفسنا إمكانيـــة التخلي عن دفاعاتها. لسنا بحاجة إليها لنحمي أنفسنا. نصبح أقوياء كفايـــة فنتكفّل بألمها. إن ما يشكل جزءاً من تقدير الذات، هو أن نصبح واعين لما نفعله وللطريقـــة التي نبني بها دفاعاتنـــا. وتقدير الذات، هو التخلص من كل ما يعيـــق معرفتنا لذاتنـــا، وعلى سبيل المثال دفاعاتنا.

كيـف أستطيـع تعلّـم تحريـر نفسـي وتغييرها؟

أشـــارت الأسئلـــة السابقة إلـــى أهمية التحـــرر؛ التحـــرر مـــن القلق، مـــن تأنيب الضميـــر، مـــن الضجر، مـــن الكمال، من العدالة، من الأوهام، من الدفاعات.... في الواقـــع، هذه أشياء علينا أن نهجرها؛ ولكن إذا توصلنـــا لتخليصـــ أنفسنا من كل ذلك، ماذا سيبقى لنا؟

من المهم ملاحظة أن العناصر كلها في هـــذه القائمة متعلقة بـ(أنـــا) ضعيفة، يعني متعلقـــة بمشاعر تقييم ننتظرها من عوامل خارجية. تساعدنا علـــى حماية أنفسنا من ذواتنـــا، تزوّدنـــا بذرائع لنعـــذر تصرفاتنا الإنسانيـــة جـــداً أو لنتخلى عـــن مسؤولية أخطائنا. تساعدنا على تأكيد ذواتنا، تمنعنا من أن نتكفّل بأنفسنا وأن نغيّرها.

عندما نحـــرّر أنفسنا من رغبة أن نكون ما لا نستطيـــع أن نكونه- أي كاملين- نجد أن مـــا بقي لنا، هو طبيعتنـــا الإنسانية في بهائهـــا البسيـــط، أعماقنا الطيبـــة، ثقتنا وإيماننـــا بذواتنـــا. لا يبقى لنـــا سوى قلب شخصيتنا إنه طيـــب، موضوعي ومسؤول. يبقى لنا أيضا الوعـــي بحقيقة أننا نقترف الأخطاء، ونجرب آلاماً في الغالب لا نعرف سببها. أثمة سوء في ذلك؟

إنَّ الطريقـــة الأمثل للتحرر من شيء ما، هو فعله بحب. لنكفّ عن الحقد ومحاربة ما نحاول التخلص منـــه. وبالمقابل، لنفخر به ونعترف على الملأ أن هذه الأدوات القديمة كلها - ماضينـــا، تأنيب ضميرنـــا، دفاعاتنا وأوهامنا- هي خادم جيد قادنا لنكون على ما نحـــن عليه اليوم. الدفاعات هي التي جعلتنا على ما نحن عليه؛ ولها أهميتها مادمنا على قيد الحياة. إنها أدوات، معيبة ربما، لكنها مع ذلك: تشكّلنا. يلزمنا بالوقت الحاضر أدوات جديـــدة وأكثر كفاءة لنصبـــح أفضل. قبل أن نحرر أنفسنـــا، قبل أن نرمي هـــذه الأدوات القديمة، لنعطيها الاحترام الذي تستحقه.

إنَّ التخلصـــ من شيء مـــا يجعله نضجُنا غير مفيد أسهل من التخلص من شيء نكرهه ويغضبنا بشدة. عندما نكره شيئا فينا، نحاول التخلص منه بقوة، يظهـــر ملتصقا بنا. على

النقيض، عندما نتخلص منه بحب ودون إنكار لقيمته، ينزلق بسهولة ويتركنا بشكل يكاد يكون طبيعيا. مثال جيد على هذه السيرورة، ثمة علاقة حب حررنا بها أنفسنا لأننا نضجنا، فتوصلنا بسهولة لنتذكر ثانية لحظاتها الجميلة، معترفين بكل ما علمتنا إياه. في هذه الحالة، من السهل أن نضع نهاية لها وأن نحس بالراحة إزاء ذواتنا. على النقيض، إذا لم نستطع أن نحرر تركيزنا من الحقد ومن الخلافات المرتبطة بهذه العلاقة، التي مازالت تمارس علينا تأثيراً ضئيلاً: نحن لسنا أحراراً ولا نشعر بالراحة إزاء ذواتنا.

لنفخرّ بالأشياء التي نتمنى أن نحرر أنفسنا منها. لنتفحصها واحدة واحدة ولنتذكر الفائدة التي تقدمها لنا. لنعترفْ بمزية أننا لا نستطيع أن نكلف أنفسنا بإنجاز عمل حتى النهاية. لنقلْ صراحة أنه، منذ الآن نحس بأننا أقوياء كفاية ومسؤولون، فقد تغيرت حاجاتنا. في كل مرحلة من تطورنا، يجب أن نحرر أنفسنا ونتقدم. حينما نكون بحاجة لعكاز، فمن المستحسن أن نحمل واحدة في يدنا، لكن عندما تصبح غير مفيدة، نستطيع وضعها برقة، بحب. كلما أكثرنا من تطويرنا لذواتنا، استطعنا وضع عكاكيزنا في خزانة الحائط. عكازة غير مفيدة هي مزعجة. التحرر هو سيرورة، يأخذ وقتا، وهو أيضا أكثر سهولة حين يمارس بحب.

كيف أنهي ماضيّ؟

يبدو من المستحيل التحرر من الماضي: كيف يمكن التخلص من شيء يشكل جزءاً كبيراً من الذات؟ ولماذا أتحرر منه؟ أليس ما نحن عليه الآن هو بسبب الماضي؟

إنَّ الجواب على هذا السؤال، هو السبب الذي من أجله يجب التحرر من الماضي. من المؤكد، أن ما نحن عليه هو بسبب كل ما حصل في الماضي إلى حد كبير. لكن زيادة على ذلك: يمكن أن نكون على مانحن عليه في الحاضر. إنَّ التعلق بالماضي لإثبات الوجود أو لإيجاد أعذار في الحاضر هو خطر كالعيش في مستقبل وهمي. إنَّ هذين السلوكين لا يفسحان المجال لحقيقة ما نكون: وكأن لا شيء يتعلق بنا.

إنَّ التحرر من الماضي لا يعني نسيانه. تشكل الذكريات جزءاً من ذاتك، لكنها لا تشكل حقيقة ما أنت عليه في اللحظة الحالية. في الحاضر تستطيع القيام بخيارات، وليس في الماضي. بعبارة أخرى، لا تستطيع تحمل المسؤولية عن أشياء تهرب من سيطرتك. وماضيك يهرب منك كليا: إنه ماضٍ. لا تستطيع الرجوع للخلف لتغيّره. من هنا من المهم أن تحرر نفسك وتتقدّم.

لا شيء يمنعك فعلياً بشكل فعّال جداً إلا حقيقة أن تجرّ ماضيك معك. من المفيد تمثيلك لماضيك كسلة قمامة ضخمة ممتلئة بالخير والشر. حقيقة أن تحملها في كل مكان فوق كتفيك، تثقلك وتزعج لحظاتك الحالية. تحت عبء حمولة ثقيلة، لن تستطيع إعطاء الأفضل عن ذاتك. الق بحقيبتك، افتحها واسحب منها المحتوى بعناية اسعَ لتفصل الجيد- ذا القيمة من السيِّئ- الذي تكرهه. كنْ موضوعياً: بشكل أولي ستكتشف أحيانا أن شيئا مُلاحظا كـ«سيِّئ» لديه تأثيرات مفيدة بينما آخر، مُثمّن بالبداية كـ«جيد» لم يؤدِ إلا لنتائج سلبية. افخرْ بكل ماضيك؛ إنه بأكمله الذي أوصلك إلى ما أنت عليه الآن. احتفظ بما أنت بحاجة إليه حقا وتحرر بحب من كل ما بقي. بالمستقبل، لن تعود محتاجا لتحمله على ظهرك في كل مكان تذهب إليه. صورة أخرى: انظرْ لماضيك كمعطف كنت تلبسه عندما كنت صغيراً، في ذلك الوقت، كان يناسبك، ويمنحك الدفء، كان يفيدك في شيء ما. لكنك كبرت، لم يعد يناسبك ولن يشعرك بالدفء فلماذا تستمر بعناقه؟

قلنا في السابق: من المستحيل العودة للخلف لتغيير الماضي؛ ما نستطيع تغييره اليوم، هو تأثير الماضي على الذات الآن، في الحاضر. لذلك، يجب التوقف عن أن نفعل بالماضي ما لم يكن. إذا أسيئت معاملتك، رُفضت، أو أُكرهت في الماضي، توقفْ عن رفض، إساءة معاملة ذاتك أو كرهها في الحاضر. ليس لأنه إذا غمرك الوحل في الماضي كرّرت قذاراته في الحاضر. لتتحرر من هذه القذارات، يجب تحرير نفسك. فربما ستعاني في محبة ذاتك، إذا لم تشعر بأنك محبوب، إنه صعب، لكنه غير مستحيل. إذا تركت لماضيك مهمة كتابة سيناريو حياتك الحالية، فتحملْ المسؤولية عن ذلك. أنت الذي تعيش حياتك وأنت أفضل مما كنت سابقا. ابذلْ قصارى جهدك. حرّرْ نفسك من كل ما يقيّدك. كنْ حراً. ماضيك هو سجن لكنك تحتفظ بمفتاحه؛ تستطيع الخروج منه لحظة تختار تحرير نفسك.

إنَّ الشكل الأكثر فاعلية للتحرر من الماضي هو أن نعي الطفل الكامن فينا، وأن نتعلّم أمومته. أي أن نتعامل مع أخطائنا وآلام الماضي بحب.

المصدر

- تُرجم المقال بتصرف من كتاب (علم النفس الميسر) للكاتبة: Susanna Mc Mahon.

الميثولوجيا الإغريقية والمعتقدات السورية

د. خليل المقداد ❀



يتكلم الباحثون عندما يتحدثون عن أصول الميثولوجيا الإغريقية بأن هذا العالم الإغريقي كان في معتقداته بعيداً عن قصص الميثولوجيا الكلاسيكية[1]. معتمدين في ذلك على دراسة الطريقة النظرية التي نظر بها الإنسان القديم إلى ما يحيط به، ولذلك لم يعر اليونان ذلك الأمر شيئاً كثيراً، والسبب في ذلك أن حضارة اليونان جاءت متأخرة كثيراً عن حضارة العرب في بلاد الشام بآلاف السنين، ولكن عندما احتك هؤلاء بالمجتمع العربي عن طريق الكنعانيين

❀ باحث في الآثار والتاريخ القديم.

والفينيقيين أخذ الفكر الميثولوجي عندهم يسير في تألــق ونضوج كبيرين، لذلك فقد تجــاوزوا كثيراً من المراحــل التي قطعتها هذه الشعوب المتحضــرة حتى وصلت إلى هذا المستوى.

ولو اعتمدنا علــى الأفكار الميثولوجية التــي ارتكــزت على ما جاء مــن أفكار في قصص وأساطير الإليــاذة والأوديسة، وإن كانت هــي الأولــى والتي تعود إلــى بداية الألف الأول قبل الميلاد تقريباً بينما بداية تاريخ الثانيــة فيبقى مجهــولاً، فلو أخذنا الأفكار التي جاءت في الإلياذة على اعتبار أنها كانت أول تدوين كتابي للإغريق لوجدنا أن الميثولوجيا اليونانيــة تبدأ بالفيلسوف (هومــر) الذي يعتقد أنــه عاش قبل ميلاد المسيح بأكثــر من ألف سنة تقريباً، أي في الفترة التي أخــذت فيها القبائل الإغريقية تستقر في بلاد اليونــان، وجزر بحر إيجة، والبحر الأبيض المتوسط بعد حروب طاحنة بينهم، ومنها حرب طروادة، وفي تلك الفترة كان كثيرٌ منهم يعملون في خدمة الفينيقيين في الملاحة البحرية والتجارة العالمية.

وخلاصة القــول: إن المصادر الرئيسة للمعتقدات والفلسفة والأساطير الإغريقية جــاءت من خلال ثلاثة مصادر رئيسة هي: ١ - الإلياذة، ٢ - الأوديسة، ٣- القصائد أو الترانيــم الهومرية؛ وهي تلك القصائد التي كتبت علــى شرف العديد مــن الشخصيات الإلهيــة المشتتة، والتي تعود إلى فترة زمنية تنحصــر بين نهايــة القرن الثامــن، وبداية القرن السابع قبل الميلاد. وهذا ما يؤكد أن أدباء اليونان أو الإغريــق عندما أخذوا في كتابة المعتقدات القديمة، استخدموا طريقة متطــورة جــداً وممهورة بالخيــال الجمالي الخصب، تلك الطريقــة التي كانت متوافرة فــي الأدب الســوري، وخاصــةً فــي المدن الساحلية مثل عمريت ورأس شمرا وغيرها.

لذلــك نجد أن هــؤلاء أغفلــوا القرون الطويلــة التي عاشها الإنســان وهو يناضل ويكافــح مــن أجل الوصــول إلــى القراءة والكتابــة واكتشــاف الحــروف المسمارية وفي النهاية الوصول إلى التعبير عن الذات وصولاً إلــى التعبير عــن المعتقدات التي توصل إلى الإيمان بها.

وإضافــة إلى ذلك أنه خلال تلك الفترة عرفــت البشريــة العديــد مــن الديانات السماوية، والرسل والأنبياء وكان معظم هذه الديانات قد نزلــت في بلاد الشام، كما أن الرسل والأنبياء كانوا من أبناء هذه المنطقة أيضــاً، ولهذا تعتبر بــلاد الشام هي المهد الأكثــر قدسية والتي باركهــا الله وفضلها على كثيرٍ من أصقاع الدنيا(٢).

ولو أمعنا النظر في هذا الأمر جلياً لوجدنا أنه من المرتكزات التي ارتكزت عليها المعتقدات الدينية في سورية، والتي انطلقت في بدايتها من الظواهر الطبيعية كما ذكرنا ومنها الشمس والقمر والكواكب والأرض... إلخ، ولم يكن في تلك الفترة أي تصورات بصرية لدى الناس بمعنى أنه لم يكن أحد من الناس يفكر بالإله على أنه صورة بشرية أو أي شيءٍ من هذا القبيل، بينما نجد أن الإغريق صوّروا آلهتهم مرتكزين على صورهم البشرية، بحيث كانوا ينظرون إلى العمالقة من الرجال ليكونوا هم الأقرب إلى الآلهة، وهذا لم نجده عند أي شعب من الشعوب المتحضرة التي سبقتهم في هذه المسألة وفي تخيل صور الآلهة.

وحتى الشعوب التي سكنت في حوض النيل اختلفت عنهم في ذلك حيث نجد الآلهة هناك كانت متمازجة بين صور بشرية وشخصيات أسطورية غير بشرية، كما ظهر عليها الجمود والضخامة وخلوّها من الحركة والخيال. كما نلاحظ ذلك في تمثال «أبو الهول» في الجيزة، ولذلك ظهر أبو الهول بصورة حيوان ضخم ورأس أسطوري لم يكن له قرين في هذه الضخامة وبتلك الفترة سوى في القسم الشرقي من سورية وفي بلاد الرافدين وإن تفاوتت المقاييس بعض الشيء. كما صور المصريون المرأة بصورة إنسانة برأس هرة تبدو عليها الشراسة والقسوة.

بينما في بلاد النهرين فقد كانت هذه الصور أكثر رشاقةً وحيويةً ووضوحاً، وإن كانت بعض الحيوانات التي ظهرت فوق المنحوتات غير معروفة، كما صوّروا الأشخاص برؤوس متنوعة مثل رؤوس الطيور أو الثيران أو الطيور الجارحة والمجنحة مثل النسور على سبيل المثال والتي نشاهد نماذج منها معروضة في المتحف الوطني في مدينة حلب وكذلك في متاحف مدن دمشق – الحسكة – ودير الزور.

ومن هنا نجد أن جميع هذه المظاهر وجدت في البداية في الميثولوجيا الإغريقية حيث صوّروا الآلهة في البداية على شكل وحش، ثم صوّروها بأنصاف بشرية وأنصاف حيوانات أسطورية مثل الساترات التي كان نصفها بشكل بشري ونصفها الآخر على شكل ماعز، وكذلك القنطورسات حيث ظهر نصفها على شكل إنسان والنصف الأخر على شكل حصان، والإلهة هيرا نفسها صُوِّرت على شكل إنسان بوجه بقرة، وكذلك أفروديت/ أمفرتيت البحرية كما تعرف في شمال أفريقيا، ولدينا الكثير من هذه النماذج المعروضة في المتاحف.

ولكن مع التطور الحضاري عند اليونان غابت عن المعتقدات في الميثولوجيا الإغريقية بعض هذه الأمور التي سبق ذكرها مع بعض الاستثناءات التي كانت تصور بعض هذه الشخصيات مثل أفروديت البحرية وغيرها والتي سوف نتكلم عنها لاحقاً. وهذا الأمر في الحقيقة كان يرتكز عندهم على الأمور المرئية والتي يدركها العقل بعيداً عن الأمور غير المرئية، أو ما تعرف باسم الصور أو التصورات الخيالية والتي كانت سابقاً من المرتكزات الأساسية لفهم الإنسان والعالم المحيط به.

ولو نظرنا إلى مصدر المعتقدات من الناحية الإعلامية لوجدناها تتولد لدى رجال الفلسفة والدين والمفكرين والمتبصرين وغيرهم من أهل العلم كالفنانين من مصورين ونحاتين ورسامين، وكان جميع هؤلاء يتصورون شخصيات هذه الأساطير ثم يصورونها ثم ينشرون هذه المعتقدات عن طريق المنحوتات المختلفة سواء كانت جدارية؛ كما ظهر ذلك واضحاً في المعابد وخاصة فوق الواجهات وفي داخل المربعات والمستطيلات والمثلثات والمعينات أو بمعنى آخر الأشكال الهندسية المضلعة والتي عرفت عند الإغريق باسم (الميثوبات) مثل تلك التي ما زال قسم منها موجوداً في واجهة معبد البناتيون فوق أكروبول مدينة أثينا والذي يعود إلى الفترة الكلاسيكية أو غيره من المعابد التي تعود إلى تلك الفترة في بلاد اليونان.

أو على شكل شخصيات تنحت فوق التوابيت الحجرية أو النصب التذكارية واللوحات المختلفة، أو على شكل تماثيل شخصية بأشكال وحركات مختلفة، وقد برع الفنانون في هذا المجال وتشكلت مدارس لهذا الفن، وعلى رأسها مدرسة عميد النحت الإغريقي فيدياس، وميرون، وبوليكليتوس، وبراكستيليس، وسكوباس، وليسيبوس وغيرهم الكثير الكثير حيث انتشرت تماثيلهم في جميع مدن البحر المتوسط، وكان لها تطور مهذب في المرحلة الهلّينستية أكثر من المرحلة الكلاسيكية.

ثم أخذت تظهر هذه المفاهيم فوق اللوحات الجدارية الرائعة والتي مازالت موجودة في الأبنية الأثرية في مدينة بومبيي في إيطاليا، وتعود إلى المرحلة الكلاسيكية أيضاً. وبالطبع فعندما نتكلم عن المرحلة الكلاسيكية هنا نعني بها المرحلة التي تلت العصر الأرخي ٦٦٠ قبل الميلاد وسبقت المرحلة الهلّينستية التي بدأت منذ عام ٣٣٣ قبل الميلاد، كما اعتمدها المؤرخون، والتي تشمل من

القــرون السادس والخامســ والرابع قبل الميــلاد، وتقسم إلى ثــلاث مراحل وهي المرحلة الكلاسيكية المبكــرة، والمرحلة الكلاسيكية المتوسطة، أو العصر الذهبي والمرحلة الكلاسيكية المتأخرة، مع التنويه إلى أن كثيراً من الناس يفكرون أن المرحلة الكلاسيكية في البلاد العربية تعني كل ما هو قبــل العهد الإسلامــي وتشمل العهود اليونانية والرومانية والبيزنطية.

وأخيــراً أخــذت تظهــر هــذه الأفكار مترجمة فوق اللوحات الفسيفسائية، والتي وُجدَت منها آلاف اللوحات في جميع المدن التي كانت تتبــع للإمبراطوريتين اليونانية، والرومانية، وبشكل خاص مدن حوض البحر الأبيض المتوســط وعلى رأسها بلاد الشام أو سوريــة الكبرى، وسوف نتكلم عن واحدة من هذه النماذج بالتفصيل لاحقاً.

ولكــن السؤال المطــروح هنا هو: كيف كانت تجول فكرة هؤلاء العظماء في أذهان الشخصيات التي ذكرناها؟

وفي هــذا الخصوص نعتمد قول هومر الذي ذكــر أن الفنانين وخاصــةً النحاتين كانــوا ينظــرون على سبيــل المثــال إلى الرياضي البــارع أو الرياضييــن البارعين فيجــدون فيهــم مــا يرضــي رغباتهم في العالم المرئي الــذي يحيط بهم، كما كانوا يعتقــدون أنهم لم يجــدوا أجمل وأقوى من هذه الأجسام الفتيــة والقوية، ولهذا نحتوا فــي البداية تمثــالاً للإله أبولــو على هذه الشاكلــة، ثم تمثــالاً للإلــه هرمس، حيث رأى النحــات أو مجموعة مــن النحاتين أو الفنانين والمصورين هرمس على شكل فتى في ريعــان شبابه حيث ظهر لهــم على أنه أروع ما يكون جمالاً بين الناس.

كمــا عبر عن هــذه المشاعر الفلاسفة والشعــراء الإغريــق حيــث لمســوا فيهم الصفــات الرائعــة في صفــوة المخلوقات من البشر علــى شكل شخص قوي منتصب ومفتول العضلات ورشيق وسريع الحركات، وخيــر مثال على ذلك صورة رامي القرص، وكل ذلك كان يدغدغ مشاعرهم وهم يبحثون عن الجمال والقوة في الشخص الذي يعبر عن شخصيــة الإله أو كنمــوذج من نماذج شخصيــات الآلهة. وهذا مــا يؤكد أنَّ فكر اليونان المتعلق في المعتقدات الدينية كان يرتكز على الكائنات البشرية.

ومما لا شك فيه أن تمثيل الآلهة بصور وأشــكال بشريــة أراح النفــس الإنسانيــة وأبعدها عــن التخيلات المخيفة والمرعبة ووضع فيها الأنس والألفة والسكون والراحة لدرجة أن هذه المقدسات أصبح لها جاذبية لدى الإنسان لدرجة أن أصبح العالم عالماً

مؤنساً محرراً مــن الخوف والظلام وبعيداً عن الأمور اللامعقولة.

وبالطبع فمــا ينطبق علــى المعتقدات اليونانية كان ينطبق على المعتقدات الرومانية ولكن كانت هناك صلة وصل بين المعتقدات العربية السورية والمعتقدات الرومانية وكان الفضــل في ذلك يعود إلــى الإغريق، ولهذا نجــد أن الذوق الفني فــي جميع المقومات الحضارية لدى الإغريق كانت أكثر رقيا منها عند الرومـــان، والسبب في ذلك أن الإغريق كانوا هم السباقيــن في نهل هذه الأمور من الحضارة العربية، عكس الرومان.

وقــد عبّر هيرودوت عن هذا الأمر منذ القــرن الثانــي قبل الميلاد حيــث ذكر أنه ومنذ القديــم كان العرق الهلّيني يتميز عن العرق البربري، (ويقصــد بالبربر الأصول العرقيــة للشعب الروماني القادم من شمال أوروبا) بــذكاءٍ وقّاد وتحرر من السخافة(٣). وقد ذكرنا قبــل قليل أن هــؤلاء الهلّينيين والذين يعتبرون من الأقوام الإغريقية كانوا يصوّرون آلهتهــم على أشكالهــم البشرية، عكس المصريين حيث نجد لديهم التماثيل الضخمة والجامدة والخالية من الحركة.

ففــي مصر نحتــت التماثيــل بأشكالٍ مستقــرة كأعمــدة المعبــد الضخمة، وكل تمثال لما هو بشري كان يصنع عمداً بحيث لا يشبه البشر. أو يصنع ليكون شكلاً قاسياً، وقد تكلمنا عن ذلك وذكرنا مثال المرأة برأس الهــرة التي لا توحي باللبونــة، وإنما توحي بالقسوة اللاإنسانية، وكذلك الأمر بالنسبة إلــى تمثال أبــي الهول فقد نحــت ليكون أنموذجاً لأبي الهول الضخم البعيد عن كل ما هو حي. وهذا مــا شاهدناه في بلاد ما بين النهرين حيــث نجد الأشكال الحيوانية في النقوشــ لا تشبه أي حيــوان معروف، رجــال برؤوس طيور، وليوث برؤوس ثيران، وكلهــا بأجنحة نسور. وجميــع هذه الأمور نابعة من خيالات الفنانين.

ونعود ونذكــر أن هــذه المفاهيم التي تتمحــور حــول المعتقدات فــي المنطقة العربية كانت تعود إلى الزمن الذي كان فيه العالم فتيــاً، وكان الناس مرتبطين بالأرض والأشجار والبحار والأزهار والتلال، مما لا نشعر به نحن. لكن علينا أن نفهم أنه عندما تشكلت هذه المفاهيم لم يكن ثمة فرقٍ كبير بين الواقعي وغير الواقعي. والسبب في ذلك أنَّ الخيــال كان منتعشاً حياً، ولم يكن العقل قد أخضعه للاختيــار، فيمكن لأي كان في الغابــات أن يتبصر من بين الأشجار حورية الأدغــال وهي تهيم، أو ينحنــي فوق غديرٍ صافٍ ليشرب فيرى وجه حورية الينابيع في الأعماق(٤).

ومن الفوارق التي ظهرت بين المعتقدات العربية والميثولوجيا الإغريقية أن هؤلاء الإغريق لم يؤمنوا بأن الآلهة خلقت الكون، بل على العكس من ذلك: فالكون هو الذي خلق الآلهة. كما كان الاعتقاد لديهم أ ن السماء والأرض تشكلتا قبل أن يكون هناك آلهة التي كان أقدمها الأبوين الأولين ثم جاءت الآلهة كأحفادٍ لهم.(٥)

وقد صور الإغريق هؤلاء على شكل أشخاص ذوي أجسام ضخمة، ولكن لم يصلنا من هؤلاء سوى العدد القليل وخاصةً الذين ذكروا في قصص الميثولوجيا ومنهم: أوقيانوس أو المحيط وهو يمثل نهراً، وكانوا يزعمون أنه يحيط بالأرض مع زوجته تيش. وكذلك هيبريون: أبو الشمس والقمر والفجر. وميموزين الذي يمثل أو يرمز إلى الذاكرة. بينما ثيمس فتمثل العدالة. كما ذكر أيضاً لابيتوس والد أطلس الذي يحمل الأرض على كتفيه وبروميثوس الذي أنقذ الجنس البشري.

جبل الأولمب والآلهة الاثنا عشر:

يبدو أن الموقع الجغرافي الذي ظهرت فوقه آلهة الإغريق حسب اعتقادهم كان له قدسية خاصة كما هو حال جبل عرفات أو جبل الطور في الديانة الإسلامية. وهذا الأمر يؤكد على أن قدسية المكان كانت من أولويات المعتقدات الدينية عند البشر وخالق البشر ولذلك تم التأكيد على ذلك بالقرآن الكريم، كما يؤكد بالدليل القاطع أن خالق هذا الكون كان قد فضّل بعض المناطق والمواقع الجغرافية على مناطق ومواقع أخرى، ولهذا كانت بلاد الشام من أقدسها.

ولذلك يعتبر جبل الأولمب عند الإغريق هو المكان الأكثر قدسية بين جميع مناطق العالم. إلا أن تحديد هذا المكان غير معروف، كما كان يعتقد بعضهم أنه في موقع مجهول بين السماء والأرض، وأول ذكر لجبل الأولمب جاء في مقطع من الإلياذة يتحدث عن الآلهة: «من أعلى قمة الأولمب المتعدد المنحدرات» مما يؤكد أنه جبل ولكن يذكر في مكان آخر أنه إذا أراد لعَلّق الأرض والبحر وجعلهما يتدليان من برج الأولمب. ما يدّل أن الأولمب ليس جبلاً. ولكن مهما كان فإنه ليس سماءً، ويقول هومر: كان الإله بوسيدون يحكم البحر، والإله هاديس يحكم الموتى، وزيوس يحكم السموات، أما الأولمب فإنه مشترك بين الثلاثة.

ومهما يكن وحسب الأسطورة فالدخول إليه يكون من بوابة كبيرة من الغيوم تحرسها آلهة الفصول الأربعة، وفي الداخل

توجـد مساكن الآلهة حيث يعيشون وينامون ويشربون ويطربون لقيثارة الإله أبولو حيث يكون مسكن البركة التامة.

أمـا الآلهـة الذين كانـوا يسكنون هذا المكان أو الذين يعرفون باسم آلهة الأولمب أو الآلهـة الأولمبييـن الاثني عشر والذين يشكلون الأسرة المقدسة فهم:

١ – زيوس (جوبيتير) الرئيس.

٢ – أخواه بوسيدون (نبتون).

٣ – هاديس (ويسمى أيضاً بلوتو).

٤– أختهم هستيا (فستا).

٥– هيرا (جونو) (زوجة زيوس).

٦– مارس (أريس) وهو ابنها مع أطفال زيزس.

٧– أثينا (مينرفا).

٨ – أبولو.

٩ – أفروديت (فينوس).

١٠ – هرمس (ميركوري).

١١– ديانا (ارتيميس)، وابن هيرا.

١٢– فولكان– (بركان /البركان) أو(هيفستون) ويقال أيضاً ابن زيوس– سيرس (ديمتر).

أمّا بالنسبة إلى جبل الأولمب في بلاد اليونان الحالية فربما سمي بذلك من أجل أن تتطابق التسمية في المعتقدات مع المركز الهام الذي سكنه الإغريق مؤخراً.

لوحة فسيفساء ملحمة الخلق كما جاءت في الميثولوجيا السورية:

ولتدعيم النظريات والأفكار التي أوردناها في ما ذكر حول هذه المواضيع نتكلم هنا عن ملحمة الخلق التي جاءت في الميثولوجيا السورية والتي تلخص تقريباً الكثير من الأفكار التي طرحت عن خلق الإنسان والكون بكل ما يحتوي من مخلوقاتٍ وكذلك بعض الظواهر الطبيعية نوردها كنصٍ مرفق بصورة عن اللوحة الفسيفسائية التي تؤكد على ذلك والتي تتبع إلى المدرسة السورية للمفاهيم الميثولوجية والفن الفسيفسائي والذي تمثلت في الكثير من المدارس وعلى رأسها مدرسة مدينة فيليبوبولس (شهبا) في جنوب سورية ومدن تدمر وأفاميا وأنطاكيا التي كانت الرائدة في هذا المجال في أنحاء العالم القديم كافة. ودرسنا هذه اللوحة في كتابنا بعنوان: (الفسيفساء السورية والمعتقدات الدينية القديمة «الميثولوجيا»– دراسة مقارنة).(٦)

وعرض في هذه اللوحة الفسيفسائية كثير من الآلهة كونها تتمحور حول موضوع الطبيعة والأرض وما يتعلق بهما من مواضيع، فالإلهة أتارقاتي أو جي تمثل الأرض وهي بذلك مصدر كل شيء في الطبيعة بما فيها الإنسان ولذلك عرضت

هنا شخصية الإله بسيشة الذي يرمز إلى روح الإنسان والإله بروميثة الذي خلق أول إنسان من طين والذي عرضت صورته في اللوحة والذي يعود مصدره إلى الأرض، والإلهة جورجيا التي تمثل الزراعة وكل ما يتعلق بها، كما تنتمي بدورها إلى الأرض ولذلك عرض هنا الإله تريبتوليم الإله المسؤول عن جني المحاصيل الزراعية وصورة الثور الذي كان رمزاً لفلاحة الأرض ويقوده تريبتوليم، وهو بذلك مسؤول عن الفلاحة أيضاً، وبما أن الفواكه تعتبر من محاصيل الأرض لذلك عرض هنا الآلهة كاربوا إلهة الفواكه.

وثمة مواضيع أخرى تتعلق في الطبيعة ولها انعكاساتها على الأرض مثل الرياح والتي تمثلت هنا في أربع شخصيات من آلهة الرياح وهم زفير- أوروس- نوتوس- بوري، كما ارتبط موضوع الخصب بالندى والطل، لذلك تم تمثيلها من ملاكين من الملائكة بوتي. يضاف لذلك كله رب الزمان اللامتناهي إيون المسؤول عن حركة الزمن من سنين وفصول الربيع والخريف والشتاء والصيف وأشهر أيام السنة والتي ترتبط جميعها في الطبيعة، ولذلك تم تمثيل هذا الإله مرتبطاً كذلك بربات الفصول الأربعة والتي تتشكل منها الدورة السنوية للزراعة وغيرها. وقد بلغ عدد الشخصيات التي عرضت فيها أربع وعشرون شخصية إضافة إلى صورة الثور وجدي صغير ضمن مساحة بسيطة بلغت ٢م× ٤٢,١م منفذة من مكعبات فسيفسائية ملونة. تم التعرف على جميع شخصيات اللوحة من خلال كتابة اسم كل شخصية فوق رأسها أو إلى جانبها وذلك حسب المجاز المكاني الذي كان مسموح فيه للكتابة. ونود أن نشير إلى أن هذه اللوحة معروضة في المتحف الوطني في دمشق.

ولتسهيل عملية الفهم سوف نعرضها بالتفصيل ضمن هذه المنهجية.

أولاً- نبدأ في الموضوع المركزي وهو الموضوع الرئيس في اللوحة والمتعلق في الإلهة جي أو أتارقاتي السورية ومن يرتبط بها على شكل الالتصاق في الموضوع والإخراج وكذلك التعبير الرمزي الظاهر في العرض، إذن ظهرت هذه الإلهة في أوسط وأسفل اللوحة على شكل امرأة عارية في قسمها العلوي، أما القسم السفلي فيكسوه رداءٌ شفاف فاتح اللون ذو انعكاسات صفراوية وزرقاوية يلتف حول حوضها وأرجلها ما عدا القدم الذي بدا مكشوفاً ومنسدلاً من عنقها ومسترسلاً على ظهرها، وقد جلست على

الأرض بحيث ظهر جذعها إلى الأمام مع انحراف بسيط إلى اليسار بينما تتحرف في جسمها السفلي نحو اليمين، وبشكل حاد. أمَّا الرأس الذي يكسوه من الأعلى تاجٌ غنيٌ بالأزهار كرمز للخصوبة وينحدر منه الوشاح إلى الأسفل فقد ظهر بمظهر الانحناء قليلاً إلى الأسفل والجهة اليمنى، وهذا المغزى أعطى انطباع الحنان والعطف لهذه الإلهة على أولادها المحيطين بها بينما بدا وجهها الشفاف الرقيق بقسماته الناعمة ذو نظرةٌ مملوءةٌ بالبراءة والوداعة والتأمل.

ثانياً- أولاد الإلهة جي الأربعة وقد ظهروا جميعاً محيطين بها.

ثالثاً- الشخصيات الوسطى في القسم العلوي من اللوحة وتتمثل في خمس شخصيات نعرضها بشكل مفصل كما ظهرت في اللوحة على الشكل التالي: جورجيا ربة الزراعة: ويأتي موقعها في القسم العلوي مباشرةً من الإلهة جي وبالتحديد في الحيز الذي يعلو جي وابنها الملتصق بها من الجهة اليمنى. الإله تريبتوليم وهو إله جني المحاصيل الزراعية. – صورة الثور إلى جانب تريبتوليم وقد بدا بمظهر القوة برأسٍ كبير ومتجهم وذي قرون كبيرة وعيون متسعة وصدر ممتلئ.

رابعاً- المجموعة اليمنى وتتألف من خمس شخصيات عرضت على الشكل التالي:

الإله إيون إله الزمان اللامتناهي يجلس فوق صخرة مكعبة الشكل، وقد صور إيون على شكل رجل ذي بشرة نحاسية في العقد الرابع من العمر متكدر الوجه الحليق والخالي من الشعر، وقوي الجسم الممتلئ بالعضلات القوية وصدره عريض وممتلئ، وقد ظهر جسمه عارياً في القسم العلوي، بينما ينسدل على فخذيه رداء صيفي شفاف بدا القسم الكبير من فخذه الأيسر مكشوفاً، وبذلك فجميع المظاهر التي ظهر بها تدل على القوة والرجولة.

كما صور جسمه في حالة الانحراف إلى الجهة اليمنى، بينما رأسه الملفوف في عصابة بسيطة يتجه شمالاً ضاماً رداءه العلوي فوق كتفه الأيسر ويمسك بيده اليمنى دولاباً أو عجلة البروج دائمة الجريان بلون برتقالي يميل إلى الصفار، ولذلك ظهر جسمه منحرفاً إلى الجهة اليمنى متمشياً مع حركة الدولاب في الوقت الذي يتجه فيه نظره إلى الوسط يراقب حركة المشهد الذي يرصده.

خامساً – ظهرت هذه المجموعة المكونة من ست شخصيات اختلفت مظاهرها في

العرض والمظهر والوظيفة، وكأنها وقفت على سفح صخري طبيعي شديد الانحدار بحيث ظهرت كل شخصية ملتصقة بالأخرى على الشكل التالي:

١- الشخصية الأولى من الأسفل وهو شخصية بروميثيه ويرمز إلى الإله الذي خلق أول إنسان من الطين وتمثل ذلك بالشخص الذي يقوم في صنعه بروميثيه. وقد ظهر هذا الإله على شكل رجل قوي ممتلئ الجسم تبرز منه العضلات المفتولة بغزارة ويكسو رأسه جمة غزيرة من الشعر الكثيف والأشعث بينما وجهه فقد بدا حليقاً وخالياً من الشعر، ويبدو عليه وكأنه في الخمسينات من عمره، كما ظهر عاري الجسد كلياً وهو يجلس على صخرة متجهاً يميناً. وقد أظهره الفنان وهو يقوم في صنع رجل من الطين يقف أمامه ويمسك بيده اليسرى كتل صغيرة من الطين المخلوط في السلة الدائرية والموجودة إلى جانبه الأيمن وعند أسفل قدمه اليمنى بينما يقوم في يده اليمنى بصقل وتمليس كتف الشخص المصنوع.

٢ – هرمس رسول الآلهة وإله الطرق والتجارة والمكر والدهاء، يقف هرمس خلف بروميثيه من الأعلى بشكل منتصب وهو معصوب الرأس بعصابة ويلتف حول رأسه منديل لمنع الريح السريع من اللعب في شعره أثناء الطيران، بينما تنطوي على كتفيه أجنحة تساعده على الطيران في حالة السفر للوصول سريعاً لتبليغ الرسالة التي يحملها كونه السفير المتجول بين الآلهة ويمسك في يده اليسرى صولجان القوة. كما يساعده على الطيران الجلباب الصوفي الفضفاض الذي يرتديه مسترسلاً على كامل جسمه.

٣- بسيشة الإلهة التي ترمز إلى روح الإنسان تقف منتصبة إلى يمين هرمس، وقد ظهرت على شكل فتاة في مقتبل العمر ترتدي ثوباً طويلاً وتلف شعرها الكثيف على شكل جمة في أعلى رأسها بينما تنطلق من كتفيها أجنحة على شكل فراشات وكأن مَنْ تحملها هي فراشة حقيقية، وهذه الأجنحة تساعدها على الطيران كالروح التي تطير قادمةً إلى المخلوق أو مغادرةً له. وقد بدت يداها المرتفعتان في وضعية تبرهن على حالة القلق التي تعيشها بسيشة خوفاً أو تحسباً من المصير الذي سيلحق بها بعد اتحادها في المادة، في الوقت الذي يستعد فيه هرمس لمزجها مع الجسم الذي يصنعه بروميثيه من الطين، بمعنى أنه بعد الانتهاء من صنعه سوف يبث فيه الروح.

٤- أفروديت ظهرت على شكل امرأة شابة في طور الفتوة والشباب، وهي تقف منتصبة يلف جذعها السفلي جلبابٌ صوفيٌّ بينما الجذع العلوي فقد ظهر عارياً ويعلو

رأسها جمة شعر كثيفة وتتكئ بذراعها الأيسر على صخرة مرتفعة من الجهة اليسرى من بروميثيه وتنسدل من فوق يدها قلادة مجوهرات أو فوهة كم الجلباب، بينما ترفع يدها اليمنى إلى الأعلى تكاد أن تضعها على كتفها الأيمن. كما ظهرت بجسم رشيق ووجه مشرق وعينين ثاقبتين تنظرً بهما نحو بروميثيه لتشاهد ما يقوم به من عمل بترقب واهتمام شديدين. وقد تم الافتراض بوجود أفروديت ربة الحب هنا لكي تدخل المحبة والفرح والمرح إلى روح وشخص المخلوق الجديد كي يعيش حياةً سعيدة بدلاً من حياة الشقاء.

٥- الشخصية الخامسة ظهرت فوق الشخصية المصنوعة من الطين وفي أقصى الطرف الأيمن من اللوحة، وقد ظهرت على شكل رجل متدثر بمعطف يحزمه على بطنه نطاق دائري، بينما يضع على رأسه منديلاً ينسدل على كتفيه ويلتف على الصدر وفوقه كوفية ذات مسننات علوية، ومن المؤكد أن هذه الشخصية لها دور مركزي وهام في هذا المشهد إلا أن الوضعية التي تظهر بها وموقعها تجعل من الصعوبة بمكان التكهن في الدور الذي تقوم به أو ترمز إليه.

سادساً - المشهد الأخير وهو المشهد العلوي من اللوحة، ويظهر به ست شخصيات رمزية على شكل ثلاث مجموعات رئيسية ويمثلها زوجان من الغلمان الملائكة الصغار، المجموعة اليسرى من شخصيتين واليمنى من شخصيتين وقد جاء عرضهما على الشكل التالي:

المجموعة الأولى المركزية: وهما شخصيات دروزوي؛ أي الملائكة المكلفين بتزويد الطبيعة بالطل والندى. وقد ظهرت على شكل زوج من الغلمان الصغار المجنحين، أحدهما قادم من الجانب الأيسر ويصطحب معه قربة من الماء، والآخر قادم من الجهة اليمنى ويصطحب معه قربة أخرى ويلتقيان بالتقابل وهما يدفقان الماء على المشهد.

المجموعة الثانية اليمنى: وقد ظهرت على شكل زوج من الغلمان الصغار المجنحين لم يظهر منهما إلا الرأسان المتجهين نحو الجهة اليسرى ويخرج من فم كل واحد منهما حزمة من الريح العاصفة على شكل دخان يتخلل الغيوم الماطرة، وهما نوتوس الذي يمثل ريح الجنوب وأوروس يمثل ريح الغرب.

المجموعة الثالثة اليسرى: ظهرت على شكل زوج من الغلمان الصغار المجنحين لم يظهر منهما إلا الرأسان المتجهين نحو الجهة اليمنى ويخرج من فم كل واحد منهما حزمة من الريح العاصفة على شكل دخان يتخلل الغيوم الماطرة،

وهما زفير الــذي يمثل ريح الغرب، وبورة الذي يمثل ريح الشمال. والملاحظة التي يجــب التطرق إليهــا هنــا أن الريح مُثِّل بأربــع شخصيات جاءت على شكل غلمان صغار، بحيث ظهــر كل واحد يمثل الريح مــن الجهة القادم منها، وهنا ظهرت رياح الجهات الأربعة الشمال والجنوب والشرق والغــرب، بينما نلاحظ أن إله الريح ظهر فــي بعض اللوحــات على أنــه إله واحد وشخصية واحدة.

وتبقى كلمــة أخيرة يمكــن من خلالها إظهــار الأهمية الكبرى لهــذه اللوحة التي تمجــد وتخلِّــد الحضــارة السوريــة وفن الفسيفساء وتطور المفاهيــم الميثولوجية كما تمجد المنطقــة التي خرجت منها في فتــرة العهود الهلّينستية ومــا قبل الإسلام، ويمكن إجمال ذلك ببعض النقاط وباختصار شديد على النحو التالي:

١ – نجح الفنان فــي تمثيل قصة خلق الإنســان من طين وكيفيــة تشكيله وإدخال الروح إليه مع إحضار وتوظيف الشخصيات المشتركة في هذا العمل.

٢– لاشــك أنَّ الفنان استلهم قبل العمل الفني الذي قام بــه جميع البواعث الدينية والدنيوية الاجتماعية منها والاقتصادية التي عاشها في الموقــع وتعايش مع المعتقدات الميثولوجيــة العالميــة كافــة، ويدل على ثقافتــه العالمية في جميــع المجالات كما أن ثقافــة الفنان لم تقتصر على الفن وإنما كان ضليعاً في علوم الفلسفة الموجودة عند جميع الشعوب وجميع الملل والأقوام.

٣– إظهــار الحيــاة المتجــددة فــي شخصيات اللوحة وفي المشاهد نفسها مع بث روح الانشــراح. وبالنتيجة فقد جاء كل ذلك تعبيراً صادقاً عن الحياة في المنطقة جغرافياً وتاريخياً.

الهوامش

١- إديث هاملتون، الميثولوجيا، ترجمة: حنا عبود، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٩٠م، ص١٢- ١٣.

٢- خليل، قدسية بلاد الشام.

٣- إديث هاملتون، الميثولوجيا، ترجمة حنا عبود، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٠م، العنوان الأصلي: (EDITH HAMILTON، MYTHOLOGY، A، MENTOR BOOK) ص ص ١١- ١٤.

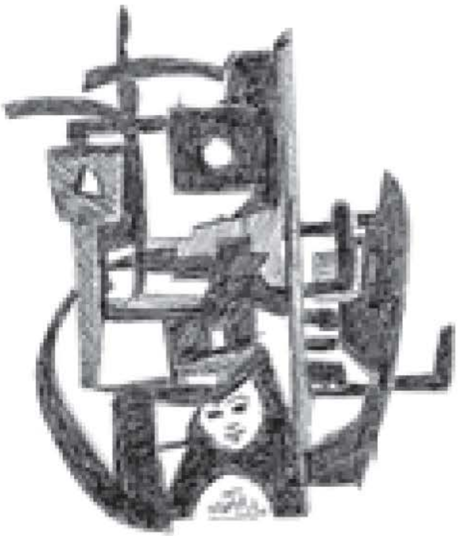
٤- المصدر السابق، ص ص١٢ - ١٣.

٥- المصدر السابق، ص ص٣١، ٣١.

٦- خليــل المقداد، الفسيفساء السورية والمعتقدات القديمــة (الميثولوجيا) دراسة مقارنة، مطبوعات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٨م. وخاصة لوحات الموضوع السادس مع النص ص ص١٠٨ - ١٢١.

أهمية التشريع في التنمية

غسان وديع العيد ❁



تقاس جـودة التشريع من خلال فعاليته التي تتضمن استيعابه للسياسة المستهدفة والبرنامـج التنفيـذي المقصـود وسهولة فهمـه من قِبَلِ المواطنين وابتكاره لأساليب تنفيذيـة رشيقـة وسهلة تساعـد في فهم الـدور الأساسي لهذا القانـون في التحول الاجتماعي المنشود لتحقيق أهداف التنمية والإدارة الرشيدة.

وفي العالم النامي كان التحدي الرئيسي يتعلق بعـدم ملاءمة تنفيـذ القانون القائم وعدم فعاليته وذلك يعود إلى فقدان الإدارة

❁ باحث في القضايا التنموية، وأستاذ جامعي، ومستشار وزير الاقتصاد، ومعاون وزير سابق.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

الرشيدة مما أدى إلى تفشي الفساد مع غياب الشفافية مما انعكس على مناحي الحياة كافة بما فيها التنمية والتحول الاجتماعي، ويأخذ التشريع بعين الاعتبار الأمور التالية:

- يجب الاعتماد على الاستدلال المستمد من التجربة.

- كما يجب أن يقوم على علاج الاختلالات الوظيفية المتوارثة في المؤسسات للإفادة من الأبحاث الموجهة لتحسين استغلال الموارد.

- استخدام التشريع من أجل تحقيق التحول الاجتماعي والثقافي والاقتصادي في المجتمع.

- هل علم الاجتماع القانوني موضوع مهني أم ثقافي؟

- العقبات التي تعرقل التحول الاجتماعي والإدارة الرشيدة.

- النظام القانوني بوصفه سبباً في ضعف الإدارة الرشيدة والتنمية.

- يجب على الصائغين التشريعيين صياغة قوانين تستهدف إحداث تحولات في المجتمع بوصفهم مترجمين للسياسات.

- يجب أن يسبق إعداد القانون كتابة تقرير بحثي تستخدم فيه النظرية التشريعية والمنهج التشريعي كأساس لتقييم مشروع القانون.

- يجب التأكد من أن مشروع القانون يقدم حلاً تشريعياً لمواضيع محددة، كما يجب أن يتضمن. مسار الحل. الخيارات المبدئية. قائمة الحلول البديلة والتعابير التي تشجع على الالتزام بالقانون وإثبات أن مشروع القانون يبرهن على فاعليته.

- هل الأجهزة التنفيذية هي من تقوم بوضع قواعد التنفيذ في حال صياغة مشروع قانون غير ذاتي التنفيذ؟

- دور الصياغة التشريعية في تعزيز الإدارة الرشيدة بما يخدم التنمية.

- الحد من حرية التصرف الممنوحة للمسؤولين من خلال القيود المفروضة على تحويل المداخلات إلى قرارات.

- دور الصائغ في السياق الأكبر للتنمية من خلال صياغة قانون بأسلوب يترجم السياسات في البلد، يمكن تطبيقه بفاعلية ويشجع على حدوث التحولات الاجتماعية المنشودة.

- جعل القانون أداة رئيسية في أيدي الحكومات تمكنها من إحداث تحولات في الأنماط السلوكية للمؤسسات في إطار التنمية المستدامة والإدارة الرشيدة.

- يجب أن يكون تنفيذ القوانين بفعالية لإحداث تحولات في المجتمع.

- يجب أن يستهدف القانون السلوكيات الموروثة التي تعيق بلوغ هدف الإدارة الرشيدة والتنمية المستدامة.

- يجب أن يتضمن التشريع نظرية تشريعية ومنهج تشريعي لترجمة السياسات إلى قوانين من المرجح أن تسهل تحقيق الإدارة الرشيدة والتنمية.

- من واجب المشرعين (النواب المنتخبون) تقييم التشريعات التي تنشأ غالباً في الوزارات والبحث بها في ضوء تحقيق هدف الإدارة الرشيدة والتنمية المستدامة.

- يجب النظر إلى القانون على أنه يقوم بتبليغ سياسات الحكومة إلى المخاطبين بالقانون باعتباره يترجم السياسة العامة من خلال شكله وتفاصيله وهنا يكمن جوهر السياسة.

- إنَّ مشاركة المسؤولين الوزاريين ذوو الخبرة في الجانب الموضوعي لمشروع القانون مع المعنيين المدربين تدريباً منهجياً على أساليب الصياغة يحقق الهدف في الوصول إلى قانون يساهم في الإدارة الرشيدة للتنمية.

- حين تقوم السلطات السياسية بتحديد سياسة ما يتوجب على المسؤولين الوزاريين المعنيين صياغة برنامج تفصيلي لهذه السياسة يساعد جهة الصياغة لوضع الإطار التشريعي لتنفيذه من خلال مشروع قانون يسهم في تحقيق هذه السياسة وصولاً إلى التنمية المستدامة الإدارة الرشيدة.

المبادئ التشريعية العامة التي يجب احترامها في إعداد التشريعات:

- السياسة التشريعية التي يدافع عنها المشرع.
- الأهداف التي ينوي تحقيقها.
- الأسباب التي استدعت التشريع.
- الحق الذي يحتاج إلى حماية.
- شمولية التشريع.
- تنافسيته مع التشريعات الأخرى محلياً ودولياً.
- عدم ترك المجال للتضارب مع قوانين أخرى.

وبشكل عام يمكن تقسيم الأسس التي يمكن اعتمادها في صياغة مشروع التشريع إلى فئتين أولها تتعلق بالشكل من ناحية الصياغة القانونية السليمة وثانيها تتعلق بالمضمون.

١- من ناحية الصياغة القانونية السليمة:

عند صياغة مشروع القانون يجب أخذ مايلي بعين الاعتبار:

- أن تشمل كامل الموضوع، وأن تستخدم المصطلحات القانونية المتبعة، وأن تتبع التبنيد، إضافة إلى الاستفادة من التشريعات الأجنبية وتجنب الترجمة الحرفية.

- كمـا يجـب أن تراعـي الوضوح في الصياغـة والسلاسة في ترتيب المواد، وأن يعتمد مشروع القانـون على المصطلحات القانونيـة المتبعـة فـي سوريـة وأسلوب الصياغة القانونية فيها وعدم اعتماده على تعابير مترجمة ليس لها أساس في القوانين السورية.

٢- من ناحية المضمون:

أن يتم مراعاة النقاط التالية في مشروع التشريع:

- الهيكلية التنظيميـة البسيطة المرنة والقابلة للتحقيق، وتـرك التنظيم الإداري في الوزارات للقـرارات الإدارية علماً بأنه لايوجـد مايمنع من الأخـذ بها في مشروع القانون عند الضرورة.

- يجب اعتماد المرونة في الأحكام لأن التشريع المـرن يحقق الاستقرار التشريعي عبر استمراريته.

- كمـا يجب التوسع فـي مجال تطبيق القانون بما يحقق مصلحة الوطن.

التشريعات التنموية والإدارة الرشيدة:

أي وجـود أنماط سلوكية تضمن تطبيق القواعد القانونية من خلال مؤسسات (سيادة القانـون) واتخاذ القـرارات ضمن قواعد محددة، وأن يتم الإعلان للرأي العام مسبقاً إضافة إلى الشفافية في اطلاع المواطنين علـى هذه القـرارات، وأن يكـون تطبيقها معلـن للجمهور بوسائل الإعـلام المختلفة التي تقوم بطرحها للـرأي العام لمناقشتها ممـا يسهم في تحقيق قيمة مضافة لها من المعنييـن والمختصين في تلـك القرارات والإجراءات ممـا يساعد في تطوير الإدارة والقوانيـن وبالتالي المجتمـع الذي أصبح جزءاً من الإدارة الحكومية من خلال العلاقة التفاعلية، بحيث لايفاجأ بعد ذلك بقرارات حكوميـة تتعلق بالمجتمع ولـم يساهم بها، وذلـك كله يجب أن يكون منصوصاً عنه في القوانين النافذة ذاتها بفرض أن التشريعات الصـادرة أو التي ستصـدر كافة، يجب أن يكـون هدفهـا التنميـة والإدارة الرشيدة باعتبار أن جدار التخلف لايمكن أن يتحطم إلا بالتشريع الفعـال والإدارة الرشيدة، بما يضمن تخصيص الموارد المتاحة من أجل التنميـة التي تهدف إلى حياة كريمة بتوفير المسكـن والغذاء والـدواء والتعليم... إلخ، وأن مساهمة المجتمع في إدارة الموارد من خلال التشاركية في التشريع والتنفيذ يخلق بيئة مناسبة لأطراف المجتمع لتقديم أفكار وحلول تساعد في الوصـول إلى الاستثمار الأمثـل للموارد المتاحـة مما يحسن جودة

الإنتاج الزراعي والصناعي والتعليمي والصحي والقضائي والمالي... إلخ، ومما يحسن شروط الحوكمة والإدارة الرشيدة وهذا مايعتبر من أسس التنمية.

ـ وعليه يجب أن ينظر إلى القانون بوصفه الأساس في عملية التغيير الاجتماعي، وأن التشريعات التي تصدر لتنظيم حالات موجودة في المجتمع إنما هي قوانين وصفية تكون مساهمتها محدودة إن لم نقل معدومة في عملية التحول الاجتماعي وتحقيق التنمية إذا لم يتم إصدارها ضمن سياسة الحكومة الهادفة إلى تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية والإدارة الرشيدة ويحولها من تشريعات وصفية إلى تشريعات تنموية كون التشريعات التنموية تساهم في خلق بيئة تمكينية لبناء مؤسساتي متين ضمن بيئة تشريعية متكاملة فاعلة وإدارة رشيدة شفافة بهدف إحداث تحول إيجابي في المجتمع وتنظيم المناحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية كافة كونها الأكثر تأثيراً في تنظيم واستثمار الموارد المتاحة وتوجيهها الوجهة الصحيحة وهذا هو دور المؤسسات التي يديرها أشخاص أكفاء ويمتازون بالنزاهة والشفافية باعتبارهم يمثلون النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي والقول إن بلداً يختلف عن بلدٍ آخر مع وجود موارد متماثلة إنما بسبب كفاءة المؤسسات وإدارتها الرشيدة في هذا البلد وضعفها في البلد الآخر فالإدارة الرشيدة تخلق استثمارات وصادرات مستفيدة من المزايا النسبية الموجودة والتي لاتستثمر في البلد الآخر رغم وجودها أو يترك هذا البلد فقيراً لعدم تفعيل العمل المؤسساتي والإدارة الرشيدة والشفافية ليحل محلها الفساد الذي يؤدي إلى الفقر للدولة والمجتمع، فالبلد المتقدم هو الذي يقوم على تشريعات تنموية ومؤسسات شفافة وإدارة رشيدة كفوءة ومتابعة للتطور وهذا مايعتبر تجدد البيئة التمكينية المناسبة لتحسين مستويات المعيشة وازدهار البلد.

ـ إذن المطلوب هو بناء قانوني ومؤسساتي يسهم في خلق أنماط سلوكية رائدة منوهين إلى أن العمل المؤسساتي لاينحصر في حيز جغرافي أو إداري أو زمني وإنما هو سلوك اجتماعي يبدأ بالمواطن العادي باحترامه للقانون وتطبيقه وصولاً إلى الموظف الحكومي الذي يعمل على الشفافية في تطبيق القانون، كما ينسحب ذلك على صاحب المشروع الخاص الذي يلتزم بالقانون من خلال إنتاج منتج جيد وبيعه للمستهلك بسعر مناسب وقيامه بتسديد التزاماته الضريبية وحفظ حقوق

عماله والمساهمة في تأهيل وإعمار البيئة المجاورة لمشروعه وهذا مايحقق التنمية والإدارة الرشيدة.

التشريعات التنموية وإعدادها:

نظراً لأن الدولة هي عبارة عن نظام قانوني متكامل يتطلب وجود تشريعات وقرارات إدارية على المستويات الحكومية أو الخاصة كافة يجعلنا نستنتج أن القانون أو القرار يعتبر تطبيقاً للسياسة التي تتبعها الحكومة أو الجهة الخاصة حسب الحال. فمن واجب الحكومة إعلان سياستها ليقوم المختصون بإعداد التشريعات المناسبة لتنفيذ هذه السياسة وعلى المؤسسات التنفيذية وضع هذه التشريعات موضع التنفيذ وإعلان ذلك للمواطنين، فمن أجل ذلك يجب أن تساهم مناحي المجتمع كافة في وضع الخطط التنموية، كما يجب أن تساهم بالإشراف على تنفيذها من خلال عمل اجتماعي أهلي ومؤسساتي حكومي متكامل، وفي ذلك مشاركة في السلطة منوهين إلى أن صدور التشريعات المنفذة للسياسة تحدد الطريقة التي ترغب الحكومة أن تعمل بها وتحديد أساليب العمل المؤسساتي ومشاركة المجتمع إنما هو تعبير عن النوايا الجادة لتنفيذ السياسة التي سيشارك بتنفيذها الموظفون الحكوميون وأفراد المجتمع كلّ بحسب دوره مما يخلق الرضى العام والطمأنينة لدى الشعب على موارده واستثماراته ومستقبله المنشود وبالتالي لافائدة من سياسات لم تصدر بها تشريعات لكي يشعر المواطنون بأنهم أمام التزام بهذه السياسة وبالتالي فهم ملتزمون بتنفيذ التشريعات التي تصدر بشأنها مما يمنح السياسات الشرعية والدعم الشعبي.

ومن جهة أخرى نجد أن الشرعية التي تعطيها الحكومة من جانب والمواطنون من جانب آخر للتشريع إنما تعطي مؤشراً لأطراف المجتمع بضرورة تغير السلوكيات التي تعيق التنفيذ وبالنتيجة تعيق تحقيق التنمية والإدارة الرشيدة المستهدفة.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن ما الذي يجعل أفراد الشعب يلتزمون بالتشريعات التي تمثل تنفيذ سياسات الحكومة.

لقد تعددت الأساليب المتبعة في الدول والأصل فيها واحد هو وضع أسس الشرعية القائمة على القانون والمنطق من خلال سيادة القانون فقد يكون استنهاض الحس الوطني أو اعتماد الشخصية القدوة حيث إن الاقتداء بشخصية سياسية كالرئيس أو أدبية مرموقة أو فنية ساحرة أو دينية وقورة هي أيضاً أساليب مساعدة لحث الشعب

على التقيد بالقانون وبالتالي بسياسة الحكومة وإن كان ذلك يتطلب أحياناً تغيّراً في السلوك أو العادات للمجتمع عندها نقول إنه قانون فاعل كونه ترك أثراً إيجابياً وإلا سيكون مصيره عدم الاكتراث من قِبَلِ الشعب مما يقلل فاعليته وتأثيره في تنفيذ السياسات الحكومية، لذلك نؤكد على المشاركة المجتمعية من جمعيات أهلية ومنظمات شعبية في وضع الخطط وإعداد التشريعات التي تستهدف تحقيق التنمية والإدارة الرشيدة المنشودة.

وهنا نشير إلى أهمية الإعلام التنموي في المساهمة بتغيير العادات والسلوكيات لاسيما عندما تلتزم الحكومة بإقامة مشاريع خدمية لصالح المواطنين في حال توافر لديها رصيد جيد من إيرادات الضرائب والرسوم مثل تحسين مستوى التعليم أو تحسين الخدمات الطبية مما يشجع المواطن على تسديد الضرائب، وبالتالي فإن تنفيذ قانون الضرائب جاء برغبة من المجتمع لعلمه بأنه سينعكس إيجابياً عليه وهنا نلاحظ أن للقانون تأثيراً في تغيير سلوكيات المجتمع، وبالتالي فإن علاقة تفاعلية نشأت بين القانون كمنفذ للسياسة والتزام المواطن بالقانون، وبالتالي بالسياسة الحكومية لذلك يلجأ المشرعون إلى استنباط أساليب في التشريع تشجع على السلوكيات الجديدة المنشودة، وبالتالي ربط القانون بالتغيير الاجتماعي المستهدف وهنا نلاحظ أهمية التشريع في التنمية لمواجهة المشكلات التي تعترض أهدافها الاجتماعية والاقتصادية والإدارة الرشيدة، هذه المشكلات التي استدامت نتيجة خلل في العمل المؤسساتي والاجتماعي مما يتطلب تحويل السياسات إلى تشريعات ناظمة للعمل في المؤسسات والإدارة المنفذة للتشريع والمجتمع للتأثير في العادات والتقاليد السيئة والموروثات التي تعيق التنمية سواء صدرت من القيادات الإدارية أو الجهات المنفذة أو أفراد المجتمع، ومثال ذلك قيام الحكومة بإصدار تشريع يتضمن الخطة الزراعية وتوجيه المزارعين إلى الزراعات التي تساهم في التنمية والتصدير وفي تأمين موارد أفضل لهم من الزراعات السابقة في الوقت نفسه، أو التركيز على الزراعات التي تحقق ميزة نسبية وأن تكون زراعة للتصنيع مثل القطن والقمح والشوندر ...إلخ، مما يسمى بالزراعات الإستراتيجية.

وهنا نلاحظ وجود تكامل مابين السياسة والتشريع والتنفيذ الذي يهدف بالنهاية إلى تحقيق النتيجة المنشودة، مما يقتضي صدور

التشريع لكي تلتزم الجهات كافة كل حسب دوره بالتنفيذ للوصول إلى السياسة المستهدفة، ومالم تتحدد الأدوار تبقى في حالة ضياع وعدم سلوك الطريق الصحيح الذي يوصلنا إلى الهدف في التنمية والإدارة الرشيدة، وهنا نرى أن إعطاء صلاحية للمشرعين بوضع عدد من القوانين المتكاملة والفعالة لإحداث التحول الاجتماعي وتحقيق النتيجة مستندين في ذلك إلى السياسة الحكومية والأبحاث الجارية لتطوير المجتمع يتطلب تكاتف جهود الاقتصاديين مع المشرعين لتحقيق ذلك.

المشرعون والتشريعات التنموية:

المشرعون هم مجموعة الشركاء في العملية التشريعية وحتى تكون الإجراءات التشريعية ذات نتائج مثلى يجب إجراء تبادل للآراء من هؤلاء الشركاء من خلال لجنة مؤلفة من الحكومة والجهات الحقوقية ومن المجتمع المدني المعني ومن الجهة الفنية المختصة بصياغة التشريع، وذلك يولد عصفاً فكرياً بين هذه الجهات ويحقق أفضل النتائج مما يساعد في مرور مشروع القانون إلى الجهات العليا المختلفة سواء في السلطة التنفيذية أو التشريعية دون إدخال تعديلات عليه قد تؤثر في قوة انسجامه ومعاييره المعتمدة، فالعملية التشريعية أصلاً سواء من حيث تنفيذ سياسة الحكومة في مجال معين أو حاجة الجهة التنفيذية لإصدار تشريع يساعد في مواجهة بعض الصعوبات في تطبيق القوانين النافذة أو تغطية حالة مستجدة في المجتمع ناجمة عن التطور التشريعي أو التكنولوجي أو المعرفي... إلخ، مما يحتاج إلى تشريع جديد يستوعب ذلك.

إذن، لابد من تحديد الأسباب الموجبة للتشريع الجديد ضمن معايير ومقاييس وقواعد تنظم إعداد هذه الأسباب وأ ن يتِ م من خلالها شرح كامل للواقع والتشريعات المطبقة والمبررات الموضوعية لصدور التشريع الجديد المتضمن الشرح التطبيقي للسياسات التي تهدف إلى التنمية والإدارة الرشيدة مع اقتران هذه الأسباب برأي واضح يبين القيمة القانونية للتشريع الجديد، وهنا لابد من التأكد من انسجام التشريع الجديد مع التشريعات القائمة مما يشكل خطوة في طريق إيجاد بنية تشريعية متكاملة تحقق أهداف التنمية والإدارة الرشيدة وبالتالي التحول الاجتماعي والاقتصادي المنشود، مع تحديد الجهة التي ستتولى تنفيذ التشريع الجديد وتحديد متطلباته المالية والإدارية والفنية، لذلك نرى أن يتم تصميم

خطة تشريعية لوضع المضمون التطبيقي للسياسات وعدم ترك إعداد التشريعات لمتطلبات عرضية جزئية أو معالجة حالة طارئة أو رغبة حكومية في تنظيم أمر ما أو للاقتداء بتشريع صدر في بلد آخر... إلخ، وإن كانت كل هذه الحالات ستؤخذ بعين الاعتبار في الخطة التشريعية المقترحة، وفي جميع الأحوال يجب مصادقة القيادة السياسية العليا على الخطة التشريعية المتكاملة وأن يترك للسلطة التنفيذية المصادقة على الأسباب الموجبة للتشريعات ضمن الخطة التشريعية ليأتي بعد ذلك دور لجنة الشركاء في إعداد التشريع وعرضه للرأي العام للمناقشة وبعدها يتم اعتماد مشروع القانون وإرساله إلى الجهات المختصة لاستكمال أسباب صدوره.

ونظراً لأهمية عمل لجنة الصياغة المؤلفة من الشركاء يجب إمداد هذه اللجنة بالتفسيرات الواضحة للسياسة بالمعلومات والأدوات النظرية والمنهجية التي تمكنهم من أداء مهامهم وباعتبارهم شركاء حقيقيين في إعداد التشريع وليس بالشكل فقط، لذا نرى أهمية مشاركة لجنة الصياغة بإعداد الأسباب الموجبة للتشريع لتكون على بيّنة واضحة لمهامها منذ البداية ولتقوم لجنة الصياغة بعد ذلك بإعداد تشريع واضح ودقيق ينجح في إحداث تحولات في المجتمع بدءاً بالسلوكيات وانتهاءً بالمؤسسات التي ستقوم بالتنفيذ، كما يجب أن يراعي التشريع مقتضيات المصلحة العامة بالاستدلال المستمد من التجربة ويهدف للوصول إلى تحقيق أهداف السياسة العامة في التنمية والإدارة الرشيدة مما يعطي القانون قوة وفعالية تشجع على السلوكيات المطلوبة لتنفيذه ولايترك مجالاً للغموض ولاجتهادات القضاة لكي لاينعكس ذلك سلباً على سلوك رجال الأعمال في القيام بمشروعاتهم مطمئنين إلى تشريعات واضحة ودقيقة تتضمن الحقوق والواجبات مما يسمح بالتنبؤ بالحكم في القضايا ذات السياق المتشابه، وهذا مايحمّل لجنة الصياغة مسؤولية إعداد مشاريع القوانين باستخدام اللغة القانونية التي تتصف بالدقة والوضوح والبساطة كون التشريع موجه للمجتمع بأكمله بهدف تغيير سلوكياته التي تعيق التنمية أحياناً، وفي الوقت نفسه ينفذ السياسة العامة للحكومة بهذا الاتجاه وبالتالي يجب أن تكون سلطة تنفيذ السياسة للتشريع وليس للجهة الإدارية الحكومية، وفي ذلك مساهمة جدية في تحقيق الشفافية التي هي أساس الإدارة الرشيدة.

وهنا نرى أن يتم إحداث هيئة مستقلة للتشريع وليس لجنة مؤقتة أو قيام الجهة التي ستنفذ القانون بإعداده بمفردها، بحيث تقوم هذه الهيئة بوضع سياسة إعداد التشريعات ومتابعة تنفيذها والقيام بتفسير بعض الأحكام عند حدوث التباس في التطبيق وعدم ترك التفسير للجهة الإدارية المسؤولة عن التنفيذ وفي ذلك تحقيق للشفافية وتحديداً للمسؤولية في إصدار التشريعات، ويضمن أيضاً دراسة الأثر التشريعي للقانون وفق القوة النسبية للجهة التي طلبت إصداره أو الجهة التشريعية التي ستقوم بإقراره والمساومات التي قد تحصل بينها والحلول الوسط التي يتم الاتفاق عليها، كل ذلك سيؤثر على مضمون القانون وخروجاً عن أسبابه الموجبة وانحرافاً في أهدافه المتوخاة في التنمية والإدارة الرشيدة.

ولابد من أن نذكر أهمية لجنة أو هيئة الصياغة في القيام بمهامهم ضمن إرادة كل من أوكل إليهم المهمة وهي الحكومة متمثلة بشخص وزير أو مدير عام، ممايرتب مسؤوليات خاصة عليهم في صياغة تشريعات ضمن السياسة العامة للدولة وأهدافها في التنمية والإدارة الرشيدة مع المحافظة على سرية عملهم وممارسة دورهم بأخلاقية ومهنية تامة بعيداً عن الأهداف الشخصية واضعين نصب أعينهم المصلحة العامة التي تضمن تنمية فعالة إضافة إلى الآثار القانونية وغير القانونية التي ستنعكس على سلوكيات المؤسسات والمجتمع، مما يحمّل جهة الصياغة مسؤولية سلامة الإجراءات، فقد يكون هدف المسؤول الحكومي من التشريع هو مواجهة مشكلة في إدارته وهنا يكون دور جهة الصياغة تلبية هذا الطلب مع التزامها بحرفية أهل المهنة والقيام بإعداد التشريع المطلوب مع الالتزام بالسياسة العامة وأهداف التنمية والإدارة الرشيدة وبما لايتعارض مع التشريعات القائمة وتوضيح ذلك إلى الجهة الحكومية المعنية بصفتها الموكل للجهة المعدّة للتشريع، وهنا تكمن أهمية وجود هيئة دائمة للتشريع مما يساعدها على المعرفة التامة بالتشريعات الصادرة في الدولة والتشريعات التي ستصدر تباعاً، وبما يحقق الانسجام بينها وتشكل كلاً متكاملاً بهدف تحقيق التنمية والإدارة الرشيدة، وهنا يمكن اقتراح استمارة استدلال لجهة صياغة التشريع تتضمن:

- السياسة العامة في المجال الذي ستتم صياغة التشريع به.
- التشريعات الصادرة سابقاً في هذا المجال والتأكد من أنها لاتغطي المطلوب.

- المجال الذي يستهدفه التشريع الجديد في تنفيذ السياسة.

- الأهداف المتوخاة من التشريع الجديد وانسجامها مع التنمية والإدارة الرشيدة.

- المتطلبات الإدارية والمالية للتشريع الجديد والجهة التي ستتحملها.

- الجهة التي ستكون مسؤولة عن تنفيذ التشريع ومدى كفاءتها للقيام بذلك.

- التشريعات الصادرة في عدد من الدول للحالات المماثلة والنتائج التي حققتها.

- الأسباب الموجبة لصدور التشريع.

لذا يتطلب من هيئة الصياغة أن تناقش هذه الموضوعات في اجتماعها الأول بحضور ممثلي الجهات ذات العلاقة وإيجاد الإجابات الكافية لهذه التساؤلات وغيرها مما يراه المجتمعون وبعدها يتم البدء بصياغة التشريع.

وهنا نلاحظ أن مسؤولية هيئة الصياغة لاتقتصر على شكل القانون فحسب بل عن موضوعه أيضاً ممايرتب عليها مسؤولية الولاء للقيادة السياسية التي وضعت السياسات وإلى النظام التشريعي وأصوله التي تتعلق بالاجتهاد والكفاءة وممارسة دور مسؤول عن التشريع الذي يخدم أهداف التنمية والإدارة الرشيدة وينسجم مع أصول التشريع الملتزم بالدستور والسياسة العامة وأهدافها، مما يحمّل هيئة الصياغة مسؤولية إعداد تشريع ملتزم بكل هذه المبادئ ويكون وافياً وقابلاً للتنفيذ.

معايير اختيار أولويات التنمية وأثرها:

تعاني دول العالم الثالث بشكل عام من قلة الموارد الطبيعية وندرتها أحياناً أو من توافر موارد غير مستثمرة أو مستثمرة بشكل غير اقتصادي أو مستغلة من قبل قلة قليلة من أفراد المجتمع مما يجعل فجوة واسعة في الدخل بين الأغنياء والفقراء ولمعالجة هذا الواقع لابد من دراسة متكاملة للواقع ووضع الحلول المناسبة بعيداً عن تقليد دول سبق لها أن قامت ببعض الإجراءات وحققت نجاحاً وهذا لاينفي الإفادة من التجارب السابقة بما يتناسب مع واقع البلد.

وباعتبار أننا نؤسس للتنمية ونعد لوضع السياسات اللازمة لانطلاق المجتمع لابد من مساهمة الجهات السياسية والاجتماعية كافة في لجنة لدراسة الواقع ووضع السياسات وفق أولويات التنمية ووفق قيم وقواعد وطنية أخلاقية بعيداً عن الدوافع الشخصية المعلنة أو غير المعلنة وبكل الأحوال لا توجد حالة

مثاليـــة ولابد للمشاركين فـــي هذه اللجان من التأثر والتأثيــر بعضهم بالآخر شريطة عـــدم ارتباط ذلك بخلفيات تؤثر على وضع الأولويـــات بالمجمل ومـــن أجل ذلك يمكن استعانة اللجان بخبراء اقتصاديين وماليين وفنيين في مختلف المجالات لشرح الواقع من خلال نظرة علمية مستقلة لتقوم اللجان بعد ذلك بتحديد الأولويات مع ملاحظة أن تكون هذه الأولويـــات منسقة ومنسجمة مع بعضهـــا البعض لكي لا نضع أولويات تخلق إربـــاكاً بعملية التنمية، وفـــي هذا المجال يمكـــن إنشاء روابـــط خلفيـــة وأمامية بين القطاعات الاقتصادية، وبكل الأحوال يجب أن يكون وضع الأولويات مرناً وتتم مراجعة ذلـــك بحس ناقد لإعادة النظر بها في حال ظهور وقائع موضوعية تتطلب إعادة الترتيب وفق طلب إحدى الجهات التي ساهمت في وضع هذه الأولويات، وهنا يلعب دور الخبرة فـــي دراسة مثـــل هذه القضايـــا والاعتماد على الأساليب العلمية فـــي تحديد المزايا النسبية الاقتصادية والاجتماعية لكل خيار من الخيـــارات على ضوء المـــوارد المالية والطبيعية والبشرية التي يمكن تخصيصها وانعكاســـ تلك الحالة علـــى المجتمع سلباً أو إيجابـــاً وإعطـــاء أولويـــة توجيه الموارد المتاحـــة إلـــى فئات المجتمـــع التي تعيش حالة متردية ضمن توزيع عادل، والنظر إلى المؤسســـات الإنتاجية الزراعية والصناعية والخدمية على أنها الرافـــد المهم لخزينة الدولـــة من أجـــل استمرار عمليـــة التنمية مـــن خلال زيـــادة إجمالي الناتـــج المحلي أو الدخـــل القومي الـــذي يساعد في زيادة معدلات الاستهلاك من الإنتاج المحلي لكي نستهلك مما ننتج، وتركز على تصنيع المواد الخام وتصنيع الزراعة وعدم تصديرها من دون تصنيـــع مما يساعد فـــي زيادة القيمة المضافة، وكذلـــك تطوير الصناعة لتواكب المتطلبـــات العالمية ولاسيما في الصناعة التنافسية مما يساعـــد في استمرار برامج الرعاية الاجتماعية من موارد محلية وعدم الدخـــول في متاهـــة الاقتراضـــ الداخلي أو الخارجـــي أو زيـــادة الضرائـــب لتأمين الموارد اللازمة ولكنها تنعكس سلباً وتخلق التضخم وارتفاع الأسعار وزيادة الفقر، وفي حـــال مواجهـــة البلدان الناميـــة لمشكلات اقتصاديـــة تنعكس علـــى المجتمع لابد من تحليل أسبـــاب المشكلة من خلال الاطلاع علـــى أدلـــة وبيانـــات ليصار إلـــى تحديد أولويات الحل على ضوء الحقائق والمنطق الذيـــن يمكنان من تقييـــم الأهمية ومن ثم الأهميـــة النسبية التي يجب أن تعطى للحل الـــذي يساعد في تخطـــي الصعوبات التي

تواجه الاقتصـــاد الوطنـــي المعتمد أصلاً علـــى الزراعة وتشجيعه لتطويـــر الزراعة، ومن ثم تصنيعها ودعـــم الصناعة الوطنية كونهـــا تؤمن مستلزمات الزراعة وتساعدها في الاستمرار وبذلك تكـــون الصناعة هي قاطرة الاقتصاد الوطني.

ولذلك يتطلب دعم الصناعة من خلال تأمين مـــواد أولية أو نصف مصنعة بأسعار رخيصـــة وتأهيل المـــوارد البشرية لتواكب تطور الصناعة التي يجب أن تلبي متطلبات الأسواق العالمية وتكون منافسة مما يجعل أسواقها مستقرة وبالتالي تحويل الاقتصاد خطـــوة خطوة باتجاه الاقتصـــاد الصناعي لاستيعاب اليـــد العاملة الفائضة عن تطور الزراعة وآلياتها وتوافر القطع الأجنبي من خلال الصادرات مما يجعل الصناعة سبباً ونتيجة للتطـــور الاجتماعـــي والاقتصادي ممـــا يحافظ على مستـــوى معيشة مناسبة للمواطنين، ويجـــب التنبه إلى خطورة قيام قطـــاع التجارة بتسويـــق السلع الاستهلاكية المستوردة علـــى حساب المنتجات المحلية ويتم تحويل الأربـــاح إلى الخارج من خلال الشـــركات المالية والتجاريـــة غير الوطنية مما يسلب قطاع التجارة من تحقيق دوره في التنمية المنشودة، وهنـــا يأتي دور التشريع في حمايـــة الصناعة الوطنيـــة والاقتصاد الوطني من خلال تصميم نظام عمل يدعم الصناعـــة والزراعـــة الوطنيـــة من خلال الحمايـــة إضافة إلى التسهيلات التي يمكن منحهـــا للمستثمرين في الاقتصاد الوطني لإنتاج السلع والتجهيـــزات والخدمات التي يحتاجها الاقتصاد والاستغناء عن استيرادها وهذا يتطلـــب التأثير في الأنماط السلوكية للمجتمع كما يتطلب الاهتمام بالقطاع غير المنظـــم للمشاريـــع الصغيـــرة والمتوسطة ومنحها القروض مخفضة الفوائد لتطويرها والتوسع في إعادة إنتاج السلع التراثية التي تعتمد على المهارات المهنية ومساعدة هذا القطاع بفتح أسواق تصدير لاستيعاب قدر لابأس به من اليـــد العاملة ممّا يساهم في الحد من البطالة.

وفي مجال الزراعة يمكن تحسين الوضع الاقتصـــادي للمزارعين مـــن خلال تطوير عملهـــم وتحولهم إلى الزراعـــات الدولارية التي تسهم في تأميـــن مستلزمات زراعتهم من تجهيزات وأسمدة ومبيدات.

إنَّ تمويـــل القطاعـــات الاقتصاديـــة الزراعيـــة والصناعية والخدميـــة إنما يتم مـــن مؤسســـات ماليـــة ومصرفيـــة تشكل فروعاً لشركات أجنبية وبالتالي فهي تتلقى الودائع مـــن أفراد المجتمع لتقـــوم بإعادة إقراضه بفوائد كبيرة ترهق كاهل المقترض

وتتبع أساليب ملتوية بتحديد أسعار فائدة منخفضة ظاهرياً ولكنها تشكل مئة بالمئة من المبلغ المقترض حيث يتم استيفاء الفائدة عن كامل مدة القرض ولكامل المبلغ مما يرهق المقترض ولاسيما من أصحاب المشاريع الصغيرة والمتوسطة، وينعكس على إنتاج سلع الزراعات بأسعار مرتفعة قياساً بالمستوردة مما يساهم في القضاء على المنتجين في الاقتصاد الوطني وتحولهم تدريجياً إلى العمل التجاري الصغير الذي لا يستطيع المنافسة مع الشركات غير الوطنية للتجارة.

لقد تحولت مدخرات الزراعة والصناعة الوطنية إلى سيولة في البنك وشركات التأمين وإعادة التأمين غير الوطنية ليعاد توظيفها في الأسواق المالية والمضاربة بها أو في سندات الخزينة مضمونة الفوائد والتي تذهب نتيجتها بالغالب إلى الخارج ولاتدخل في تنمية الصناعة أو الزراعة الوطنية.

وأمام هذا الواقع لجأت الدول النامية إلى التسابق إلى إصدار تشريعات تشجع بموجبها الاستثمارات الأجنبية ووضعت بعض الشروط التي تساهم في حماية الاقتصاد الوطني مثل اليد العاملة الوطنية وأن يكون الاستثمار في السلع التصديرية والتكنولوجية المتطورة مقابل حصولها على الإعفاءات الضريبية ومنحها رخصة لوضع نسبة من منتجاتها في الاستهلاك المحلي أمام هذه الوقائع لابد لسياسة التنمية أن توضح أهدافها من إصدار أي تشريع، وتحديد أهداف محددة له وبالتالي استنباط الآثار الاجتماعية التي ستحدث طالما أن التشريعات هدفها التنمية وتغيير السلوكيات التي تعيق التنمية وتشجع الاستثمار والمبادرة ضمن بيئة تشريعية محفزة لذلك بغض النظر عن النهج الاقتصادي المتّبع سواء في التغيّر التدريجي أم المفاجئ أو في اقتصاد السوق أم الاقتصاد الموجه وسواء كانت التنمية قائمة على التصدير، أم على الطلب الداخلي أو اعتماد الملكية الخاصة أم ملكية الدولة والذي يفصل هذه المناقشات هو واقع البلد وظروفه الاقتصادية والاجتماعية، وعند تحديد السياسة التي ستتبعها الدولة للتوجه لاقتصاد السوق أو للاقتصاد المخطط يجب أن تذهب التشريعات لتعطي دفعة للاقتصاد باتجاه التنمية حسب التوجه الذي تمَّ اعتماده، والمهم أن يتم خلق بيئة تشريعية متكاملة للنظام الاقتصادي المعتمد.

وقد رأى الباحث رونالد كوز في مقال بعنوان «مشكلة التكلفة الاجتماعية»، أنه إذا عملت الأسواق بشكل كامل أي في

غيـــاب ما أطلق عليـــه (تكاليف المعاملات التجاريـــة) أو التكاليـــف التـــي يتحملهـــا المساومـــون في السوق لإبـــرام عقد. فلن تحدث قواعد المسؤولية القانونية أي فرق في التخصيص الاجتماعي للموارد).

وقد أثار هذا الـــرأي الباحثين لتحديد أي القوانيـــن يجب أن تصدر وبكل الأحوال يجب أن تصدر القوانين في المرحلة الأولى التي تزيل التشوهات الحاصلة في الاقتصاد ولابـــد من التشريعات التي تؤدي إلى نشاط القطاع الاقتصادي كقـــوة دافعة للاقتصاد في الـــدول النامية، والتأثيـــر في الموروث مـــن المنظمـــات المؤسسيـــة الاقتصادية والاجتماعية أياً كان شكل الاقتصاد (السوق أو المخطـــط) والمطلوب مـــن النشاطات الاقتصاديـــة ســـواء كانت عامـــة أو خاصة أن تستجيـــب للســـوق، وفي الوقـــت نفسه لابـــد من وضـــع خطط لمستقبـــل النشاط الاقتصادي وأكبر الـــدول الرأسمالية لديها خطط ومستودعات تديرها الدولة لأهميتها الإستراتيجيـــة أو الاجتماعيـــة، والمهم أن تكـــون الإدارة الحكوميـــة مؤهلـــة وشفافة وتعمل بالإدارة الاقتصادية الرشيدة إضافةً لمهامها الاجتماعية، وهـــذا يتم من خلال المحاسبـــة الدائمة والوقـــوف على النتائج مـــن خلال استمارات تنظم لهذه الغاية فإذا كانت إيجابية يمكن استمرارها مع ملاحظة تطوير هذه الاستمارات وفق أساليب الإدارة الحديثـــة ومواكبـــة التكنولوجيـــا الحديثة المناسبـــة لزيـــادة الإنتاجيـــة التـــي تحمل أسبـــاب تسويقها ومنافستهـــا شريطة عدم التحـــول إلى احتـــكار الدولـــة، ولامانع من الاستفـــادة من قانون حماية الإنتاج الوطني فـــي إطار بيئة محفزة للاقتصاد بشكل عام تكـــون فيها حقوق الملكيـــة مصانة وكذلك الإجراءات القضائية الشفافة والسريعة مع وجـــود منافسة فعّالة ضمـــن نظام مصرفي متجاوب مع متطلبات التنمية، ونظام تعليمي لتأهيل المـــوارد البشرية، إضافة للاستقرار الاجتماعي وتأمين البنى التحتية والخدماتية التي تلبـــي حاجات التنمية، وتعميم كل ذلك على المناطق البعيدة والقريبة كافة في القرى أو في المدن مما يشجع أيّاً من المستثمرين القيام باستثماراته فـــي المناطق التي تقلل من تكاليفه، وأيضـــاً يشجعه على المنافسة ودخـــول أسواق التصدير مع التأكيد على أن كل ماتقدم عرضه يجـــب أن يكون نابعاً من واقع التنمية الوطنية، وليـــس مستنسخاً أو مقلداً للآخرين، وبهدف انعكاس ذلك إيجاباً على التنمية والطبقـــات الفقيرة والمجتمع بشكل عام لابد مـــن إصدار تشريعات قابلة للتنفيـــذ ويتوافر لهـــا أسبـــاب النجاح في

التطبيق لأن في عدم التطبيق خطورة كبيرة في انعكاس ذلك التأثير على سلوكيات المؤسسات والمجتمع، ولضمان النجاح يجب توافر (الموارد البشرية والموارد المالية) ليكون هناك ضمان لتنفيذ فعال للتشريع، والأفضل أن تلجأ الحكومة للذهاب إلى التشريع الذي تتوافر لديها أسباب نجاحه والاستفادة القصوى مما هو متاح، وعليه يتم تحديد أولويات التشريع في الحكومة وفق ذلك بالتعاون بين الوزارات المختلفة بعيداً عن القوة النسبية لتلك الوزارات.

التجربة الألمانية:

لقد اعتمدت الحكومة الفيدرالية في ألمانيا بالقرار الصادر بتاريخ ١٩٨٤/٩/١١ والذي أعيد اعتماده في عام ١٩٩٣ قائمة فحص لتحديد الحاجة إلى التدابير القانونية الفيدرالية المقترحة ومدى وضوحها.

• **هل هناك ضرورة على الإطلاق لاتخاذ إجراء؟**

– ما الهدف من الإجراء؟

– ومن الذي ينادي باتخاذه، وما الأسباب الموجبة لذلك؟

– ما وجه الاختلاف بين هذا الإجراء والوضع الحالي من ناحية الواقع القانوني؟

– ماهي العيوب التي تم تحديدها؟

– ماهي التطورات التي حدثت مثلاً في الاقتصاد والعلوم والتقنية وتفسير المحكمة للقوانين والتي لها تأثير خاص في المشكلة؟

– كم عدد المتأثرين بالمشكلة، وماعدد الحالات الفعلية التي تحتاج إلى حل؟

– ما الذي سيحدث إن لم يتخذ أي إجراء (مثلاً: من المحتمل أن تزداد حدة المشكلة أم ستبقى دون تغير أم ستحل نفسها بمرور الوقت أو من خلال التنظيم الذاتي للقوى الاجتماعية دون تدخل من الدولة، وما النتائج المترتبة على ذلك؟).

• **ماهي البدائل؟**

– ما الذي اتضح من تحليل المشكلة؟ وأين تكمن أسبابها؟ وما العوامل القادرة على التأثير فيها؟

– بوجه عام. ما الأدوات المناسبة والمتوافرة التي تتيح تحقيق الهدف، إما بشكل كامل أو بقدر معقول من التنازلات؟ (بما في ذلك على سبيل المثال التدابير التي تضمن التطبيق الفعال للأحكام القائمة، ومهام العلاقات العامة، المرتبطة بعقد الاتفاقيات، وجذب الاستثمارات، وتقديم الحوافز، وتشجيع ودعم المساعدة الذاتية بشكل يمكن توقعه بصورة معقولة من الجهات المعنية، وإيضاحات المحاكم).

– ما أكثر الأدوات المحبذة؟

- إذا يولي المرء اهتماماً خاصاً بالمعايير التالية؟

١- طلبات المواطنين من القطاع الخاص، وطلبات القطاع الصناعي والأعباء الملقاة على عواتقهم.

٢- الفعالية (مثل ملاءمة الهدف والمدى المرجح لتحقيقه).

٣- التكلفة العامة.

٤- التأثير على المعايير القائمة والترتيبات المقترحة.

٥- الآثار الجانبية والنتائج المترتبة.

• **هل ثمة حاجة لقانون جديد؟**

- هل من الأمور التي تم تنظيمها لم تترك بديلاً سوى التشريع؟

- هل الأمر مهم جداً لأسباب أخرى بحيث ينبغي أن يتولاه البرلمان فقط؟

- وبالقدر الذي لاتكون هناك حاجة لقانون رسمي، هل ثمة ضرورة لإصدار لائحة محلية لها قوة القانون؟ ولماذا لايكتفى بلائحة إدارية أو حتى ميثاق لهيئة فيدرالية؟

• **هل ثمة ضرورة لاتخاذ إجراء فوري؟**

- ما الحقائق والعلاقات التي مازال من الضروري إجراء بحوث حولها؟ بصرف النظر عن ذلك لماذا يعتبر اتخاذ إجراء فوري أمراً ضرورياً؟

- لماذا لايمكن التدرج في مواجهة الحاجة المتوقعة للتعديل والتنظيم؟

- على سبيل المثال عن طريق وضع تدابير تدخل حيّز التنفيذ في أوقات مختلفة. بحيث يظهر الإجراء فعلياً في شكل حكم واحد؟

• هل ثمة ضرورة لأن يكون نطاق الحكم واسعاً لهذه الدرجة المستهدفة؟

• هل يمكن اختصار المدة التي من المفترض أن يظل فيها سارياً؟

• هل الحكم غير بيروقراطي ومفهوم؟

• هل الحكم قابل للتطبيق؟

• هل هناك علاقة مقبولة بين التكلفة والمزايا؟

(انتهت قائمة الفحص المعتمدة في ألمانيا)

ومن الخطورة بمكان أن يتم الاعتماد في الدول النامية على إصدار جملة قوانين تتزاحم على حل مشكلة ما أو تنظيم قطاع ما، وهو إحداث التحول في المؤسسات والمجتمع يحولها إلى قوانين اعتباطية غير مهمة في الاستغلال الأمثل لموارد الدولة البشرية والطبيعية.

من هنا تأتي أهمية تحديد الأولويات التشريعية التي تساعد في القضاء على الفقر والحد من البطالة، ذلك مايشكل مشكلة رئيسية في المراحل الأولى على أن يتم مراجعة هذه الأولويات بشكل دوري على ضوء المستجدات الاجتماعية والاقتصادية والاستدلال بها من واقع العمل الفعلي والتجربة والخبرة المستقاة من خلال التطبيق.

مراقبة الكون من المكوك إلى أحدث المقاريب

❀
ترجمة: محمد الدنيا



كانت وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» قد قررت أن يكون ٢٨ حزيران ٢٠١١م يوم الإقلاع الأخير لمكوكات الفضاء، بعد أن جسدت هذه الآلات على مدى ٣٠ سنة برنامجاً أنجز في ظروف اقتصادية وسياسية مختلفة، كانت خلالها فكرة تصميم صاروخ حاملٍ إلى الفضاء قابلٍ لإعادة الاستخدام مثيرةً لحماس الوكالة. إلا أن تضخم النفقات، والحوادث المأساوية ومنافسة الصاروخ الأوروبي الحامل «آريان» جعلت هذا التصور بالياً فيما بعد.

❀ كاتب ومترجم.

«هوستــن، هنــا أتلانتيســ. العجلات متوقفــة»: بهذه العبــارة المعتــادة انتهت الملحمة الكبرى لرمــزٍ تكنولوجي حديث، بعد أن توقف المكوك الفضائي «أتلانتيس» على مــدرج «كاب كانافيرال»، عقب إقلاعه الأخير المقرر أصلاً في ٢٨ حزيران ٢٠١١م. وقــد وسم هذا الهبوط نهايــة حلم أضحى حقيقــة منذ ثلاثيــن سنة: حلــم صواريخ الإطلاق (الصواريخ الحاملة) القابلة لإعادة الاستخــدام التي كان ينبغي أن تمهد السبل واسعةً نحو الفضاء.

تحقق الحلم عقب بعثات «أبولو» القمرية عام ١٩٦٩م، التي وطدت التفوق التكنولوجي للولايــات المتحدة في الفضــاء. حتى ذاك الحيــن، أفضــى التنافس بيــن الأمريكيين والسوفييت إلى تفضيــل العربات الفضائية الصغيرة والصواريــخ الحاملة المشتقة من تكنولوجيات صاروخية، المتاحة بشكل أسرع. ومن أجــل تخفيض نفقاتهــا، أحيت «ناسا» دراساتها القديمة المتعلقة بمنظومة إطلاق يمكن أن يعاد استخدامها وأن تنقل حمولات وتقلّ أطقم رواد فضــاء. وصودق على هذا البرنامج رسميــاً في ٥ كانون الثاني ١٩٧٢م من أجل أن يحل فــي حينه محل الصواريخ الحاملــة الأمريكية كلها، مــع إعلانٍ مبدئي عن إنجــاز ٥٨٠ تحليق مكوكــي بين عامي ١٩٧٩ و١٩٩٠م. ولكــن تبين فيما بعد أنه لا يمكن تحمّل تكاليف مثل هذا البرنامج.

أقلــع المكــوك الأول، «كولومبيــا» في ١٢ نيســان ١٩٨١م، أي بعــد عشرين سنة بالتمام من رحلة رائــد الفضاء السوفييتي «يوري غاغاريــن» الفضائية. كان البرنامج رمــزاً، ولكن سرعان ما اتضــح أنه أصعب وأكثر كلفــة مما كان متوقعــاً. كانت لوازم الحمايــة الحراريــة، المؤلفــة من ٢٥٠٠٠ قرميدة، سريعــة التأثــر. وكان يلزم إعادة تكييــف المحركات بعــد كل تحليق. وبدلاً من صنــع خمسة مكوكات، تقرر صنع أربعة فقط (كولومبيــا، وتشالنجــر، وديسكفري وأتلانتيســ). كانــت كلفة كل بعثــة ترتفع باستمــرار، من ١٠,٥ إلــى ٣٥ ثم إلى ٨٠ مليون دولار. وهبــط معدل الـ٦٠ رحلة في السنة، الــذي كان قد تقرر عام ١٩٧٤، إلى ٢٤ عام ١٩٨٢، ثم إلى ٢٠ عام ١٩٨٥. ولكن لم ينجــز في ذاك العام سوى ٩ بعثات، ولم يتم تجاوز هذا الرقم أبداً فيما بعد...

ففــي ٢٨ كانون الثانــي ١٩٨٦، تحطم «تشالنجر» بعد إقلاعه بـ٧٣ ثانية وعلى متنه سبعــة روّاد: أضعفت الحــرارة المنخفضة جداً إحــكامَ سدّ أحــد المسرِّعــات، مما أدى إلــى انفجار الخــزان الأوسط. توقفت البعثــات سنتين لتستأنــف عام ١٩٨٨، لكن

غزو الفضاء أصيب بالارتباك: ليس فقط أعيد تقييم كلفة كل تحليق بـ ٣٠٠ مليون دولار، بل أطلقت الصناعة من جديد إنتاج صواريخ حاملة مستهلَكة، وفرض الصاروخ الأوروبي الحامل «آريان» نفسه في سوق عمليات الإطلاق التجارية التي كانت تشهد نمواً ناشطاً.

عائق تكنولوجي واقتصادي

تتابعت الدراسات طوال خمس عشرة سنة لإيجاد بديل (برامج X-٣٠ بين ١٩٨٦ و١٩٩٣، وX-٣٣ بين ١٩٩٦ و٢٠٠١، ثم Space Launch Initiative بين ٢٠٠١-٢٠٠٣م). ولكن توقف كل شيء في ١ شباط ٢٠٠٣، مع فقدان «كولومبيا» وطاقم أفراده السبعة فوق تكساس ولويزيانا عقب خلل أصاب الحماية الحرارية للجناح الأيسر. كانت مأساةً أخرى قضت على الجهود المبذولة لإيجاد خلَف للمكوك، وتحتّم سحبُه بعد الانتهاء من تجميع «المحطة الفضائية الدولية» في العام ٢٠١١م. ذلك لأن الظروف المواتية، الاقتصادية وسواها، التي كانت سائدة إبان تصورات تصميمه، لم تعد قائمة اليوم. كما أن مفهوم المكوك نفسه لم يعد موضوع الساعة. ذلك لأسباب تكنولوجية.

جوهرياً، الصاروخ الحامل القابل لإعادة الاستخدام - حتى لو لم يكن مأهولاً - أعقد من مثيله المستهلَك. يجب أن تكون بناهُ محسوبة الأبعاد بحيث تقاوم، ضغوط الإطلاق الميكانيكية عدة مرات، والعودة والهبوط، وهو ما من شأنه أن يضيف كتلةً إلى الإقلاع ويتطلب محركاتٍ أقوى. فضلاً عن ذلك، يجب أن تخضع هذه المحركات لعشرات دورات العمل والتجارب دون أن يضعف أداؤها وجاهزيتها. وفي حال ضعفت قوتها، وكي لا تدمَّر خلال التحليق، يجب أن تزوَّد بمنظومات تشخيص ذاتي متطورة وتدابير محافظة لاسترجاع الآلة، وهذا ما يتطلب تطوير تكنولوجيات معقدة ذات تدابير مختلفة عن مثيلتها في صاروخ الإطلاق التقليدي. «هنالك صعوبات تكنولوجية لا نعرف بعد كيف نتجاوزها، مثل الخزانات المولِّدة للبرد القابلة لإعادة الاستخدام أو المحرك القابل للاستخدام فعلياً أكثر من عدة تحليقات»، يقول «كريستوف بونال» Christophe Bonnal، المدير التقني المساعد لإدارة صواريخ الإطلاق في «المركز الوطني للدراسات الفضائية» بفرنسا. النتيجة: إذا أُريدَ اليوم تطوير مثل هذا الصاروخ الحامل، تلزم خمس عشرة سنة قادمة قبل دخوله ميدان الخدمة. مع ذلك، نجاحه تجارياً

غير مضمون. ذلك أنه ينبغي، للوصول إلى العتبة الربحية، أن ينجز كل صاروخ نحو عشر تحليقات في العام. وبما أن الحد الأدنى من الوفرة يقتضي وضع صاروخين على الأقل في الخدمة، فلا بد أن نتوقع تنفيذ ٢٠ تحليقاً في العام، وهو ما يمثل ١٠٠٪ من السوق الحالية لعمليات الإطلاق التجاري إلى المدار المتزامن! ولكن، من أجل غزو مثل هذا الجانب من السوق، ينبغي أن يكون هذا الصاروخ الحامل القابل لإعادة الاستخدام فائقَ التنافس عند دخوله ميدان العمليات نحو عام ٢٠٢٥.

المشكلة هي أن لا أحد يستطيع أن يتوقع بدقةٍ ما ستكون عليه سوق الأقمار الصناعية في ذلك الحين. والأسوأ: ينبغي أن يستغَل هذا المكوك خلال عشر إلى خمس عشرة سنة إن لم يكن خلال عشرين سنة. ولكن بما أن السوق ستتطور بشكل واسع على مدى هذه الفترة، فلا بد أن نتصور مكوكاً متعدد الاستعمالات جداً، يمكنه أن يكون مع ذلك تنافسياً إزاء الصواريخ الحاملة التقليدية المطوَّرة وفقاً لحجم وكتلة الأقمار الصناعية، بل ينبغي أن يبقى كذلك لغاية أربعينيات هذا القرن بمواجهة صواريخ حاملة يكون قد بدأ التمهيد لتطويرها!.

صار الموضوع معلَناً إذن: إذا لم يحدث تقدم تكنولوجي أساسي سريع ومفاجئ أو إذا لم تظهر سوق جديدة، فإن قطاع الفضاء يعترف اليوم بأنه لا توجد آفاق بالنسبة لصاروخ حامل قابل لإعادة الاستخدام في المستقبل المنظور. «ذلك لاسيما وأنه يتوجب علينا، من أجل الاطمئنان إلى استمرار دخولنا مجال الفضاء، أن نتابع قبل كل شيء تطوير مجموعة صواريخ حاملة مستهلَكة. في الوقت الراهن، لا توجد أي ميزانية متاحة لمثل هذه التطويرات على المدى البعيد جداً»، يعترف «هيرفيه جيليبير» Hervé Gilibert، المدير الفني لشركة Astrium ST، المسؤولة عن أعمال «آريان» تنظيماً وإنجازاً... ولكن ليس عن بعثاته: بات الزمن الآن في الواقع زمن تنوُّع المركبات الفضائية التخصصية.

٣٠ سنة من المآثر الفضائية

أدى مكوك الفضاء أدواراً عدّة طوال ثلاثين سنة. لم يكن يستطيع فقط نقل شحنات وأشخاص إلى المدار، بل أمكنه أيضاً أن يكون منصة تجريب لبعثات علمية وتكنولوجية. عُدّل مخزنه ليكون بإمكانه إعادة أشياء أو إصلاح أقمار صناعية مصابة بخلل. وفي عام ١٩٩٨م، بدأ حياة

جديدة مع تجميع وتنظيم وصيانة «المحطة الفضائية الدولية» ISS.

كان المكوك، في الوقت نفسه، صاروخاً فضائياً حاملاً، ومركبة لنقل الأطقم، وعربة عودة. ألغيت منذ نهاية ثمانينيات القرن الماضي فكرة استبداله بعربية متعددة الأدوار على الأقل، بعد أن اتضح جيداً أن إطلاق الأقمار الصناعية لا يتطلب بالضرورة إرسال رواد فضاء لمرافقته. ومنذ منتصف التسعينيات، طُورت مفاهيم متلائمة مع كل مهمة. وهكذا، استُبدل المكوك متعدد الأدوار بمجموعة عُدد ولوازم عربيات متخصصة مطورة وفق المهمة النوعية.

روّاد الفضاء نهاية أُسطورة

أبطال غزو الفضاء اليوم مسابير، وروبوتات وآلات أخرى. ماذا عن رواد الفضاء؟ في الحقيقة، كانت مآثرهم دائماً رمزية أكثر مما هي علمية. وهكذا، حققت وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) مأثرة جديدة مع إطلاق روبوت الاستكشاف Curiosity الذي تمكن من الهبوط على أرض المريخ في ٦ آب ٢٠١٢م دون عقبات وبعد مجازفات تقانية عالية جداً بعد إطلاقه في ٢٦ تشرين الثاني ٢٠١١م من قاعدة «كاب كانافيرال» في «فلوريدا».

كانت مهمته الطموحة أن يكتشف، بشكل حاسم، ما إذا كان الكوكب الأحمر قد آوى في الماضي أو ما زال يأوي حياةً أو شكلاً من حياة بدئية. حمل الروبوت نحو ٨٠كغ من الأدوات العلمية الأكثر تطوراً، وهو ما يوازي تقريباً وزن رائد فضاء مع بزته، وأثقل من أية حمولة ترسل حتى الآن إلى كوكب آخر.

كلفة باهظة ومخاطرة كبيرة

جهاز الاستكشاف الفضائي الأمريكي Curiosity، الأغلى ثمناً حتى الآن (٢,٥ مليار دولار)، هو روبوت بوزن ١ طن تقريباً، موجه عن بعد من الأرض بشكل كامل. هل يشير ذلك إلى نهاية أُسطورة رواد الفضاء الرائعة؟ يبدو أن الأمر كذلك، فالآلات هي التي ستحمل مشعل الاستكشاف الفضائي، في هذا الوقت الذي شهد رحيل رائد الفضاء الأمريكي «نيل أرمسترونغ» (آب ٢٠١٢م) الذي كان أول إنسان يمشي على سطح القمر.

وهكذا أيضاً، دخل المسبار الأمريكي «فوياجر ١» مؤخراً الفضاء بين النجمي، بعد أن أطلق منذ عام ١٩٧٧م، أي بعد بضع سنوات من هبوط الرواد الأمريكيين على القمر. ومن المتوقع أن يتوضع المسبار

New Horizons فـي المـدار حـول الكوكـب القزم البعيد «بلوتـو» عام ٢٠١٥؛ وأن يحـط جهاز الهبـوط الآلي Rosetta علـى سطح أحد المذنبـات لأول مرة، عام ٢٠١٤. أصبح بإمـكان المركبات الفضائية المجهـزة بمحركات اليوم أن تنجز كل شيء تقريباً: القيـام برحلات بعيـدة، والتقاط عـدد لا يحصى من الصور، وتحليل عينات صخرية... ذلك كله دون تعب ودون مخاطرة بصحة كائنات حيـة، وبكلف أدنى بين مئة وألف مـرة بالمقارنة مع كلفة إرسال إنسان إلـى الفضـاء الخارجـي. وستكـون حتى عمليـة جلب صخور من المريخ إلى الأرض متاحة أمام الآلات منذ عام ٢٠٢٠؛ تقريباً. باختصار، بات الاستكشاف العلمي للفضاء ممكناً من دون روّاد فضاء.

مع ذلك، فـي حزيـران ٢٠١٢م، وَضع ثلاثـة رواد فضـاء صينييـن فـي العربة الفضائية الصينيـة Tiangong-١ اللبنة الأولـى لمحطـة الفضـاء الصينية. وفي الجانب الأمريكي، تلقت «ناسا» مؤخراً، في مركز «كنـدي» الفضائي، عربتها الفضائية الجديدة Orion التي من المقرر أن تخضع لأول اختبار عـام ٢٠١٧. ومنذ سنة، ولمدة ٥٠٠ يوم، يجـري الروس اختبارهم Mars ٥٠٠ علـى ستة أشخاص لدراسة صحتهم العقليـة والبدنية قبل إطلاقهـم في قفزة كبرى نحو الكوكب الأحمر....

صورة خادعة

لا يمكـن للأحداث المتعلقـة بالفضاء، المعزولـة والمضخمة إعلاميـاً، أن تحجب الحقيقـة: انتهى غـزو المجموعة الشمسية بشريـاً مـع بدايـة العـام ٢٠١٠، عندمـا أعلـن الرئيـس الأمريكي «بـاراك أوباما» عـن تخلي الولايـات المتحدة عـن برنامج Constellation الـذي كان يهـدف إلـى عودة الإنسان إلى القمر من الآن وحتى عام ٢٠٢٠م، المرحلـة التي كان من المتصور أن تسبـق رحلات مأهولة إلـى المريخ، ولو أن الأمريكيين لـم يتخلوا عن كامل فكرة الغزو المأهول. ومن هنـا صممت «ناسا» المكوك الفضائيOrion. معذلك،كما ذكر«فرنسيس روكار» Francis Rocard، مديـر برامج استكشاف المجموعة الشمسية في «المركز الوطنـي للدراسـات الفضائيـة» بفرنسا: «يستحث احتمال إطـلاق رحلة مأهولة إلى المريـخ قليلاً مـن الأبحـاث والتطوير في المختبرات اليوم». وفيما يخص الصينيين، الذيـن يتطلعون إلى إرسـال روّاد إلى القمر عـام ٢٠٢٠م، فقد وصلوا إلى نتائج تمكنهم، بتقانة روسية، من تكـرار ما أنجز منذ أكثر من خمسين سنة في هذا المضمار.

في الوقت الراهن، يدور رواد الفضاء حول الأرض، محصورين داخل «المحطة الفضائية الدولية»، على ارتفاع ٣٥٠ كم، هذه المحطة التي يتقاسمها منذ عام ٢٠٠١م رواد فضاء محترفون وسيّاح من أصحاب المليارات. ويعني ذلك أن مقاعدها ليست موضع تنازع كبير جداً.

كان برنامج «أبولو» في الواقع آخر بعثة مأهولة لاستكشاف المجموعة الشمسية، منذ نحو ٤٠ سنة. ولنقل بوضوح، كانت مساهمة العنصر البشري، ما وراء رمزيتها كخطوة كبرى اجتازتها البشرية، معدومة تقريباً بالعبارة العلمية، منذ بدايات غزو الفضاء.. بل إن الحصيلة العلمية للعنصر البشري، بهبوطه على سطح القمر، كانت مجرد صورة خادعة. هناك بالفعل الـ٣٦٥كغ من الصخور التي أُحضِرت من القمر، وقد أتاحت الحصول على معطيات حول تاريخه؛ كما أتاحت الأجهزة التي نصبت على سطحه تحديد المسافة بين الأرض والقمر. ولكن، مثلما يلخص «فرنسيس روكار»: «لم تؤخذ القضايا الإشكالية العلمية بعين الاعتبار في أي وقت منذ أن طرحت مسألة الاستكشاف الفضائي المأهول». وهكذا، كان هبوط إنسان على أرض القمر، قبل نهاية ستينيات القرن الماضي، بالنسبة للرئيس الأمريكي «كندي»، مسألة سياسية وإستراتيجية: كان يجب التغلب على الاتحاد السوفييتي في السباق إلى القمر. وفي العام ١٩٦٤، عبرت «أكاديمية علوم الولايات المتحدة» عن تأثرها البالغ من ضعف الحصيلة العلمية لبرنامج «أبولو»....

أنفع بكثير على الأرض

طبعاً، المحطة الفضائية الدولية موجودة، وكذلك كاشف الجسيمات AMS منذ عام ٢٠١١، المخصص لدراسة الجسيمات عالية الطاقة التي تنقذف على الأرض باستمرار. ومن شأن هذه التجربة «أن تنقذ المحطة الفضائية الدولية كمحطة علمية»، يقول أحد الاختصاصيين. إلا أن هذا الكاشف يوجَّه من قاعة تحكّم موجودة على الأرض، وبالتالي لا توجد أية حاجة لوجود إنسان بجانبه في الفضاء! أما فيما يتعلق بميكانيكا الموائع، والتبلور، والبيولوجيا في حالة انعدام الجاذبية، «فإنه لو كانت هناك نتائج مهمة حولها لسمعناهم يتحدثون عنها، أليس كذلك؟..»، حسب عبارة «جاك فيان» Jacques Villain، مؤرخ غزو الفضاء وعضو «أكاديمية الجو والفضاء» الفرنسية. في الواقع، حتى الصناعيون لم يعودوا يهتمون بالمحطة.

وخلال ثمانينيات القرن الماضي، كان مشروع ٣M يهدف إلى استخدام الثقالة الصغرية microgravité، السائدة الآن على متن المحطة الفضائية الدولية، من أجل إيجاد طرق لصنع بلورات ذات نقاء غير مسبوق؛ غير أن هذه الطرق ظهرت على الأرض حتى قبل بدء المشروع. وفيما يخص دراسة نتائج انعدام الجاذبية على الجسم، فإن الغاية اليوم من إرسال إنسان إلى الفضاء تتركز على دراسة السلوك البشري في الفضاء!.

إذن، ربما يكون الاستكشاف العلمي المأهول للكون أقرب إلى الأسطورة منه إلى الواقع. ونهاية زمن رواد الفضاء فرضية قابلة للتصديق. كيف يمكن إذن أن يتخذ الوضع شكلاً آخر، لاسيما وأن مرحلة المغامرة الفضائية القادمة هي ليس استكشاف المجموعة الشمسية بل ما وراءها من عوالم؟ إلا أن أقرب المنظومات النجمية إلينا تبعد عدة سنوات ضوئية عن الأرض، بينما لا يبعد المريخ عنها سوى بضع دقائق ضوئية! كيف يمكننا أن نتصور أن يحط رائد فضاء هناك، ذات يوم. لا يعني استكشاف الفضاء إرسال إنسان بالضرورة. ثم إن الاستكشاف الفضائي يعود في جذوره إلى بدايات القرن السابع عشر، مع «كبلر» و«غاليليه». وربما لم تكن الرحلات القمرية، على مستوى الاستكشاف العلمي، سوى استهلال على الأرجح.

أحدث مقاريب مراقبة الكون

المقاريب الأحدث ثلاثةٌ اليوم، وذات أداءات استثنائية، أتاح ترابطها التقاط مشاهد غير مسبوقة من أعماق تخوم الكون. أول هذه المقاريب، واسمه (LBT Large Binocular Telescope)، أقوى تمييزاً للتفاصيل بسبع مرات من سابقيه؛ وثانيها، واسمه Vista، يغطي مساحة من السماء أوسع بثلاث مرات؛ والثالث فضائي، واسمه Herschel، يلتقط من الضوء عشرة أضعاف ما كان يلتقطه سابقوه... لقد دخل الرصد الفلكي عصراً جديداً مع هذه المقاريب الثلاثة الجديدة. «تشكل هذه الأدوات الثلاثة الجديدة، مجتمعةً، المقرابَ المثالي!». حسب تأكيد «أوليفييه لوفيفر» Olivier Le Fèvre، عالم الفلك من مرصد مرسيليا للفيزياء الفلكية بفرنسا، ويضيف «فانسان مينييه» Vincent Minier، عالم الفيزياء الفلكية في مفوضية الطاقة الذرية بباريس: «مما لا شك فيه أن الرصد الفلكي يجتاز مرحلة، ستكون الأخيرة، لأننا بلغنا أقصى

الحدود على المستوى التقاني». في الواقع، يتفق علماء الفلك على القول إن «المقراب التقليدي»، المصمم حول مرآة واحدة، قد وصل مع هذه الأدوات الجديدة، إلى الحجم المعياري النهائي: بات من المستحيل تحميل صاروخ بمرآة أضخم من تلك الموجودة في «المقراب الفضائي Herschel»، وهي بقطر ٣,٥ م. ومن الصعب أيضاً أن نتخيل آلة تصوير أكثر حساسية من الـ ٦٧ مليون بيكسل التي تتزود بها الرؤية عبر مقراب Vista. كما لا يمكن لأي جهاز بصري تكيّفي غير ذاك الموجود في LBT أن يصحح بشكل أفضل التشوهات الناجمة عن الاضطرابات الجوية.... ومن أجل رؤية أدق من ذلك، سيتوجب انتظار المقاريب الفائقة ومراياها الصغيرة المتعددة المتجاورة، مثل المقراب الأوروبي Extremely Large Telescope والمقراب الأمريكي Thirty Meter Telescope وأيضاً انتظار إطلاق مقاريب فضائية ذات مرايا قابلة للبسط مثل James Webb Telescope. إلا أن هذه المقاريب الأخيرة لن تكون جاهزة للاستخدام قبل عام ٢٠١٨م. مع ذلك، يستطيع علماء الفلك، مع «Herschel» و«Vista» وLBT، أن يرصدوا مشهدَ أجيالٍ أولى من مجرات الكون، وأن يحلوا ألغاز «رقص» النجوم وأن يسبروا أغوار الأخرى البعيدة وأن يلتقطوا أدنى إشارة للماء في شموس عملاقة، وسيكتشفون بذلك مزيداً من أسرار الكون.

Vista يكشف أولى أجيال المجرات

توجد مئات آلاف من المجرات، التي تنتشر مع أذرعها الحلزونية اللامعة حتى تخوم الكون في مشهد مدوخ. وقد التقط هذا المقراب بعد توجيهه لمدة تزيد على ٥٥ ساعة نحو منطقة السماء ذاتها الأشعةَ الخفيفة الصادرة عن أجرام كانت قد ولدت بعد مليون سنة فقط من الانفجار الأعظم. «لدينا الآن بضع صور عن مجرات قديمة جداً كهذه الأجرام، لكنها كانت معزولة لأنه لم يكن ممكناً توجيه المقاريب إلا إلى قسم محدود من السماء. أما اليوم، أخيراً، فيمكننا أن نرصد آلاف المجرات، بعضها بجوار بعض. ولدينا معطيات شاملة توضح تطورها»، يقول «أوليفييه لوفيفر». وستتيح دراسة هذه المعطيات التعرف إلى الخاصيات الفيزيائية لهذه المجرات، مثل كثافة النجوم فيها، وكتلتها، وعمرها، بل أيضاً العناصر الكيميائية التي تتشكل منها، أملاً بفهم العمليات الإجمالية التي أفضت إلى ولادة المجرات الأولى..

LBT يكشف مناخ الكواكب الخارجية

«كنا نحلم، منذ عشر سنوات، بالتقاط صورة مباشرة لكوكب خارجي (أي يدور حول نجم آخر غير شمسنا). واليوم، ليس بإمكاننا أن نرى فقط مجموعة كاملة من هذه الكواكب، بل يمكن أن نصل في هذه الرؤية إلى دقة نستطيع معها وضع فرضيات حول المناخ السائد فيها!»، يقول عالم الفيزياء الفلكية «أندي سكمر» Andy Skemer من جامعة «أريزونا». في الواقع، كشف هذا العالم وفريقه إشارة غير عادية من خلال المقراب LBT، خلال رصد ودراسة الكواكب الأربعة العملاقة التي تدور حول الشمس اسمها HR٨٧٩٩، حيث تبين وجود تشكيلة من الأطوال الموجية (حوالي ٣,٣ ميكرومتر) تبدو فيها هذه الكواكب الخارجية ساطعة للغاية؛ واتضح لهم أنها مغطاة بجو كثيف قوامه الميتان وثاني أكسيد الكربون الذي تزيد حرارته على ١٠٠٠ درجة وأن غيوماً تضفي عليها هذا السطوع الاستثنائي.

Herschel يكتشف سُحباً مائية حول النجوم

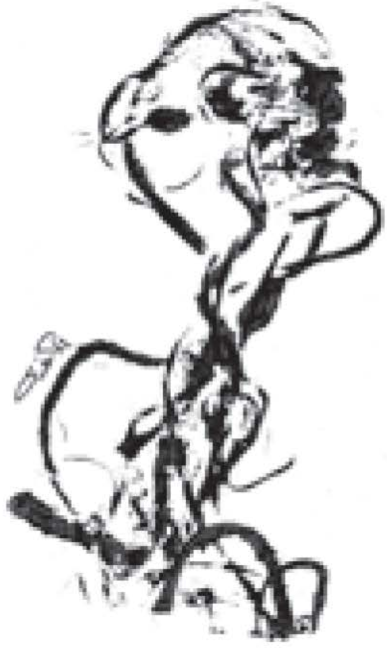
كان الماء في أجرام كونية بعيدة عصياً على الاستكشاف...حتى الآن. ولكن مؤخراً، بمساعدة المقراب الفضائي Herschel، اكتشف فريق «فابريس هيربن» Fabrice Herpin، من مرصد علوم الكون الفرنسي، أن سحباً عملاقة من بخار الماء تحيط بنجوم أكبر كتلة من شمسنا بمئتي مرة. ومن هنا، بدأ الفريق بحثاً حول أحد أسرار الفيزياء الفلكية الكبرى: لماذا يستمر بعض النجوم بالتضخم حتى تبلغ مئتي كتلة شمسية، بينما يتوقف نمو النجوم عموماً بشكل فجائي عند بلوغها نحو ستة أضعاف كتلة شمسنا، حيث تصبح تشعيعاتها شديدة إلى حد يمنعها من تجميع المادة؟ ما الذي يميز شمسنا الصغيرة عن هذه النجوم العملاقة التي سرعان ما تنتهي بالموت لينشأ عنها ثقب أسود أو مستعر فائق supernova؟ «إنه الماء! يؤدي الماء دور سائل التبريد. اكتشفنا أنه يوجد ما يكفي من الماء حول النجم MM١-W٤٣ في ظاهرة الهدف منها موازاةُ تشعيعات النجم خلال نموه وإطالةُ أمد تضخمه»، يمكن أن يجيب الآن «فابريس هيربن».

المصدر

عن مجلة: Science & Vie.

الصحراء
تهمس في أُذن شاعرها

❁
سليمان العيسى



ما الذي أغراكَ بي يا شاعري؟

أنَا رملٌ وعَجَاجٌ..
وفِجَاجٌ..
يَنتهي الضائعُ فيها لِفجاجْ

❁❁❁

ما الذي أشعلَ في عُودِكَ هذي الأُغنيَاتْ
مَلأتْ صَدْرَ فِجَاجي الأُغنياتْ
رائحاتٍ غادياتْ..
أنا صحراءُ كما سمَّيتَني
والأُلَى دَبُّوا على صدريَ..

❁ وجدت هذه القصيدة بين أوراق رئيس التحرير. ضمن رسالة أرسلها شاعر العروبة والطفولة الكبير، قبل رحيله بأيام، وتنشر لأول مرة...
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

كانوا رائعينَ

أنَا لا أُنكرُ..

كانوا رائعينَ

سَفَحوا أعمارهم فوقَ اليَبَسْ

لمْ أكَدْ ألمحُ كيف ارتَحلوا العمرَ رحيلاً

ومَضَوا..

في الضحى، أو في الغَلَسْ

❁❁❁

أورثوكَ الشعرَ..

والشعرُ جنونٌ

فيه شيءٌ من عِنادِ المستحيلْ

والسُّرى في الحالكِ المجهولِ

من غيرِ دليلْ..

السُّراةُ الرائعونَ..

انا لا أُنكِرُ..

كانوا من غُواةِ المستحيْل

❁❁❁

إنني عَتّبٌ عليكْ..

وأُحبُ الأرَقَ استوطنَ يوماً

مقلتَيكْ..

وجرى لحناً تَحدَّاني.. تحدَّاكَ..

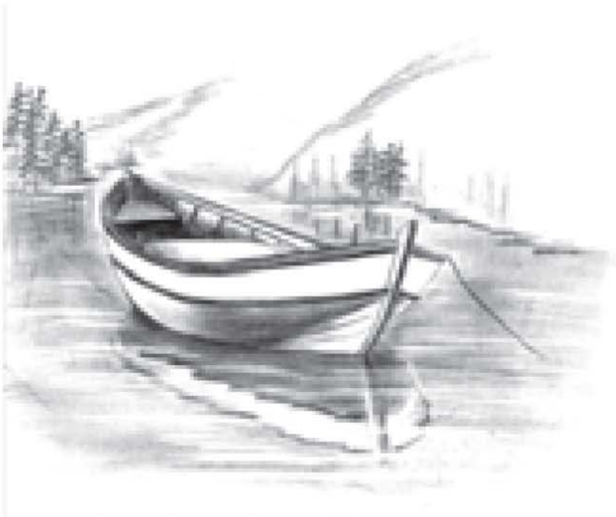
ومازالَ عنيداً..

هادئاً أو صاخباً..

في شفتَيكْ..

قرية تحت سفح الغياب

طالب همّاش ❁



-١-

خمسُ ناياتٍ وأقواسُ حمامْ

ورياحٌ تجعلُ الحورَ حزيناً

وتقاسيمُ حجازٍ

تملأُ الليلَ نوافيرَ كلامْ.

❁❁❁

وغروبٌ من يمامٍ راحلٍ

يطلعُ من حزنِ البحيراتِ جريحاً،

لابساً من زعفرانِ الغيمِ

قمصانَ الظلامْ.

❁❁❁

❁ أديب وشاعر سوري.

كلما غِبنَا رأينا راهباً أبيضَ
في الأفقِ،
وأرتالَ مصلِّينَ يقيمونَ صلاة الفجر
في ديّارةٍ فوقَ الغمامْ.

❁❁❁

فسقينا من أيادينا عطاشَ الريحِ
طلّاً
وتساقطنا على أهدابها التعبى نيامْ

❁❁❁

ورأينا حزنها المقمرَ شلالَ دموعٍ
وسمعنا صوتها الزاجلَ في الليلِ
مواويلَ هُزامْ.

❁❁❁

فاسقني الخمرَ بكأسِ الخزفِ الغامضِ
واجعلني حزيناً تحت جنحيكَ
وعلّمني المدامْ!

❁❁❁

بلغَ السكرُ فؤادي بين آسٍ وخزامْ!

-٢-

أيها النهرُ توقّف
فالسماواتُ أضاميمُ غيومٍ
والقرى
مبخرةٌ تطلقُ تيجانَ الدخانْ!

❁❁❁

والمساءاتُ ترشُّ الشذرَ الأزرقَ
من فخّارها السكرانِ
ساعاتِ الأذانْ.

❁❁❁

وسماءٌ يقطرُ التفّاح من أشجارها
تغفو على سفح الغروب العذبِ
والخرّوب يرمي في بقاعِ الأرضِ
لونَ الأرجوانْ.

-٣-

طلعَ الصبحُ على (العاصي•) كتلويحِ الأقاحي!
صَحْو سكرانٍ بهِ من سُكرِ صاحِ.

❁❁❁

أيُّها النائم فانهضْ من سباتِ الليلِ
واشربْ رشفةً من كأسِ نورْ!
إنما العمرُ شهورٌ تنقضي
بعد شهورْ.

❁❁❁

لذّة الشربِ على العاصي صباحاً
والبساتينُ تدورْ.
طلعَ الصبحُ وفاضَ السلسبيلُ الحلو

في الأقداحِ ريّاناً
وقطّرنا معانينا من الصمتِ خموراً!

❀❀❀

أجملُ الأيامِ في أيلولَ
عصفورٌ يغنّي عاشقاً في السطحِ
والأقمارُ خضراءُ من الشهوةِ والآسِ
و(حمصُ) سهرُ العشّاقِ في العرزالِ
مابين رياحينٍ وراحِ.

❀❀❀

طلعَ الصبحُ على العاصي كتلويحِ الأقاحي.

الهوامش

(•) العاصي: نهر في سورية.

ريح وبزة خضراء

أيمن الحسن*



انفصلا مؤخراً بعد علاقة استمرت سنوات. وأفاد مقرَّبون بأنَّهما ما عادا عاشقَين.

- أيامي باتت مستحيلة معه، يعلِّق على تصرفاتي دائماً.

وأضافت:

- يجب أن أتغلَّب على هذا المرض، الَّذي تسمُّونه الحبَّ، لأنَّه يسمِّم حياتي.

أصدقاؤها كثيرون، عبَّروا عن إعجابهم بما قامت به، بينما رغرغت الدموع في عينيه:

* أديب وقاص.

- لا أنــدم، فعلاقتي بها مرحلة اختبار، توصلني إلى حالة أسمى.

في الفتــرة الأولــى أطلق عليهــا اسم ليليــت: هكذا أوحت له مــن خلال حديثها عن الرجــال، ينظرون إليها بشهوانيَّة، وهي ابنــة الهــواء الصافــي النقيِّ، نزلــت إلى الأرضِ بعدما تركت الرجــل وحدَه رافضةً أن تضطجع له، فأصبحــت راعية الأحلام السعيدة، رسمها علــى شكل يد في راحتها عيــن برموش طويلــة، وراح ينشدها طوال الوقت:

تعالي
ليليت
كوني العين تحرسنا
من كوابيس ليل شرير
وريح هوجاء..

❀❀❀

يقطفني صوتها، كلَّما خطر ببالي، ثمرة طازجة:

- كن لي.. ولا تخف
- لك وحدك طول المدى
- من دونك أربعة جدران تأسر روحي
- وحيد بعدك.. غريب مثل شبح

يتذكرها، وجهها طافح بالشهوة، أسرته نظراتهــا المفعمــة عذوبة، فــزرع أيامها غراماً طازجاً، رأى شبابه المطعون بالبراءة فــي تحررها، ورأت فيه موسم عطاء زاخر، لمساتهــا كانــت الأولى فــي حياته، كذلك رعشاته البكر بين يديها...

يسأله نادل كافتريا الجامعة عنها.

- لا أعرف.

لكنه يجيب نفسه في غصَّة مريرة:

- لا بدَّ أنَّها تنثر أوراقها بين يدي كاتب، يقرأ لها طفولتــه الممتلئة براءة، وسذاجته في الحبِّ قبل أنّ يتعرف إليها!

❀❀❀

حمل جرحــه يتلبَّسُ حزنــاً لا يحتمل، ومضى يسترجع أيام الحبّ....

كأنَّــه يتابع أميرة علــى عرشها، لم يشأ إبعاد عينيه، يسترق النظر إليها محاذراً أن يشاهده أحد الحاضرين. يحاول الاستفراد بهــا عــن قــرب لا يستطيع، فتجــرُّه ذيول الخيبة..

وحدَهــا الريــح تعرف عواصــف قلبه المضرَّجةَ بالهزيمة..

والطرقــات البعيدة تأخــذ قدميه تجاه بيتها...

زارهــا للمــرَّة الأولى يحمــل باقة ورد جوريٍّ، أخذتها من يده، وألقمته قطعة خبز مــن رغيف ناشف، تأكل منه قبل أن يبادئها الكلام:

- تمنيت لو خمس دقائق من وقتك!

- رأيت بعينيك كيف يحيطون بي، وزوجي لا يتركني لحظة.

- معه حقٌّ أن يغار، فالعيون كلُّها عليكِ.

تلج عالمه بابتسامتها الجذلى، كلامِها المعسول، شغبِها المحبَّبِ إلى قلبه، وعينيها المتوهّجتين بالحبِّ كلَّما قرأت طالعه بين النجوم.

شوق جارف شدَّه إليها، فتضحي روحه طوع يمينها..

في موروث العشق ما يعرف بالوَلَهِ: أن تصبح لها أرضاً، تطؤها ساعة تشاء، تأمر فتلبى، وتطاع بلا أيِّ تردد...

تتفنَّن بإعداد القهوة، فتسرق يقظته الحذرة إلى الأبد...

إنَّها اللحظة السحريَّة عندما يختفي شعورك بالخوف، لأنَّك تُقدِم على عمل تجهله: «هل أنا مخطئ؟» لا أسأل نفسي. كلُّ شيء حولي يلمع، ذهبٌ جميع ما تطالعه عيناي، وتلمسه يداها المباركتان.

أحبَّ قدميها الصغيرتين، ثيابها المزركشة بالورود. يكمل:

- ووقعتُ في عشق علبة مكياجها المنمنمة، لا تبرح محفظتها الثقيلة، ومرآتها الفضيَّة إلى جوار مخدتها الحرير، طعَّمتها بالخرز على شكل نجوم ملوَّنة.

كم قبَّل يدها في أمكنة متعدِّدة: على ظهرها، أو جانب إبهامها، عند معصمها النحيل، أو في باطن راحتها الناعم، لتغلق كفَّها على قبلة مندَّاة، لا تريدها أن تذبل. ها هي تضمُّه إلى صدرها في احتضان حميميٍّ أثير...

تؤكِّد لي: «القبلة رسائل شوق مشتهى
بلا كلام تتبارى الشفاه في بثِّها لثماً ناعماً
فلا تفرِّق بين شفتيك
وشفتيك!»

❁❁❁

معتاداً على حضورها الدائم، راح يتغنى بها مدى الوقت، فأمست داخله:

- في بقعة معشوشبة خضراء على الطريق، من باب توما إلى الباب الشرقيِّ، يقبع مقعدنا الأثير تحت شجرة، كأنَّها مظلَّة وارفة.

يتذكر جدَّه الحكيمَ ينهره: «امش بعيداً عن الخضرة، فالأعشاب تموت تحت قدميك».

وأخذت تسير غير عابئة بما تتركه خطواتها الرعناء
فوق

عشب قلبه
الغضِّ
الطريِّ..

قدَّم لها فروض الطاعة، كانت محبرة روحه، وهو حبرها الزائل: نقطة ماء، أو سطر حروف من مطر.

وينسحب الليل تاركاً لي شمس النهار:
بداية
جديدة
ممتعة

من رحم الألم يولد الفرح، ولا بدَّ من احتفاء بالحياة طالما نحن أحياء مهما قست الظروف...

قتل، تخريب، اختطاف، تهجير: موت وخراب يفتكان بالوطن.

تحت جنح دامسة، تحوَّلت أيامنا فجائعَ ودماً غزيراً. لكنَّ أملاً يلوح في هذه الأيدي المتشبثة بالزناد..

تحييه سلوى بابتسامة غامضة، وهي بين رفيقاتها، يرتدين اللباس المموَّه، فتمنَّى لو لديه ضفيرتها الطويلة، يمدُّها نحوها، تحملها إليه: «توءم روحي.. تغسلني بالفرح».

كان شعرها طويلاً، تشوبه بعض خصلات شهب، عيناها خضراوين.

ملامحها طافحة بالإرادة، تدعوني للجسارة، فأرفع خصلة عن جبهتها المعروقة، وقد وطَّدت العزم أن أتحدى:

لا تتردَّد
كن محارباً عنيداً
تعرف كيف تخوض معارك كبرى
تنفض الغبار عن جراحك
وعاود الحبَّ
انهض
إذا وقعت

ملاً رحمة، انسابت يدها حنونةً على جبيني لتسكب دفء العالم في مهجتي.

حملتني إلى الحياة بعد خواء، فاستنشقت نسائم الحبِّ إنساناً بلا وحشة بدائيته، وقلت في نفسي: «هكذا الحبُّ يجعلنا نتحضر أكثر».

حدَّثته عن تطوعها كرمى لعيني الحبيبة سورية الخضراوين.

خاف عليها، فأكدت بثقة عالية بالنفس:

- هذه الأيام، أيُّ مواطن مشروع شهيد حتَّى لو كان مدنيَّاً يا حبيبي.

❀❀❀

يتابع السير إلى ضياعه، ساعات نومه قليلة متقطِّعة هذه الأيام، لم يشرد عنها انتباهة عين، متسربلاً انهزامه:

- كنــت أعرف أنَّني أمشــي إليها وسط متاهة مضيِّعة، لكنَّني مثل نعامة، رأسها في الرمال، أكملت حتَّى نهايةَ الشوط.

يتلمَّس سريرها الراعف بأنفاسهم، وحده غير موجود هنا، فعاد يبحث عن دفء يعيده إلى الحياة من جديد....

بــدا يباس وجهــه، مكشِّــراً على مدار الساعة. فسأله أصدقاؤه المقربون:

- هل انتهى الحبُّ؟

- ذهــبُ الزمــان المفتقَد هــذه الأيامَ العصيبــة، شجرة تظلِّل حنايا الروح، تغرس جذورها في أرجاء الجسد، نسغ لذيذ يروي غليــل النفس المشتاقة للآخــر، في تشوّق لحضوره كلَّ آنٍ...

خالــدٌ منــذ الأزل، فهــل نتوارثه بالدم جيلاً بعد جيل؟

مضيفاً:

- الحــبُّ علاقــة تبنى علــى التجربة الذاتيَّــة والوعي المكتسب: كلٌّ يحبُّ حسب وعيه.

مــع ذلك يبقى حيّاً فــي الوجدان ملء رحــاب ذاكرة المحبِّ، فــي منزلة المقدس مهما حصل أيها الأصدقاء.

تنفَّس عميقاً، ينظِّــف صدره من الكدر المستوطن داخله منذ كان طفلاً.

ألقى نظره بعيداً

شاهد في باحة مدرســة أبناء الشهداء تلامذة يلعبــون، تمنَّى لهــم العيش الهانئ غداً، وهــو يحدس داخله: «كأنَّ على المرء، كي يتجــدَّد، أنْ يكتوي بالنــار، كما الوطن يتجدَّد بالتضحية فــي سبيله، فيعود سليماً أقوى من السابق، وأجمل».

حتَّى إذا ما عاد إلى غرفته وصلته رسالة مقتضبة:

- أحبُّــك كلَّمــا ضَمَمْــتُ سلاحي إلى صدري.

تلتها وصيتها الموجزة:

ستجد نفسك شخصاً آخر

عليك أنْ تبحث في داخلك عنه..

سلوى

راضي (٢)

❀
رياض طبرة



لــم أجد غيــر أبي أسألــه عن الرجل الغريب، الذي رأيتــه ينقل خطواته بتؤدة، كان كمن ينحدر مــن جبل، خطواته لافتة لانتبــاه فتــى مثلــي، كنت فــي الخامسة عشــرة من عمري وكان فــي الخمسين أو أقــل قليلا، لكنّه على غيــر هيئة وزي كل من زار قريتنــا النائية، المرمية كثوب رث علــى قارعــة الجبل، تــكاد قريتنا تصرخ من جوعها، وتأبــى كرامتها أن تفعل ذلك مخافة أن يشمت بها من حولها من القرى الجائعــات مثلها وأكثــر، لقد عضّ الجوع بنابــه اللعين ما تمكن من هذه القرى التي

❀ أديب وصحفي.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

ظلت متعشطة للكرامة والحرية، محتفظة بنخوتها الأصيلة.

كان الرجل يضع طربوشاً أحمر على رأسه، يرتدي بزة ذات لون أزرق، اكتفى بإلقاء سترته على ذراعه وهو عائد من كرم التين الشرقي إلى مضافة الشيخ، وهي وحدها قد وقع على عاتقها مثل هذه المهام الخاصة لتقوم بواجبات الضيف والمحتاج والغريب.

قميصه الأبيض الناصع، وقبته المقواة، وربطة عنقه، كل ذلك أراه للمرة الأولى في طفولتي، وأسأل: ما هذا الجمع بين أزياء تكاد تكون متنافرة متباعدة، بعضها عصملي، وآخر إفرنجي لافت للانتباه، في قرية نائية؟ كل ما في قريتي آنذاك زفت، كما كان يجيب أهلها كلما سئلوا، إلا الطريق الذي يوصلها مع المدينة أو الاغتراب كان ترابياً وعراً يبعث على الخوف والحذر، إما من الوحوش التي لها الشرف بأنها وحوش كما تعارفنا على تسميتها، أو من وحوش أخرى أشد قسوة ووحشية مما جادت به الغابة، أو طفح به الجبل أو السهل.

سارعت إلى أبي متسائلاً عن رجل غريب له وقاره، ضحك أبي وأجابني هذا راضي أبو خشم.. عندها عرفت معنى ومغزى ضحكة أبي إنَّه الرجل الذي كان أترابي كلما سخروا من أنفي قالوا: خشم راضي مع أنهم لم يروه، بل انتشر الوصف بالعدوى، وعبر إعلام بدائي لكنه حاد وصلف كما هو حال كل إعلام دعائي متجن. ضحكت أنا الآخر ولم أطلب المزيد إلاّ أن أبي تابع قائلاً: راضي يا بني قصة غريبة عجيبة، لو تدري متى وكيف جاء هذه القرية؟ وكيف كان وكيف صار؟؟لاستبدّ بك العجب من عبر الزمان ووطأة المكان.

يا بني جاء راضي طفلاً دون العاشرة مع أهله، كما جاء كثيرون لبلدنا ممن جار عليهم الزمان، وأنهكتهم الحرب وهدت حيلهم، ولم يجدوا غيرنا مأوى آمنا يلتقطون فيه لقمة ولو عسيرة، لكنها من يد ودودة. والناس لبعضها، هكذا تعلمنا وتربينا، وهكذا عشنا إن ضاق علينا الشمال اتجهنا للجنوب وإن ضاق الغرب قصدنا الشرق، كنا نلعب معاً هنا في حاكورة الخوري، أو عند المطخ والبركة، كان راضي واحداً منا، نمازحه ونقلد لهجته الشوفانية، يتهددنا بالويل والثبور إن اقتربنا من بلدته، إنه فخور ومعتز بها وبأن الله أعطاها الأرز عنوانا لشموخها وعزتها الأبدية، وكثيراً ما كان راضي يقف ويقلد

الشماس وهو يقرأ: أرز لبنان الذي غرسه الرب هناك تعشعش العصافير وللّقلق بيت في السرو. وكأنه كان يستمد من هذه الآية مشروعه الخطير ومغامرته اللاحقة فقد عقد العزم على اقتحام الغربة والانضمام إلى أجيال سبقتــه وهاجرت تاركة الترك والأتراك لغيرهم.

ترك كار الفلاحة الذي فرض عليه. لم تطقــه نفسه ولا قدر عليــه، رفضت روحه أن يظــل المرابع في أرضــ وحقول وبيادر الشيخ، مع أن الشيخ من عشيرته وملته.

اختــار راضــي. والأصح يــا بني اختار المهجــر الجنوبي راضياً ليكــون من أبنائه البررة، الذين عملوا بتقوى وورع، وإيمان بأن أيســر الطرق إلى العيش بسلام هو الصدق ،فأحبــه الناس البسطاء ســكان تلك البلاد ففتح الــرزق أبوابه لخزائــن رضا الفارغة فامتلأت وفاضت حوالات إلى أهله.

لن أطيل عليك كثيراً، فقد تحوّل راضي من المرابع البسيــط، إلى الخواجا راضي. صــار الشيــخ وابــن الشيخ يهللــون لقدوم راضي.

وهنا سألت أبي: وأنت؟

يجيب أبي: إنه أحب الناس لقلبي وأقرب المعذبين في الأرض لروحي كنا نصّين في كتاب هو في الصفحات الأولى وأنا على بقية من صفحات، يتوقف أبــي لحظة ويصمت وتكاد دموعه تنهمر مسرعة: هل نسيت أني عشت في حيفا عقداً من سنوات العمر في ذلك الحي الذي اسمه وادي النسناس؟؟

سارعــت: ولــم أنس الهــادار والحسبة وبيت الأرانــب فقد ترددت هــذه الأسماء على مسامعنا حتى باتت جزءاً من مفرداتنا اليوميــة. وكل اسم له مــا يشابهه فكنيسة حيفــا هي كنيسة مار الياســ ذاتها. ووادي النسناس هــو وادينا ذاته مودعا الجبل الى السهل.

يعود أبي ليكمل قصة راضي ليتنازعني شعــوران، شعــور بالضيق مــن الحكايات القديمة، وشعور بالفرح لأنها حكاية صديق حميم لأبــي وهذا وجهه قــد تهلل لمجرد ذكــره، فلربما أعــاده الاسم عقــوداً، كانا خلالها أكثر سعادة بكل شيء.

قلــت: ها أبي أيــن العجائبية في قصة راضي؟؟

نعم يا بني يجيــب أبي بسؤال: هل تعلم ماذا حل بدار الشيــخ وبالأرض والفلاحة؟ وكيف ضاق العيش في هذه البلاد؟

قلــت: وهل عرفنا يا أبــي غير التنقل عنوة بيــن الكفاف والكفــاف بين بحبوحة لا تحمي مستقبل الأيــام وبين فاقة وعوز، حالنا كالمستجير من الرمضاء بالنار.

يزجرني أبي: قل الحمد لله وإلا سأقول فيكم أنتم جيل «المفرِّعين» كما يقول غيري والمفرع هو من كان حاسي الرأس- وهذه سبة في عرف من كان يفخر بعصبته أو كوفيته أو حتى طربوشه المماثل لطربوش عمي راضي.

لقد أنهكت سنوات الجفاف الناس واضطر ابن الشيخ للّحاق بقوافل المهاجرين، كان عسيراً على بيت أطعم الفقراء والجياع في الحرب أن يرسل ابنه البكر إلى المجهول، أو حتى إلى هذا المعلوم، أي أجيراً عند الغرب أو الأجانب أو «بائع كَشَّة» أي متجول في حرّ لايطاق وغابة من وحوش وبشر أقرب للوحوش. لكنه انصاع صاغراً وأرسل بكره إلى هناك ليجد نفسه أمام عرض لم يتوقعه ولم يملك ما يدفعه عنه، فقد كان أمامه إما الاقتران ببنت راضي أي بنت المرابع وهو ابن الشيخ والذي كان قد خطب له والده أميرة من الأميرات تنتظر عودته على أحرّ من الجمر. وإما سيبيع بالكَشَّة وينتظر ربما سنوات عديدة لكي يمتلك مخزناً أو تستقر حاله؟

ما العمل وأفواه تنتظر بفارغ الصبر نجاحا في الاغتراب أي لقمة هنية في الوطن لأسرة ودعت الهناءة بوداعها لابنها البكر يذهب هناك إلى المجهول.

تزوج ابن الشيخ ابنة المرابع الفلاح الذي لم يملك قطعة أرض. كانت أحلامه كرة أرضية بحالها. وها هو راضي يحل ضيفا مكرما معززاً في القرية التي ملكت عليه فؤاده كما يملك القيد المعصم وها أنذا، يتابع أبي، سأدعوه إلى بيتنا لتناول رغيف لم يذق طعمه منذ أمد بعيد إنه رغيف المحبة.

التأثيرات المتناقضة لتقانات القرن الحادي والعشرين على الأفراد والمجتمعات

❁
د. سعد الله آغا القلعة



شهدت بداية القرن الحادي والعشرين، ولادة ظواهر امتدّ تأثيرها إلى مختلف مجالات النشاط الإنساني. تمثلت هذه الظواهر، في زيادة حجم المعلومات المرتبطة بهذا النشاط أو ذاك، وتنوع مراكز إنتاجه، إضافة إلى انتشاره السريع، مهما اختلفت صوره وأشكاله.

إلى جانب هذا التطور.. كانت تظهر تقانات جديدة، تساعد الإنسان على الإحاطة بما يجري، تجسدت أساساً بالتقانات المعلوماتية، وشبكات

❁ باحث وناقد موسيقي ووزير سياحة سابق.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

الاتصال، التي واكبت التطور، وساعدت الإنسان على التعامل مع الزيادة الهائلة في حجم المعلومات، وعلى القدرة على تصنيفها واسترجاعها وتناقلها وقراءتها قراءة متأنية، ما مكّن العلماء من مواكبة الأحداث، والتغلب على صعوبة التعامل مع المعلومات هائلة الحجم، متباعدة المسافات.

من الطبيعي، استناداً إلى ما سبق، أن تكون صورة القرن الواحد والعشرين العلمية زاهية إلى حد كبير، فهي صورة متصلة بتطور علمي واضح، وخاصة في مجالات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، ما سيوسع طيف الأبحاث، من دراسة أدق خلايا الإنسان، إلى أبعد كوكب في المجموعة الشمسية، في سعي لوضع نموذج عام لفهم تطور الحياة الإنسانية، تكون مكوناته النظم المعلوماتية العديدة التي تدرس الآن.. كنظم المعلومات الزراعية والهندسية والرياضية والفيزيائية والجغرافية والصناعية والاقتصادية والسياحية والتجارية والطبية وحتى الموسيقية والتاريخية. سيشهد هذا القرن أيضاً، تداخل هذه النظم وارتباطها ببعض، مع توظيف قوانين الاحتمالات، والمنطق الضبابي fuzzy logic، في كل دراسة تسعى لنمذجة رقمية لظاهرة طبيعية غير مفهومة، أو ظاهرة علمية غير مفسرة، مع الأخذ بعين الاعتبار لتكامل مصادر المعلومات المتنوعة.

في العصر الذي نعيشه، سيتطور الذكاء الاصطناعي عبر الحاسوب، وسيتطور الذكاء الإنساني، لكي يتعامل معه، في سعي للاستفادة المثلى منه، في جدلية غريبة لا يعلم أحد اليوم مداها، ما سيؤدي مع الوقت، إن أحسنت السيطرة على تلك الجدلية، ومع المزيد من تكامل قواعد المعلومات وتداخلها، وتطور الذكاء الإنساني، في تعامله مع نظم الذكاء الاصطناعي، وعبر التخلص من الأشغال اليدوية، والتوجه للتصنيع المؤتمت، إلى تفرغ الإنسان، للاستيعاب والتفكير والتحليل والتركيب.

بالمقابل، سوف يعيش الإنسان التناقض، بين أن توحد المعلوماتية والاتصالات صورة العالم العلمية، وهذه نقطة إيجابية من حيث المبدأ، وبين أن توحد الصورة الثقافية على مستوى العالم، وهذه نقطة سلبية لا بد من معالجة نتائجها. ولكن، وقبل الدخول في هذه النقطة، لابد من التوقف عند النقطة الأولى: هل توحيد الصورة العلمية للعالم إيجابي فعلاً؟ أم أن

المجتمعات ستختلف في درجة قدرتها على ملاحقة التطـور العلمي ذاته، ما قد يؤدي إلى نتائج اجتماعية غير محسوبة.

الصورة العلميـــة الزاهية على مستوى العالــم، التي رُسمت ملامحهـــا قبل قليل، والتـــي يساهم فـــي تعميمها، أنهـــا صورة واحدة تتماشى مع جميع الشعوب، فالعلوم لا تحدها الحـــدود بين الدول، ولا الفروق بيـــن الشعوب، هـــذه الصورة ســـوف تبدأ بالتغيـــر، عندمـــا ننظر فـــي العلاقة بين مكونات العالم، وأعني بذلك، المجتمعات التي ســـوف تكون مختلفـــة درجة التطور، وسوف تتغير أكثر، عندما ننظر في العلاقة بيـــن عناصـــر المجتمع الواحـــد، مختلفة درجة التطور أيضاً، لتغيب ألوانها الزاهية تمامـــاً، عندما ننظر إلى تلك الصورة على مستـــوى الفـــرد الواحد، والغايـــة من هذا النظـــرة المدققة تكمن، فـــي الدعوة إلى اتخاذ التدابير التي قـــد تحد من مظاهر عـــدم التجانس، الذي ستولـــده التطورات العلمية الحديثة.

من المتوقع، فـــي العلاقة بين مكونات العالـــم، وبسبـــب تسارع التطـــور العلمي، أن تتكـــون أربـــع شرائح مـــن المجتمعات: السباقة واللاحقة والمتعثـــرة والمتخلفة. الصورة العلميـــة الزاهية التي رُسمت قبل قليل، سوف تكون على مستوى المجتمعات، أوضح ما تكـــون، في المجتمعات السباقة، ولن تكون مثلها فـــي المجتمعات الأخرى، وهذه فكرة قد يكون من نتائجها، أن العالم لن يكون أبـــداً قرية صغيرة متجانسة، كما يشـــاع دائماً، بل قد يتحـــول إلى قرية غير متجانســـة، أولاً، ومتوترة تالياً، وهذا واقع بدأت مظاهره تتوسع كل يوم.

وحتى على مستـــوى المجتمع السبّاق علميـــاً، قـــد تكـــون تلـــك الصـــورة غير متجانســـة، بـــل وحافلـــة بالتناقضـــات، فالتطـــور العلمـــي الذي نجمـــع على أنه يتســـارع يوماً بعد يوم، ســـوف يولد فرقاً واضحـــاً في التعامل مع التكنولوجيا، بين الأجيال، في المجتمـــع الواحد، وسيكون هذا التناقضـــ أوضح، كلما كان المجتمع سباقاً في التطور العلمي.

منذ فترة ليســـت بالبعيدة، كان تعايش الأجيـــال محققاً، لأن التطـــور العلمي لم يكن بالسرعـــة التي يشهدها العالم، والتي تتســـارع يومـــاً بعد يـــوم، أمـــا الآن، فقد أصبحـــت الفروق بيـــن جيليـــن متتاليين واضحة بل ومزعجة.

سوف يولد التسارع في التطور أيضاً، مشـــاكل للشريحـــة العمريـــة الواحدة، حيث تختلف مستويـــات قابلية التعامل،

مع الأدوات التكنولوجية فيما بين عناصرها، ما قد يؤدي إلى عدم تجانس في المجتمع الواحد، وإلى زيادة عدد الأفراد الهامشيين في المجتمع، وهذا سيولد توتراً واضحاً ومؤثراً، إن لم تُتخذ التدابير الناجعة في هذا المجال، على المستويات كافة.

على مستوى الإنسان الفرد، ونظرياً، سوف تكون الصورة العلمية زاهية، عند الإنسان الذي يستطيع أن يلاحق التطور المعلوماتي، لأن هناك تكاملاً متوقعاً بين المجالين الثقافي والعلمي عنده. من المتوقع أن يزداد التوجه إلى التخصص الدقيق في المجال العلمي، فالتطور العلمي يلغي دور العمل الفردي لصالح عمل الفريق، حيث تتداخل العناصر العلمية، في نظام معلوماتي شامل، وسيكون التنفيذ، من قبل أشخاص، يعمل كل منهم في إطار اختصاصه الدقيق. يدعونا هذا الواقع إلى إيجاد تخصصات علمية ذات شمولية، تحقق التواصل بين الاختصاصات الدقيقة، خشية حصول ثغرات في المعلومات بينها. ولكن اعتماد التخصص الدقيق في المجال العلمي، لابد من أن ينجم عنه تأثر الإنسان بالتطور المعلوماتي، على مستوى الذكاء وأساليب التفكير، فتوحيد أشكال المعالجة المعلوماتية في جميع أنحاء العالم، لا شك سيسهم في تقارب المتعاملين في مجالات محددة عبر الحدود، وهذا سيسهم في تقارب أساليب تفكيرهم، ما قد يبدو إيجابياً للوهلة الأولى، ولكنه قد يسهم، بشكل أو بآخر، في توحيد أشكال الذكاء الإنساني، عبر المجتمعات، وأساليب تعامل الإنسان مع حل مشاكله، وهذه آثار جانبية سلبية، قد تتفاقم تأثيراتها مع مرور الوقت، ناهيك عن تباعد المتعاملين مع الأساليب المعلوماتية، عبر العالم، في تقارب أساليب تفكيرهم، عن مجتمعاتهم المحلية.

في السبعينات والثمانينات، كان المبرمج هو الذي يضع البرامج المعلوماتية لمعالجة المسألة التي يعمل عليها بأسلوبه، فيما يتوافر اليوم برامج جاهزة لكل شيء. ومع أن هذا مفيد تماماً، ولكن نتائجه خطيرة، إذ إنه ألغى جانب المبادرة الشخصية في ابتداع الحلول الجديدة، لتقتصر المبادرة على حل المشاكل، والتوفيق بين البرنامج الجاهز والحاجة، ما قد ينتج عنه، مع الوقت، ومرة أخرى، توحيدٌ لأشكال التعامل الإنساني مع المشاكل الطارئة، انطلاقاً من نماذج معتمدة مسبقاً.

في سياق القرن الحادي والعشرين. سوف تخف ساعات العمل، وتخف الحركة، لأن الإنسان سيكون قادراً على العمل من منزله، عبر حاسوبه، مما سيزيد من الوحدة والعزلة على المستوى الاجتماعي والإنساني والثقافي. بالمقابل، سوف تؤمن شبكات الاتصال، كشبكة الإنترنت وبنوك المعلومات، ومواقع الإنترنت، والمدونات، ومواقع التواصل الاجتماعي، ثقافة متكاملة، لمن يرغب في الاطلاع على أي شيء، كبديل أساسي للكتاب، ما سيشحذ، من حيث المبدأ، همم المبدعين المطلعين عليها، لإطلاق إبداعات جديدة، ولكن الكم الهائل من المعلومات المتوافرة حول موضوع معين، سيجعل من الصعوبة بمكان الوصول إلى معلومة ذات مصداقية، كما أن وسائل البحث المعلوماتي ستسهل الوصول إلى حيز محدد من النصوص، بناء على كلمات مفتاحية، ضمن نصوص طويلة، ما قد يؤدي إلى ثقافة تعتمد على معلومات مجتزأة، غير مترابطة، تفتقد عموماً إلى المصداقية.

قد تبقى الكتب المطبوعة لفترة قيد التداول، ولكن الموسوعات الورقية ستغيب لصالح الموسوعات الإلكترونية، التي تسمح باطلاع سريع على المعلومات المتشابكة، المتضمنة للوسائط السمعية والبصرية. ستحقق زيادة الاطلاع على المشهد الثقافي تكاملاً جيداً، في الحالة النظرية، ولكن هذا سيزيد من الفارق الثقافي بين المجتمعات المؤهلة في هذا الاتجاه، وبين غير المؤهلة، ما سيؤدي إلى طغيان ثقافي، تغيب فيه خصوصيات الشعوب، لتسيطر ثقافة واحدة، هي ثقافة الأقوياء، وما كان محققاً في الصورة العلمية، من توحد الأبعاد العلمية عبر الحدود، لم يعد صحيحاً في الصورة الثقافية.

لمواجهة هذا الواقع عربياً، هناك اتجاهان: علمياً، لا بد من السعي إلى تعميق دور التعلُّم والتأهيل المستمر في مجال المعلوماتية والاتصالات، وأساليب التفكير المعلوماتي، لكي نكون من المجتمعات اللاحقة بالركب العلمي الموحد للعالم، وثقافياً، لابد من توظيف المعلوماتية وشبكات الاتصال في اتجاه مغاير، يسعى للحفاظ على مظاهر الشخصية الثقافية العربية، عبر تعميق الاهتمام بالمحتوى العربي الرقمي، وبالنشر الإلكتروني للإبداعات العربية، وبدعوة المفكرين العرب، إلى الاهتمام بتكنولوجيا المعلومات،

والنشر من خلالها، وإلى الاهتمام بصناعة البرمجيات العربية، وتعريب المصطلحات وتبادلها عربياً، والسعي لدراسة هندسة اللغة العربية، وتطبيقات ذلك معلوماتياً، لتحقيق الأمن الثقافي العربي، في ظل سيطرة التقانات الجديدة على النشر، واختلاف القيم بين المجتمعات، ولن يتأتى ذلك، إن لم نسع جميعاً لحفظ حقوق النشر والإبداع الرقمي في عالمنا العربي.

السؤال الآن: هل المبدع العربي مدركٌ لأهمية المعلوماتية، ولدوره الحيوي اليوم في الحفاظ على الثقافة العربية؟ المبدعون العرب، ممن هم في سن الخبرة، يرون أن القطار فاتهم، وأن المعلوماتية هي للشباب، فهل نقبل رأيهم، بينما هم القيمون على الثقافة العربية لعشر سنين قادمة؟ بالطبع لا.. هناك ضرورة حيوية لجذب اهتمام المثقفين والمبدعين العرب إلى الأدوات المعلوماتية، وتطويع إبداعهم لها.. إلى التفكير عبر النصوص المتشابكة، وأساليب التأليف الرقمي، وتوظيف الصوت والصورة والتحريك والفيديو، لتوضيح الفكرة، إذ إن التقانة أصبحت تتدخل في صلب أسلوب العرض، بل وأصبحت قادرة على تطوير المضمون ذاته..

لنأت الآن إلى الفن. سيكون الفن، بجميع أشكاله، وبسبب ارتباطه بالأحاسيس والمشاعر، من أكثر مجالات النشاط الإنساني تضرراً بهذا الوضع الجديد، الذي تقصر فيه المسافات، ويختزل فيه الزمن، وتضيع فيه الروح، إذ إنه أصبح من الواضح اليوم، أن الإنسان عموماً ضائع: التقانات الحديثة أغرقته بتسارعها المذهل، وضغط العمل والتنافس، جعل الروح تغيب في أعماق الجسد، وإيقاع الحياة أصبح سريعاً وضاغطاً، ولم يعد يسمح بتوفير وقت للاستمتاع بالموسيقى لذاتها، وحولها لتكون رفيق نشاطات أخرى. الموسيقى تتطلب الوقت، وموسيقيو هذا العالم، أصبحت موسيقاهم صورة عنه، إما أنها تعبر عن تعقيداته وتعقيدات العواطف، بعقلانية أكثر وضوحاً، وبتعقيد أكثر حدة، أو أنها انحدرت في نتاجها إلى مستوى الابتذال ومخاطبة الغرائز المباشرة، فيما يحتاج الإنسان إلى إنسانيته وعواطفه، وإلى استعادة الإحساس بالجمال، جمال الحياة، عبر الفن، وإلا أصبحت الحياة عبئاً بحد ذاتها.

لقد كان هناك دوماً سعيٌ لفهم تأثير الفنون على الإنسان، وقد كان هذا طويلاً حلم الباحثين والموسوعيين، من أجل تطوير

استخدامهـا، ضمـن السعي لكـي يحافظ الإنسان على إنسانيته، في ظل الحياة المادية المسيطـرة والعزلة المتزايـدة. الموسيقى العربية، لم تشهد قراءات حقيقية وعلمية، مواكبة للتطور المذهل الذي حصل فيها، منذ منتصف القرن التاسع عشر، وحتى منتصف القـرن العشرين أصلاً، بسبب بُعد العاملين فيها عـن أساليب معالجـة المعلومات، أو توجيه اهتمام البعض منهم، إلى موسيقات الشعوب الأخرى الأسبق في سلم الحضارة، ولا شـك في أن هناك تطـوراً ممكناً في هذا المجال، ولكن الخشية تتزايد مع مرور الوقت، من أننا، عندما سنكون قادرين على هذا، ستكون الموسيقـى التي يمكن لها أن تقوم بهذا الدور، قد غابت للأبد، من حياة مجتمعها، بسبب غياب الاهتمام العام بها.

قـد يخطر بالبـال هنا، أن لـكل فترة زمنية موسيقاهـا، ما يستدعي التوقف عن توثيق أو تحليـل التراث الموسيقي العربي، انطلاقاً من أن الأعمال الغنائية والموسيقية التـي تطـورت خـلال القـرن العشرين، تأثـرت بالمدلولات الثقافيـة والاجتماعية والحضاريـة المحيطة بها في عصرها، بل وتأثرت بالتقنيات التـي رافقتها، فالأغنية السينمائية، كانت مختلفة في عناصرها عن الأغنيـة الإذاعية، أو الأغنية على المسرح، وأغانـي المرحلة الرومانسية كانت مختلفة عن أغاني المرحلة الواقعية، ولكن ألا يصح هذا فـي كل فنون العالـم؟ أليست لوحات بيكاسو هي الأغلى حتى الآن، وكذلك أعمال مونيـه، رائد الانطباعية، ورمبرانت.. مهما اختلفت الفترة التي تعود إليها هذه الأعمال، وحتى الموناليزا، ألا تحتفظ بسحرها رغم أن مدارس فنيـة عديدة ظهـرت بعدها؟ لاشـك فـي أن لكل فتـرة نتاجهـا الفني، ولكـن الإنسان، بذاكرته الحيـة، المعتمدة على توثيـق وتحليل تراثه العلمي والثقافي، يختزل حقب التاريخ مجتمعة.

هناك اليـوم، في هذا الإطـار، فرصة حقيقيـة لإطـلاق أعمال التحليـل العلمي للتـراث الموسيقي العربي، بعـد أن أصبح أغلبـه متوافـراً على شبكـة الإنترنت، من خـلال عشـرات الآلاف مـن التسجيلات، التي نشرهـا هواة، كانـوا يحتفظون بتلك التسجيـلات لأنفسهـم، وقامـوا بنشرها، متّبعين مفهوماً جديداً، ولّده الإنترنت، يكرس مبـدأ التشارك فـي كل شـيء، ولكن هذه الفرصة تبدو ضائعـة مسبقاً، إذ لا يوجد، علـى مستـوى العالم العربـي، أي مؤسسة توجـه عنايتها لدعم أعمال التحليل العلمي للتراث الموسيقي العربي، وهذا واقع تبدو الحاجة ملحة لتغييره.

بالنتيجـة، لاشـك فـي أن تقانـات القـرن الحـادي والعشرين حملـت الكثير مـن التأثيـرات السلبيـة والإيجابية على المجتمعـات والأفراد، وبقـدر ما يستطيع العالـم تخفيـف آثارها السلبيـة، وتوسيع تأثيراتها الإيجابية، بقدر ما يكون قادراً على السيطرة على النتائج النهائية، التي تحفظ للعالم، الحد الأدنى من التوازن، الذي يسمح له بالاستمـرار في الحيـاة، وإنتاج تقانات جديدة، ستحتاج لجهود أكبر للسيطرة على نتائجها، في جدلية ثانية، تنضم إلى جدلية التطور بين الذكاء الإنساني والاصطناعي، الموصوفـة أعلاه، لتنتجـا عالماً لا نعرف اليـوم ماهيتـه، ولكن السعـي لفهم واقعه اليوم، وتحريض اتخاذ التدابير اللازمة، قد يؤدي إلى سيطرة أفضل على مآله.

القراءة أثمن ما يملكه الإنسان

✿
د. صادق فرعون



نعم. البداية كانت كيف اعتدتُ وأحببت القراءة؟ كنت في الصــف الرابع الابتدائي وكنا نزور قريبا لنا يسكن في حي البزورية، في دمشق القديمــة. كان أحدَ أبناء العمة، وكان محامياً ضعيف البصر لا يكاد يستطيع أن يقرأ. كان يُرحب بي ويدعوني أن أجلس قربه تحت عريشة الياسمين المظلِّلة للبحرة الرخاميــة التــي تتدفق مــن «سبعها» في أوسطها مياه نهــر القنوات الباردة فتضفي رطوبة محببة على الجو. كان يمد يده نحوي بكتــاب من أحد كتبه الصفــراء ويقول لي:

✿ أستاذ سابق في كلية الطب في جامعة دمشق، وباحث في الموسيقى والأدب.

«اِقرأ. اِقرأ». أذكر أن من أوائل تلك الكتب كان «البيان والتبيين» للجاحظ. كان يفتح لي الكتاب على صفحة معينة ويشجعني أن أقرأ بصوت عالٍ حتى يَسمعني ويقول لي، بين الحين والآخر: إنَّ هذه الكلمة تعني كذا وإن هذه الجملة يقصد الجاحظ بها كذا.

كنت أحياناً أتعجب لبعض جمل هذا الجاحظ الغريب الأسلوب والأطوار إذ تبرز لي جُمل فيها كلمات فاحشة! كنت أتوقف عن القراءة وأصمت وأبقى من دون حركة. كان قريبي شبه الضرير يميل نحوي ويستفسر ما الأمر؟ ولماذا توقفت عن المتابعة؟ وهل هناك أية صعوبات؟

بعد بضع لحظات صمت كنت أهمس بقرب أذنه: هذا الجاحظ قليل أدب فهناك كلمات «رذيلة»... كان القريب شبه الضرير يضحك ويقول: لا مانع. لا مانع. يحق للجاحظ ما لا يحق لغيره. إنها عادة قديمة عنده.. ليست هناك أية مشكلة وكل ما في الأمر أن تمرّ على تلك الكلمات مرّ الكرام وتتابع قراءة هذا الكاتب العظيم. كنت أمضي معه أوقاتا طويلة لاسيما أيام الصيف حين تكون المدرسة مغلقة. صار لتلك الساعات الهادئة التي نمضيها قرب البحرة الرخامية نكهة خاصة في نفسي وصرت أسرّ بالقدوم إلى بيت العمة «أم منير» والتعرف على كثيرٍ مما في تلك الكتب القديمة من طُرفٍ وصرت أكتب الكلمات الغريبة في دفتر مع معانيها وأحفظها عن ظهر قلب. لم يقتصر الأمر على قريبي المحامي بل كان والدي يحب أن يذهب في سيران إلى «جديدة الشيباني» صباح كل يوم جمعة. كانت والدتي تحضّر لنا طعام ذلك اليوم وكان ينهض مبكراً ويوقظني لأذهب معه في ذلك السيران.

كنا نخرج في وقت مبكر من الفجر ونمشي بسير حثيث باتجاه «قبة السيار» ثم نتابع المشي في طريق ترابي حتى نصل «الهامة» ومنها نبدأ مسيرتنا في وادي بردى نحو «جديدة الشيباني». كان الطريق طويلاً يتطلب مسيرة ساعات عدة وكان والدي، حين يلحظ تعبي، يقف للاستراحة ما بين الحين والآخر وأحياناً كان يرفعني على ظهره ويسير بي وبما معه من مأكولات مصفوفة في جعبته الكبيرة.. وهكذا كنا نصل بعد بعض العناء إلى الجديدة ونرى «الطاحونة» التي تدور حجارتها الطاحنة بمياه بردى المتدفقة والغزيرة.

كانت هناك مغارة على حافة تلة تطلّ على وادي بردى الذي تغمره عدة فروع من مياه النهر الغزيرة. كان والدي يفرش الحصير على أرض تلك المغارة ويخرج الأطعمة التي

رفدتنا بها والدتي فنتناول بعض الطعام ثم ندور ما حولنا فنلتقي بعض فلاحي المنطقة فيسلم عليهم والدي ويطلب منهم من بعض ثمارهم الطازجة. بعد استراحة كانت تزيل عنا كل تعب ووهن كان والدي يخرج أعداداً من مجلة «الرسالة» المصرية ويبدأ بمطالعتها قارئا مقالاتها بصوت عالٍ ومموسَق. كنت أُصغي إليه وكان أيضا يشرح لي معاني الكلمات التي صعبت عليّ ويشجعني أن أحفظها وأتذكرها. كانت بينها مقالات لـ«أحمد حسن الزيات» و«طه حسين» و«مصطفى صادق الرافعي» وغيرهم.

بعض القصائد التي كان والدي يقرأها بتنغيم موسيقي جميل، بل وكان يلتفت إليّ مشيراً لي أن أرافقه ذلك الأداء المسرحي وكنا نسعد سعادة كبيرة بذلك- وكنت أشعر بالزهو أنني أشارك والدي في نصوص لم تكن في كثير من الأحوال واضحة المعنى وسهلة الفهم بالنسبة لي... كنا نعود مساء إلى بيتنا في الشاغور «نزلة حمام القاضي» سعيدين رغم التعب الذي كنت أشعر به خلال ساعات المسير من «الجديدة» إلى «الشاغور».

كنت في اليوم التالي: السبت، وعندما أذهب إلى المدرسة الابتدائية «مدرسة الملك الظاهر» أروي لرفاق صفي كيف أمضيت النهار مع والدي وكيف سرنا، «ذهاباً وإياباً» إلى جديدة الوادي وكيف قرأت مع والدي الشعر والنثر البالغي الجمال والبالغي الصعوبة.. وأتفاخر بأن ما يمرّ بي كل يوم جمعة لم يحدث معهم أبداً.. من ضمن أسباب تفاخري أيضاً كانت أنني عندما أذهب إلى والدي في مكان عمله كان ينهض ويسلّم عليّ مادّا يده لكي أصافحه كما يصافح الرجلُ الرجلَ، وكانت العادة السائدة في مجتمع تلك الأيام أن على الأولاد أن يقبّلوا يد والدهم كل صباح وكل مساء وفي كل مناسبة.

رويداً رويداً بدأت عادة القراءة تتقمّصني وصرت أفتش عن كتاب أقرأ فيه لوحدي. كان شارع «المسكية» أمام مدخل الجامع الأموي يمتلئ بالمكتبات التي تبيع الكتب، ولم يكن في مِكنتي المادية حينها أن أشتري مثل تلك الكتب فكان الحلّ الوحيد هو مكتبة أو مكتبتان تعير الكتب ليقرأها الإنسان ثم ليعيدها إلى صاحب المكتبة لقاء أجر بسيط لا يزيد على بضعة قروش سورية... أذكر أني ابتدأت بقراءة روايات «أرسين لوبين» ثم بعدها انتقلت إلى قراءة روايات مترجمة عن الفرنسية في معظم الحالات. أذكر أنَّ أوَّل واحدة منها كانت رواية «بول وفيرجيني» لكاتب فرنسي. لما

قرأتها وكانت نهايتها مأساوية تأثرت كثيراً بها وبأحداثها بل وسالت دموعي ولم أردّها إلى صاحب المكتبة قبل أن أعدتُ قراءتها مرة ثانية. هكذا وبالتدريج صارت القراءة حاجة ثابتة وحيوية لـي، أنا الشاب الذي كان في نهايـة مدرسته الابتدائية وبعدها فـي أول سنة له في مدرسـة «الحلبوني». في تلـك الفترة بالضبط بـدأت أهتم بل وأحب اللغة الفرنسية التي كنا نتعلمها منذ السنة الثانية في المدرسة الابتدائية حتى صرت أستعير بعضـ الروايات بالفرنسية لأقرأها وأسعدَ بعوالمها السحرية.

في مدرسة الحلبونـي كان أستاذ اللغة الفرنسيـة يعطينا مواضيـع إنشاء لنكتبها وكنـت أسعدُ بها وأحـاول أن أعبّر عن كل مـا بنفسي في تلك الوظائف وكان الأستاذ يهنئنـي لفوزي بالعلامـة التامة في بعض منهـا. في يوم من الأيـام دخل على صفنا مدير المدرسة الأستاذ «جمال الفرا» وكان طويـل القامة مهيب الطلعة صارم النظرة. وقفنـا كلنا باحترام ووجـل إذ لم يكن من عادتـه أن يدخل إلى أي صـف بل ولا أن يخرج من مكتبه. جلس على المنبر العالي ونظر إلينا نظرة تفحّصـ وشدّة ثم صاح: من منكم صادق فرعون؟ نهضت فوراً وأنا أرتجـف خوفاً وقلقا. أشار إلـيّ أن أخرج وأقفَ أمـام المنبر ففعلـت وأنا أرتجف. كانت بيده رزمة من دفاتر العلامات. أخرج واحدة منهـا وفتحها ثم قـرأ بعضاً منها قائلاً: «يا أولاد. ليس من المعيب ألا يعرف أو يتقـن إنسان لغة أجنبية ولكن العيب كل العيـب أن يكون الطالـب مُقصراً في لغة قومـه». نظر إلـيّ شذراً ثـم تابع كلامه: «رفيقكـم حاز علـى علامة تامـة باللغة الفرنسيـة! أما باللغة العربية فكانت فقط ١٠/٢٠! أعاد النظر إليّ بصرامة وغضبٍ ثـم أعطـى الدفاتر لكي يوزعهـا الأستاذ علينـا. شعرت بحزن عميـق وبخجل قوي وأنا أسمع كلماته القاسية.

وفي المساء لما وصل والدي إلى البيت رويت له ما حدث فما كان منه إلا أن خفف عني قائلاً: لنعد إلى مجلة «الرسالة» وهكذا صار يأتي مبكـراً كل مساء لنجلس بجانب البحرة ونقرأ سوية تلـك المقالات الرائعة لعمالقـة الأدب العربـي الحديـث، وكنت أتأثـر بشكل خاصـ بكتابـات «الرافعي». صار والدي يراجع معي كل وظائف الإنشاء العربـي ونتساعد في تصحيـح بعضٍ من ثغراتها قبل تقديمها إلى الأستاذ. بالمناسبة كنت في تلـك الحقبة الزمنيـة أحب اللغة الفرنسيـة أكثر مـن العربيـة، وأذكر أنني بـدأت أزور المكتبـة العموميـة «ليبريري

أونيفرسيـــل» مقابل سينما الأهرام وأشتري بعضـــ الكتب الفرنسية من روايات ودواوين شعر. بالمناسبـــة أيضاً أقول أن والدي كان يرفضـــ أن يقرأ أية كلمـــة أو أن ينطق بأي نص باللغة الفرنسية رغم معرفته لها لأنها لغـــة الغاصب الفرنسي المحتلّ للوطن. كان «سوريا قوميـــا» وكان يُسجن ما بين الحين والآخـــر، مع رفـــاق له حزبييـــن، في سجن الرمل في بيروت أو في سجن «الميه وميه» جنوب صيدا...

لما حزت على الشهادة المتوسطة وانتقلت إلى مدرســـة «التجهيز الأولـــى» كان أستاذ اللغة العربية الأستـــاذ «أمجد الطرابلسي» وكان إنساناً بالغ الأناقة في الملبس وكذلك في الكلام والنطق وفـــي إلقاء الشعر وكان قادماً حديثاً من فرنســـا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بقليـــل. بثّ فينا حبّ اللغة العربية والشعر العربي وكنّا نتبارى ونتسابق من منّا يحصل على أعلى علامة في وظيفة الإنشاء العربي. كنت أنا وزميلاً صديقاً لي، هو الأستاذ المرحوم عمر الفرا، المحامي، نتبـــارى فيمن يكون منّـــا الأول. في إحدى الوظائف طلب منّا الأستاذ أمجد أن نصوغ له قصيدة «الحطيئة» الشهيرة نثراً:

«وطاوي ثلاثٍ عاصب البطن مُرمِلِ

ببيداء لم يعرف بها ساكنٌ رسما».

حاز عمر العلامة التامـــة الأولى وأنا حـــزت العلامـــة الثانيـــة وكان السبب أن «عمـــر» اختار أن يقـــدم القصيدة كحوار مسرحي يتبادل فيه الكلامَ كل من الشاعر وزوجـــه وأولاده وهـــو مـــا جعـــل أستاذنا المحبـــوب يفضـــل هـــذا الشـــكل الأدبي لطرافتـــه. منذ تلك الأيـــام، قُبيل الحرب العالمية الثانيـــة وأثناءها وبعدها، صارت القراءة والمطالعة عادة ثابتة وجزءاً هاماً مـــن حياتي يسيـــر مع الدراســـة ويستمر ويملأ كل وقتي في العطلات الصيفية. لم تقتصر قراءاتي علـــى الروايات فقط بل على كل أشكال المعرفة.

أذكـــر جيداً لمـــا استقلـــت سورية في نهايـــة الحـــرب العالميـــة الثانيـــة تنادى الطـــلاب، لاسيما طـــلاب التجهيز الأولى إلى الاجتماع في ساحـــة المرجة حاملين معهم كل كتبهم باللغـــة الفرنسية لحرقها في الساحة تعبيراً عن رفضهم التام لفترة الاحتلال. بـــادر كل الطلاب إلى جمع كل كتبهـــم معهم وسارعوا إلـــيّ قائلين: لديكَ الكثيـــر من الكتـــب الفرنسية فبـــادر إلى جلبها كلهـــا إلى المحرقـــة! رفضتُ ذلك بإباء وحزم لأنني أحبها وأكن لها كل تقدير ولأنها لا علاقة لها بالانتداب! احتقن الجو وساد غضب ما بين رفاق صفي

فهدأتهم وقلت: سآتي ببعض الكتب لا كلها. ألا يكفي ذلك؟ فقبلوا. كان يسكن في البيت القريب منَّا ضابط فرنسي هرب إلى فرنسا بعد الاستقلال وكنت عندما أزور أولئك الجيران أمتع نظري بالعديد من الكتب الفرنسية الرائعة وكذلك ببعض الروايات البوليسية التي تركها حين سفره. ذهبت إليهم ورجوتهم أن يعطوني بعض تلك الروايات البوليسية ففعلوا. ذهبت بها مع رفاقي إلى ساحة المرجة وبدؤوا يرمون أثمن الكتب، وكان من بينها العديد من نسخ قواميس «لاروس» الثمينة، في النار. رفعت يدي ورميت تلك الروايات الواحدة تلوَ الأخرى كي أشارك رفاقي رغبتهم وإن كنت لا أشاركهم الرأي كيلا أشذّ عن رأي القبيلة.. أو كما قال الشاعر العربي:

«وما أنا إلا من غزيّة إن غوتْ

غويتُ وإن ترشُدْ غزيةُ أرشدِ»

بعد الاستقلال بدأت اللغة الفرنسية تتراجع أمام هجوم اللغة الإنكليزية التي صارت لغة العالم الأولى وهكذا فبعد مثابرتي على الدراسة باللغتين العربية والفرنسية صرت، وبالتدريج، أتدرب على المطالعة باللغة الإنكليزية وأتابع دراستي بها كلغة ثانية بعدما تقهقرت الفرنسية إلى المرتبة الثالثة. كنت أدرس الطب باللغتين العربية، وهي اللغة الرسمية في الجامعة، والفرنسية التي كانت اللغة الثانية، لغة المراجع. بعد سنتين من دراسة الطب تحولّتُ إلى اللغة الإنكليزية كمرجع علمي والتي أخذت مكان الفرنسية. كنت أتابع مطالعتي لمختلف الأنواع من الكتب وباللغات الثلاثة ما بين فترات دراستي الطبية وكنت أحبّ، يوم الفحص، أن يرافقني كتابٌ من تلك الكتب الأدبية لتمضية الوقت بانتظار موعد الدخول إلى غرفة الفحص بينما كان زملائي يحملون معهم كتب الطب الثقيلة ويقرؤون فيها بنهم وقلق باديين وحتى آخر لحظة قُبيل دخول قاعة الفحص وكانوا يستغربون بل ويستهجنون حملي لكتاب غير طبي قبل الفحص. قرأت لعدد كبير من الكتاب والشعراء الروس والألمان والفرنسيين والإنكليز والإسبان والأمريكيين واشتملت قراءاتي على كل أنواع الفكر من تاريخ وعلم نفس وعلم اجتماع إلخ..

إلى جانب القراءة دخلتُ عالم الموسيقى فتعلمت العزف على الكمان، بادئا بالموسيقى الشرقية التقليدية ثم منتقلا إلى عالم الموسيقى الكلاسيكية العالمية وشتان ما بين هذين العالمين. أرجو ألا يُساء فهم هذا السرد لجوانب من حياتي فالغاية منها

ليست أبــداً التفاخــر أو الاعتزاز، بل هي التأكيد علــى أهمية القراءة والمطالعة في حياة الإنسان، كل إنسان بالتأكيد ومن دون أي استثناء، لأن القراءة والمطالعة تفتحان آفاق الفكــر الإنسانــي وتوسعانها وبذلك تجعلان مجال التفاهم والتقارب بين البشر أمراً ممكنا. أمَّــا التقوقع في مجال واحد من المعرفة كما هــو الحال مع الكثير من المتعلمين، سواء أكانــوا أطباء أو محامين أو مهندسين أو موظفيــن أو رجال أعمال، إذ غالبــا مــا يظن معظمهــم أو كلهم أنهم مثقفون وواسعو آفاق المعرفة، بينما يظهر في الحقيقة والواقع أنهــم يجهلون الكثير الكثيــر في معظــم مسالك الحيــاة، هذه، بل ويصل الأمر بهــم أن يعتقدوا أنهم على درجة عالية من المعرفة حتى إنهم يوقنون بأنهم هــم دوما على صــواب وأن غيرهم علــى خطــأ ودون أي نقاش. قــد يشكك البعضــ في مثل هذه الأفكار والآراء وربما أن لبعضهــم الحق في ذلك، إذ إنَّ المعرفة والتعلم أمور لا حــدود لها ولا نهاية لها... إنَّها عالــم فسيح وسيع ولا حدود ولا نهاية لــه.. ولهذا فــإن البعض عندمــا يدخلون هــذه العوالم يصلون إلى قناعة، في معظم أحوالهــا، ثابتة وقوية أنهم بلغوا ذروة العلم والمعرفة وهــم في الواقع جهلةٌ لا يعرفون شيئــا بل ولا يدرون أنهــم جاهلون أيضاً.. أمــا القِلّة مــن البشر فهــم الذين يمضون معظم أُوقات حياتهــم في التعلم والدراسة والتفقّه والتفكير والمحاكمــة والمناقشة، وهم ومهما بلغت درجات معارفهم من العلو والرفعة يؤمنون بأنهم ما زالوا لا يعرفون كل شــيء وأن بعد كل معرفة معرفةٍ جديدة قد تتباين مــع سابقاتها.. أي إنَّ الإنسان يتعلّم ويستمرّ بالتعلم حتى آخر لحظة من حياته وإنه كلما توسعت آفاق معرفته وتفكيره فإنه يصيــر أقرب وأقرب مــن معرفة الحقيقة دون أن يبلغها. أعطي مثلاً في مهنة الطب يدرســ تلاميذ الطب كلَّ مــا عُرف سابقا وحالياً فــي عالم الطب ولكنهــم، أو ولكن معظمهــم، وبعــد تخرجهــم يتوقفون عن متابعة المطالعة والدراسة لكي يسايروا كل جديد في هذا العالم الواسع، وهو ما يؤدي إلى تراجع معارفهــم تدريجيا حتى يصلوا إلى مرحلة مــن التخلف المعرفي، وهو ما ينعكس سلبا عليهــم وعلى مرضاهم وعلى المجتمع ككل.

لا أريــد الإطالة ولكــن لأذكر مثلاً عن ندرة المطالعة والقراءة في بلادنا؟

بعد عودتي مــن الاختصاص في أوائل ستينيــات القرن الماضــي زرتُ صديقاً لي في إحــدى الــوزارات (الخارجية) وعجبت

أن فـي الـوزارة مكتبة عامـرة من مختلف الكتب. رجوت صديقي أن يسمح لي بزيارتها والاطلاع على ما فيها من كنوز معرفية. كان فيهـا عدد كبير من الكتـب التي تبحث في التاريـخ الحديث باللغـات الأجنبية فبدأت أتصفح بعضها وإذ بي أعثر على كتاب باللغة الفرنسية مؤلفـه الصهيوني «موشي دايان» عن «حملـة ١٩٥٦» أي حرب قناة السويس. فوجئـت أنـه، مثـل كل الكتـب الفرنسية الورقية، كانت ملازمـه مازالت مُغلقة غير مفتوحة ممـا يدل على أنه لـم يسبق، لأي أحـد في تلك الوزارة، أن قرأها ولو أنه فعل لكان فتـح أطراف الصفحـات المتلاصقة بالسكين. رجوتـه أن يعيرنيه فاعتذر خيفة المسؤولية. شجعته قائلاً يبدو لي أن لا أحد في كل هذه الوزارة يزور المكتبة أو يفكر في أن يستعيـر كتابا منها.. ففعل وهكذا قرأت كتاب «موشي دايان» الذي قاد حرب السويس وكنـت الأوَّل في قراءته ولا أظـن أنَّ أحداً ومنذ ذلك الحين (١٩٦٣-١٩٦٤) قد قرأه.

أرجـو وآمـل ألا يسـيء أي إنسان فهم غايتي من رواية هذه الحادثة، البسيطة في ظاهرها ولكنها العميقة في مغزاها وهي أنَّ القراءة والمطالعة معدومة أو شبه معدومة في بلادنا. بالمناسبة روى «دايان» في كتابه أنه وجنـوده الصهاينة كانـوا يتقدمون في شبه جزيرة سيناء وباتجـاه الجنوب، مشياً علـى الأقـدام وكان يسيـر بجانبهم، ولكن فـي الاتجاه المعاكس، الجنـود المصريون المهزومون حاملين معهم أسلحتهم الفردية. كان مرافقـوه قلقين مـن احتمال أن يعرف أي من الجنـود المصريين أن قائد الجيش الإسرائيلـي هو من يسيـر مع جنده! ولكنه طمأنهـم وأكد لهم أن المصريين (أو العرب عمومـا) لا يفكرون ولا يستخدمون عقولهم في كل مجالات حياتهم! قد يكون في كلماته الكثير من الصلف والتعالي ولكنها، بالتأكيد، تحوي بعضا من الحقيقة إن لم يكن كلها.

لم أنسَ ولن أنسى كتاب «دايان» الذي نام ورقد قرابة ثماني سنوات دون أن يلمسه أحد أو يتصفحه أحد حتـى جاء إنسان فضولي ففضّ صفحاتـه واطّلع عما فيه من حقائق مؤلمة ومخزية. هل هناك مبالغة أو تحامل إن قلنا أو فكرنا «أننـا أمة لا تقرأ» أو على الأقل «أننا أمة معظم أفرادها لا يقرؤون»؟

أول خطـوة للوصول إلـى تقدم حقيقي وأكيـد هـو الاعتـراف بالواقـع الأليـم والمظلـم فهـي الخطـوة الأولـى لمسيرة التقـدم والتطور... أذكر، بالمناسبة، أن من الضروري للإنسان المفكّر والمتعلّم أن يقرأ كل شـيء، أي أن يقرأ مـن كل الاتجاهات الفكريـة سواء منها الصـادرة عن الأحباب

أو تلك التي يكتبهـا ويزوقها الأغراب ومن نختلف معهم في الفكر والرأي مع الاحتفاظ بحرية تفكيرنا وتقويمنا لها.

تـراود فكري عـدة قصصـ وأحداث مماثلة كنت أود أن أروي بعضها ولكن خيفةً من سوء التفسير أكتفي بهذه.

أود أن أشير إلى ظاهرة حديثة ساهمت في نشـر ضحالة الجيـل الجديد وجهالته وابتعـاده عن عالم القـراءة والمطالعة هو ظهـور وانتشـار كل مظاهـر هـذا العالم الجديد، عالم الحاسوب وشبكات الاتصال الإلكترونـي... ما فعَلَته هو ضرب وتحطيم وإزالة عالم القـراءة والمعرفة إلى أشد ما عرفه التاريخ البشري حتى يومنا.

صـار كل الناس، شباباً وشيبـاً، نساءً ورجـالاً ووو، يُمضـون معظـم وقتهـم ملتصقيـن بقرب تلك الأجهـزة الصغيرة اللماعـة السطوح والتـي تلهي كل الناس، خصوصـاً في بلدان العالـم الثالث، حتى إنَّهـم يهملون أعمالهـم اليومية وحياتهم أكثر من أي وقـت مضى، وهم يستمتعون ويلهون بهـذه الأجهـزة الجذابة والتي لا تبقـي لهم وقتا لا لعمـل ولا لمطالعة ولا لأي جهـد مفيد... أذكّر أيـاً ممن يُشكّك بكلماتي هذه بظاهـرة إغلاق العديد من مكتباتنـا في دمشق وبيع كل ما تحويه من كتب بأبخس وأتفه الأثمان لكي يعرضه بعض الباعة على الأرصفة ولا يلقون من يشتري بضاعتهـم بأبخـس الأثمان... مـا أزال أذكر بكل الحب مكتبة اليقظة (بابيروس) للأخوين «حمدان» فـي أربعينيات القرن الماضي وكانت بقرب التجهيز الأولى. كنَّا، نحن الطلابَ القرّائين، نزورها كل يوم أو في بعض الأيـام وكان الأخوان «حمدان» يرحبان بنا ويساعدانا على اقتناء ما نحب من الكتب، بل ويمهلانا في دفع أثمانها على دفعات، وأذكر واحداً من أوائل الكتب التي اشتريتهـا وأعجبت بها أيما إعجاب كتاب عـن «الأساطير الإغريقية» لدريني خشبة وكنت أستمتـع بقراءتها المرة تلو الأخرى وأعجب بعالمها السحري الخيالي.

لم أستطع أن أقاوم رغبتي في تذكر «موت» مكتبة ثانية مـن هذه المكتبات (والحبـل على الجـرار). كانت تقع في شـارع جانبـي قريب مـن عيادتي في الصالحية والتـي أذهب إليها كل صباح بهمـة وحماسـ. افتتحت قبـل قرابة اثنتـي عشرة سنة (دار إيزيس). سرعان ما دخلتها فإغـراء القراءة أقوى من أن يقاوم. كنت عندما أقـرأ كتاباً ما أكتب عنه خلاصـة وغالبا مـا أحتفظ بهذه الخلاصـة فـي ذهني وأحـاول ولوقت

طويل أن أناقش فحوى ذلك الكتاب لأخلص إلى نتيجة هل كان الكاتب موضوعياً فيما كتب أم كان متحيزاً في أفكاره إلى جانب ما أو لآخر.

تأملت ما في واجهة المكتبة من كتب منتقاة بعناية كبيرة، منها القديم المغرق في القدم والتي تعود مواضيعها إلى أساطير بلاد الرافدين أو إلى اليونان وأساطيرها الإغريقية المثيرة ومنها الحديثة مثل روايات (فرانز كافكا) أو «أندريه جيد» أو أشعار «ريلكه» أو «هلدرلين» أو «فيكتور هوغو» وغيرهم. تصفحت بعض الكتب فإذا بواحد يتحدث عن (المندائيين) أو من عرفوا بالصابئة، كذلك رأيت كتباً لطه حسين وتوفيق الحكيم اللذين تعرفت على آدابهما منذ صباي، كذلك كتباً لإدوارد سعيد وعبد الرحمن منيف ومحمد الماغوط وكارل بوبر.. بعدها صارت عادتي أن أزور تلك المكتبة بين الحين والآخر وأقتني بعضاً من أمتع وأروع كتابات هؤلاء المعاصرين. مضت سنة أو سنتان وأنا أسرّ بزياراتي إلى تلك المكتبة الجارة التي تتميز في اختيارها لأفضل ما نشر من أدب وفكر وتاريخ. لاحظت ندرة زوار تلك المكتبة وقلّة مبيعاتها ولكن لم يداخلني أي خوف عليها بل شعرت بالاعتزاز أنها وعلى الرغم من صغرها تتميز عن كل الدكاكين من حولها والتي تعجّ بالأطعمة والحلويات والمأكولات اللذيذة.

ثم أتى صباح مررت فيه لأنظر ما في واجهة المكتبة من كتب جديدة فإذا بي أفاجأ بها مغلقة ورفوفها فارغة. وقفت جامداً وشاعراً بعظم ذلك الفقد وتلك المصيبة. إنه الموت الذي عالج تلك المكتبة الصغيرة العزيزة على القلب. ساورتني الشكوك في البدء أنه ربما إفراغ مؤقت لرفوفها بقصد التغيير والتجديد ولكن ومع مرور الأيام تأكد لي أن المكتبة قد ماتت، وأن موتها نتج عن نقص تغذيتها بقلّة روادها والشارين منها. نظرت إلى الدكاكين المجاورة لها وتأملت في وجوه أصحابها لأرى هل بدا عليهم أي حزن أو ألم لهذا الفقد ولكن لم أجد أيّاً من تلك المظاهر والمشاعر وسرعان من أتى وافتتح فيها دكاناً للأطعمة والحاجات المنزلية اليومية. حزنت وتساءلت هل يا ترى سيأتي يوم تفتتح فيه بعض المكتبات الجديدة المثيلة لها؟ أو وربما للكبيرة منها مثل تلك «المكتبة العمومية» مقابل سينما الأهرام والتي كنت أسعد بزيارتها واقتناء أوائل الكتب الفرنسية التي اقتنيتها وأنا طالب في ثانوية التجهيز الأولى في

أربعينيات القـــرن الماضي وكان من أوائلها ديوان «فيكتور هوغــو» ذي الأجزاء الثلاثة و«أقاصيص طاحونتـــي» «لألفونس دوديه» وغيرها من أشهر النتـــاج الأدبي والشعري للغـــرب. لكن ما حـــدث هو تتالـــي اختفاء العديد من مكتباتنا والخوف والقلق على ما بقـــي منها يستجدي الناســـ، أو على الأقل مـــن يعتقدون بأنهـــم من مثقفـــي البلد أن يبادروا إلى انعاشهـــا وتشجيعها باقتناء ما فيها من كنوز الفكـــر الإنساني، القديم منه والحديث... ولكـــن الأمل ضعيف ويتضاءل مع مرور الأيام. أليس لهذه الظاهرة المحزنة مغزى ودلالة كبيرة ووخيمة؟ وهل هناك من منقِـــذ؟ أكتفي بسرد هذه الأحداث الحزينة رغم أن في ذاكرتي العديد من أمثالها.

أكتفي بالقول في الختام ولعل المقصد مـــن ذلك هـــو إضفاء مسحة مـــن الفكاهة والمرح على ما يدور فـــي ذهني في أيامي هـــذه. في إحـــدى المرات بـــادرت بالقول لرفيقـــة حياتي: «عندما أموت وحين لحظة مواراتي فـــي قبرٍ من هذه الكتب التي تملأ رفـــوف مكتبي العزيـــزة... فلعلني أستيقظ فأجـــد بقربـــي كتابـــاً أقرأ فيه فـــلا أشعر بالوحدة أو الملل!». نظـــرت إليّ شذراً ولم تُجِب.

الكتـــاب أثمن صديق في هـــذا العالم ولاسيما في الوقت الحالي الذي سادت فيه الحروب والاقتتـــالات والتدمير والتخريب لكل ما بناه الإنسان.

فـــي البدايـــة كانت القـــراءة وفي نهاية العالـــم ستبقى القراءة هـــي أثمن ما يملكه الإنسان.

اِقرأ. اِقرأ. ما أنا بقارئ. اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق...

كنت يوماً بأرض الشآم

❀
ساجدة الموسوي

(١)



على جسر الجمهورية ببغداد

نيسان/ ٢٠٠٢م:

كان بي هاجس منذ الصباح الباكر أن أزور أمي، وما أن أنهيت عملي الوظيفي في المجلس الوطني حتى ركبت سيارتي متجهة إلى منطقة بغداد الجديدة حيث يسكن أهلي منذ أربعين عاماً في الدار ذاتها وما زالت بغداد الجديدة تسمى جديدة...!

❀ أديبة وشاعرة عراقية مقيمة في الإمارات العربية المتحدة.

كان علي أن أعبر من جهة الكرخ حيث مقر عملي إلى جهة الرصافة، وأقرب الجسور كان جسر الجمهورية، وفيما أنا على الجسر مرقت سيارة مارسيدس سوداء صارت أمامي، جذبني رقمها الذي جاورته كلمة (حلب)، وكمن يكذب عينه أعدت النظر، إنها حلب (حاء لام باء) شيء في داخلي اصطخب، وأخذتني رعشةٌ هزت كياني...(حلب في بغداد) يعني أناس من أهلنا في حلب هنا في بغداد، كان السائق مسرعاً فاختفت السيارة وضاق علي الطريق لمجاراتها، التفت يميني نظرت إلى نهر دجلة الخالد العظيم أبشره وقد تهادت النوارس على كفيه تروي ظمأها في نهار نيساني مشرق، قلت لدجلة: افرح يا أعذب الأنهار، ها هي الحدود بيننا وبين الشام قد زالت وهاهم أهلنا السوريون دخلوا بسياراتهم وسيشربون من مائك العذب، ستزول تلك الغيوم، وبعد القطيعة الطويلة، سيحل الوئام، آه يا شام، لقد تاه علي الطريق إلى أمي، فتحت المذياع، أغنية لسعدون جابر وما هي إلّا.. وتسح الدموع

(حلب في بغداد..) سأبشر أمي، وستفرح مثلي فقد كانت مثلي -رحمها الله- تحب الشآم.

(٢)

دمشق شباط ٢٠٠٣م

شاءت ظروف سفرنا كوفد ثقافي متجه إلى السودان أن نمر بدمشق ونقضي يومين لحين موعد الطائرة التي تقلنا إلى الخرطوم، هذه المرة الثانية في حياتي التي أزور فيها دمشق، فقد زرتها في نهاية السبعينات ضمن وفد نقابي للمشاركة في دورة ثقافية لمدة أسبوع كانت مكثفة فلم نتجول ولم أتعرف خلالها على دمشق جيداً ولا أذكر سوى مسرحية «كأسك يا وطن» التي أبدع فيها الفنان الكبير دريد لحام.

في هذا المرور العابر التقينا ببعض المثقفين السوريين الذين احتفوا بوجودنا بينهم وأقاموا الدعوات لأجلنا، وذات مساء، وهذا لن أنساه ما حييت صعدوا بنا إلى جبل قاسيون لنرى دمشق وقد تزركشت بالنجوم وتلألأت «كأنها عروس من الزنج عليها قلائد من جمان» على حد تعبير المعري -رحمه الله-. لأوَّل مرة تسحرني رؤية النجوم على الأرض، ذكرني المنظر العجيب بطفولتي حين كنّا في بغداد ننام على السطوح في الصيف وأنظر إلى السماء وهي مرصعة بالنجوم

فأحلـم أن أصعد لألعـب مع تلك النجوم وأسبح فـي الفضاء. قطع لـي تأملاتي د.عبـد الله أبو هيف وقـد رآني ممعنة فـي الشرود عنهم ليقـول لي كيف رأيت المنظر؟ قلت:

ليلتي هذه عروس من الزنج.. عليها قلائد من جمان.

(٣)

دمشق أواخر أيار ٢٠٠٣

في الأسبـوع الأوّل لوجودي في دمشق بعـد احتلال العـراق زرت اتحـاد الكتّاب العرب والتقيت د.علـي عقلة عرسان، كان عنـده الشاعـر عبد الرزاق عبـد الواحد، وكان بـكاءً بلا دموع، كما ذهبت إلى وزارة الثقافة قلت أسلـم على أخي مدير الثقافة د.عبد الله أبو هيـف وما إن دخلت غرفته حتـى وقف مرحباً وعلى وجهه قرأت وجعه على ما حصل للعـراق، أشار لي نحو سيدة في مكتبه هي الأخرى وقفت مرحبةً قائلاً: «هذه الكاتبة منيرة حيدر».

كانـت أوّل سيدة وأديبة سورية تشرفت بمعرفتهـا، لم نفترق طيلة السنوات الأربع التـي قضيتها فـي دمشق، منيـرة حيدر الكاتبـة المهذبة والسورية المحبة لوطنها والقوميـة المتجـذرة فـي حبهـا لأمتها العربيـة، والإنسانة المرهفـة التي تحنو على طفل لا تعرفه وتضحك لموقف عارض والدمعة ماتزال في عينها.

حيـن غادرت دمشق كتبـت لها قصيدة الوداع نشرتهـا جريدة الأسبوع الأدبي التي يصدرهـا اتحاد الكتاب العرب، اتصلت بي وأنـا في طرابلس الغـرب وكانت على غير عادتها من التشكي والألم على غيابي عنها، هذه المـرة قالت وهي تضحك (تصوري يا ساجدة ما ذا فعلت قصيدة وداعك لي، لقد تعبـت من كثرة المتصليـن والسائلين عني لأنهـم ظنوا أنها قصيدة رثاء وأنني لا سمح الله قد مت...، نعـم كأنها كانت رثاء حيث لـم ألتقِ بمنيرة حيـدر بعدها بعدما غيبها حادث مروري طائش.

(٤)

زهرات من حقول الذكرى

السنوات الأربع التي ترافقنا خلالها أنا والأديبة الغالية منيـرة حيدر كانت مفعمة بالنشـاط والتجارب والألم والدموع وكذلك الأمل والإرادة والصمود...

ولـولا ظهور منيـرة في تلـك المرحلة الصعبة والقاسية من حياتي لما وقفت على طولي كشمعة نذر تحترق لتضيء، نعم، كأن الله تعالـى بعث لي هـذه الإنسانة المثقفة التي تشبهني فـي الكثير من الأشياء، بعثها

لتخفف عني معاناتي على ما حصل لوطني الحبيب، ولتكون عزائي في غربتي، ودليلي في وطني الثاني سورية، منيرة أمسكت بيدي فعشنا الحياة الثقافية بكل أبعادها في بلد جعل من الثقافة بيسر الماء والخبز والهواء.

كنّا نشد الرحال إلى المراكز الثقافية العديدة في المحافظات السورية حتى تعرفت على سورية أرضاً وبطاحاً وجبالاً وناساً وحضارةً وتاريخاً مجيداً، أحيينا أنا وإياها خلال السنوات الأربع ما يربو على مئة أمسية ثقافية وثقتها في الصفحات الأخيرة من ديواني (ويبقى العراق).

- ذات صباح تشريني دعتني منيرة إلى شرب فنجان قهوة عندها في بيتها في المزة، وصلت وكنت أكاد أختنق من الألم، أحست بما أعانيه فقالت تعالي نخرج لتناول فطور الصباح في الهواء الطلق، أخذتني إلى إحدى الحدائق ما إن وصلنا حتى بدأت السماء تدر مطراً خفيفاً، فتحت المطرية التي كنت أحملها دائماً في شتاء دمشق لتحمينا من البلل، ومشينا والمطر يزداد شيئاً فشيئاً، قالت ذلك المطعم أعرفه من أحسن المطاعم تعالي نفطر هناك، لذنا بطارمة المطعم ثم دخلنا فإذا بالمطعم خالٍ وفيه عمال يجرون بعض الترميمات، قلت لها لنرجع، أصرت بأن لا نرجع وقادتني إلى مطعم ثانٍ فقالوا لنا انتهى وقت الإفطار انتظروا للغداء! قلت لها لنرجع أصرت أن نفطر، وصلنا أطراف حديقة تشرين ودخلنا وكان المطر قد خف إلا بعض الرذاذ، قالت في هذا الجانب أكشاك تعمل فطوراً ولا يوجد أطيب منه، وقفنا عند أول كشك، رحب بنا شاب دمث قالت له منيرة: «نريد أن نجلس في الحديقة حضّر الكراسي».

ضحك وقال: عندي لكم أجمل مكان، ما رأيكم بهذه السقيفة الخضراء إلى جنب الكشك؟ تطلعنا فرأينا مكاناً يشبه عش البلابل وعليه سقف مما تشابك من أغصان الشجر، منضدة وكرسيان بلاستك وشيئاً فشيئاً بدأت الشمس الدمشقية تسفر عن وجهها البهي، انتظمت مائدة الإفطار عن خبز حار وجبن وزيتون ومربى الفراولة وشاي وحليب وصفائح حتى شعرنا أن الدنيا قد تكورت لنا على شكل جنينة صغيرة جانب ذلك الكشك الصغير.

- ليس كل ما يلمع ذهباً، كان هذا المثل الجميل عنواناً لمقالة كتبتها الأديبة منيرة حيدر ونشرتها في إحدى الصحف المحلية بعد موقف فنتازي بمعنى الكلمة عشناه معاً، وإليكم الحكاية: ذات صباح دمشقي ذهبنا إلى أحد معارض الكتب

التي تقيمهـا وزارة الثقافة وتحتوي على إصـدارات الـوزارة إضافـة إلـى الكتب المستـوردة من شتى أنحاء العالم. وخلال التجـوال وقع بصري على كتاب موسوعي ضخم بتجليـد مميز وإخـراج أنيق جداً والعنـوان هو (أجمل ماقيـل في المرأة)، فاقترحـت علـى منيـرة أن تشتريه لأنه جامـع لكل ما قيل عـن المرأة وهو مفيد لها للاستشهـادات في الأمور الاجتماعية التي تكتبها، وعلى الرغم من سعره العالي (باعتباره مستـورداً) اشترتـه، واشترينا مجموعة من الكتب الأخرى.

بعد المعرض عدنا إلى بيت منيرة وبدأنا ببهجة نقلب الكتـب، قلت لنقلب الموسوعة، قالت قلبيهـا بينما أعمل الشاي، وما هي إلا دقائق حتى صعقت مما قرأت، لم يبق الناشر وصفـاً سيّئاً إلا والتقطـه من عهد أفلاطون المعروف بعدائه للمرأة إلى عصرنا الحالي، هناك أشياء جيـدة لكن ما قيمة الحليب إذا سقطت عليه ذبابة؟ قلبت الكتاب كان صادراً عن إحدى دور النشر الأردنية، وكان أن كتبت عنه الأخت منيرة ذلك المقال الجميل (ليس كل ما يلمع ذهباً).

– ذات يـوم قالت لي منيـرة: «أريد أن تعلمينـي اللهجة العراقية فأنا أحبها»، قلت لهـا حسن سأسمعك بيتـاً للشعر بالعراقية الدارجـة فإذا حفظتيه يمكنك بسهولة تعلم اللهجة العراقية، قالت: هيا أسمعيني.

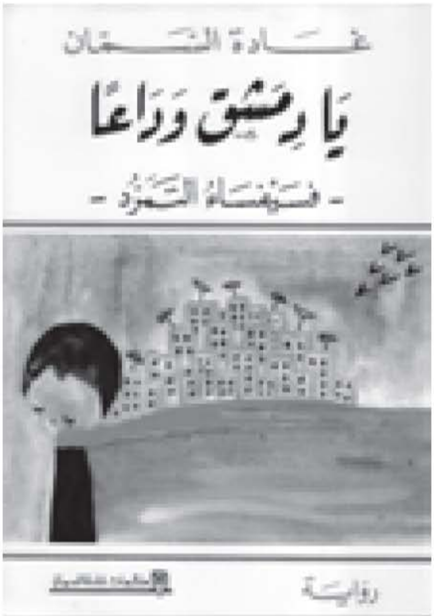
قلت (ليشـن انتِ هيجي ويـاي، ليش انتِ هيجي، جيف آني هيج وياج صرتِ انت هيجي؟) بمعنى (لماذا أنت هكذا معي لماذا أنت هكذا، ألأنني هكذا معكِ أصبحتِ أنت هكذا) والكلام بالطبع ملغز يفهمه القاصد للمعنى.

وظلت تردد هذا البيت وفي كل مرةٍ تفشل ونضحـك، وذات يوم اتصلت بي في ظهيرة صيـف لكي أمـر عليها ونذهـب إلى ندوة مساءً فاعتـذرت، وحاولت ثانيةً فاعتذرت، حتـى إذا ما يئست مـن إقناعي قالت بكل حرقـة وباللهجة العراقية (ليش أنت هيجي وياي ليش أنت هيجي؟ جيف آني هيج وياج صرتِ أنت هيجي) عنـد ذلك هنأتها، لقد نجحت... وضحكنا من القلب.

وكثيرة هـي ذكرياتي عن الشام الحبيبة وصديقتـي الغاليـة منيرة حيـدر –رحمها الله– لكن لا يتسع المقال ربما الأمر يحتاج كتاباً أتركه للمستقبل.

غادة السمان في روايتها السيرية تبحث عن أمها دمشق

د. ماجدة حمود ❀



شكلت دمشق محور رواية غادة السمان السيرية، التي ظهر الجزء الأَوَّل منها (١٩٩٧) وهي بعنوان «الرواية المستحيلة فسيفساء دمشقية» أمَّا الجزء الثاني فقد ظهر (٢٠١٥) بعنوان مؤثر «يا دمشق وداعاً: فسيفساء التمرد».

يلاحظ المتلقي منذ الكلمة الأولى في روايتها، أن مدينة دمشق مهبط روحها، قد احتلت أعماقها؛ لهذا شكلت جزءاً من البنية الجمالية للعنوان «...فسيفساء دمشقية» «يا دمشق وداعا...» مثلما شكلت مقولة التمرد لبنة أساسية لشخصية بطلتها (زين) التي

❀ ناقدة وكاتبة وأستاذة في قسم اللغة العربية- جامعة دمشق.

تتماهى مع صـوت المؤلفة، وبذلك عايشنا فضاء مكانياً مدهشاً تريّث فيه غادة السمان، فترك بصمته في روحها وحروفها.

بـدت دمشـق، حين جعلتهـا فضاء لروايتهـا، تعويضـا للكاتبـة عن مكان حُرمـت منه، إذ لـم تستطـع (بيروت) مدينة الحرية، التـي شُغفت بها البطلة (زيـن) ولا (باريـس) المدينة التي تقيم بها غادة السمـان أن تنسياها فردوسها المفقود، لهذا خصّت دمشق (في الجزء الثانـي) بهـذا الإهداء المؤثـر «**أهدي إلـى مدينتـي الأم دمشق...التي غادرتها ولـم تغادرنـي...**» إذ مازال الحنين إليها يقهرهـا، إلى درجة يبـدو فقد مدينتها معادلا لفقد أمها.

استطاعـت الكاتبة في روايتها بجزءيها أن تعيد للمتلقي روح دمشق في الخمسينيات حتى بداية الستينيات؛ مما أتاح له أن يتنقّل معها في أحيائها القديمة، خاصة تلك التي تقع خلف الجامع الأموي، مثلما استطاعت أن تنقله إلى أحيائها الجديدة، كما استطاع أن يصغي معها إلى الأغاني التي كانت تصدح في شوارعها، والأمثال الشعبية، التي تدور على ألسنة سكانها، حتى باتت هذه الرواية السيرية رسالة حنين إلى هذه المدينة، ليس فقط إلى أمكنتهـا ولغتها، بل إلى روائحها أيضا، إذ يشمّ المتلقي عبق ياسمينها، وقد تحوّل إلـى عطر البطلة (زيـن) المفضّل، ففي لحظة ضعف إثر عملية إجهاض، وقد أحسّت بالضعف والوحـدة، تضع قطرات منه على عنقها، فـ«**يقوّيها كأنه رائحة أرواح أجدادها**»(صـ٣٧) الذين جعلوا من دمشق «**مدينة سبقت الدنيا كلها إلى سجل المدن التاريخيـة المأهولـة باستمرار**»(ص١١٥) فهي من أقدم المـدن، التي مازالت تجمع العراقـة بالجمـال، وتجعـل التاريـخ ابناً للحاضر.

وقـد أبـرزت الكاتبة في الجـزء الأول عبـر مشاهد عدة عراقة البيت الشامي، إذ يعايش المتلقي تفاصيله الهندسية (الغرف، الإيـوان، أرض الديـار، البحـرة...) وقد عانقت الإنسان والنبات والحيوان.

يتسع حنين الكاتبـة للبيت حتى يصبح حنينا للوطـن، إذ من يهجر البيت الشامي، ينتابـه إحساس أنه هجـر أحب الناس إليه على حد قول جدة (زين).

يبـدو البيـت للمتلقـي إنسانـا يحس بساكنيـه، يشاركهم آلامهـم، فحين تموت (هند أم البطلة زين) «**نسمع صوت الفسقية الرخاميـة تبكي، الماء الـذي ينفجر فيها، يسيل على الجدران...أقواس الإيوان الثلاثة تبكي...**»(الرواية المستحيلة، ص٣٥)

تتيح لنا الكاتبة أن نعايش في هذا البيت تفاصيل جمالية مدهشة، إذ تجتمع فيها الطبيعة بأشجارها وزهورها وطيورها بالفن المعماري الإسلامي، الذي يعنى بالزخرفة النباتية الدقيقة، وبذلك تمتزج فيه الناحية الوظيفية بالجمالية.

إذن، ليس غريبا أن يمنح هذا البيت ساكنيه من البشر والحيوان الشعور بالأمن والفرح، حتى بدا مدهشاً حضور الأفعى السامة، التي تعيش في مطبخه منذ آلاف السنين؛ لهذا تسمى (الألفية) وكأن هذا الاسم مشتق من الألفة، فهي تألف الناس ويألفونها، حتى إنهم حين يرونها يخاطبونها بهدوء «سيري يا مباركة».

يتبدّىء هنا، الموروث الشعبي، وقد أضفت عليه مخيلة الكاتبة نوعاً من الأسطورة «**فإذا هاجم أحد البيت أو الشام تصير (الحية) سريعة الحركة وشرسة، تلسع الأعداء...**».

كما أحيت الكاتبة في الذهن عادات دمشقية تكاد تندثر اليوم (السيران، الذهاب إلى حمام السوق...) فأتاحت لنا التعرّف على مشاهد الطبيعة في دمشق، قبل أن تنتهك خضرتها، كما أرّخت الكاتبة لبداية الاعتداء على نهر بردى وتلوّثه بالسموم الكيماوية.

يسجل لغادة السمان أنها قدّمت البيت الشامي في إطاره الطبيعي (الحي) والحضاري، مما يتيح للمتلقي معايشة تلاحم سكانه، فيلمس بنفسه روحا أخوية تجمعهم، على الرغم من اختلاف انتمائهم الديني والجغرافي، فكأن الكاتبة تنبه المتلقي إلى ما يبني الحضارة، خاصة أنه يعاني اليوم من هجمة فكر طارئ على حياته ينفي الآخر، ويسعى إلى تدميره.

ويلاحظ في الجزء الثاني من الرواية أنّ التغيّر بدأ يعتري هذا البيت، لذلك حين ودّعته (زين) قبل رحيلها، لاحظت تشوّهه، إذ لم تجد فيه شيئا مما كانت تحبه «**الأحواض شبه ذاوية، لم يعد ثمة من يغازل الأزهار لتزدهر... أولاد العم والخالات والجيران والأصدقاء يتشاجرون...أنت شيوعي كافر...قومي سوري... برجوازي خائن**»(ص١٥٤) وبذلك تغيّر البيت بتغير ساكنيه، لم يعد موئلاً للحب الذي حُرم منه الجميع حتى النبات، وبات الخلاف الفكري مدعاة للصراع بين الأقارب والأصدقاء، لهذا لم تسمح الكاتبة لبطلتها بترك دمشق إلى بيروت، إلا بعد أن أصبحت أكثر شراسة، وأكثر تشوّها.

رغم ذلك يغلب الحنين الكاتبة، فتوحي لـ(زين) وهي تتأمل منظرها من أعالي قاسيون بصورة تنبض بحنان الأمومة ورقتها، فهي «**مثل أم تداعب طفلها الممدد أمامها**» وما يدهش المتلقي في هذه الصورة اجتماع الرقة بالعطاء وبالبراءة، وتحول دمشق إلى أم، تعوّض يتم الكاتبة، الذي عاشته منذ طفولتها، وقد صاحبها هذا الإحساس الجميل، على الرغم من مرور السنين، موحيا لها (بالأبدية) وبذلك يصبح الفضاء الدمشقي نقيضا للإنسان الزائل؛ فيتعلم المتلقي عبر هذه الإيحاءات قيمة المكان الأصيل، الذي يجسد روحا قوية، يلوذ بها المرء لحظة ضعفه.

تحضر دمشق بصفتها مدينة عظيمة قادرة على طرد هموم البطلة وتحويلها إلى (حبة رمل على شاطئها الشاسع) وتلح أمومة دمشق على مخيلة الكاتبة مرة أخرى، فنسمعها تقول: (**وتغمر الطمأنينة قلبي على الرغم من كل شيء**) ففي حضرة مدينة دمشق تتلاشى الهموم والمخاوف، مثلما تتلاشى في حضن الأم، لهذا تستطيع البطلة أن تواجه العالم كله بكل أثقال بؤسه.

وما يلفت نظر المتلقي أن الكاتبة حين أرادت أن تخبره عن حجمها إزاء عظمة مدينتها، اختارت أن تكون (حبة رمل) رغبةً في الذوبان في أرض وطنها، لكنها اختارت، في مشهد آخر، أن تكون صخرة من جبل قاسيون، يلهمها الشجاعة والقوة، كأن مخيلة الكاتبة لا تريد لروحها وحروفها أن تبرح الفضاء الدمشقي، بعد أن فارقته بجسدها؛ لهذا شكّل هذا الجبل هوية بطلتها (زين) ومنحها الصمود أمام المحن التي تحيط بها: «**أنا صخرة في قاسيون**» مما يوحي للمتلقي بأن قوتها مستمدة من عراقة مدينتها وصلابتها التاريخية في وجه المحن.

على الرغم من الحفاوة البيروتية التي استُقبلت بها (زين/ غادة السمان) في الوسط الأدبي، حاصرتها مشاعر الغربة، وأضناها الشوق إلى مدينتها، التي أصدر فيها رجل المخابرات (ناهي) أمراً بمنعها دخول بلدها، بعد أنّ اتهمها بأنها جاسوسة لألمانيا، إذ فشل في مقايضة ورقة السماح لها بالسفر بالحصول على جسدها، بناء على ذلك اختارت له هذا الاسم، الذي يوحي بكونه آمراً ناهياً!

لعلَّ أكثر المشاهد تأثيراً في النفس وقوف البطلة على حدود مدينتها، حين توفي والدها في بيروت، فلم تستطع مرافقة جثمانه لدفنه في دمشق، بعد أن تحولت إلى

سجن كبير، وباتت الحدود سوراً، يقف سداً في وجهها فتصرخ: «**افتحي ياماما**» **ولا من مستجيب** «**افتح يا وطني**» «**افتح يا سمسم**» **ما هذا السور بلا نافذة وبلا باب وبلا شرفة لحوار!...** (ص١٩٧).

تلح على مخيلة الكاتبة مرة أخرى صورة دمشق الأم عبر عبارة (افتحي ياماما) فيحس المتلقي مدى فداحة فقد مدينتها، فهي تعادل فداحة فقد الأم؛ لهذا خاطبتها بهذه العبارة؛ لتلحقها بأمر صريح «افتح يا وطني» ثم تلحقها بأمر، يوحي بأن مدينتها مكافئة لعالم السحر والدهشة «افتح يا سمسم».

لن تجيب مدينتها على رجائها، وإنما صوت ذاك الذي دمّرها وأراد تدمير البطلة (زين) بإذلالها (**اركعي وادخلي زحفا على ركبتيك...**) فتردّ عليه متحدية (لا ..لن أركع. سأترك الشوق يقتلني ولن أركع) إنها ترفض الركوع وهي تكرر هذا الرفض مرتين، مما يوحي بتمردها وإصرارها على أن تعيش بكرامتها مفضّلة الموت على التنازل عنها (**أريد أنْ أدخل المدينة مرفوعة الرأس**).

يتماهى، هنا، صوت الكاتبة بصوت البطلة (زين) «**لن يذلني أحد بعد اليوم... سأظل وحيدة ومشردة، وحين سيعيدون تابوتي إلى الوطن لدفني. سأشترط أن يحمل في جنازتي عموديا لا أفقيا، ورأسي يتجه صوب سماء جبل قاسيون لا صوب التراب...**».

يعايش المتلقي تمرد خيال الكاتبة عمَّا هو مألوف، ليبرز مدى تعلقها بمدينتها، فقد وصّت البطلة (زين) أن يحمل تابوتها (عموديا) أي بطريقة تتيح لها رؤية جبل قاسيون، كما يلاحظ أنها منحت بطلتها قدرات استثنائية، صحيح أنها خضعت لقانون الموت، لكنها تجاوزت مواصفاته، وامتلكت قدرات مدهشة، تعلن انتماءها للمكان، الذي حُرمت منه في حياتها، ولا تريد أن تُحرم منه في مماتها، فهي تريد أن ترى الجبل الذي شكّل روحها الصلبة.

يفاجأ، هنا، المتلقي بتدخل صوت الكاتبة؛ ليبعد الموت عن بطلتها في الغربة، معلنا: «**أتمنى لو أعود قبل ذلك بقليل، على قدمي، وإن كنت أعرف أن ذلك شبه مستحيل لمتمردة مثلي لا تعرف كيف تغلق فم صدقها ولا كيف تحشو حنجرتها بالغنائم بدلاً من أناشيد كبريائها**»، (ص١٩٧).

يلاحظ المتلقي أن الكاتبة تركت باب العودة إلى مدينتها مواربا، إذ أعلنت أن ذلك (شبه مستحيل) ولم تعلن استحالته

تماماً! وقد استطاعت أن تبيّن السبب ما تحمله البطلة من صفات التمرد على الفساد والقهر، فهي ترفض الترويض، ما يهمها هو قول الحقيقة، ومواجهة الظلم، إنها، على نقيض كثير ممن يدّعون الثقافة، ويلهثون وراء ذهب السلطان، فيدوسون على كل القيم.

تعود الكاتبة لفكرة العودة فتشترط على الوطن: «**أن يتسع للجميع...حتى لمن ينتقد ناهي في الصحف، في المصانع، وداخل جدران المقاهي ذات الآذان... المزروعة حتى في جدران أرواحنا وفي رئاتنا، وفي شرايين مخاوفنا ... أقرع الأسوار اللامرئية لدمشق تحت المطر وأنا أنتحب تمردي، وأصرخ بوطني أنت علمتني رفض الذل على طول تاريخك مع الفاتحين، فلماذا تريد أن تذلّني الآن؟**»، (ص١٩٨).

إنَّها تحلم بالعودة إلى وطن يفتح صدره للجميع، خاصة لأولئك الذين ينتقدون الفساد، وكل من يسهم في تدميره، فيزرعون ثقافة الخوف ونفي الآخر المختلف؛ ولا شك أن مثل هذا النقد يعيد بناءه من جديد.

لقد آلم غادة السمان هذا التشويه الذي يعتري مدينتها، دون أن يمحو صورتها الجميلة من مخيلتها؛ لهذا جعلتها تبدو من أعلى جبل قاسيون مدينة التناقضات «**وديعة كقطة وشرسة كنمر...**» إذ باتت تجمع الرقة والحضارة بالشراسة والقهر.

الكنى والألقاب في كلام العرب

❀
د. عمر الدقاق



بواكير الأسماء

منذ كانت الخليقة كان عمادها كائنين اثنين يحملان اسمين أو سمتين هما آدم وحواء.. وهكذا كان النشوء وغدا الاسم أو التسمية سمة خاصة بالبشر دون سواهم من الأحياء. وبالاسم تتبدى شخصية كل إنسان وتتجلى خصوصيته، وحينئذ يصبح معلوماً ومعروفاً بين سائر أقرانه من الناس. وبعد ذلك وفي غابر الأزمان تكاثر البشر وتعددت الأقوام دونما حاجة أو ضرورة لتسمية الأفراد

❀ أديب وأستاذ في جامعة حلب - عضو مجمع اللغة العربية في دمشق.

حين عاشوا جماعات بدائية مشتركة كانت أشبه بقطعان الماشية أو أسراب الطير ضمن مجتمع قبلي قوامه الشيوع.

وبعد أمد طويل، وعلى مرّ العصور وتعاقب الأجيال أخذت الملامح الذاتية للأفراد تتشكل وتنفتح عبر مراحل التطور الاجتماعي، حيث كان من أبرز صفاتها وملامحها النزوع إلى اعتماد ظاهرة التسمية والتلقيب، وذلك تجاه أناس بعينهم تبدت شخصيتهم وتميزت خصوصيتهم دون سائر الذين هم حولهم. وأصبح من المعهود أن الإنسان لا يختار اسمه، بل إن اسمه يولد معه منذ ولادته، والوالدان ولاسيما الآباء هم الذين يختارون اسم المولود ذكراً أو أنثى، وذلك تبعاً لثقافتهم وبيئتهم، فيؤثرون أسماء أحمد وإياد وطارق، أو خديجة وغادة وسلمى.. ومن الطريف أن العرب في القديم كانوا يفضلون إطلاق الأسماء الجميلة على جواريهم دون بناتهم مثل زمردة وياقوتة ووردة.

أمَّا التسمية التالية للإنسان المسمى فهي الكنية، وهي مستمدة عادة من اسم الأسرة أو السلالة وهي بذلك تأكيد لانتمائه ولحضوره في المجتمع. والعرب مولعون بالكنية ويحرصون عليها ويعتزون بها، حتى إنَّهم قد يبادرون إلى إطلاقها على أبنائهم منذ ولادتهم، من مثل (أبو أحمد) و(أبو صخر) و(أبو الخير) ونحو ذلك. وقد بلغ من شغف الآباء بالكنى أن واحدهم الذي يعتز باسم أبيه محمد ويكنى به كثيراً ما يحرص على تسمية مولوده أيضاً باسم محمد، وعندئذ يزدهي بين الناس بكنيته المتميزة (أبو محمدين).

وفي صدد العنصر الثالث من مجمل التسمية وهو اللقب كان يطيب للناس في العهود المتأخرة إطلاق لقب ما يؤثرونه على مسماهم إضافة إلى اسمه الأول. واللقب صفة مكتسبة باتت تلازم المرء وتقترن بالتسمية الأصلية بل تطغى عليها وتغدو سائرة بين الناس.

وأمثلة الكنى والألقاب عند العرب لا تحصى في تراثنا ولاسيما ما عرف به أعلام الفكر والأدب والسياسة والحكم. فالجاحظ لقب جرى على عمرو بن بحر، وهذا اسمه واسم أبيه بسبب جحوظ عينيه. أما كنيته فهي أبو عثمان. وعلى هذا الغرار غلب لقب المتنبي على اسم أحمد بن الحسين إلى جانب كنيته أبي الطيب الذي قيل أنه ألصق به في أثر ما زعم من أنه ادعى النبوة.

وثمة في قصص العرب السالفة ألقاب غريبة غلبت على بعضهم سواء

في معرض المدح أو الذم. من ذلك لقب (مضرط الحجارة) الذي نعت به عمرو بن هند ملك الغساسنة الذي روي أنّ عمرو بن كلثوم التغلبي صاحب إحدى معلقات الشعر العربي انبرى له وقتله بسيفه. أما هذا اللقب الفريد فقد أطلقه عليه بعض معاصريه إعجاباً ببأسه وفروسيته حين يكر على أعدائه فيتطاير الشرر من بين سنابك حصانه.

ومن طريف الأخبار في تراث العرب ما ذكره اللغوي ابن الأعرابي في صدد التسمية حين قال نزل المخبل السعدي الشاعر وهو في بعض أسفاره على رهوة ابنة الزبرقان بن بدر، وقد كان يهاجي أباها. فعرفته ولم يعرفها. فأتته بغسول فغسل رأسه، وأحسنت قراه وزودته عند الرحلة. فقال لها من أنت؟ فقالت: ما تريد إلى اسمي؟ قال أريد أن أمدحك فما رأيت امرأة من العرب أكرم منك، قالت اسمي رهو. قال تالله ما رأيت امرأة شريفة سميت بهذا الاسم غيرك!. قالت أنت سميتني به. قال: وكيف ذلك؟ قالت: أنا خليدة بنت الزبرقان. وقد كان هجاها في شعره فسماها رهواً، وذلك في قوله:

فأنكحتهم رهواً كأن عجانها

مسق اهاب أوسع السلخ ناجله(1)

فجعل على نفسه أن لا يهجوها ولا يهجو أباها أبداً، وأنشأ يقول:

لقد زل رأيي في خليدة زلة

سأعتب قومي بعدها فأتوب

وأشهد، والمستغفر الله أنني

كذبت عليها والهجاء كذوب

ومن النادر بل وغير المقبول في تاريخ العرب أن لا يكون من أعلام العصر رجل ليس له انتماء ولا يعرف له لقب من الألقاب ولا كنية من الكنى كما هو معهود في ذلك المجتمع. وكان زياد واحداً من هؤلاء الندرة وقد ولد في العام الأول للهجرة من أب يعرف باسم عبيد الرومي الذي كان غلاماً عند الحارث بن كلدة الطبيب. وقيل أيضاً أن أباه هو أبو سفيان والد معاوية وأن أمه سمية كانت جارية عنده قبيل ظهور الإسلام وعلى ذلك عرف باسم زياد بن أبي سفيان أو زياد بن سمية. وقد أسلم زياد في عهد الخليفة أبي بكر الصديق وهو يافع وتجلت آنئذ نباهته سريعاً ثم أعجب به الخليفة علي بن أبي طالب واختاره والياً على فارس حيث تمكن بحسن إدارته وحزمه من إخماد الثورة على الخلافة. وفي إثر وفاة الإمام علي حين آل الحكم إلى معاوية الأموي تمرد زياد على دولة الأمويين.. غير أن معاوية فاوضه

وتصالح معه. وعندئذ استلحقه في ذريته وأشهد الناس على أنه أصبح أخاه ثم ولاه على البصرة وعلى خراسان. وفي ذلك الحين عرف زياد بأنه زياد بن سمية وأنه ابن أبي سفيان وأنه أيضاً تبعاً لكل ذلك عرف بأنه زياد ابن أبيه. وكان في طليعة مواهبه فصاحته ومقدرته الخطابية إلى جانب حزمه وبراعته في سياسة الأمور. وفي هذا الصدد اشتهر بخطبته المعروفة بالبتراء التي استهل بها عهده بمخاطبة المتمردين على النظام الجديد في خطبة بليغة تراوحت عباراتها بين التهديد والوعيد، والترهيب والترغيب، انجلت عن همود التمرد واستقرار الأمن، ومن ذلك قوله:

«**من أغرق بقوم غرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً**».. وتعد تلك الخطبة في لغة عصرنا الحديث أشبه بإعلان الأحكام العرفية وحالة الطوارئ. وفي الوقت نفسه هي نموذج لما يعرف اليوم أيضاً ببيان سياسي يتضمن نهج الحاكم في ممارسة سلطته.

وفي سبيل تناول موضوع التسمية والأسماء لابد من إيضاح الدلالات المتعددة في هذا المجال الواسع، ومن ثم يجب على الباحث التوقف ملياً عند المصطلحات الأساسية توخياً للدقة وحرصاً على الموضوعية. إنَّ هذه العناصر الرئيسية في صدد الموضوع المنشود هي الاسم- الكنية- اللقب. وهي في مجملها وفيما بينها تنطوي على قدر من التداخل ومن صعوبة التمييز بين دلالاتها المتغيرة وغير الثابتة، وقد يختلط في الذهن مثلاً دلالة الاسم الأول مع دلالة الكنية أو اللقب، وهكذا تحل الكنية محل الاسم مثل أبو هريرة وأبو فراس وأبو العلاء. وهنا تكون الكنية المبدوءة بـ(أبو) مرادفة لمعنى (صاحب) أي تحل محل الاسم الأول.

ففي مجال التسميات والصفات التي نصت عليها أسماء الله الحسنى، عمد الأسلاف من العلماء إلى التمييز بهذا الصدد بين الخالق والمخلوق وذلك بإضافة أل التعريف إلى لفظ الخالق: حيث يتم التمييز وتتوافر الدقة بحيث يقال الله (العلي، القادر، السلام).

وهكذا يمكن إطلاق الصفة الحسنى على المؤمن مجردة من أل التعريف، فيقال عندئذ علي، قدير، سلام. كذلك يتحقق التمييز بطبيعة الحال بإضافة لفظ عبد مقترنا بالصفة وبذلك تكون التسمية أيضاً «عبد القادر، عبد السلام».

غير أن تلافي التداخل ومن ثم اللبس لا يتيسر دائماً على هذا النحو بسبب تداخل دلالات المصطلحات كما ذكرنا. وهذا المطلب الصعب أدى في المجتمع العربي.. الإسلامي إلى إيجاد مصطلح حديث جديد في السجلات المدنية والهويات الشخصية وهو (الشهرة) بفضل دلالته الشاملة.

ومع ذلك يبقى التميز تجاه التسمية الواحدة بدلالتها الأخرى مطلباً صعب المنال للمرء العادي مثل: أبو الهول وأبو النصر، أبو الأسود، أبو الفرج، أبو فراس وأبو طالب، أبو الصلت، أبو الهدى، أبو البقاء، وأبو قير، أبو ظبي، وأم كلثوم، وأم القرى، وذو الرمة، والبحتري، أو مثل: أبو ماضي، وأبو ريشة، وأبو شبكة، أو مثل: ابن عرس، وابن آوى، وأم عامر، ولعل من أجمل ماصار سائراً على الألسن من الأوصاف تجاه قرائح الشعراء المبدعين في العصر الجاهلي هو مقولتهم النقدية الصائبة أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، والأعشى إذا طرب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب.

الألقاب المثناة

وفي مجال التسميات والألقاب غلبت خاصة التثنية على الكثيرين من خاصة الناس وعامتهم. والمثنى صيغة تكاد تنفرد في اللغة العربية دون سائر اللغات وهي تتوسط بين المفرد والجمع، كما تتجلى في كلام العرب منظومه ومنثوره ولاسيما في مطالع قصائدهم كالمعلقات وسواها، من مثل معلقة امرئ القيس وما تلاها من أشعار. وقد ورد ذكر أحد عظماء الأقوام السالفين في القرآن الكريم باسم ذو القرنين ويأجوج ومأجوج... أما في الإسلام فثمة تسميات كثيرة في تراث العرب مثناة على هذا الغرار من مثل (الجديدان أي الليل والنهار، الداران أي الدنيا والآخرة والنيران هما الشمس والقمر وكذلك الأصغران أي القلب واللسان، والشيخان أي الخليفتان أبو بكر وعمر، والسبطان أي الحسن والحسين).

وقد اشتهر إطلاق لقب (ذو الجناحين) على الصحابي المجاهد في سبيل الدعوة إلى الإسلام وهو جعفر بن أبي طالب الملقب أيضاً جعفر الطيار في أثر استشهاده في معركة مؤتة بعد أن فقد ذراعه الأولى ثم الذراع الثانية وهو يحمل راية التوحيد، وقد تأثر الرسول الكريم لذلك (صلى الله عليه وسلم) وقال داعياً ربه عوضه الله عنهما بجناحين في الجنة.

والشهادتان أي الاعتقاد بوحدانية الخالق ونبوة رسوله (صلى الله عليه وسلم)،

كما غلبت تسمية المعوذتين على سورتي الفلق والناس في القرآن الكريم، ومثل ذلك لقب رحلتي الشتاء والصيف في آية أخرى، وفي آية سواهما (القريتين) أي مكة والطائف، ومثل ذلك الحرمان الشريفان أي الكعبة المشرفة في مكة المكرمة والمسجد النبوي في المدينة المنورة والملوان أي الأرض والسماء. ولقب السماكان في علم الفلك والأنواء هما الرامح والأعزل بين الكواكب. ومثلهما لقب الفرقدان لنجمين في السماء. والشعريان هما النجمتان، الشعري العبور والشعري الغميصاء أي شقيقتها التي راحت تبكي لعدم تمكنها من عبور الفلك. وفي كلام العرب الأمران وهما لقب للجوع والمرض. كما لقب الماء واللبن بأنهما الأبيضان، والأحمران الخمر والتمر، والأصفران هما الذهب والزعفران. وفي مجال كلام العرب يقال على التغليب الأبوان أي الأب والأم، ومثل ذلك الوالدان.

وذو الملتين لقب اتخذه لنفسه الملك الفونسو السادس الاسباني الذي تغلب على دولة الإسلام في الأندلس أي دولة المسيحيين ودولة المسلمين. وفي عقيدة المسيحية القلبان الأقدسان لقب النبي عيسى المسيح وأمه مريم البتول كذلك اعتمد أتباع العقيدة المسيحية لقب (القلبين الأقدسين) أي قلب مريم وقلب ابنها يسوع. أما اللقب الأشهر الذي طغى على السيدة مريم لدى المسيحيين والمسلمين معاً فهو (العذراء) التي لم يمسسها بشر كما جاء في القرآن الكريم. وفي الوقت نفسه اشتهرت السيدة مريم بلقب (البتول) أي المتبتلة التي انقطعت إلى العبادة والنسك طوال عمرها.

لعل أقدم ما عرفناه من الألقاب المثناة في تاريخ الأمم شخصية (ذو القرنين) يأجوج ومأجوج اللذين ورد ذكرهما في قصص القرآن الكريم.

ومن أشهر الألقاب المثناة في تاريخ الإسلام (ذات النطاقين) وقد عرفت بذلك السيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق أخت السيدة عائشة بعد أن وافت أباها الصديق والرسول الكريم لترفدهما في طريقهما إلى يثرب مهاجرين من مكة، وهي تحمل إليهما الزاد في نطاقين شدتهما حول خصرها وذلك في فجر الدعوة إلى الإسلام. وأسماء هي التي أصبحت زوج الزبير بن العوام وأم عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب. وكانت قد أسنت وشهدت مصرع ابنها عبد الله الذي تمرد على خلفاء بني أمية إلى أن تمكن الحجاج والي

الحجاز من قتله وصلبه على أحد أبواب المدينة.

ومن أعلام المسلمين في تاريخ العرب الخليفة الراشدي عثمان بن عفان الذي اشتهر بلقبه ذو النورين، وذلك لأنه متزوج اثنتين من بنات الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) هما رقية التي توفيت فتزوج بعدها بأختها أم كلثوم.

وفي فجر البعثة النبوية أيضاً دعا الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ربه وقال (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين) وأراد بهما كبيري قريش عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام (أبو جهل). والعمران في تاريخ الإسلام هما أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وذلك أيضاً على التغليب في أساليب العرب. وفي عصر لاحق عرف الشاعر المؤلف الشريف الرضي أحد أئمة الشيعة بلقب آخر هو (ذو الحسينين) لأنه ينسب من طرف أبيه إلى الإمام الحسين ويرجع في الوقت نفسه من طرف أمه أيضاً إلى الإمام الحسين نفسه.

وذو (الوزارتين) لقب الشاعر ابن زيدون الأندلسي، الذي جمع بين الوزارة في عهد ملوك الطوائف وشهرته بين شعراء عصره. ويطلق أيضاً اللقب المثنى نفسه على أديب الأندلس وشاعرها لسان الدين بن الخطيب لجمعه بين الوزارة السياسية والشهرة الأدبية. والطائيان في الأدب العربي القديم هما أبو تمام والبحتري وكلاهما من قبيلة طيئ. كذلك غلب الحكيمين على أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري. وفي عصرنا الحديث يطلق لقب الشاعرين على حافظ ابراهيم وأحمد شوقي لتقدمهما سائر شعراء العصر..

ومن هذا القبيل من الألقاب المثناة في التاريخ ذو (اللسانين)، ويراد بهما عمر الخيام الذي برع وأجاد في الأدبين الفارسي والعربي.. وفي صدد شعراء العرب أطلق لقب (المرقشان) على المرقش الأكبر والمرقش الأصغر. كذلك أشتهر أبو هلال العسكري بكتابه القيم الذي عرف بكتاب الصناعتين أي فن الشعر وفن النثر. ومن هذا القبيل اشتهر كتاب (تفسير الجلالين) أي جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي اللذان ألفا هذا الكتاب القيم.

وقد امتد هذا المنحى في الألقاب إلى العصر الحاضر وعرف به عاهل المملكة العربية السعودية وهو خادم الحرمين الشريفين، أي الحرم المكي ومثوى الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في المدينة المنورة. ومن قبل ذلك تلقب بعض سلاطين

العثمانيين بسلطان البرين وخاقان البحرين. وعلى صعيد آخر من هذا العصر عرف خليل مطران بلقب شاعر القطرين.

بين التذكير والتأنيث:

ولما كان الأصل في التسمية التعيين والتحديد اقتضت التسمية توخي التمييز بين الذكر والأنثى والابن والبنت، وهذا ما كان منذ وجد الإنسان فكان آدم وكانت حواء. وفي قواعد اللغة العربية والألفاظ المؤنثة بالإجمال تتصل بها علامات التأنيث الثلاث في آخر كل منها، مثل التاء في فاطمة، والألف المقصورة مثل ليلى والألف الممدودة المنتهية بهمزة زائدة مثل لمياء. ومن الطريف في مجال اللسانيات واللغات المقارنة أن نلحق تاء التأنيث بالكلمة الفرنسية أيضاً لدى تأنيثها كما هو حال التاء في العربية، فالفرنسيون يلفظون أسماء بناتهم جانيت، روزيت، انطوانيت، بزيادة التاء على أسماء أبنائهم جان، وروز، وانطوان..

غير أن لكل لغة منطقها، ففي لسان العرب زمرة ألفاظ أطلقت على الذكور ومع ذلك لحقت بأسمائهم التاء مثل حمزة، عنترة، طرفة، بشامة، خارجة، عقبة، عكرمة، أسامة، معاوية، عروة، عطية، عتبة، عبادة، عبيدة، قتادة، مسلمة، توبة، جحظة، علقمة، أمية، صعصعة، وهذه كلها محمولة على السماع دون القياس. كذلك استوى التذكير والتأنيث في بعض الأسماء مثل هبة الله..

على أن حرف التاء قد يلحق أحياناً بتسميات قليلة أخرى بقصد دلالة الاسم المذكر على المبالغة في الصفة كقول العرب (النابغة، العلامة، والطاغية والداهية..)

ومن ناحية أخرى جنح العرب إلى إسقاط علامة التأنيث من بعض أسماء الإناث رغبة في التدليل أو الترخيم ولاسيما في مجال الغزل ووصف محاسن الغيد مثل أسماء بعض القيان والحبيبات مثل ورد، مؤنس، روض، فوز، صبح..

وقد توسع الناس في العصر الحديث في هذا الصدد فأكثروا من التسميات التي تدل على البنين والبنات معاً دون تمييز بين الجنسين مثل: هدى، نهى، رياض، ثريا، نضال، صباح، سمر، نجاح، أمل، وداد، سلام، نهاد، سعاد، أمية، نجاة، ضياء، مجد، شهد، هلال، أمان، هبة الله، وكان طبيعياً في صدد هذه التسميات المطلقة ودلالاتها المشتركة بين الجنسين أن تنجم عنها حالات من الارتباك واللبس في واقع الحياة..

وأخيراً ثمة كلمة فريدة في هذا الصدد ذات دلالة لدى الحالتين وهي (كلثوم) اسم لمذكر، وقد عرف به الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم منسوباً إلى أبيه. وحين يراد به الانثى يجب اقترانه بكلمة (أم) وقد سميت به إحدى بنات النبي (صلى الله عليه وسلم) وهي أم كلثوم.

التسميات المركبة:

الأصل في إطلاق التسمية هو توخي التمييز بين الكائنات والموجودات وسائر الأشياء والمدركات والمحسوسات في الكون والحياة ونحو ذلك مما استطاع الإنسان إليه سبيلاً في إطلاقه على ماحوله، بحيث يكون لكل كائن مقصود أو مراد لفظ خاص به يسمه ويغدو لازماً له ومقترناً به. وهذا ما دأب عليه البشر في فجر تحضرهم. ومنذ الخليقة كما تذكر الكتب المقدسة أطلق على الإنسان الأول اسم آدم، وأطلق على قرينته اسم حواء، وهكذا توالت سائر الأسماء في نسلهما مثل قابيل وهابيل كما كان بعد ذلك في لسان العرب أسماء مثل نوح ونزار وإبراهيم وعدنان وأيضاً سارة وبلقيس وهند وفاطمة.. وكلها مسميات قوامها لفظ بسيط واحد.

وفي الوقت نفسه سارت على ألسنة العرب السالفين تسميات أخرى وألقاب وكنى مركبة من لفظين مثل (ذو الكفل)، وهو اسم نبي عربي ورد ذكره في القرآن الكريم ضمن سورة الأنبياء. ومثله النبي أيضاً (ذو النون) الذي غضب على قومه لأنهم لم يستجيبوا لدعوة التوحيد التي أتاهم بها، وقد غضب عليهم وهجرهم، وكان أن لقيه النون أي الحوت فابتلعه. والملك الملقب ذو القرنين ورد ذكره أيضاً في القرآن الكريم، وقد عرف بعدله وكان بمنزلة نبي. وهذا اللقب (ذو القرنين) عرف به أيضاً بعد ذلك الإسكندر الكبير المقدوني الذي غزا بلاد الفرس ثم كان الملك ذو نواس آخر ملوك حمير في اليمن قبل الإسلام.

أما الاسم المركب (ذو الخلصة) فهو صنم من الحجر عبدته قبائل بجيلة وخثعم وسواها.. وقد اشتهرت لدى العرب الأقدمين شجرة عظيمة اسمها (ذات أنواط)، وكانت بعض القبائل تقدسها وتعلق على أغصانها أسلحتها من دروع ورماح ونبال وحلي نساء تبركاً بها وتقديساً لها.

ويعد (ذو نواس) أعظم ملوك اليمن السالفين وقد فتح نجران واستباحها وقتل أهلها النصارى في أخدود كبير، وقد ورد بعض أخباره في القرآن الكريم في حديثه

عن أصحاب الأخدود. وقد تمكن منه بعد ذلك النجاشي ملك الحبشة وقضى عليه. وفي صدد تاريخ العرب قبل الإسلام نذكر معركة (ذي قار) وهو موضع في العراق قرب الكوفة وكانت معركة حاسمة بين كسرى وبعض قبائل العرب من وائل عرفت بمعركة ذي قار وهي أول صدام بين العرب والفرس انتصر فيه العرب قبل معركة القادسية بزمن وجيز ومن الأسماء التي عرفها العرب قبل الإسلام معد يكرب كما اشتهرت تسمية (امرؤ القيس) في ذلك العصر الجاهلي وعرف بها عديدون بهذا الاسم المركب وسموا المراقسة، ويعد أشهرهم صاحب المعلقة الرائد امرؤ القيس بن حجر.

ومع توالي الأيام وظهور الإسلام تكاثرت الأسماء والألقاب المركبة واكتسبت دلالات روحية دينية أو اجتماعية جديدة ذائعة من مثل: (أبو الهدى، أبو النصر، أبو العشائر، وأبو الفدا، وأبو النجم، وأبو حيان، وأبو البركات، أبو الخير، وأبو الفضل، وأبو المعالي، وأبو البحرين وأبو الفرج وأبو البقاء وأيضاً أم كلثوم، وبعد ذلك عرفت في العصور العربية الحديثة كنى وألقاب مشابهة مثل أبو ريشة وأبو ماضي وأبو شبكة.. التي باتت تعرف في السجلات الرسمية باسم (الشهرة).

وقد اتسع نطاق الألقاب لدى الساسة والحكام سواء في الألقاب الدينية مثل فخر الدين وخير الدين وعلاء الدين، وإلى جانبها الألقاب السياسية المركبة مثل سيف الدولة ومجد الدولة وعضد الدولة... والكثير من هذا القبيل عبر الأجيال...

الهوامش

١- أي زوجتهم، والعجان هو العنق. المسق أي القبيح. الناجل هو الذي يشق الشيء ومنه المنجل.

التراث العربي المخطوط

د. بغداد عبد المنعم ❀



هـــذا الموضـــوعُ (الحـــرب والتـــراث) موضوعٌ شديدُ الفرادة!! مفَصلٌ عميق بين ماضٍ طويل حكمتْهُ ظروفٌ تاريخية كثيفة وإشكاليـــة، ولحظة راهنة شديدة السخونة والتغييـــر علـــى نحو لعله لـــم يحدث بهذا الشكل عبر تاريخ المنطقة العربية كلها.

المفصلُ هو التراث المخطوط بوجوده الهائل عددًا ومكانًا، هذا العدد الذي يُراوحُ في منطقة الملايين الثلاثـــة[1] أو الأربعة ويتناثـــر شرقًا وغربًا فـــي معظم عواصم ومدن العالم.

❀ باحثة في التراث العربي، وأديبة وناقدة.

لقد أنتجتْ الحضارةُ العربية خصوصياتٍ عــدة كان التراث المخطوط - بوصفه ثروة كامنة - إحــدى هذه الخصوصيات.. مثلما كان الانفتاح والليونــة خصوصياتٍ معنوية أخرى في هذه الحضــارة، كسرتْ إلى حدٍ كبير طوقَ حقوق الملكية الحضارية العربية لهذا التراث، ولنجدها بعد قرون الذروة (من القــرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن السابــع) تقع في شراســة وعنجهية الغرب الــذي أدخلها إلى غرفة عمليات استشراقه جاعلاً من التراث المخطوط أوراقًا بحثية متغربة كان معنيًّا بها وكنا غرباء عنها.

هــذا، وكان ثمة حروب وظروف عالمية خاصة أحالتْ بشكل ما منتجي وصانعي هذا التــراث إلى أن يكونــوا - بدءًا من لحظات تاريخية مُحددة - خارج الفاعلية المطلوبة على هذا الإرث الهائل. وحتى هذه اللحظة لم يتــم التعامل مع التراث المخطوط بمثل الاستغــراق والإستراتيجيــة التي تعامل بها الاستشراقُ.. فبقي التراث المليوني العربي بالنسبــة للعــرب أشبه بأسطــورة غامرة.. أخضعــوه للشعارات والأدلجــة السطحية، وظل بعيدًا عــن أن يكون مؤثرًا في هُويتهم التــي يسعون إلى تكوينها فــي هذا العصر أشد ما يكون السعي.

المنطقة العربية وإشكالية: الحرب والمعرفة

إنَّ الوسطيــة المكانيــة التــي تتمتــع بها المنطقــةُ العربيــة فــي العالــم، والجسريــة التاريخيــة العميقة التي حملتها حضارتُها هي سمات وضعتهــا أمام تناقضــ مستمر، طرفا هذا التناقض هما الحرب والمعرفة.. الحرب والتراث.. ومن ثم الحرب والتراث المخطوط.

والحرب أتتها من شرقها الآسيوي البعيد نسبيًّــا، ومن غربها الأوروبــي الأكثر قربًا، وأمَّا التَشَــكُّلاتُ المعرفية وتناميها، فكانت أداءها الحضاري القائم دومًا في بنيتها.

هــذه الوسطيــة والتجسير الــذي كان قدرهــا، جعل منها حضارةً مــن دون عُقد ولا توجســات، وأنتج جانبها المنفتح بكثافة علــى الآخــر، كان ذلك سببًا مــن الأسباب التي أوقعتها في فخ الاستشراق! والذي بدأ الاستحواذ والحرث فــي تراثها المخطوط بتربتــه الخصبة البكر، فعــل ذلك بمثابرة وجدية من جهة، ومن جهة أُخرى أنكر الزمنَ الحضاري العربي في التاريخ (العالمي) هذا التاريــخ الذي حرره الغربُ واضعًا منجزاته التاريخيــة بأصولها اليونانيــة - اللاتينية مستبعــدًا المنجزات العربيــة السامقة في أغرب عملية شوفينيــة عرفها العالمُ حتى الآن. كان السببُ في ذلك (الحروب) والفارق النفسي الجمعي بيــن حضارتين مَكّثتا في

وسط العالــم، وتبادلنا الجلوس على كرسي الحضارة عبر القرون.

لدينا - إذن- الملايينُ من كتبنا لم تدنُ بعد من المطبعة، لما تزل بخطوط وأحبار النُّسَّاخ بضع نُسخٍ، أو بخطوط مؤلفيها، أو لعلها قد تكون نسخة وحيدة باقية. بعض هذه المخطوطات تجــاوز عُمرُها الألف عام، وجزءٌ منها يتمتع بقيمة فائقة، فليس في أوراق المخطوطات أنساقٌ من الأفكار والمعاني والشــروح والنظريات فقط، بل تُشكِّلُ المخطوطةُ العربية وثيقة بحد ذاتها بما تحملُهُ من أبعــاد، فإنَّ ما نسميه الآن مخطوطة كان في زمــن كتابتها وما بعده مساحة حوار مفتوح عبر الأزمان، فهناك الحواشــي والتعليقات، وهناك توضيحات الناسخ.. فنسخةُ المخطوطة تظل عرضةً للنقد والتعليق من قبــل قارئ ما أو متلق آخر. كان المؤلــف أو الناسخ للمخطوط يستعمل هذه الحواشــي لما يستدركه من السقط الواقع في الكلام، كما كانت حيزًا يستعمله القراء والدارسون، فيكتبون فيها تعريــف المصطلحــات أو يثبتون الفروقَ بين النســخ، أو يضيفون تعريفات وتراجمَ لبعضــ الأعــلام، أو شروحًــا وآراء على الأفكار الواردة.

الحرب ومدن (التراث المخطوط) العربي

الحرب هي الحــدثُ المستمرُ في أوراق التاريخ، هذا الحدث الذي له أسباب متعلقة دومًا بقُوى مباشــرة عسكرية واقتصادية في واقعنا الراهن. إن (القوة الكامنة) في ملايين الأوراق الحاملة لمحصلات ثقافية متراكمة، المتمثلة في التراث المخطوط ستكوّن حضورًا إشكاليًّا وســط زوبعات الحروب وضجيجها. وحين ننتقل من الحــرب بوصفها حدثًا إلى الحــرب بوصفهــا معنًى، لن نكــون بالتأكيد أمام احتمال وحيد لتعريفها، بل سنكون أمام تعريفات ذات سويات مختلفــة، سنحاول أن نتطرق أولًا لأقربها إلينا، فقد جاء في لسان العــرب «الحرب: نقيض السلم، أنثى وأصلها الصِّفة كأنها مُقاتَلَةٌ حربٌ.. وجمعها حروب.. ودار الحرب بــلاد المشركين الذين لا صُلح بينهــم وبين المسلمين. وقــد حاربه محاربة وحِرابًا. وتحاربوا واحتربوا وحاربوا.. ورجل حرب ومِحْــرِب ومحراب: شديــد الحرب.. حَــرب يحربه إذا أخذ مالــه.. وحريبته ماله الذي سُلِبَهُ ولا يسمى بذلك إلا بعدما يُسلَبهُ.. وقيل حريبــة الرجل ماله الــذي يعيش به.. تقــول حربه يحربه حربًا إذا أخذ ماله وتركه بلا شــيء.. الأزهري: يقال حرب فلانٌ حربًا فالحرب أن يؤخذ ماله كله فهو رجل حَرِب أي نزل به الحرب.. الحارب المُشَلِّح أي الغاصب

الناهب الذي يُعري الناس ثيابهم»[٢]. ويمكن أن نلاحظ أن المعنى العربي للحرب ارتبط ارتباطًا لزوميًّا بأخذ شيء من الآخر الواقعة عليه الحرب، حتى إن (الحارب) هو الغاصب الناهب. فالمعنى العربي ربط الحرب بهدف استلابي اقتصادي. فإن غادرنا هذا المعنى العربي التاريخي للحرب إلى معان أخرى جديدة من ضفاف أبعد ليست من وضع العرب، ذلك أن العرب لم يجددوا معجماتهم بعد! فقد جاء في المعجم الفلسفي «الحرب- حالة نزاع مسلح بين الدول أو الشعوب أو الطبقات.. ولذا فإن فهم مضمون الحرب، وطابعها وأهدافها يتطلب تبيان ما هي المصالح.. التي تنعكس في الحرب المعنية، وما هي السياسة التي تنتهجها الحكومات المشاركة فيها.

وبما أن السياسة تعبير مكثف عن الاقتصاد، فإن الأسباب الأخيرة للحرب تكمن في الميدان الاقتصادي.. (فهناك) تمييز بين حروب عادلة وأخرى غير عادلة.. فالحروب غير العادلة تهدف إلى الاستيلاء على أراضي الآخرين، واسترقاق الشعوب، وإعادة تقاسم العالم، أما الحروب العادلة فهي التي تخاض في سبيل التحرر من الاضطهاد وتهدف للدفاع عن النفس. وفي كل عصر يتحدد مضمون الحرب بالظروف المميزة للمرحلة التاريخية المعنية»[٣]. وهذا تعريفٌ للحرب قادمٌ من ضفة بعيدة جاهدت المعاني فيه على جعل المصالح الطبقية سببًا للحروب ومن ثم فقد ربطتْ بين السياسة والاقتصاد.. ويمكن أن نلاحظ أنه تعريف تضمَّن تحميل الحرب بالمبادئ والقيم (حروب عادلة وحروب غير عادلة).

وثمة شكل من أشكال الحروب سيكون له حضور في الواقع الراهن في بعض أجزاء المنطقة العربية، وستتعرض مجمل المنجزات والوثائق التاريخية ومنها التراث المخطوط لآثار هذه الحرب، تلك هي الحرب الأهلية، أكثر أشكال الحروب حدة هو الشكل الذي يلازم عهود الانعطاف في تاريخ البشرية، ويتم به الانتقال من تشكيلة اجتماعية اقتصادية إلى أخرى. وتتميز الحرب الأهلية بضراوتها وقسوتها، هي حربٌ داخلية على أية حال. وأيًّا كانت الحرب بوصفها معنًى فإنَّ مجرد وقوعها سيؤدي إلى دمار كلي أو نسبي، وليس بإمكاننا دومًا التنبؤ السريع بعودة التوازن وإعادة البناء.

تلك كانت لمحة سريعة من بعض تعريفات الحرب القادمة من جهات مختلفة ومن سويات زمانية مختلفة.. وفي مجملها مضمونٌ من (الاستيلاء) وتقويض قوة الآخر، ونزوع إلى توازن ما.

ولعلَّ المنطقة العربية من أشد المناطق سخونةً وحربًا عبر التاريخ إلى الآن.. مما جعلها عرضةً لإشكالات حضارية عميقة تتعلق أحيانًا بوجودها وهويتها. ففي أزمنة متقاربة احترقتْ هذه المنطقة، وكان للحروب الدائبة في مدنها وفوق أرضها آثارٌ سلبية على خزائن مكتباتها وما فيها من مخطوطات، كانت هذه الآثار مباشرة ومادية إذ كان يجري إعدام المخطوطات إغراقًا أو إحراقًا.. في حين كان من نتائج الحروب والمراحل التالية لها من أوقات باردة أو حرب غير مباشرة، أنْ يتعرض هذا التراث للسرقة والتهجير خارج خزائنه الأصلية في مدنه، إلى مدن وخزائن بعيدة ستدخله في عمليات ثقافية مشكلة..!

ففي نهايات القرن الخامس الهجري هاجمت الحملةُ الصليبية الأولى[٤](٥٠٣هـ/١١٠٩م) مخطوطات مكتبة بني عمار[٥] في طرابلس الشام فأحرقتها ثم أغرقتها في النهر (نهر أبي علي)، وكان ذلك أول وأضخم إعدام علمي للتراث المخطوط في المشرق العربي، فقد تم القضاء على مئة ألف مخطوط (١٠٠,٠٠٠)[٦] من المجاميع الكبيرة الواسعة في مجالات العلوم والأدب والفلسفة والفلك، وهي مخطوطات وصفها المؤرخون بأهميتها وفخامة تجليدها وجودة زخرفتها وتذهيبها.

وخلال مئتي سنة التي استغرقتها هذه الحملات تمَّ تدمير كثير من خزائن التراث المخطوط في المدائن الشامية، ومنها خزائن المسجد الأقصى في القدس وسائر المدن الفلسطينية، وقد كانت الصدمة الأولى حين دخل الصليبيون مدينة القدس في سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٨م) فأجهزوا على بنيتها البشرية والثقافية. والمؤرخون يذكرون أنَّ «... في المسجد الأقصى قتلوا ما يزيد على سبعين ألفًا فيهم جماعاتٌ كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم، وعُبَّادهم، وزهادهم الذين جاوروا بذلك الموضع الشريف»[٧]، وكان مصير المخطوطات العربية في معظم مدن بلاد الشام هو مصير مخطوطات القدس.

إعدام المخطوطات

من بين أهم الخزائن التي دمرتها الحروبُ الصليبية، خزانة (أسامة بن منقذ) صاحب قلعة شيزر قرب حماة في سورية «فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة»[٨] وقبل أن تنحسر الحملاتُ الصليبية نهائيًّا عن المشرق العربي، وفي منتصف القرن السابع الهجري اجتاح المغول

بغداد وأغرقوا مخطوطاتها في دجلة. ومع نهاية القرن التاسع الهجري تشهدُ أوروبا في جزئها الجنوبي إعدامًا هائلًا تم فيه إحراق مليون مخطوطة عربية وغير عربية من خزائن قرطبة وغرناطة أمام الملكين المنتصرين فرديناند وإيزابيلا [٩].

غير أنَّ هذا الانهيار في التراث المخطوط العربي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين لم يكن هو البعد الوحيد للأحداث والحروب، بل إنَّ الوجود العربي والإسلامي قام بالرد على هذه الحروب الشرسة التي أطبقت عليه من الشرق ومن الغرب، بحربين (معركتين) حملتا طابعًا عالميًّا؛ لأنَّهما غيرتا التوازنات العالمية التي كانت قائمة لصالح الوجود العربي وتراثه المخطوط، كانت هاتان المعركتان العالميتان الشهيرتان حطين (٥٨٣هـ-١١٨٧م)، وعين جالوت (٦٥٨هـ-١٢٥٩م) الأولى فككت الوجود الإفرنجي، والثانية حَجَّمَتْ وأوقفتْ الاجتياحات المغولية، مفصلان عالميان (بحسب المرجعية العربية والإسلامية لمفهوم «العالمية» وليس بحسب المرجعية الغربية) وذلك بصفتهما التصديرية والفاعلية والتأثيرية، ولهذين الحدثين الحربيين علاقة بإعادة بناء المكتبة العربية بخزائن مخطوطاتها، وسوف تشهد المدنُ الثلاث المهمة في الإستراتيجية الأيوبية (دمشق وحلب والقدس) كثافةً في بناء المدارس وتزويدها بخزائن المخطوطات، وبعضها سيستمر بوظيفته التعليمية ومخطوطاته حتى بدايات القرن العشرين ومنتصفه.

كان الهدف الرئيس للحروب التي أطبقت على المنطقة العربية هو المدن والمدن العواصم بالذات، كونها المركز المستقطب لكل إمكانيات المكان والإنسان معًا. فالتراث المخطوط العربي بدأ بالتشكل والتراكم في تلافيف المدن وأعصابها الرئيسة، وحالما استوتْ بغداد عاصمةً لدولةٍ كبرى في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني، تكاملتْ خزائنُ مخطوطاتها، وغدتْ جزءًا من مؤسسات الدولة، فقد كان يقوم على إدارتها نسقٌ من الموظفين (الوكيل- الخازن- المشرف) وأصبحتْ مُعَبِّرَةً عن كل ما هو موجود في العالم في ذلك الوقت بعد أن تم إنتاجه عبر البُنى الثقافية العربية، فتطورت بذلك نواةٌ عظمى من كتب مخطوطات عربية ذات محتوى فكري وعلمي جديدين، وبُعيد الذروة الحضارية العربية حتى الآن تكون المنطقة العربية عمومًا وبلاد الشام والعراق خصوصًا قد أصبحتْ هدفًا لحروب كارثية وتعرضتْ تلك المدن العائمة على محيط من المخطوطات إلى صدمات التخريب

والتدمير والتي كانت تنال بقسوة وتَشَفٍ من هذه المخطوطات..!

ويمكن القـول: إنَّ المخطوطات العربية بتاريخها وواقعها الذي يجب أن يكون، تنتمي إلى مدنهـا أكثر مما تنتمـي إلى (دولها).. فهذه الـدول بحدودها وتفاصيلها ليست إلا مواليـد القرن العشريـن، وليست إلا إحدى نتائج الحربين العالميتين، ولما تبلغ أيةُ دولة منها من العمر ولا حتى قرنًا واحدًا. في حين مـدنٌ مثل دمشق والقدس وحلب هي مدنُ آلاف الأعوام المتراكمة، ومدينةٌ مثل بغداد يكونُ عمرُها قد تجـاوز الألفَ عام ببضعة قـرون. هـذه العواصم تفاعلت فـي دائرة مكانية واحدة ومفتوحة منذ الفتح الإسلامي وحتـى ما قبله، وبقيت مفتوحةً أمام العلماء والمخطوطـات طبعًا وغابت عنها الإقليمية والحدود، فـكان هناك من العلماء مَنْ قطع آلاف الأميال عن موطنه الأصلي ليدْرُس أو يُدرِّس في مدينـة غير التي ولد ونشأ فيها، وإن كتب التراجـم تُظهر بوضوح الاختلاف بين موطـن ولادة العلماء ومـكان تدريسهم ووفاتهـم، فمعظـم العلماء كانـوا يقومون برحلة أو رحلات بين مدينة ولادتهم ومدينة إقامتهم، وهناك أحيانًـا مدينةٌ ثالثة تُشَكِّلُ بالنسبة إليهم الملاذ الأخير (مدينة الوفاة). فكانـوا ينتقلون بحرية بيـن مدينة وأخرى حامليـن أفكارهم وكتبهـم (مخطوطاتهم) وحواراتهـم. وبقيت هذه المدن متجاوبة مع مفكريهـا وعلمائها وأدبائهـا ومخطوطاتها لقـرون مديدة، حتـى دنا القـرنُ العشرون وجاءت دولة وعُزِلَتْ مدنُ المخطوطات عن بعضها بعضًا، وأحدثت تلك الشروخَ العميقة والتناقضـات والإضعـاف والـذي كان من نتائجه الغموض الـذي اكتنف وضع التراث المخطوط فـي كل من هذه المـدن، علمًا بأنها -وحسب معلوماتي- ما زالتْ تكابد في الاحتفـاظ به حتى الآن وقـد دنت منها كلُّ أسباب التعب والدمار.

تاريخيًّا، بـدأت الحروب التي نالت من التـراث المخطوط نيلاً أكيـداً مع الحملة الصليبية الأولى فـي نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشـر الميلادي، ويبدو أنها لن تنتهي مع الاحتلال الأمريكي للعراق في بداية القرن الخامسـ عشر الهجري/ الحـادي والعشرين الميـلادي، وما يُقارب ألف عام، اللتين نالتا نيلًا عميقًا من التراث المخطوط، ومثلما كانـت الآثار التاريخية جسيمـةً على هـذا التـراث، فـإنَّ الآثار الحالية كانت أشد وقعًـا ومفاجأةً، غير أن الأثـر المشترك والمستمر بيـن الحملتين الصليبية والأمريكيـة كان السرقة وتشريد المخطوطات إلى المـدن التي قَدِمَتْ منها

الحملتان حيث تجمدت هناك في المتاحف الفاخرة، ومن ثم سرعان ما تحول جزءٌ منها إلى (موضوع ما) فوق مكاتب الاستشراق. وأضحتْ عواصمُ المخطوطات العربية مُعَطَّلَة عن دوريها الرئيسين: تخزين المخطوطات التخزين الأمين، ودراستها في مراكز بحثية متقدمة للتراث الهائل والذي من المفروض أنها تحمله.

لقد استمرت سرقة المخطوطات وتشريدها إلى مدن المحتلين والمعتدين. فقد ازداد اهتمام الأوروبيين بالتراث المخطوط العربي بعد وجودهم الطويل في بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية، وبدؤوا في عمليات الاستحواذ عليه بأساليب وطرق متعددة، وقد ارتبط هذا الأمر بالقرارات العليا في دولهم. «فإنَّ لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦-١٢٧٠م) نقل معه من دمياط مخطوطات عربية وقبطية، واحتذى حذوه كثيرون من أمراء الفرنسيس وأغنياء حجاجهم الذين رافقوا الملك في زيارته الأماكن المقدسة»[١٠]، في حين وقع عددٌ آخر من خزائن المخطوطات العربية في أتونات حروب جديدة، وقامت المدفعيات هذه المرة بقصف المخطوطات مباشرةً!

حدث ذلك مراتٍ عدّة، والهدف المقصود كان المخطوطات! فالعقدة الحضارية التي واجه بها المغول المخطوطات البغدادية، هي العقدة نفسها التي دعَتْ الجيشَ الصربي إلى قصف خزائن المخطوطات العربية في البوسنة والهرسك. هذا ما حدث لمخطوطات مركز الاستشراق ومخطوطات المكتبة الوطنية في سراييفو، إذ قامت المدفعية الصربية بتوجيه نيرانها مباشرة على مخطوطات هذين الموقعين!! وهكذا يكون للحرب هنا قصدٌ مباشر في استهداف التراث المخطوط تمهيدًا لاجتثاث البنية الثقافية المجتمعية الحاملة له، في حرب حملت طابع الطائفية والدينية، غير أنَّ العقدة التي دمَّرت المخطوطات هذه المرة كانت أشد تركيبًا؛ لنقل إنها عقدة حضارية ذات محتوى شوفيني، وهي نفسها دفعت إلى تحريك الجيش الأمريكي ليقوم بقصف بغداد والمتحف العراقي وخزائن مخطوطاته وخزائن أخرى في المدينة. كما نال الدمار المستمر من حلب القديمة إثر تحولها إلى ساحة معارك مستمرة وتعرضها للقصف المتنوع، فدُمِّرَتْ الأمكنة القديمة الحاضنة للمخطوطات من مدارس وزوايا ومساجد، ودُمِّر الجامع الأموي العتيد والمكتبة الوقفية الجديدة التي أنشئت بقربه وجُهزت؛ كي تعود إليها المخطوطات ويبدأ منها بحثٌ تراثي جديد وعميق الأصالة.

أخيراً:

إثــر كل حــرب تتصاعــد النتائــج، ومايعنينــا منها هنا هو الآثــار السلبية التي طالت التراث المخطوط. المستوى المادي من هــذا الأثر هو ضياع الثروة المخطوطيــة بأشكال سجلهــا التاريخ مثلمــا يسجلها الواقــعُ حاليًــا. أشهر هــذه الأشــكال الحرق الــذي يضمن ذهاب الورق وما فيــه وتحول كل شيء إلــى رماد، وأكثرها فــرادةً وغرابة كان إغــراق المخطوطات البغدادية في نهر دجلة، حيث كانت بغــداد أكبر عاصمة للمخطوطات في العالم في حينها، غير أنَّ أشد هذه الآثار تماديًا وعنجهيةً كان حصد المخطوطات إلى أمكنة مشهورة في الغرب.

الهوامش والمراجع

١- مشـكلات التراث العربي، الدكتور صلاح الدين المنجد، مقال -ص١٤٢- مجلة عالم الكتب، مج١، العدد ٢- شوال-١٤٠٠هـ .

٢- لسان العرب، ابن منظور المصري، دار المعارف، القاهرة، (ح ر ب).

٣- المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة توفيق سلوم (ح ر ب).

٤- الحـروب الصليبية (١٠٩٦-١٢٩١م/ ٤٩٠-٦٩٠هـ). وهي عبارة عن ثماني حملات عسكرية سبقتها حملة شعبيــة، انتهــاب المخطوطات العربية من مكتبــات: دمشق- حلب- القدس. انتهــت بطردهم نهائيًّا من المنطقة العربية على يد المماليك في نهاية القرن السابع الهجري.

٥- أســرة من قضاة طرابلس كان لها إمارة مستقلــة (٤٦٢-٥٥٣هـ/ ١٠٧٠-١١٠٩م) حكمت الساحل السوري حتى اللاذقية، اشتهرت بمكتبتها الكبرى وبكفاحها ضد الصليبيين، سقطت بأيديهم عام ٥٠٣ه/ ١١٠٩م.

٦- قُدِّر عدد مخطوطات مكتبة طرابلس بـ(مليون مخطوطة) (خطط الشام، محمد كرد علي ١٩١/٦).

٧- الكامل في التاريخ، ابن الأثير. ٢٨٣/١٠-٢٨٤، دار صادر، بيروت.

٨- خطط الشام، محمد كرد علي. ١٩٢/٦.

٩- فرديناند الثاني (١٤٥٢-١٥١٦م) وهو المعروف بالكاثوليكي، ملك أراغون ثم ملك قشتالة بعد زواجه من وارثة عرش قشتالة إيزابيل، أخذ غرناطة من العرب ١٤٩٢م.

١٠- ابن كثير، البداية والنهاية. ١٣٤/١٤، ١٩٧، ١٩٨.

عباس بن فرناس شاعراً

إبراهيم محمود الصغير ❀

لعل اسم العالم العربي المسلم عباس بن فرناس هو الاسم الوحيد والأكثر شهرة بين أسماء العلماء العرب المسلمين، الذي يعرفه عامة الناس، وذلك لارتباط اسمه بأول تجربة عملية للطيران في الجو، حين صنع لنفسه جناحين من الريش، ثم ألقى بنفسه من مئذنة جامع قرطبة بين جمع من الناس «فتهيأ له أنَّه استطار في الجو واستقل في الهواء محلقاً فيه، حتى وقع على مسافة بعيدة». ولعل معلومة الطيران هذه هي المعلومة الوحيدة التي يعرفها



الناس عامة عن عباس بن فرناس، حتى غدت كالأسطورة بينهم، ولكن يغيب عن معظمهم أنّ عباس بن فرناس، إضافة إلى تجربة الطيران في الجو، كان عالماً

❀ أديب وباحث وناقد.

موسوعياً، وأنّه يعد بحق واحداً من عباقرة الأندلس وأفذاذها، الذين استطاعوا تحقيق أروع الكشوفات في ميادين العلوم التجريبية، وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا أنّه من مفاخر الفكر الإنساني عامة كذلك. فهو يؤكد الجانب العلمي التقدمي والتطور الفكري والعلمي في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس. لقد كان ظاهرة فريدة في تاريخ الأندلس، ومخترعاً وحكيماً في ميادين العلوم التجريبية والتطبيقية، وعلامة في الرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء. كما كان صيدلانياً، وقرأ الطب، إضافة إلى الفلسفة، حتى أطلق عليه لقب (حكيم الأندلس). وإنه من المدهش أن يكون لديه أيضاً باع طويل في الفن، حيث طرق فنون العمارة، والنحت، وإقامة النصب، وصنع نافورات المياه. كما كان موسيقياً بارعاً، ومغنياً مجيداً، وعازفاً ماهراً. وقد ساهم على نطاق واسع في نشر الموسيقى العربية في الأندلس. وكان غناؤه وعزفه يقومان على أسس مدروسة تقوم على سلم الموسيقى. وهو أديب متمكن، اطّلع على علم العروض الذي وضعه الفراهيدي، وكان ملماً بعلم النحو. والشيء الذي يدعو إلى الدهشة والإعجاب أنّه كان شاعراً، حتى عده بعض مؤرخي عصره وكتابه في مصاف كبار الشعراء وفحولهم في الأندلس.

عباس بن فرناس: حياته وأعماله:

هو أبو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرني، أو التاكريني (وقيل التاكراني) القرطبي. ولد في قرطبة، وهو من موالي بني أمية في الأندلس. لا يعرف تاريخ مولده، إلا أنّ بعض المؤرخين والباحثين يذكر أنّه ولد عام (١٨٠)هـ. وتوفي عام (٢٧٤)هـ. بينما يذكر بعضهم بالتقريب أنّه ولد عام (١٩٤)هـ. وتوفي عام (٢٧٤)هـ. وهو من عائلة عادية بسيطة ذات أصل بربري من قبيلة (البرانس) أو (التبر) المستقرة في جنوب الأندلس. عاصر أثناء حياته الأمراء الثلاثة الحكم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم، ومحمد بن عبد الرحمن. وقد «تداول صحبة السلاطين الثلاثة ومدحهم أجمعين».

وفي عهد هؤلاء الحكام مارس عباس ابن فرناس نشاطه العلمي والفكري والأدبي. وقام بتجاربه في جو من الحرية لم يجدها في غير هذا العصر. وقد أتقن اللغة اليونانية فترجم عنها إلى العربية من كتب اليونان في الفلسفة والموسيقى ما ترك أثراً في الحياة الفكرية وقد

ابــدى اهتماماً كبيــراً بالفلسفة، واشتغل بها وبأدواتها، ممــا أكسبه لقب (الحكيم) أو (حكيــم الأندلــس)، وقيل عنــه «كان فيلسوفاً حاذقاً». كما اشتغل بالاختراعات والكشوفات في ميادين العلوم التجريبية. كاختراعــه (ذات الحلــق)، وهي آلة تمثل حركة الكواكب السيّارة وما ينتج عنها من تأثيرات طبيعية. كما اخترع آلة (الميقاتة) وهي آلــة لقياس الزمن. ويقال إنّه اخترع آلــة أسطوانيــة الشكل تستخــدم للكتابة والخط، وتُغــذّى بالحبر. وهي بمثابة قلم الحبــر المستخدم في الوقــت الحاضر، فيكــون بذلك قد سبــق مخترعي الأقلام الحديثة بمئات السنين. وهناك مخترعات أخرى له لم تتوافر التفاصيل الكاملة عنها. واشتغل عباس بن فرناس أيضاً بعلم الفلك وله اسهامات رائدة فيــه. وأهم انجازات هذا العالــم، كما ذكرنا فــي البداية، هو محاولته العملية للطيران في الجو، والتي نجحت نوعــاً ما حيث طار لمسافة بعيدة بوساطة جناحين من الريش، إلّا أنّه سقط علــى مؤخرته بشــدة، لأنّه لــم يصنع له ذيلاً. ويقول بعض المؤرخين والمختصين أنّ عباس لا يمكــن أن يكون أهمل الذيل، خاصة وأنّه عالم ومجرب ولا بد من أنه قد درس حركــة الطيران بدقة، وقام بتشريح الطيور، وعــرف أجزاء الطائر الهامة في الطيران، وأن سقوطــه على مؤخرته كان نتيجة خطــأ ما ارتكبــه أثنــاء محاولته الهبــوط. ويرجــح تاريخ هــذه المحاولة إلى عام (٢٦٧)هـ، ثــم عاش بعدها ثمان سنوات، خلافاً لما توهمه بعض المؤرخين من أنّه توفي نتيجة سقوطه.

واشتغــل عباس بن فرنــاس بالكيمياء، ولــه محــاولات كثيــرة فيها، مــن أبرزها «أنّــه أول مــن استنبــط بالأندلس صناعة الزجــاج من الحجارة». وقد اتّهم عباس بن فرنــاس بالزندقة وتعاطــي السحر نتيجة اشتغالــه بالكيمياء، ورفعــت عليه دعاوى بتخريــب المعتقدات أدت بــه إلى المثول أمام القضاء. ولكــن القضاء أنصفه وبرأه مــن كل التهم التي ألصقت بــه. وكما قلنا في البداية أنّ عباس بــن فرناس زاد على كل هذه النشاطــات العلمية والفلسفية بما يوازيهــا من نشاطــات فنيــة وأدبية فكان معمارياً ونحاتــاً وموسيقياً وعازفاً ومغنياً، ثم أخيراً شاعراً مبدعــاً، حتى وصف بأنه «أوحد زمانه في العلوم والفنون».

عباس بن فرناس شاعراً:

«يصحّ القــول بشاعريــة عباس بن فرناس من خلال ما أوردت المصادر له

من شعر جزل المعاني. ولعل ما جاء به هذا الشاعر يمثل الشعر في هذه الفترة من الأندلس أصدق تمثيل في سيره في اتجاه جديد لمعالجة موضوعات تقليدية وفي إطار متجدد. ولقد حاول من خلال منهجه التقليدي الاتباعي القديم هذا أن يبني لنفسه ما أمكنه شهرة الشاعر المجود، وأن يكون رائداً لنهج المحدثين من شعراء البلاط».

وقد قال عنه صاحب كتاب (طبقات النحويين واللغويين) «إن الشعر كان أغلب أدوات عباس بن فرناس عليه».

ويؤكد ابن حيان شاعريته من خلال المعلومات الوافية التي يقدمها عنه في هذا الجانب، حيث يورد كثيراً من شعره ونظمه المستحسن. ويصفه بأنه «شاعر الأمير محمد بن عبد الرحمن» البديع. وأنه «فحل الشعراء الخنذيذ» وأنه كبير الجماعة من الشعراء والأدباء الذين كانوا يختلفون إلى بلاط الأمير محمد ابن عبد الرحمن، ثم يقر هذا المؤرخ بأنّ عباس بن فرناس هو في مصاف كبار الشعراء وفحولهم في الأندلس. ويقول عنه الأستاذ (سوادي عبد محمد): «لقد مثّل عباس بن فرناس الشعر الأندلسي في سيره في اتجاه جديد لمعالجة موضوعات تقليدية في إطار متجدد، فكان الرائد في نهج المحدثين من شعراء البلاط».

وبالمقابل فإنّ بعض النقاد يقولون: «بأنّ عباس بن فرناس هو من ضمن الشعراء النظّامين الذين لا يمتازون بموهبة أو براعة، وأنّ شعره ينطق بنفحة سياسية واضحة، وأنّ سر امتيازه لا يرجع إلى براعته في الشعر بقدر ما يرجع إلى حياته الخاصة الطريفة».

إنّ هذه الآراء والتحليلات لا يمكن التسليم بها، إذ علينا الالتفات إلى أعماله الشعرية واستعراضها باستيفاء جميع المصادر ودراستها دراسة مستوعبة، فنجد فيها أغراض شعره التي طرقها وأجاد فيها مثل الغزل والوصف والمديح وغيرها مما يحفل به الشعر العربي.

وبما أنّ عباس بن فرناس عالم ومخترع ومبتكر، فإنّ أول ما يلفت نظرنا هو استخدامه الشعر ببراعة في وصف اختراعاته ومبتكراته. كقوله يصف آلته الفلكية المسماة (ذات الحلق)، التي قدمها للأمير عبد الرحمن بن الحكم، والتي يذكر فيها وظيفة هذه الآلة قائلاً:

قد تمّ ما حملتني من آلة
أعيا الفلاسفة الجهابذ دوني
لو كان بطليموس ألهم صنعة
لم تشتعل بجداول القانون
فإذا رأته الشمس في آفاقها
بعثت إليه بنورها الموزون
ومنازل القمر التي جمعت معاً
دون العيون بكل طالع حين
يبدون فيها بالنهار كما بدَت
بالليل في ظلماتهن الجون

كما نقش على آلته (الميقاتة)، التي قدمها للأمير محمد بن عبد الرحمن، بعض الأبيات، يقول فيها:

ألا إنني للدين خير أداة
إذا غاب عنكم وقت كل صلاة
لم تُرَ شمس بالنهار ولم تنر
كواكب ليل حالك الظلمات
بِيُمنِ أمير المسلمين محمد
تجلت عن الأوقات كل صلاة

ويكتب الشاعر إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن يحثه على أنّ يهبه الدفتر الذي كان يحتفظ به، وهو تقويم فلكي فيه رموز واصطلاحات في علم النجوم. وهذا دليل واضح على اهتمام عباس بن فرناس بعلم الفلك:

ولا تنسين الدفتر المحكم الذي
هو الغاية القصوى إلى آخر العمر
فيا أسفي إن نال مكنون علمه
سواك من الأملاك في غير ذا العصر
وزدني من الإدناء ما قد وعدتني
فوعدك مضمون إلى حجج عشر

ومما يذكر ابن حيان بشأن كتابة عباس ابن فرناس لأربعة أبيات بالذهب على تفاحة محجولة إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن، نفهم براعته في صياغة المعادن الثمينة وتطويعها. وتقول الأبيات:

تفاحة مصغرة البعض
بخوفها من ألم العض
أمنتها ذاك وكتبتها
حسناً بذا من ذهب محض
وقلت فيها الحق من بعد ذا
وما لقول الحق من نقص
محمد أكرم مستخلف
من خلفاء الله في الأرض

أمّا المديح، فقد أجاد فيه الشاعر كثيراً، فمدح الأمراء الثلاثة الحكم بن هشام، وعبد الرحمن بن الحكم، ومحمد بن عبد الرحمن، وبعض مشاهير عصره. ويبدو أنه لجأ للمدح للحصول على الأعطيات والجوائز وذلك ليستطيع الإنفاق على تجاربه ومخترعاته العلمية الكثيرة والمتنوعة، ولشراء الأدوات والمواد اللازمة له في مختبره. وقد

استطاع عباس بن فرناس أنّ ينتزع استحسان ابن حيان لقصيدته التي قالها بمناسبة تسلم الأمير محمد بن عبد الرحمن حكم الإمارة بعد وفاة أبيه وفيها يقول:

ما غابت الشمس حتى أشرق القمر
محمد فارتضاه الله والبشرُ
يا ليلة أسفرت قبل الصباح عن المهد
ي يفديك عني السمع والبصر
لتطبقن على الدنيا خلافته
سماء جود لها ماء اللهى مطر

كما يقول في مدح أحد مشاهير عصره وأجواده ويدعى محمود:

شددت بمحمود يداً حين خانها
زمان لأسباب الرجاء قطوع
بنى لمساعي الجود والمجد قبة
إليها جميع الأجودين ركوع

ويقول وهو يقرن نصر الأمير محمد بن عبد الرحمن في إحدى المعارك بحضور عيد الفطر:

إنّ القفول الذي أوفى بعيدَيْنِ
مكرَّمَيْنِ على الدنيا عزيزَيْنِ
قدوم أكرم من في الأرض قاطبة
قدوم فطر فكانا خير عيدين

ويقول كذلك، في حق الأمير، وهو يقمع ثورة أهل طليطلة من المولدين وحلفائهم الإسبان عام (٢٤٤)هـ. حيث استطاع أنّ يخرِّب قنطرة طليطلة التي وضعوا عليها القتال، لئلا يتسرب منها الثائرون إلى مدينة طلبيرة:

يا ابن الخلائف يا محمد يا
من سيفه في راحة النصر
ما إنْ تقوم لحر بأسك في الد
نيا محصنة من الدهر
أضحت طليطلة معطلة
من أهلها في قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها
مهجورة الأكتاف كالقبر
ما كان يبقي الله قنطرة
أضحت سبيل كتائب الكفر

وكذلك ما أنشده عيسى بن أحمد الرازي من شعر عباس بن فرناس في ذكر الحرب بقلعة الخنش ومقاومتها المجانيق التي كان يرميها الفرنجة عليها عندما حاصرتها لإرغامها على الاستسلام والسقوط:

يا ابن الخلائق من مروان أنْجَبَك ال
بيض الجهاضيم والغر اللهاميم
سخرت للخنش المرجوم ذا جشش
كل البرية إن يقصده مهزوم
كأنّ أنفاسه من سمه لهب
فكل ما مس ملدوغ ومغشوم

ما قلعة الخنش المرجوم صامدة
لجحفل حرجت عنه الدياميم
كاليم تسمع في حافاته قصفاً
من كل أوب له كالرعد هينوم
كأنّما بين لُجّيه وقد درجت
سفينة عطبت في جوفها روم
لله من ذلت الدنيا لصولته
ومن له الدهر أعلى الفتح مقسوم

ويعد بعض المؤرخين عباس بن فرناس من الشعراء الوصّافين، فله في هذا الصنف من الشعر باع طويل، وذلك أسوة بشعراء الأندلس المعاصرين له، أو من أهل الفترات اللاحقة. ومن ذلك قوله في وصف روضة:

ترى وردها والأقحوان كأنّه
بها شفة لمياء ضاحَكَها ثغرُ

أو كشعره في وصف (المنية) وهي بناء رائع بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن، وهي من أجود ما قاله:

وأعرافه الشم التي لاح دونها
نجوم الثريا والسماكين والغفْرِ
وإذ بلغ النضْرُ المكثّر فرعها
وصوّبَ لم يبلُغْ إلى الأرض في شَهْرِ
لها الغُرفُ البيضُ التي يضحكُ الضُحى
وتلحفُها من نورها في سنا الغر
كأن قصور الأرض بعد تمامه
نتوء الذرى أخفى شخوصاً من الذر

ومن جميل شعره وصفه لكوز حيث يقول:

ومعمم لم يبق في جثمانه
إلا حشاشة مهجة لم تزهقِ
حنيت على كشحيه من برحائه
عضدان فهو موثّقٌ لم يطلق
حُلَّتْ عِمامةُ رأسه فتضوّعت
منه مفارقه بمثل الزنبق

كما يقول في وصف فلاة:

موسومةٌ بالبعد تحسب سهلها
ألقى السماء بحوله أطنابا
فكأنها دار تقاذف صحنها
لم يجعل الباني لها أبوابا

وقد أورد أبو عبد الله محمد بن الكتاني صاحب كتاب (التشبيهات) من أشعار أهل الأندلس نماذج من شعره في باب الطرد (الصيد) حيث يقول:

قد أغتدي والليل مركوم الظُّلَمْ
والصبح في ثني الظلام المكتتمْ
بأغضف معلم أو قد علم
كأنّ شق الشدق من فيه القضم
عنّت لنا أرنب من نحو سلم
فثار منها الكلب كالصقر الشهم
حتى إذا ما كان فهان في الأمم
بينهما في الفوت مقدار القدم

جــادت لــه بـعـطـفـه لـم تـهـدم
كما انثنى في رجعه مشق القدم

ولعباس بن فرناس شعر جميل في الغزل، وهو يعتبر استكمالاً لشعره في الوصف، حيث لا يمكن التقليل من القيمة الأدبية له.

وقد يتعجب كثير من الناس كيف يمكن لعالم جليل وفيلسوف حكيم وأديب مبدع كعباس بن فرناس أن يقول شعراً في الغزل! وقد يكون الجواب في أنه قال شعر الغزل أسوة بباقي شعراء عصره في الأندلس، حيث سار على نهجهم وطريقتهم، كما هو مألوف ومعروف آنذاك. أو أنّه اضطر لذلك لظروف خاصة كانت تحيط به، أو أنها مشاعر إنسانية صادقة والمشاعر الإنسانية لا تفرق بين إنسان وآخر، خاصة وأننا لا نعرف شيئاً عن حياة عباس بن فرناس الخاصة وظروفه الاجتماعية.

ومن بديع شعره في الغزل والذي أورده له الثعالبي قوله:

وأحور ما تغفى العيون من العشق
له كذب في الجد أحلى من الصدق
وللحسن في خديه شمس مقيمة
وبـدر كـمـال لا يـحـور إلـى محق
وما العيش إلا ميتة الهجر والنوى
بـأحـور ما يبقى هـواه ولا يبقي

ويصف لقاءه مع حبيبته قائلاً:

فبتنا وأنـواع النعيم ابتذالنا
ولا غير عينيها وعيني كالي
إلـى أنْ بـدا وجـه الصباح كأنّه
جـبـين فـتـاة لاح بـين حـجـال

كما يقول في الحب أيضاً:

تحفظ من الهجران إنْ كنت تقدر
يموت الفتى في حبه حين يهجر
فـأمـا إذا مـا بـان عـنـه حبيبه
فلا شك فيه ذلك اليوم يقبر

ونكتفي أخيراً بما أوردناه من شعر لعباس بن فرناس، والذي نرجو أن نكون قد أثبتنا به أنه شاعر مجيد بقدر ما هو عالم فريد، وأنّ نكون قد أضفنا، ولو الشيء القليل، من المعلومات المجهولة عن هذا الأديب والعالم الموسوعي الموصوف (بنسيج وحده) في العلم والفن والأدب، والذي نرجو أنّ يبادر بعض الأدباء والعلماء والباحثين المختصين ليزيلوا عنه غبار النسيان والإهمال ويلقوا الضوء على الجوانب المجهولة من حياته وأعماله.

المراجع والمصادر

١- عباس بن فرناس، سوادي عبد محمد، مجلة عالم الفكر الكويتية، العدد الرابع من المجلد السابع عشر، شباط- ١٩٨٧م.
٢- الحضارة العربية الإسلامية، أحمد شوكت الشطي، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤م.
٣- ليس عباس بن فرناس وحده، محمد حسام الشالاتي، مجلة المعرفة السورية، العدد (٥٩٣)، شباط-٢٠١٣م.
٤- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت ١٩٧٩م.

الشيخ بدر، وبعضٌ منَ التاريخ

إسماعيل محمد إسماعيل ❁



الشيخ بـدر، تسميـةٌ لموقعٍ قديم، كان يحمـلُ اسماً سريانياً، شـأن أغلـب المواقـع القديمة المعروفة في بلادنـا. والتسمية هي (أندروسة) ولهـا بالسريانيةِ معنيـان: الأول: (بيـدر الغِلال) والثانـي: (الموقع الـذي تحميهِ التلال)، والمعنيان ينطبقان على الموقـع. وعندما دُفِـنَ (بدر بن شاكر) فـي الأندروسة، أعطاها

❁ كاتب سوري.

اسمَــهُ (الشيخ بدر). بــل، توسّعَ نطاقُ هذه التسمية لتشملَ المنطقة الإدارية بكاملها.

بدر بن شاكر:

نستطيع التعرّفَ على بدر بن شاكر، من خلالِ مَصدَرَين:

- **المصــدر الأول:** هو شجــرةُ النسَبِ التي يحتفظ بها أحفادُهُ من أهلِ المنطقة. وفي هذه الشجــرة نجدُ أنّ أجداد بدر بن شاكر جميعهم يحملــون لقب الأمير، بدءاً من جَــدّهِ الأقــرب (فضل الديــن). ومن هؤلاء الأجداد الأمــراء، مَن كانوا حُكّاماً. فأحدهم حاكم حَماه، وآخر حاكم مصياف. ويصلُ هذا النسَب إلــى الأسرة الفاطمية الحاكمــة فــي مصــر، مــروراً بالخليفة الفاطميّ المُعِزّ لدينِ الله، وهو الخليفة الــذي نقلَ مركز الدولةِ من (المَهدية) في تونس، إلى القاهرة، التــي بناها لهُ قائدُهُ (جَوهَر الصقلّي)، ليصِلَ النسَبُ بعد ذلك إلى إسماعيل ابن الإمام جعفر بن محمد (الصــادق). وبالتالي ينتهي النسَبُ إلى آل بيت الرسول، صَلى الله عليهِ وسَلّم.

وشجرةُ النسَب تعرِّفُ بأجدادِهِ بمعلومةٍ موجَزة: مثلاً: (الأميــر عبد الله المحرزي في ســوق العقيق عند العمــود الأسوَد في مصــر)، و(الأميــر محمــد صاحــب قلعة العلّيقة)، والعلّيقــة، قلعةٌ في ريف بانياس.

ومــن هذه التعاريــف البسيطــة نستدلُّ أنّ أسرة بدر بن شاكــر، قدِمَتْ إلى سورية في وقتٍ مبكر، سابقٍ للحروب الصليبية، وربما كان ذلك الوقــت، بداية سيطرة الفاطميين على الجزء الأكبر من سورية، بقيادة (جعفر ابــن فلاح). وحتى زمن بدر بن شاكر، كانتِ الأســرةُ تحتفظُ بنفوذٍ في المنطقة. فبدر، نفسُهُ مدفونٌ في الأندروسة. وابنهُ (حيدر) في أعالي جرود منطقة جبلة، وجَدّهُ فضل الدين، في (تَلاّ) شمال اللاذقية.

- **المصــدر الثانــي:** هــو الروايات التي يتداولهــا أهلُ المنطقــة، نقلاً عــنِ الآباءِ والأجــداد. وتقولُ هذه الروايــات، إنّ بدر ابن شاكر كانَ مُكلَّفــاً بمَهَمّةٍ قتالية، وهي حِراســةُ الشواطئِ السوريــة من قرصناتِ العدوّ الفِرنجيّ، زمــن الحروب الصليبية. والصفة المُلحَقة باسمه: (بدر الغفير) تدلُّ على هذهِ المَهَمّة. واللافتُ، أنّ كلمةَ غفير وغفَر تُستعمَــلُ باللهجــةِ المصريةِ، بدلاً ممــا نقول في سورية، خفيــر و، خَفَر. ثمّ إنّ الرمــاح الثلاثة التــي كانت، حتى عهدٍ قريب، محفوظةً فــوقَ ضريحه، تدلّ على مَهَمّتهِ القتالية. كانــت هذه الرماح طويلةً للغايــة، وقــد اكتسَــتْ بلونٍ داكــنٍ يوحي بقِدَمِها، بل يُشعِــرُ الناظرَ إليها أنّ للتاريخِ

جَـــلالٌ وهَيبـــة. وربما أوصـــى الشيخ بدر نفسُـــهُ، بوضعِ هذهِ الرماح فـــوقَ ضريحِه، لتبقى شاهدةً على جِهادِه. وليَتشبّهَ بسَلَفِهِ سيف الدولة الحَمَداني، الذي أمَرَ أنْ يُجمَعَ الغبارُ العالقُ بثيابِه، بعدَ المعَارِكِ، لتُصنعَ منهُ لبِنَةً توضَعُ تحتَ رأسِهِ في لَحدِه.

وتقـــولُ هذه الروايـــات أيضـــاً، أنّ بدر ابن شاكـــر عاشَ زمن السلطـــان المملوكي الظاهـــر بيبرســـ (١٢٦٠ - ١٢٧٧م)، وأنّ هذا السلطان قد كلّفـــهُ بمَهَمّةٍ دبلوماسيةٍ، فأوفدَهُ في سفارةٍ إلى روما[١]، وكتب التاريخ تتحـــدثُ عن نشاطٍ دبلوماسيٍّ واسعٍ قامَ بهِ الظاهر بيبرس قبلَ حروبِهِ ضدّ الصليبيين. وعقـــدَ جملةَ تحالفـــاتٍ واتفاقياتٍ معَ دولٍ في الشرقِ والغـــرب، مثل: دولة المغول في الشـــرق بقيادة (بركة خـــان) وهم قسمٌ من المغول اعتنـــقَ الإسلام. وفـــي الغرب، مع الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة، والإمبراطورية الرومانية المقدّسة[٢].

هـــذهِ المعلومات المأخوذة مـــن شجَرةِ النسَب، ومن الروايـــات الشفهية، قد يأخذ بهـــا المؤرِّخون، ولكنها لا ترقى إلى مستوى الوثائقِ التاريخيـــةِ المؤكّدة. أمّا المعلومات المتوافـــرة عـــن الشيخ بدر كقريـــةٍ قديماً، ومدينـــةٍ حديثـــاً، فهي موثّقـــة لأنها قريبة العهد بنـــا، ووَردت فـــي كتـــب التاريخ، أو برواياتِ الآباءِ والأجداد القريبيّ العهدِ بنا، ومنّهـــا ما نشهده في زمننـــا الحالي. وهذه المعلومات هـي:

المعلومة الأولى:

كانـــت الشيـــخ بـــدر قريـــةً صغيرةً، لا يتجـــاوز عـــددُ بيوتِها عـــدَدَ أصابعِ اليدِ الواحدة. والمَهَمّـــةُ الأساسيةُ لساكنيها هي خِدمةُ الضريح، وخِدمةُ زائريه القادِمينَ من مناطقَ بعيـــدة. كان ذلك في عهد الاحتلال العثمانـــيّ. وفـــي أواخرِ هذا العهـــدِ لمَعَتْ بارِقـــةُ أملٍ أمامَ القريـــةِ الصغيرةِ، لتحوِّلَها إلـــى مدينةٍ، أو شبهِ مدينـــة. وذلك، عندما عُيِّنَ المُصلِحُ العثمانـــيّ المشهور (مدحت باشـــا) والياً علـــى سورية. فقـــد دَعا هذا الوالي شيـــوخَ الجَبَلِ ومُقدَّميهِ، إلى اجتماعٍ في مدينةِ حَماه، وخاطبهم خطاباً جديداً: يـــا أبنائي.!. وسألهم عن سبـــبِ النفورِ بين أهلِ الجبـــلِ، والدولةِ العثمانيـــة.؟ وأجابَ بنفسِـــهِ عن سؤالِـــهِ: بسببِ الغـــاراتِ التي تشنّها السلطةُ على أهـــلِ الجبلِ، لتحصيلِ الضرائبِ، وتجنيدِ الجنود.

ويذكـــرُ مدحـــت باشا هـــذا الاجتماعَ في تقريـــرِهِ عن أحوالِ ولايـــةِ سورية عام (١٨٧٩م)[٣] فيقـــول: (وأمّنتُهُم على إجراءِ تحريرِ النفوسِ والأمـــلاكِ والأراضي، من

جديد، فأقَرّوا بذلكَ برضائهم، لتأمينِ إدارةِ الجبَلِ المذكورِ، وتنظيــمِ أموالِهِ الأميريةِ، وتحصيلِ قسمٍ ممّا هو متراكِمٌ على الجبلِ من البقايا التي تبلــغ قيمتها خمسةَ عشرَ مليون قرش. وعَلّقــتُ تنفيذَ قرارِهم على تأديــةِ ذلكَ المبلغ. وكان ذلــكَ يحتاجُ إلى مصروفاتٍ تبلغ (٣) يو كات[٤] من القروش. لكنّ جواب أمانة الضرائــب البرقيّ أفادَ، أنّ الوضع الماليّ الحاضر، لا يُساعِدُ على صــرفِ هذا المبلغ، لذلك بقــيَ الموضوعُ علــى حالِه.) وفــي هذا الاجتمــاع اقترَحَ مدحت باشا أنْ يجعلَ الجبَلَ لواءً مُستقِلاًّ، مركــزهُ قرية الشيخ بــدر[٥]. وهنا نتساءل، لمــاذا اختارَ الوالي هــذهِ القرية الصغيرةَ لتكــونَ مركزاً لوَحدةٍ إدارية، بمستوى لواء، أو محافظة؟! ربما لأحدِ الأسبابِ التالية:

١- موقــع الشيــخ بــدر المتوسّط في الجبل، بين الشرقِ والغــرب، وبين الشمالِ والجنوب.

٢- لوجودِ نبعِ ماءٍ فيهــا، يكفي لإقامةِ تجمُّعٍ سكانيٍّ بمستوى مدينةٍ صغيرة.

٣- لوجودِ ضريح الشيخ بدر الذي تتبرّكُ بزيارتِهِ مختلف أطياف المنطقة.

وربما للأسبابِ الثلاثةِ مُجتمعة.

كانت بارقةً، فقط. وتحقيقها كان يعني دَفعَ الشيخ بدر تسعينَ عاماً للأمام[٦].

لقــد كان مــن ســوءِ حظِّ سوريــة أنّ هــذا المُصلِح الكبير وُجِــدَ في ظلِّ أكثرِ السلاطينِ استبداداً، وهو (السلطان عبد الحميــد الثانــي). فقد كانــت جواسيسُ السلطان تلاحِقُ مدحت، وتكتبُ للسلطانِ عن أقوالِهِ وأفعالــه، بالكذبِ، وبالصدق. وساعدهم المُتزلِّفــونَ للسلطان، حِفاظاً على مَكاسِبهم، فصوّروا لهُ أنّ الوالي يعملُ على فصلِ سورية عنِ الدولةِ العثمانية، ثمّ سيسلّمهــا للدولةِ الفرنسية. وقد اعتمَدوا بتهمتهــم هذهِ على العلاقــةِ الجيدةِ التي تربطُ بين مدحت باشا والأمير عبد القادر الجزائري[٧] المُتمتِّعِ بالحِمايةِ الفرنسية. فنقلــتِ الإدارةُ العثمانيــةُ مدحــت باشا، إلى ولايةِ إزمير. ثــم اعتُقِلَ هناكَ، وأُبعِدَ إلــى (جَدّة) فــي الحِجاز، ثــم إلى سجنٍ فــي (الطائف) حيث لاقى أنواعَ التعذيبِ، والتجويــع، وربما قضوا عليــهِ بالسُّمّ مع ثمانيةٍ من رفاقه، وذلك عام (١٨٨٣م)[٨].

وقد طالَ غضــبُ السلطنةِ أحدَ زعماءِ الجبَلِ، وهوَ (هَوّاشــن بن إسماعيل[٩] خيري بــك)، لأنّــه كانَ مقرّباً من مدحــت باشا، فاعتُقِلَ في دمشق ثــمّ أُبعِدَ إلى عَكّا ومنها نُفــيَ إلــى جزيــرة (رودوس) حيــثُ توفيَ هناك[١٠].

المعلومة الثانية:

تعودُ هذه المعلومة إلى نهايةِ الحرب العالميــة الأولـــى، وتحديــداً إلى (عام ١٩١٨م)، عندما أخذت القوات الفرنسية تنزلُ في الساحلِ السوريّ، بدءاً من رأس الناقــورة جنوباً، حتى اسكندرون شمالاً. فقد شهِدت الشيخ بدر في الشهرِ الأخير مـــن ذلك العام مؤتمَراً وطنياً، على غايةٍ مـــن الأهَمية، حضَرَهُ وُجَهـــاءُ المنطقةِ، وشيوخُها. واستمرّتْ مُداوَلاتُ المؤتمِرين ثلاثة أيـــام، خرجـــوا بعدهـــا مُقتنِعينَ أنَّ مـــا قامَـــتْ بـــهِ فرنسا فـــي الساحل السوريّ، ليسَ تحريراً مـــن العثمانيين، كمـــا ادّعَتْ، بل هوَ احتلالٌ فرنسيٌّ. وقد عَلِمَ المؤتمِرونَ أنّ فرنســـا أنزلَتِ العَلَمَ العربيَّ عنِ الساحِلِ السوريّ، بل، وداسَتْهُ بالأرجُـــلِ، أحياناً، ورفعَـــتْ مكانهُ العلَمَ الفرنســـيّ. وبناءً على هذه القناعةِ، قرّرَ المؤتمر مواجَهَـــةَ فرنسا بثورةٍ مُسَلَّحة. وانتخبَ المؤتمِرون (الشيخ صالح العلي) - وهـــوَ الداعي لهـــذا المؤتمَر - قائداً لهذهِ الثورة[١١].

لـــم يولِ المؤرِّخـــونَ هـــذا المؤتمرَ ما يستحقُّ من الأهمية. فقد انسحبتْ مُقرّراتُهُ على كاملِ الأرضِ السورية. وإن لم يكنْ لهذا المؤتمَـــر أثرٌ في قيامِ باقـــي الثورات، فقد كانَ الرائدَ، والبادئ. وما زالَ أهلُ المنطقةِ يفخرونَ بأنهـــم أوّلُ مَن أطلَقَ رصاصةً ضدَّ الاحتلالِ الفرنسي.

توجّهـــتْ أنظارُ العدوّ إلـــى الشيخ بدر، عَقِبَ المؤتمرِ مباشرةً،

ثمّ توَجّهتِ الجيوشُ، وشَهِدت الشيخ بدر معـــاركَ داخلها، وحَولهـــا، وكثيراً ما أحرَقَ الفرنسيـــونَ بيوتَ سُكانِهـــا، وبيوت القرى القريبةِ منهـــا، وخاصّةً قريـــة (المريقب) مسقـــط رأس الشيـــخ. ثمّ توجّهـــت أنظارُ الصديـــقِ إليها، فقـــد لقيتْ دَعمـــاً مادياً وعسكريـــاً مـــنَ الداخِـــلِ الســـوريّ، وكانَ الاتصالُ بين الشيخ بدر ودمشق يتمُّ يومياً، عبـــرَ المُراسِليـــن. وفيصل بـــنُ الحسين، الأميرُ، ثمّ الملـــك، يقدِّمُ للثورةِ مساعداتٍ مستمِـــرّة، ومتنوِّعة. والوطنيـــونَ من أنحاءِ سوريـــة كافـــة والمُغترَب أيضـــاً، يجمعونَ التبرّعاتِ، ويوجِّهونهـــا إلى المُقاوِمينَ في الشيـــخ بدر. وقامَ تعاوُنٌ بيـــنَ ثورةِ الجبال الساحلية، وثـــورة الشمال، بقيادةِ (إبراهيم هنانو). ويُثنـــي الشيخ صالح على ما قدّمهُ هنانو من سلاح، وذخيرة.

وشهـــدت الشيخ بدر خلال الثورة نشاطاً دبلوماسيـــاً عالـــي المستوى، عندمـــا أرسلَ الجنـــرال الإنكليزي (اللنبـــي) قائد جيوش الحلفاء فـــي الشرق، كتاباً خاصاً إلى الشيخ

صالــح طالباً منه التفاوض مــع الفرنسيين لإنهــاء الأعمــال القتاليــة، علــى أنَّ تكون المفاوضات في مدينة طرطوس. لم يكن من مصلحة الثورة معاداة بريطانيا وفرنسا في وقـتٍ واحد، فوافقَ الشيــخ على التفاوض، مُشترطــاً أن يكون المكان الشيخ بدر وليس طرطوســ. وقد عــزّزَ الشيــخ موقفهُ بهذا النقل، حيث يستطيع أن يلوِّحَ بالعصا لتحقيقِ نصــرٍ دبلوماسيّ. وسيبــدو ذلك من خلال الأحداث، فقد أصــرّتْ فرنسا على إحضار مؤيِّديهــا، وإشراكهم في التفاوض، وهذا ما رفضه الشيخ، فتدخلَ الضباط البريطانيون، وقدّموا حلاً وسَطاً يقضي بحضور المؤيدين، لكن دون إشراكٍ فــي النقاشِ أو الرأي، بل، كمستمِعيــنَ فقط. وحين بدأ التفاوض، نفّذ هؤلاء المستمِعونَ مؤامَرَتهم، فوقفَ أحدُهم خطيبــاً – وكان في الخــارج- في الجموعِ المُحتشِدة، مُشيداً بفرنسا، ومخذّلاً الناسَ عــن الثورة، وأن لا طائلَ مــن القتال. فكانَ رَدّ الشيــخِ حاسِماً وسريعــاً، إذ انسَحَبَ من المفاوضــات، وتبِعَهُ رجالُــهُ ومؤيّدوه، بشبهِ تظاهُــرةٍ مُسلّحة، وعادوا إلــى الحيّ الذي يقيــم فيه الشيــخ (الرّستة). ولــم يبق في الميدانِ إلاّ أنصــار فرنسا عُراةً مكشوفين. وسرعان ما أرسَلَ الشيخُ مَن ينذرهم بمغادرةِ المكان تحت طائلةِ القتل(١٢).

وهنــا يأتــي دورُ الإنكليــزيّ الوسيط، حيــث أرسَلَ الجنــرال الإنكليــزي بعضَ ضباطِهِ إلى الشيــخ، طالباً منهُ العودةَ إلى مكانِ التفاوُضــ، فرفضَ الطلب، فقدّمَ له عَرضــاً آخر، وهوَ أن يحضــر الجنرالان، الإنكليــزي والفرنســي إلى بيــتِ الشيخ، لإكمالِ التفاوُض، فرفضَ استقبال الجنرال الفرنســي. فكان على الجنــرال الإنكليزي الوسيط، الانتقال بين الشيخ والفرنسيين، حتى تــمّ التوصّل إلى أسُســٍ للمفاوضات تحقّــقُ آمــالَ المُجاهِديــن. وعلــى هذه الأسُســ، عادَ الشيخُ لإكمــالِ المُفاوَضات التي انتهَتْ لصالحِ المُجاهِدين. وأهَمّ بندٍ فيهــا، إعادةُ الساحل الســوري إلى سورية الأمّ. ويبــدو أنّ فرنسا قــد وافقتْ بسَخاءٍ على مَطالِبِ الشيخِ، لأنها كانت تُبَيِّتُ أمراً آخــر. فقد كانَ هذا الاتفــاقُ قُبَيلَ معركةِ ميسلون بأسابيعَ قليلة.

وقــد مَثّلَ الضبــاط الإنكليــز سياسَةَ بلادِهم خيرَ تمثيــل، لأنهم عَملوا بوجهَينِ مُتناقِضين. فخلال المُفاوَضات، بحضورِ الفرنسييــن، يهــدّدونَ ويتوَعّــدونَ، وأنهم سيسَوّونَ الجبَلَ بالبحر... وعندما يزورونَ الشيخ في بيته مساءً، يحرّضون المُجاهِدينَ ضــدّ فرنسا. وقــد قدّموا للشيــخ بعضَ المعلومات، ليثِقَ بحُسنِ نواياهم(١٣).

واحتلّتْ فرنسا كاملَ سورية، وحاصَرتِ الثورات القائمة فيها، وتوقّفتِ الأعمالُ القتالية. ولكنّ فرنسا بقيتْ تنظر بعينِ الرّيبة إلى الشيخ بدر، التي يمكن أنْ تعودَ من جديدٍ للأعمال القتالية، مما يضطرّها لاستنفار جيوشِها من جديد، فأقامَتْ ثُكنةً عسكريةً في الجبلِ المُشرِف على الشيخ بدر، لتكونَ مَرصَداً تُراقِبُ منهُ فرنسا، القريةَ الصغيرة، وتراقبُ بيت الشيخ صالح العلي وما يجري حَولَه، ضماناً لأمنِها واطمئنانِها.

المعلومةُ الثالثة:

تحَقّقَ الاستقلالُ، وجَلا الجيش الفرنسيّ عن سورية عام ١٩٤٦م. وقد كان الاستقلالُ بدايةً لنشاطاتٍ عدّة لدى المواطنين الذين شعَروا بزوالِ القيودِ والمَحظورات. ومن هذهِ المَحظورات، النشاط السياسيّ، الذي انفتَحَ الآن على أبوابٍ عريضة، ولم يعُدْ مَقصوراً على طبقةٍ سياسيةٍ مُحترِفة، وقد تجَلّى بانتشارِ الأحزابِ، والانتماءِ إليها، ولا يحدّ من الانتماءِ قيدٌ، أو شرط. حتى أصبَحَ الانتماءُ إلى أكثرَ من حزبٍ في الأسرةِ الواحدة، حقيقةً واقِعة. وقد كان النشاط الحزبيّ في الأرياف جَلياً وبارِزاً، وجاءَ رَدّاً على عقودٍ من القمعِ السياسيّ خلال الحقبةِ الاستعمارية. والأحزاب التي انتشرتْ في منطقة الشيخ بدر - موضوع البحث - كانت ثلاثة.

١-الحزب الشيوعي السوري، الذي انتمى إليهِ أفرادٌ، دونَ أن يكونَ لهُ خلايا، ودونَ تأييدٍ جماهيريّ.

٢-الحزب القومي السوري، الذي شَكّلَ المُنتمونَ إليه بعضَ الخلايا، ولكّنهُ أيضاً لم تكنْ لهُ قاعِدَةٌ شعبية.

٣-حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي انتشَرَ بسرعةٍ، وحَصَلَ على تأييدٍ شعبيّ، وكان ناشِطوه من المتعلّمين، ومن طلاب المدارس الثانوية، بشكلٍ خاصّ. وربما كانت دراسةُ التاريخ العربي، والشعر العربي، حافِزاً لدى الطلّابِ للانتماء القومي. ولا شكّ أنّ أفكارَ المرحوم (زكي الأرسوزي) لعبتْ دوراً هاماً في هذا الانتماء. فقد قدّمَ هذا المُفكِّرُ إشراقاتٍ لغويةٍ عربيةٍ، ودعا إلى ما سَمّاه (انبعاث الأمة العربية).

كانت الشيخ بدر بلدةً صغيرةً بعَدَدِ سكّانِها، لكنها كبيرة بنشاطِها الحزبيّ. فقد استطاعَت أن تقيمَ مهرجاناً للبعث يوم ٣ تشرين الأول عام ١٩٥٧م يمكن أن نسمّيهُ مهرجاناً قُطرياً. فقد توافدَ إليها الآلافُ من البعثيين من أنحاءِ القطر كافةِ، رغم قلّةِ وسائلِ المواصَلات، ووُعورة الطرقات. واستطاعتِ البلدةُ

الصغيـرةُ أن تقدِّمَ الطعـامَ للمئاتِ من ضيوفِهـا القادِميـنَ مـن المحافظاتِ البعيدة. في الوقت الذي كانت مَقاهيها لاتستطيـعُ أن تقـدِّمَ لروّادِهـا أكثرَ من كعكةٍ مع كأسٍ من الشاي.

لقد كان مهرجان عام ١٩٥٧م في الشيخ بـدر، شبيهاً بمهرجان حلـب عام ١٩٥١م. الـذي أقامَه (الحزب العربـي الاشتراكي) ولا شـكّ أنّ المهرجانيـن كانـا استعراضاً لقـوّةِ الحزب، وقوّة جماهيـره، وقد هَدَفَ مهرجان حلب، بالدرجةِ الأولى، إلى توجيه إنـذار سلمـيّ للإقطاع ورجالـهِ، في ريف المُحافظة، أما مهرجـان الشيخ بدر، فقد هَدَفَ إلى تأكيد الوحدةِ الوطنية، بين أبناء الجبـل وأبناء باقـي الوطن، فـي الساحلِ والداخِـل، وكَسرِ العزلـةِ التي فُرِضتْ على الجبَل في العصـور الاستعمارية. وقد قُدِّرَ عددُ الحاضرين بعشرين ألف مواطن(١٤).

المعلومة الرابعة

إحياءً لذكرى الجَـلاء، وتكريماً للجهاد والمُجاهِديـن، تقيـم الشيخ بـدر سنوياً، مهرجانـاً شعريـاً باسم (مهرجـان الشيخ صالح العلي) وتتضمّن فعالياتُهُ، إضافةً إلى الشعر، نشاطـاتٍ فنيةٍ، وثقافية، وسياسية. ويتوافـدُ الشعراء إلى هـذا المهرجان من المحافظات السورية كافة، بل، ومن الأقطار العربية. وتنتظرُ جماهيـرُ المُحافظةِ هذا المهرجـان بـكلِّ شـوقٍ لتسمـعَ القصائدَ الوطنيـة والقوميـة، فتحتشدُ فـي ساحةِ ضريحِ المُجاهِـد، بأعدادٍ تصلُ إلى بضعةِ آلافٍ، لتشكّلَ تظاهُرةً وطنيةً واضحة.

وقد شهدَ مهرجان هذا العام – إضافةِ إلـى الشعـر، فـي يومـهِ الأول– نشاطاً متميّزاً، فقد خصّصَ اليوم الثاني لكلماتِ رجالِ الدين، مـن العاصمة دمشق وريفِها، مثل، مديريّ الأوقافِ، والمُفتين، وخطباء المساجد، وعلى رأسهم وزير الأوقاف الشيخ محمد عبد الستّار السيد. فاستمَعَ الجمهورُ إلى كلماتهـمُ الوطنيـة المُفعَمَة بالصدقِ والإخلاصِ. وتقارَبَ الجمهورُ مع الخطباءِ، بالاستمـاعِ الجيّدِ، والتصفيـقِ المُستمرّ. واختُتِمَ المهرجان بمحاضرةٍ وطنيةٍ سياسية للمُحَلِّـل السياسيّ المعروف الدكتور أمين حطيط، الذي يقدِّرُ لـهُ السوريونَ مواقفهُ الشريفة، وأياديهِ البيضاء.

خاتمة

تعيشُ الشيـخ بـدر الآن، آلامَ الوطنِ وآمالَهُ. وتستقبلُ الباحثينَ عن الأمان من هذا الوطن. تودّعُ مُقاتليها، وتستقبلُ شهداءَها، واثِقَةً أنّ النصرَ دوماً للقضيةِ العادلة.

الهوامش

١- -تاريخ الدعوة الإسماعيلية. د.مصطفى غالب.
٢- الأيوبيون والمماليك، قاسم عبدو قاسم، وعلي السيد علي.
٣- الإدارة العثمانية في ولاية سورية، عبد العزيز محمد العوض.
٤- اليوك: مئة ألف قرش.
٥- تاريخ حمص، الجزء الثاني. منير الخوري عيسى أسعد.
٦- لأنّ الشيخ بدر أصبحت مركز منطقة عام ١٩٦٩م.
٧- كتاب مخطوط عن اسماعيل خير بك، وولده هَوّاش. عباس الشاملي.
٨- زعماء الإصلاح في العصر الحديث. أحمد أمين.
٩- إسماعيل خير بك (مُشير الجَبَل) متسلّم صافيتا وما حَولها، بين عاميّ ١٨٥٤ – ١٨٥٨م.
١٠- تاريخ صافيتا في العهد العثماني. منير صقر.
١١- ثورة الشيخ صالح العلي. د.عبد اللطيف اليونس.
١٢- المصدر السابق.
١٣- المصدر السابق.
١٤- أكرم الحوراني رجلٌ للتاريخ. حمدان حمدان

صدمة العنوان أم جاذبيّته، قراءة في قصة «الجقل»

هناء إسماعيل ❀



تتدرج قصّة (الجقل) للأديب مالك صقور، ضمن ما يسمّى الأدب الفانتازي، إذ ثمّة ما يخرج بالحدث من مستواه الواقعي إلى فضاء اللا معقول، عبر رحلة قسرية إلى العالم الآخر، يُساق إليها بطل القصّة (أبو العزّ) بعد أن فارق الحياة مدّة من الزمن، إثر نوبة قلبية مفاجئة، ليعود بعدها، وبقدرة قادر، حيّاً يرزق، زاهداً بما لديه، تائباً عمّا لا يعدّ ولا يحصى من الأخطاء والموبقات.

❀ أديبة وباحثة.

وابتداءً مــن العنوان يهيّئ القاص قارئه للدخــول في عالــم غير متوقّــع، فالجقل رمز الخبث والدهــاء والمكر، يغدو صادماً للذائقة الجماليّة، بوصفه عنواناً يُنتظَر منه أن يكون مكثّفاً للدلالة ومعبّراً عنها، وخاصة لدى التلقي التقليدي للعمل.

علــى أنّ الارتهــان لهذا الفهــم وحده لا يسير بنــا نحو قراءة جادة وواعية للنص القصصي، إذ القــرّاء يتمايزون فيما بينهم فــي عملية التلقــي تبعاً للثقافــة والجنس والمرحلــة العمريــة وسواهــا، وعليه فهم يسهمــون بشــكل أو بآخر في إعــادة بناء النصــ وإنتاج المعنــى، وعلى حــدّ تعبير شكلوفسكي، فــإنّ: «الإدراك وليس الخلق، الاستقبــال وليس الإنتــاج، تصبح عناصر منشئة للفن».[١]

ومــن هنا، كان لابدّ مــن الوقوف على بعض الآراء حــول العنوان، وما ينتظر منه لــدى أفرقــاء مختلفين، يتقاطعــون فيما بينهم من جانب، وينزاحون عن بعضهم من جانب آخر.

فالدكتور علــي نجيــب إبراهيم يرى أنّ كلّ كاتب يتطلــع إلى أنّ: «تكون لفظته المختــارة تكثيفــاً لمحتــوى كامــل قد يستغرق قصده، وسياق فكرته التي أسّس عليها نصّــه»[٢]، وهو ما يعيدنا إلى الفهم التقليــدي الشائع حول وظيفــة العناوين، فــإذا كان د.إبراهيم قد قصد بهذا الفهم تطبيقه علــى النص الشعري القديم، فإنّ دراسات أخرى لا تبتعد عنه كثيراً في هذا الفهــم، فالدكتور جابر عصفــور يؤكد أنّ حالات صيغيّة معيّنــة للعناوين من شأنها أن: «تفتــح أبــواب التأويل علــى مستوى التفسيــر، وأبــواب التوّقع علــى مستوى القراءة، فتتعدّد احتمالاتها»[٣].

وأمّــا الدكتور صلاح فضــل، فإنّه يرى أنّ: «الشفرة اللغوية - بمستواها الإيصالي - لا يمكن أن تكــون مجمل التحليل الكامل للعمل الأدبي، ولا يفسر سوى جزء يسير من سطحه القريب».[٤]

ورغــم أهميّــة العنوان فــي تلخيص مرمىً بعيــد للعمل الإبداعي إلا أنّ هناك من يحــذّر من الاستسلام الخادع له، ككل مكتمــل الدلالة، يغني عن قــراءة النص، وهو ما أشــار إليه والاس مارتن في كتابه (نظريات السرد الحديث) إذ رأى أنّ كثيراً منها: «قد يكون موارباً وملغّزاً حين البدء بالقراءة».[٥]

وهــو ما نجده لــدى دارسين عرب لعلّ من بينهم سعيد بنكراد فــي كتابه: (السرد الروائــي وتجربة المعنــى)، ومحمد صابر عبيد في كتابه: (تأويل متاهة الحكي).

وبعيداً عن التنظير، لا بدّ من الاعتراف بداية أنّ العنوان الصادم ذائقة القارئ، يحمل في طيّاته بنية متفجّرة عن متعدّد من الدلالات، فهو بطرافته أيضاً يؤدي دور الحافز الدافع إلى فعل القراءة، تقصيّاً لملامح هذا (الجقل)، وبحثاً عن أبعاده الدلالية المنتظرة، فهذا التقييد العنواني القائم على مفردة واحدة تحيل إلى جامد ذات، لا يمكن أن يقدّم دلالات واضحة تلخّص مجمل العمل القصصي، وإن كانت تقاربه من بعض جوانبه، من حيث ما يرمز إليه (الجقل)، وهي النقطة التي يتقاطع فيها الفن بالواقع، إذ القارئ الذي ينتظر أنْ تُكتشَف القصة منذ سطورها الأولى عما يرضي فضوله حول هذا (الجقل)، يجد نفسه أمام مشهد بعيد عمّا توقّع. فليس ثمّة جقل ولا غابة ولا دجاجات ولا سواها، وليس ثمّة إشارات وملامح تجعله يقبض على شخصيّة لها صفات الجقل الخبيث الماكر مباشرة، رغم أنّ توقّعاته المبدئيّة في مكانها، وهو ما ستكشفه المتواليات السرديّة اللاحقة، والحوادث التي يطوّرها القاص وفق تقنيّات متعددة، يلعب فيها الاسترجاع دور الكاشف عن شخصية البطل.. إلخ.

وإذا ما عرفنا أنّ للبداية القصصيّة دورها في إذكاء توقعات القارئ باعتبارها الفاتحة السرديّة أو بوّابة العبور إلى فضاء المحكي، فإنّنا نلاحظ كيف يبدؤها القارئ عبر فعل التهويل، الذي بدوره يزكّي توقّعاته، ويثير فضوله نحو ما جرى، في طموح لمعرفة علاقة ما يجري بالعنوان، فأبو العز قيد العناية المشدّدة، استُدعي أولاده من جهات ثلاث مختلفة على جناح السرعة، وكذلك استدعيت ابنته، غير أنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما علاقة ذلك كلّه بالجقل؟! وما لنا وما لأبي العزّ هذا؟! وما دوره في الموضوع؟!:

«انتشر الخبر بسرعة النار في الهشيم؛ أبو العزّ قيد العناية المشدّدة، فالجلطة التي أصابته منذ أيام، قد تكون قاتلة، أولاده الثلاثة الذين يختصّون في أكبر المشافي وأشهرها في ثلاث عواصم أوروبيّة، وصلوا على جناح السرعة، كذلك تمّ استدعاء ابنته الصغرى مع زوجها من إسبانيا».[٦]

وباعتبار أنّ: «الكلام عن السرد في الحكي يستدعي الكلام عن الرؤية السردية»، كما يرى إلى ذلك أمبرتو إيكو[٧]، فإنّ القارئ سيلاحظ كيف أنّ القاص اختار الرؤية من الخارج ليفتتح بها المشهد الأوّل للقصة، إذ هي رؤية تعتمد على الباصرة باعتبار أنّها:

«محدودة بعين الكاميرا ولا تتجاوزها بقدر الإمكان».[٨]

وهو ما يؤمّن لها الإحاطة بالحدث من جوانبه كلّها، مع الحفاظ على الحيادية التي تجعل القارئ في حال من الترقّب عن بعد وانتظار أن تتكشّف له أحداث أخرى على خلاف الرؤية الداخلية، القاصرة أوّلاً عن معرفة ما يتجاوزها والتي تعمل بدورها على كسب تعاطف القارئ ومشاركته الوجدانية في بناء الحدث أو تقييمه، وذلك بالنظر إليه على اعتبار أنّه حدث واقعي من خلال: «لعبة الإيهام الفني»[٩] مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الضمير - كما يرى الباحثون - ومنهم واين بوث: «ليس معياراً دقيقاً لتحديد الرؤية السردية أو وجهة النظر» بشكل مطلق.[١٠]

وأيّاً يكن الأمر، فابتداء الحدث بالضمير (هو) حقّق للقارئ معرفة بما يحيط بالحادثة من تهويل لم يقف عند مشهد الأبناء وحدهم، فكلّ من في الحيّ مستنفر لهذا الحدث، وثمّة مشفى متنقل يرابض عند بيته، فمن هو هذا الرجل؟ وما هي أهميّته؟: «سيارتا إسعاف ترابضان في الساحة الخلفيّة للفيلا، أصدقاء أبو العزّ، وزملاء أولاده، أحضروا مشفى متنقّلاً، هرع الناس للاطمئنان عن صحة أبي العزّ...».[١١]

على أنّ هذا التهويل يُقاطع بانعطافة في الرؤية السردية من الضمير (هو)، الذي وصف ما جرى، إلى الضمير (أنا) الذي جاء دوره ليحدّد موقفه ممّا جرى، وبالتالي ليكون علامة على ضرورة عدم الاستسلام الخادع لما جرى من تهويل، فثمّة من يرى غير ذلك، لا بل هو يستخفّ بكلّ ما يجري: «وحدي أنا لم أكترث للخبر».[١٢]

والراوي المشارك في القصة، لا يقدّم موقفه عن بعد، فهو معنيّ بأبي العزّ، باعتبار الجيرة وباعتبار سنوات الدراسة الجامعية السابقة، غير أنّ ما يدعو للوقوف عنده، هو لماذا يخالف هذا الرجل الاندفاع القطيعي الذي بدأه الناس؟! ولماذا هو بالذات لا يكترث؟ هل ثمّة خصومة بينهما؟! «وحدي أنا لم أكترث للخبر.. ملهوف أفندي، كان أكثر الناس حزناً (...)، فقال: أنت الوحيد؛ يا معلم لم تهتزّ للخبر، حتى لم تسأل عنه، قلت: كلّ من عليها فان، ألا تسمع أخبار الانتفاضة؟ الشهداء يسقطون كل يوم بالعشرات يا ملهوف، والبارحة توفّيت جارتنا عيّوش يا ملهوف، لم تمش أنت في جنازتها (...) فانتفض مذعوراً (...) وعدت إلى أوراقي وكتبي ودفاتري وعكفت على الدراسة التي أعدّها عن موت الضمير».[١٣]

وإلى الآن يبدو موقف الراوي عاديّاً، إذ ليس مضطراً كجار إلى مسايرة آراء الجيران، ومن حقّه كفرد أن يكون له موقفه الخاص، ولعلّ في عودته إلى دراسته (موت الضمير)، ما يلمح بداية إلى ازدواجيّة العلاقات الإنسانية، وبؤس الحال التي آل إليها الناس في زمن لا يعدلون فيه بين الموتى، إذ ثمّة عدم اكتراث بالشهداء والفقراء ومن جانب آخر، ثمّة تهافت للاطمئنان على شخصيّة لها ثقلها الاجتماعي؟! فإلى أي مدى تسيّر المصالح الشخصيّة أهواء الناس؟!

إنّ عنوان مقالة الراوي المشارك (موت الضمير) لا تغدو إشارة عابرة في سياق الحكي، بل علامة لا بدّ من أخذها بعين الاعتبار، وخاصّة أنّ ما سيتكشّف لاحقاً سيؤكّد ثقلها الدلالي، إذ يحيل إليها ما سيضيئه الراوي حول شخصيّة أبي العزّ الوصولية الانتهازية التي استطاعت -وفي زمن قياسي- صعود السلم الاجتماعي، واحتلال مركزها المرموق في مجتمع تحلّ فيه المشكلات بسرعة عبر الرشاوي والتملّق والدهاء وسواها من الأمور التي يتقنها أبو العزّ، ويعرف كيف يتعامل معها في الوقت الذي يناسبه وحده، وهو ما يسوقه لنا القاص عبر تقنية الاسترجاع، التي تقوم بسدّ الثغرات، والإجابة على أسئلة القارئ حول هذه الشخصية، وعلاقة الراوي بها، وأسباب لومه على موقفه البارد من أبي العزّ: «خيط رفيع جداً، كان يربطني بأبي العزّ، إن قطعه وصلته، وإن قطعته وصله، ولكنّ هذا كان منذ زمن بعيد، أيام الجامعة، يوم كان شعاره: «من يتزوّج أمّنا نناديه يا عمّنا». بعد التخرج من الجامعة، فرّقتنا سبل الحياة، بعد أنّ نشأت بيننا فجوة عميقة، وصار لكل منّا طريقه ومبادئه وقيمه وبقيت الحارة هي السبب الوحيد الذي يجعلني ألتقيه مصادفة (...) بدأ أبو العزّ حياته العملية موظفاً (...) باسماً وسيماً ناحلاً، نشيطاً ممتلئاً حيوية وثقة (...) أربع سنوات لا تساوي شيئاً في دورة الكرة الأرضية حول الشمس لكنّها كانت كافية كي يكتنز أبو العزّ ثمّ يترهّل ويندلق كرشه، أربع سنوات لا شيء يذكر في عمر الزمن لكنّها كانت كافية ليصبح أبو العزّ من ذوي الجاه والشهرة».[١٤]

والواقع أنّ توظيف تقنية الاسترجاع تأخذ حيزاً لا بأس به على الورق، يرسم من خلالها القاص شخصية أبي العزّ في صورها المتعددة، وفي تناقضاتها، وهي شخصية تجمع إلى قبحها شيئاً من الطرافة والجاذبية، وهو ما ستؤكده

المشاهد اللاحقة للأحداث، والتي يعود فيها السارد إلى استكمال الحدث في مجراه الزمني الخطي الذي كسره باسترجاعه ذكرياته مع أبي العزّ، تلك الشخصية التي صارت على قدر كبير من الدهاء وهو الخيط الأوّل الذي يربطها بعنوان القصة. يقول ولتر. ت. ستيس: «عندما يدخل القبيح كعنصر استيطيقي في الفن، فمن المؤكّد أنّه يخلق شعوراً بالاستياء، ولكن بمقدار ما يؤدي إلى شعور استيطيقي من حيث أنّه عمل فني أصيل، فإنّه يؤدي إلى المتعة».[١٥]

ولا نسوق هذا المثل اعتباطاً، وإنما لنؤكّد به ما تمّ بالفعل من رسم شخصيّة أبي العزّ التي يتقاطع معها الفن بالواقع من حيث مسوّغات تحوّل الشخصيّة وانسلاخها الطبقي وترديها الأخلاقي (واقعي)، ومن حيث كونها شخصيّة طريفة وجاذبة تحمل في طياتها مسوّغات قبولها الجمالي لدى القارئ، إذ من شروط الفن الإمتاع الجمالي، وهو ما تحقّقه هذه الشخصيّة بطرافة رسمها وسلوكها وخاصّة بعد العودة إلى الحياة، وسرد ما جرى لها، وهو ما يعود القاص ليقدّمه لنا عبر الرؤية الداخلية مرّة والخارجية مرّة أخرى، وكذلك الحوار الذي يعمل على تنمية الحدث، وإعطاء الشخصيّة مزيداً من الحريّة لتقدم نفسها بنفسها، فالحوار الذي ينتمي كما يقرر جيرار جينيت إلى نمط حكي الأقوال على أنه نصّ الشخصيات في مقابل حكي الأحداث الذي هو نص الراوي، يلعب دوره في ترهين الحدث عبر اللقاء الحرّ والمباشر بين الشخصيّة القصصيّة والمتلقي.[١٦]

وعلى حد تعبير د. سعيد يقطين، فإنّ هذا النمط السردي من شأنه أن يخلع على موضوعه وجهاً واقعياً يترجم بشكل حرّ ومباشر بعيداً عن سلطة الراوي، وهو ما دفع هنري جيمس إلى أنّ يدعو بشكل صريح إلى مسرحة الحدث لا الانقياد وراء سلطة الراوي من تقييد[١٧]وهو أمر يمكن للقارئ أن يحسّه بقوّة، في المشهد ما قبل الأخير للقصة، والذي يأتي ليوضح سرّ انقلاب الشخصيّة القصصيّة (أبي العزّ) من رجل طموح يسعى وراء الثراء بشتى السبل إلى رجل يريد تقديم كلّ ما لديه للفقراء، زاهداً، تائباً عما سلف.

وإذ يعود القاص إلى الأحداث في تسلسلها المنطقي، فإنّه لا ينسى أن يربط تلك العودة بمحاضرة الراوي حول (موت الضمير)، ممّا يؤكّد كونها علامة موجهة لفعل القراءة أكثر ممّا هي دال عادي: «كنت

أعيد قراءة دراستي (موت الضمير)، القراءة الأخيرة، قبل أنّ ألقيها محاضرة حين دخل ملهوف أفندي، مستعجلاً (...) فأبو العزّ استرد وعيه، أبو العزّ، مات وعاش، ووقف بين يدي الحق، وشاهد ميزان العدل، وقال إنّه سيوزّع أملاكه وثروته على الفقراء والمساكين والمحتاجين».[١٨]

وإذا قلنا، كما يرى تودوروف، إنّ المسرود المثالي: «يبدأ من موقف معين ثابت، ثمّ تأتي قوّة فتزعزعه، وتخرّبه، الأمر الذي ينتج عنه فقدان التوازن من جديد، دون أن يكون بالضرورة مساوياً للتوازن الأوّل»[١٩]، فإنّه يمكن لنا أن نفهم سرّ هذا الانقلاب في شخصيّة أبي العزّ إلى قيمه الأولى، فالانقلاب لم يأتِ اعتباطاً، ولا جاء من رهبة الموت وحده بقدر ما جاء حاملاً مسوّغاته الواقعيّة هنا، وهي تعرّضه للحساب من قبل ميزان العدل الإلهي، الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة في حياته إلا عرضها له، إلى أن أحسّ فيها أنّه هالك لا محالة بشرّ أعماله.

على أنّ القاص لا ينسى مع ذلك تقديم هذا المشهد، وفق ما تقتضيه ضرورة الفن، من تهويل ومبالغة وطرافة أيضاً، وخاصة في حوار أبي العزّ مع الملاكين: «قلتُ لهما: خذا ما تشاءان وأطلقا سراحي، فقال الذي على يميني: وماذا تعطي؟ قلتُ: ما تشاء. أتريدُ بالدولار الأمريكي، ألفاً ألفين (...) فضحك وقال: وماذا تفيدني الملايين. هنا كل العملات باطلة (...) وانتبهت لنفسي فإذا أنا معلّق في الفضاء، وقد راعني صوت مجلجل مرعب كأنّه مليون بوق (...) وجدتُ نفسي وحيداً، مكبّلاً، وشعرت بنفسي قزماً حقيراً ضئيلاً، وشعرتُ أنني صاح تماماً».[٢٠]

كذلك فإنّ طرافة الحدث وجاذبيته تتوضّح أكثر ما تكون في استحضاره مشهد الجقل في المغارة، وهو المشهد الذي لطالما انتظره القارئ، الذي كاد ييئس منه إلى درجة أحال العنوان فيه إلى دلالاته الرمزية وحسب، باعتبار المكر والدهاء اللذين يشترك بينهما الجقل وبطل القصّة.

ووفق تقنية الكاميرا ينقلنا القاص شيئاً فشيئاً إلى المغارة لنتعرّف على القمصان الحيوانية المعروضة على البطل بقصد مسخه في واحد منها، رغم تركهم حريّة الاختيار له دون إكراه، لعمل خير وحيد قام به، وهو ما يعزّز النزعة الإنسانية في هذه القصّة، إذ الهدف إصلاحي -لا نقدي وحسب- من خنزير وضبع وجمل وسواها، كلٌّ حسب الذنب الذي اقترفه: «كان الكهف

كبيراً جداً، يتسع للدنيا بحالها، وفيه جلود جميـع الحيوانـات المفترسـة، والداجنة الموجـودة في القارات الخمس، وحتى في المحيطـات، وجاء الصـوت مرعباً: اختر الجلـد الذي تريـد، وكان الاختيار صعباً، واقتربت مـن جلد الخنزيـر فنفرت منه، رائحته كريهة مقرفـة، وطفر منه الذباب الأزرق، وتصوّرت نفسـي لثوانٍ أني أمشي في جلد خنزيـر (...) وراعني جلد الثور، والثور حيوان أليف لكني تخيلت نفسي ثوراً مكدونـاً، أفلح عند فـلاح جلف يرهقني، ربما يكـون أحد الفلاحين فـي مزرعتي، ووصلـت إلى الحمل الوديع، لكني تصورت نفسي مذبوحاً وطعامي شهياً على الموائد مشوياً ومسلوقاً».(٢١)

على أنّ تطريف الحدث، وإثراء دلالته عبـر التصويـر جـاء أكثر مـا يكون في الوصول إلى الجقل لـبّ القصّة وأساسها الـذي يتقاطع على المستـوى النفسي مع البطل في كثير من الصفات، وها هو الآن يتلبّسه جسداً ومادّة، ليكوّن بذلك الصورة النهائيـة لرسـم الشخصيّـة القصصية الماكـرة الانتهازية حتى في دنيا الحقّ، إذ هي لا تتبدّل ولا تريد ذلك أبداً: «فما كان منـي، إلا أن اخترت جلد ابن آوى، الثعلب الذكـي، الـذي يسمّونه الجقـل، وفكّرت أنّه باستطاعتـي أن أختبئ في النهار في مزرعتـي، وفي الليل أنطلـق للقنص، ولا أحد يرانـي، كان الفراء جميـلاً ومغرياً، كذاك الفـراء الذي حملته هديةً لزوجتي، لبسته، فـكان قدّي تمامـاً، واختفيت في مزرعتي، أرى كل شـيء، وأسمع كلّ شيء، وأعرف الجميـع، ولكن بعد يومين شعرت بالجوع، فقفزت من فوق السياج، وأمسكت بختّـاق ديـك جارنـا، فجأة ظهـر جارنا وضربني بقطعـة حديد كانت بيده، وقال: يـا عدوّ الله.. ظهراً، تهجـم علينا، وقال: يبدو أنّه جقل غرّ صغير، فأصابني بيدي، ويبدو أنّـه على أثر الضربـة، استيقظت فوجـدت الطبيب يضع لـي إبرة المصل، مكان الضربة بالذات».(٢٢)

وأخيـراً لا بـدّ لنا من الإشـارة إلى أنّ توضّح العلاقة بين العنوان وأحداث القصّة في الخاتمـة، وإن كان تأخّر كثيراً بالقارئ حتـى قبض على هذه العلاقـة، إلا أنّه مع ذلـك أكّد أهميّة تلك الإشـارات الدالة في العنـوان وأثرها فـي الفضائيـن الواقعي والفنـي، اللذيـن أحكم القاصـ السيطرة عليهمـا، فكان هـذا العمل الـذي ما زال يستحق القراءة، رغم مرور نصف قرن على صدوره، ضمـن المجموعة القصصيّة التي تحمل العنوان نفسه.

الهوامش

١- هولب، روبرت سي: نظرية الاستقبال، مقدّمة نظرية، ص٣١.

٢- إبراهيم، د.علي نجيب: جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، ص٩.

٣- عصفور، د.جابر: تلك الرائحة دراسة عن رواية صنع الله إبراهيم، ص١٩.

٤- فضل، د.صلاح: شفرات النص، دراسة سيمولوجية في شعرية القص والقصيد، ص١٨٣.

٥- مارتن، والاس: نظريات السرد الحديث، من منظور النقد الأدبي، ص٢١٧.

٦- صقور، مالك: الجقل، ص٨٩.

٧- الحمداني، د.حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص١٠٦.

٨- فضل، د.صلاح: أساليب السرد في الرواية العربية، ص١٤٠.

٩- يوسف، آمنة: تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق، ص٣٩.

١٠- يقطين، د.سعيد: تحليل الخطاب الروائي، ص٢٩٢.

١١- صقور، مالك: الجقل، ص٩٨.

١٢- المرجع نفسه: ص٨٩.

١٣- المرجع نفسه: ص ص٨٩-٩٠.

١٤- المرجع نفسه: ص ص٩١-٩٢.

١٥- ستيس، ولتر.ت: معنى الجمال نظرية في الأستيطيقا، ص٩٨.

١٦- يقطين، د.سعيد: تحليل الخطاب الروائي، ص١٩٧.

١٧- المرجع نفسه: ص٢٨٥.

١٨- صقور، مالك: الجقل، ص ٩٦.

١٩- ابن ذريل، عدنان: النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، ص ص: ١٤٤-١٤٥.

٢٠- صقور، مالك: الجقل، ص ص، ٩٨-٩٩.

٢١- المرجع نفسه: ص.ص: ١٠٢-١٠٣.

٢٢- المرجع نفسه: ص١٠٣.

المصادر

صقور، مالك: الجقل، مطابع الإدارة السياسية، دمشق، ١٩٩١م.

المراجع

- إبراهيم، د.علي نجيب: جماليات اللفظة بين السياق ونظرية النظم، بحثاً عن طريقة لقراءة النص الأدبي القديم، دار كنعان، دمشق، ط١، ٢٠٠٢م.
- ابن ذريل، عدنان: النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق١٩٨٩م.
- ستيس، ولتر.ت: معنى الجمال، نظرية في الأستيطيقا، تر: فؤاد زكريّا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

- عصفور، د.جابر: تلك الرائحة دراسة عن رواية صنع الله إبراهيم، صحيفة آفاق الحياة، العددان (١٣٩٦١)، (١٣٩٨٢)، ٢٠٠١م.
- فضل، د.صلاح: أساليب السرد في الرواية العربية، دار سعاد الصباح، الكويت، ط١، ١٩٩٢م.
- شفرات النص: دراسة في سيمولوجيا القص والقصيد، دار الآداب، ط١، ١٩٩٩م.
- الحمداني، د.حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط١، ١٩٩١م.
- مارتن، والاس: نظريات السرد الحديثة، تر: د.حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، د ط، ١٩٩٨م.
- هولب، روبرت سي: نظريات الاستقبال، مقدّمة نقدية، تر: رعد عبد الجليل جوّاد، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ١٩٩٢م.
- يقطين، د.سعيد: تحليل الخطاب الروائي، (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
- يوسف، آمنة: تقنيات السرد بين النظرية والتطبيق، دار الحوار، اللاذقية، ط١، ١٩٩٧م.

ما بين بعض البشر وبعض الحجر من أثر في العصر العباسي

❁
د. كارين صادر

أما المدينة فهي حاضنة الأحلام، وموطن الغـد، أروقتها بدايات لا تعـرف النهايات، لأنهـا ولاّدة الاحتمالات؛ فـكلّ خاتمة فيها هـي بداية لأخرى، ولكلّ أفـق فيها فضاء، ولكلّ خبـر فيها حكاية، فروايـة. رائحتها تثيـر أحلامنا الصغيـرة فتكبر فينا ومعنا، ونندفع لتحقيقها باذلين في سبيلها سنوات عمرنا، ونعيش فيهـا مخبّئين خيباتنا بين حجارتها، وعثراتنا تحت أدراجها، ومعلّقين انتصاراتنـا على سوارهـا. وكذا كان بعض الشعراء الذين يهجرون قراهم النائية على متن مواهبهم، ويقصـدون المدن بحثاً عن ذواتهم التائهة عنهم لتكتمـل لوحتهم أمام أعينهم مرسومة بريشـة الطموح. ويحصل أن تتمـزّق المدينة فتتبعثر أشلاء ذكرياتهم كما أحلامهم، فترصف حروفهم آهاتهم في قصائد مؤلمة مدوّية، تشتعل صدقاً.

وأمـا الرثاء، فهو غرضـ شعري يمدح الفقيد بذكر محاسنه. وهو قديم قدم الشعر ومن قبله الموت. بدأ برثاء الإنسان القريب إلـى قلب الشاعر، فـكان صادقاً، ثم تحوّل إلى رثاء السادة، فكان نفعياً، وبعدها تحوّل

❁ أديبة وباحثة في التراث العربي من لبنان الشقيق.

إلى رثاء المدن، فالممالك، التي طالها ويل ما، فعاد صادقاً مرّة أخرى. وقد عُرف غرض رثاء المدن شرقاً وغرباً في العصر العبّاسي، وكان أدباً مطروحاً حيثما كانت أشلاء المدن مطروحة.

رثاء بغداد: كان الخريمي أوّل شعراء هذا الغرض، وكانت بغداد أولى مدن هذا الغرض. فقد عايش الخريمي، وهو أحد أعذب شعراء المرحلة العباسيّة قولاً، وأرقّهم طبعاً، محنة بغداد، التي اقتتل فيها الأخوان الأمين والمأمون بسبب طمع كلّ منهما في مملكة الآخر، وكان ذلك في الدور الأول من الحكم العباسي، فكانت بغداد أولى المدن التي تعرّضت للتدمير إبان هذا الصراع؛ وواجهت بصدرها العاري، ووجهها الحضاري هجمات الخراسانيين بمجانيقهم، ورماحهم، وخيولهم، واشتطّ المحاربون اشتطاطاً ظالماً في نسف بغداد التي كانت حاضرة العالم الإسلامي بأسره، وعاصمة العرب في أقاصي أقطاره.

أمّا الشعراء النابهون الرسميون، فانتظروا بصمتٍ نهاية هذا الصراع، ليهجوا الأخ الخاسر، وليهنّئوا الآخر على دحره لأخيه، وعلى بسط سيطرته على كامل الدولة العباسية. وكان أبو يعقوب الخريمي حينها قد نما عوده، ونزل إلى بغداد التي كانت محطّ رِحَال العلماء والشعراء في زمانه، فشاهد معالمها الحضارية، وكان لا يزال خامل الذكر، نابهاً بجودته، فهاله مصير بغداد ودمارها، وأرسل زفراته في قصيدة تجاوزت المئة من الأبيات التي عاشت برئتي الصدق حتى وصلت إلينا.

وكان له السبق في تناوله غرضاً شعرياً جديداً هو «بكاء المدن»، وترك لنا أروع القصائد وأصدقها في بكائه بغداد، ورثائه إيّاها أيام الفتنة التي وقعت سنة ٢٣٩هـ بين الأمين والمأمون. وقد رثى هذا الشاعر بغداد رغم أنه ليس بغدادياً، لكن ما حلّ بها من دمار وخراب كان له أثر في نفسه، فبكاها في قصيدة واحدة طويلة. وهو كما يظهر في قصيدته إنسان هزّته الفاجعة، وهاله ما آل إليه حال عاصمة العالم الإسلامي بغداد. وقد حاول أن يجد سبباً مقنعاً لهذه الكارثة، إلا أنه وجدها حرباً عبثيّة، ونتائجها كارثيّة، وكان شاعرنا منحازاً إلى المأمون لسوء سلوك الأمين وانغماسه في الملذّات. يقول:

قَالوا ولَمْ يلعَبِ الزَمانُ ببغ
ـدادَ وتعثُرْ بها عواثِرُها
إذ هيَ مِثلُ العَروسِ باديها
مُهوَّلٌ للفَتى وحاضِرُها

فلَم يَزلْ والزَّمانُ ذو غِيرِ
يَقدحُ في مُلكِها أصاغِرها

وقد اعتمد في قصيدته منهجاً واضحاً هدفه أن يلحظ الغريب عن بغداد كما أليفها مقدار النكبة التي حلّت بها. فبدأ بوصفها أيام العزّ والرخاء، وبعدها انتقل ليصف بأسىً شديد الويلات التي حلّت بها، مظهراً حجم المصائب التي طالتها، والنوازل التي أصابت أهلها، فيقول في المحور التالي من قصيدته:

وهَل رأيتَ القُصورَ شارعةً
تُكِنُّ مثلَ الدُمى مقاصِرها
فإنَّها قد أصبحَت خَلايا من الـ
إنسانِ قد دُميتْ محاجِرُها
قَفراً خَلاءً تَعوي الكِلابُ بها
نكِرُ منها الرُسومَ داثِرُها
وأصبحَ البؤسُ ما يفارقها
إلفاً لها والسّرورُ هاجِرها
يا بؤسَ بغدادَ دارِ مملكةٍ
دارت على أهلِها دوائِرُها
أمهلَها اللهُ ثم عاقبَها
لمّا أحاطَت بها كبائِرُها
بالخَسفِ والقَصفِ والحَريقِ وبالـ
حربِ التي أصبَحت تساوِرُها

إنها قصيدة ترزح تحت ثقل حزن عارم يضجّ في قلب الشاعر الذي يرى أن هذه الفتنة التي أطاحت بأجمل عواصم العالم الإسلامي، هي عبثية، وأنّ بغداد لم تكن تستحق كلّ هذا الدمار. وهي أبيات رثاء حارّة تنوء بالحسرة على ماضٍ مبهج كان لبغداد، وعلى حاضر أليم يبتلع ذاك الماضي.

وبعد أربعة قرون خرّب هولاكو بغداد مرّة أخرى، فنظمت في البكاء عليها مراث عديدة، وتعد مرثيّة الشيخ تقي الدين التنوخي أشهرها، ومنها:

إن القيامة في بغداد قد وجدت
وحدّها حين للإقبال إدبار
آل النبي وأهل العلم قد سُبيوا
فمن ترى بعدهم تحويه أمصار
ماكنت آمل أن أبقى وقد ذهبوا
لكن أتى دون ما أختار أقدار

وفي عام ٨٠٣هـ، نبش المغول ترب الرصافة في بغداد، وأحرقوها، وأبرزوا الرؤوس والعظام، وهذا ما عبّر عنه الشاعر شمس الدين الكوفي الواعظ حين كتب على بعض الحيطان:

إنْ تُرِدْ عِبْرَةً فتلك بنو العـ
ـباس حلّت عليهم الآفات
أستبيح الحريمُ منهم إذ قتل الأحـ
ـياءُ منهم وأحرقَ الأموات

في رثاء البصرة: وفي سياق رثاء المدن لا ننسى قصيدة ابن الرومي في رثاء مدينة

البصرة التي أغــار عليها الزنج عام ٢٥٥ للهجرة:

ذاد عـن مقلتي لذيـذ المنام
شغلها عنـه بـالـدمـوع السجام
أي نـوم من بعد ما حل بالبصرة
مــا حـــلّ مـــن هـنــات عـظـام
أي نـوم مـن بـعـد مـا انـتـهـك الز
نـج جـهـارا مـحـارم الإســلامِ.

في رثــاء دمشق: نظم فـــي رثاء دمشق الكثير من الشعـــراء، فعندما أحرق المغول عدداً مـــن مساجدهـــا حين غزوهـــا سنة ٦٩٩هـ، وكان منها: مسجد خاتون، ومسجد صابون، ومسجد الأسدية، واقتحم الغازون جامـــع الحنابلة فـــي الصالحيـــة، وأخذوا بسطـــه، وكسروا قناديلـــه ومنبره، قال تقي الدين الحنبلـــي مصوّراً ما نـــزل بمساجد دمشق والصالحية ومدارسها من هدم ونهب وتعطيل:

فجامعها المعمورُ بالذكر عاطلٌ
ودارُ دروسِ الـعـلـم فيها تهدم
وجامعُها وهـو الـجـديـدُ حديثُهُ
يـعـاد دروساً في الطّروس ويُـردمُ
مـدارسُـهـا أضـحـى يقسّمُ نهبُها
وكـانـت بـهـا الـدنـيـا تـنـيـرُ وتـبسم

ومثلـــه قول عـــلاء الديـــن الأوتاري من قصيدة له في رثاء دمشق في تلك السنة:

وبـيـوت فـيـهـا الـتـلاوةُ والـذكـ
ـر وعـالـي الـحـديـثِ والإسـنـادِ
حـرّقـوهـا وخـرقـوهـا وبـادت
بـقـضـاء الإلـــه ربِّ الـعـبـاد

وعندمـــا سقطت في أيدي التتار تعاقب على رثائها كثير من الشعراء مسجّلين ذلك الحدث، ومنهم الشاعر علاء الدين العزولي الذي نظم مصوّراً هول هذه الفاجعة:

أجريت جمر الدمع من أجفاني
حـزنـا عـلـى الـشـقـراء والـمـيـدان
لهفي على وادي دمشق ولطفه
وتـبـدل الـغـزلان بـالـثـيـران
واحـسـرتـاه على دمشق وقولها
سبحان من بـالـغـل قـد أبـلانـي
لهفي عليك محاسنا لهفي علي
ك عرائسا لهفي عليك مغاني

ويصـــوّر القاضي جمـــال الدين بن عبد الواحد التبريزي مـــا قام به المغول من إحراق لجامـــع التوبة فـــي الصالحية سنة ٦٩٩ هـــ، وذلك في قصيدة له نظمها عقب انتصـــار المسلمين على المغـــول في وقعة مرج الصفر سنة ٧٠٢هـ، يقول:

وجامعُ التّوبةِ المحروق مهجتُه
يشيرُ لا تـوبـةً للقومِ إذ ظُفروا

في رثاء حلـــب: وقد صوّر جلّ الشعراء في قصائدهـــم التي واكبت الغزو المغولي

ما تعرّضت له المراكــز العلمية والمكتبات من تدمير وإحراق ونهب، وعبث بمحتوياتها، فهذا الشاعــر ابن العديم يقول في قصيدة له في رثاء حلب سنة ٦٥٨ هـ:

فيالك من يوم شديدٍ لُغامه
وقد أصبحتْ فيه المساجدُ تُهْدمُ
وقد درسْت تلك المدارسُ وارتمتْ
مصاحفها فوق الثّرى وهي ضخّمُ

وقال أحــد الشعــراء مصــوّراً إحراق المغول للكتــب الموجودة في مساجد حلب سنة ٨٠٣ هـ:

وخرقوا من بيوتِ اللهِ معظمها
وحرّقوا ما بها من أشرفِ الكُتب

لكــنّ المشارقة لــم يتوسّعــوا في رثاء المدن توســع الأندلسيين، ولذلك لم يظهر هــذا اللون من الشعر فــي أدبهم كما ظهر في الأدب الأندلسي، ويرجع ذلك إلى تعدد وجوه الحدث الواحد في الأندلس ذلك بعد توالــي سقوط الطوائف والممالك التي كان آخرهــا مدينة غرناطة. ومن ذلك ما قاله ابــن خفاجة فــي رثاء مدينــة بلنسية التي سقطت في أيدي الأعداء سنة٤٨٨ للهجرة:

عَاثَتْ بِسَاحَتِكِ العِدَا يَا دَارُ
وَمَحَا مَحَاسِنَكِ البِلَى وَالنَّارُ
وَإذَا تَــرَدَّدَ فِي جَنَابِكِ نَاظِرٌ
طَالَ اعْتِبَارُ فِيكِ وَاسْتِعْبَارُ
أَرْضٌ تقاذفتِ الخُطُوبُ بِأَهْلِهَا
وَتَمَخَّضَتْ بِخَرَابِهَا الأَقْــدَارُ

ولعــل نونيّة أبي البقــاء الرندي في رثاء إشبيلية والأندلس هي أروع وأشجى ما جادت به قريحة شاعر أندلسي، ومنها:

لكلّ شيء إذا ما تم نقصانُ
فلا يُغرّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دُول
من سرّه زمن ساءته أزمان
دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاء له
هوى له أُحُدٌ وانهدّ ثهلان
فاسأل بلنسية:ما شأن مرسية
وأين شاطبة أم أين جيان؟
وأين قرطبة دار العلوم فكم
من عالم قد سما فيها له شان؟
قواعد كن أركان البلاد فما
عسى البقاء إذا لم تبق أركان

وكانت قرطبة من أبرز المدن التي لقيت اهتمامــاً من الشعــراء، فندبوها بمراثيهم، وكان منهم ابن شهيد الذي قال:

ما في الطلول من الأحبة مُخْبِرُ
فمن الذي عن حالها نستخبرُ
فلمثل قرطبة يقل بكاء من
يبكي بعين دمعها متفجر

كما رثاهــا ابنها ابن حزم نثــراً وشعراً حين وقف على منــازل أهله ورآها أطلالاً،

قصورها خرائب، وبساتينها فيافي موحشة، وقد خفيت معاهدها. فقال:

سلام على دار رحلنا وغودرت

خلاء من الأهلين موحشة قفرا

تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعا

ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا

ويقول الحصري في رثاء مدينة القيروان:

هل مطمعٌ أن تُردَّ القيروانُ لنا

وصبرةُ والمصلّى والحنيّاتُ

ما أن سجا الليلُ إلاّ زادني شجنا

فأتبعَتْ زفراتي فيه أنّات

ولا تنفّستْ أنفاسَ الرياض ضُحى

إلاّ بدت زفراتٌ مستكنّات

كما تعدّ مرثية الشاعر ابن الأبّار لمدينة بلنسية عام ٦٣٦هـ،من المراثي المشهورة في الأندلس، فقد أرسل بها على لسان أميره إلى أبي زكريا بن حفص سلطان تونس مستنجدا به لنصرة الأندلس ومطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها درسا

نَادَتْكَ أنْدَلُسُ فَلَبِّ نِداءَها

واجْعل طَواغيتَ الصّليبِ فِداءَها

فغرباً في الأندلس، كان العرب يرثون المدن التي تسقط بسبب الحروب الداخلية، وأيضاً بسبب غارات القشتاليين عليها رثاءهم مفقوداً عزيزاً، لإدراكهم أنها لن تعود أبداً إلى جسد دولة الأندلس العربية. كما زاد شعراء الأندلس سطراً على شعر الرثاء، فرثوا الممالك والإمارات،كما رثوا دولة الأندلس ككل، مثل: رثاء ابن عبدون لمملكة بني الأفطس، أو بني عباد في أشبيلية. ومن جملة الشعراء الذين رثوا الأندلس: أبو جعفر الوقشي، وإبراهيم بن خلف العامري، وحازم القرطاجني، وأبو البقاء الرندي، ومالك بن المرحل، وأبو عامر بن المرابط.

وكان على رأس رثاء المدن التي طالها الخراب شرقاً: دمشق، وبغداد، والبصرة. وغرباً: كانت غرناطة، وقرطبة، وبلنسية، وطليطلة، وغيرها.

وأما مضمون هذا الشعر عموماً، فقد تضمّن معاني عديدة منها: الحنين إلى الماضي المشرق، واستعراض أسباب الحرب ومآسيها الحاضرة، والحماسة والدعوة إلى الجهاد إذا كانت الحرب ضدّ الفرنجة. وقد كثرت روافد شعر الرثاء من القرآن والأمثال والشعر العربي القديم.

وأما من حيث البناء الفني لقصيدة رثاء المدن، فنلحظ تركيز الشاعر على الموسيقى الداخليّة والخارجيّة في القصيدة، إن من

حيث الوزن، أو من حيث القافية، أو من حيث تصريع الأبيات، والموسيقى الداخلية التي تنساب في الأبيات. وكلّ ذلك يوظّف للتأثير في نفس المتلقي. وقد حيك أسلوب القصيدة في غرض «رثاء المدن» بالاعتماد على المبالغة في تصوير الرخاء الماضي والشقاء الحالي، والتقديم، وحسن الابتداء، وترتيب الموضوعات، وحسن ختام القصيدة، وحسن الانتقال بين موضوعات القصيدة. كما قصدوا محاكاة السلف فعمدوا إلى ذكر الناقة والسفينة والأطلال والدعاء بالسقيا، ووصف ما يميز المدينة المرثية، من دون أن ينسى ذكر الأعلام والأشخاص والمواضع.

المصادر والمراجع

١- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، مادة (رثي).
٢- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار المعارف الاسلامية، مصر، ١٩٦٥م.
٣- ثمار القلوب في المضاف المنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٦٥م.
٤- شعراء عباسيون، غوستاف لوبون، ترجمة محمد يوسف نجم، ١٩٥٩م.
٥- الأغاني، الأصفهاني، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٩م.
٦- تاريخ بغداد، الخطيب أبو بكر بن علي، بيروت، لا تاريخ.
٧- خزانة الأدب، البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨١م.
٨- يتيمة الدهر، الثعالبي، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية. بيروت، ١٩٧٣م.
٩- الحيوان، الجاحظ، عمرو بن بحر، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، ١٩٤٧م.
١٠- الوزراء والكتاب، الجهشياري، مكتبة الحلبي، ١٩٣٨م.
١١- الورقة، الجراح، تحقيق عبد الستار أحمد الفراج، مصر، ١٩٥٣.
١٢- وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٣م.
١٣- العقد الفريد، ابن عبد ربه، طبعة بولاق، القاهرة، ١٩٣٥م.
١٤- الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، ١٩٤٧م.

التلوث وعوامل الطقس

م. فايز فوق العادة ❁

كيف تؤثر عوامل الطقس في تغيير تركيز الملوثات خاصة الضغط الجوي وسرعة الرياح؟

تتميز مناطق الضغط العالي في نصف الكرة الشمالي بتدويم الرياح حولها باتجاه عقارب الساعة. حيث تتمركز كتلة الهواء الهابطة فوق منطقة الضغط العالي مما يزيد في حالة الاستقرار الجوي. ينخفض مزج الهواء في مثل هذه المناطق، بل قد ينعدم، مما يزيد في تركيز الملوثات على نحوٍ ملحوظ. أمّا في مناطق الضغط المنخفض فيتحقق مزج الهواء بفعل تيارات الهواء الصاعدة وحالة عدم الاستقرار الجوي المرتبطة بتلك المناطق. فينجم عن ذلك توزع أكبر للملوثات.

يتحرك تيار هوائي بسرعة مئة كم في الساعة على ارتفاع اثني عشر كم بين خطي عرض ثلاثين إلى خمسين درجة شمال خط الاستواء. يهبُّ هذا التيار بصورة عامة من جهة الغرب. إنَّ لهذا التيار وتيارات الهواء العليا الأخرى دوراً كبيراً في عملية مزج الملوثات بالهواء.

❁ رئيس الجمعية الكونية السورية.

واقع الأمر، إن تحقق سرعات عالية للرياح يـؤدي ولاشك إلـى مـزج الملوثات على نحوٍ واسع. تُحمـل الملوثات بفعل الرياح السريعـة إلى مناطق بعيـدة فتتوزع على كمية أكبر من الهـواء وينخفض تركيزها بالتالـي. تعدم الريـح الخفيفة مثل هذه الميزة الهامة. إن من أهم خصائص هبوب الريح على علو التيار المذكور هو امتلاكها لسرعـات كبيـرة ودورانها حـول مناطق عالية الضغط حيث يـؤدي التدرج الحاد للضغط إلى زيـادة تلك السرعات وتوزيع الملوثات بشكل أفضل. إنَّ الريح الخفيفة في أعالي الغلاف الجوي هي عامل فعّال في تركيز الملوثات ضمن المناطق الدنيا من هذا الغلاف. دلـت القياسات الفعلية على صحة هذا الأمر.

لابد من التطرق هنا إلى تغيّر درجات الحرارة في الغلاف الجوي مع الارتفاع، إذ إن لهـذا التغيّر دوراً كبيراً في تقرير نسـب تلوث الهـواء. تتوقـف التيارات الهوائية الصاعدة والهابطة على التغير المذكور. يعتمـد توزع المـواد الملوثة بـدوره علـى هـذه التيـارات. إنَّ لهذا التغيّر أنساقاً متباينة، فمن فترة تنخفض درجات الحرارة أثناءها مع الارتفاع، إلى فترة تالية تزداد درجـات الحرارة فيها على عكس الفترة الأولى. تتطابق الفترة الأخيرة مـع الليل بصورة عامة. إذا كان تغيّـر درجات الحرارة مـع الارتفاع أقل من عشر درجات لـكل كيلو متر ارتفاع، فـإن حالة من الاستقرار الجوي المطلق تتحقق وينخفض مـزج الهواء إلى أدنى حد له وتتراكـم الملوثات بشكل مزعج. إذا تجاوز التغيّر الفعلي لدرجات الحرارة مع الارتفاع عشر درجات مئوية لكل كيلو متر ارتفاع، فإن حالة من عدم الاستقرار المطلق تنشأ، ومعها تتبدد الملوثات عبر الغلاف الجوي.

يُسهم انعكاس درجات الحرارة بالقرب من سطح الأرض في تغيير تركيز الملوثات. إنَّ الحالة المعتادة هي أن تنخفض درجات الحرارة مـع الارتفاع عن سطـح الأرض، إلّا أن هنـاك أسبابـاً كثيـرة تفضـي إلى حالـة عكسية، أي حالة تكون فيها درجات الحرارة منخفضة بالقرب من سطح الأرض ومرتفعة فـوق ذلك السطـح. تُعرف هذه الحالـة بالانعكاس. يتحقق الانعكاس أثناء الليـل عندما تدفع الأرضـ بحرارتها عبر الغلاف الجوي، فتنخفض درجات الحرارة على نحوٍ ملحوظ بالقرب من السطح، فإذا كانـت مداخن المصانع أدنـى من منطقة الانعكاسـ، تراكمت الملوثـات إلى حدود

خطرة أحياناً. لذا كان لابد مثلاً من تقليل حركة السير أثناء الليل وكذلك إنقاص عمليات إقلاع وهبوط الطائرات. لا يبدأ الانعكاس بالزوال إلَّا في الصباح عندما تُشرق الشمس وتبدأ حرارتها بالوصول إلى سطح الأرض. مع قدوم هذه الحرارة، تتناقص سماكة المواد الملوثة التي جثمت بثقلها على السطح طيلة الليل، لكنها لا تتبدد فجأة ودفعة واحدة بل على نحوٍ تدريجي، حيث يضيق شريط المواد الملوثة بدءاً من سطح الأرض وبشكل مطرد مع تقدم ساعات النهار. يندثر شريط المواد الملوثة تبعاً لذلك قبل الظهيرة بفترة بسيطة. هكذا يتوقف فعل الانعكاس عن الاسهام في عملية التلويث، لكن تبقى المؤثرات الأخرى فاعلة في هذه العملية وفي زيادة التلويث بمعدلات متباينة.

هل تتدخل طبيعة سطح الأرض في توزيع المواد الملوثة؟ لاحظ العلماء أن الملوثات في المناطق الصناعية الجبلية، تنسحب في الصباح الباكر لتهبط مع كتل الهواء التي مازالت على برودتها بسبب الليل الفائت. مايحدث بعد ذلك أن تسخين تلك الكتل حتى الساعة العاشرة من قبل الظهر يعكس حركتها ليدفعها باتجاه المناطق المرتفعة وإلى حيث انطلقت الملوثات لتتراكم هناك مضافة إلى الملوثات التي تُضاف عند بلوغ التيارات الصاعدة المنطقة الصناعية وقد يؤدي ذلك إلى حالة حرجة وطارئة في نطاق تلويث البيئة.

إنَّ كل الأماكن سواء فيما يتعلق بالتلوث، ففي المناطق الداخلية أي البعيدة عن المحيطات، تكون سماكة الطبقة الهوائية الراكدة أصغرية، بينما تكون هذه السماكة في حدودها الدنيا لساعات بعد الظهر في المناطق المتاخمة للمحيطات وتكون أعظمية في المناطق الداخلية. إن القرار المتعلق بأية منشأة صناعية قد بات قراراً بيئياً. لذا يجب أن تُدرس المناطق المقترحة للمنشأة على ضوء العوامل البيئية خاصة ما ذكرناه للتو. إلَّا أن ما ذكرناه لا يغطي المشكلة برمتها، فالمنشآت القريبة من البحيرات تؤثر بشكل سلبي في بيئتها، ففي النهار يدفع النسيم المائي الملوثات الصناعية إلى عمق المناطق المجاورة. على العكس، تتحرك الملوثات جهة ماء البحيرة أثناء الليل. إننا إزاء تناقض فعلي، فبسبب التغيرات المشار إليها، يجب أن يُقصر النشاط الصناعي على ساعات مابعد الظهر، أما في القرب من

البحيرة، فلابد من إزاحة هذا النشاط إلى ساعات الليل. لايحل التناقض إلَّا بالبحث عن منطقة أخرى لاحتواء المنشأة الصناعية المقترحة. نشير هنا إلى أننا لا نتخلص من المواد الملوثة عندما يخف تركيزها بسبب المزج، إذ إن ذلك يريحنا لفترة محدودة. إن الازدياد المطرد لهذه المواد في غضون العقود القادمة سيجعل نسب التركيز الأعظمية للمواد الملوثة التي نتحاشاها الآن، مجرد نسب أصغرية.

لقد جفت بحيرات كثيرة بسبب النشاط الصناعي، كما تحولت بحيرات أخرى إلى بيئات خطرة مَنْ يأكل من أسماكها لابد في النهاية أن يصاب بمرض عضال. أمَّا شواطئ المحيطات المتاخمة للبلدان الصناعية، فقد تحولت إلى بيئات معادية للحياة وهجرتها كل الأجناس الحية مهاجرة إلى مناطق بعيدة. ما علينا إلَّا أن نتصور مصير المحيطات في غضون قرون تالية قليلة. لن تكون المحيطات إذ ذاك أوفر حظاً من البحيرات.

نتطرق فيما يلي إلى التلوث غير الصناعي. كانت النفايات المنزلية والمياه المالحة الناتجة عن الاستخدامات المختلفة في البيت تُنقل إلى أمكنة معزولة ملحقة بالفناء أو المزرعة للتخلص منها. وإذا حدث أن شكلت مصدراً للإزعاج فإن ذلك الإزعاج كان يتسم بكونه مجرد إزعاج محلي. يمتد إزعاج المياه المالحة والنفايات الآن ليشمل مساحات واسعة وأنهار وبحيرات كاملة. قد تفضي عملية التكرير للمياه المالحة إلى حالة نقاء نظرية، لكنها تعجز عن تحقيق حالة المياه العذبة النقية التي توفرها الطبيعة.

في عام ١٩٧٠م وصلت كتلة النفايات الصلبة إلى ٢٥٠ مليون طن في أمريكا، منها ٢٠ مليون طن من الورق، و٢٥ مليون طن من مواد الرزم، و٤ملايين طن من البلاستيك، و٥٠ ألف مليون علبة معدنية و٢٧ ألف مليون زجاجة فارغة، وسبعة ملايين سيارة. يتطلب التخلص من هذه النفايات تكاليف باهظة.

حلّت السويد المشكلة بشكل جزئي في بعض المناطق فهناك تُقذف النفايات الصلبة من كل تجمع سكاني في أنابيب تحت الأرض ويطبق عليها ضغط هوائي عالٍ جداً فتندفع النفايات لتتجمع في نقطة واحدة. حوَّل العلماء في سويسرا النفايات الصلبة إلى كتل منتظمة يُمكن

أن تُستخدم في البناء. إنَّ ما يتجمع الآن في البيت يومياً من نفايات يعادل أضعاف ما كان يتجمع في أوقات سابقة. كانت هناك طرق عدّة طبيعية للتخلص من النفايات كتحويل ألبسة الكبار إلى مقاسات للصغار، وإرسال كل ما يفيض من الأقمشة المهترئة إلى حرفيين يقومون باستخدامها في تصنيع البسط والسجاد. يُحذر الأطفال في المدن الكبرى مثل لوس أنجلوس ونيويورك من اللعب خارج البيوت في ساعات معينة عندما تزداد نسب الملوثات في الجو إلى حدود خطرة. تبدو تلك المدن من الجو كمساحات من الأبنية تحيط بها جبال من النفايات الصلبة. يُعرف العلماء المدن المذكورة بأنها جزر حرارية. إنَّ القادم إلى أية مدينة منها يفاجَأ عند حدودها بارتفاع مفاجئ في درجات الحرارة. يُعزى ذلك الارتفاع إلى مختلف مصادر التلوث خاصة أجهزة تكييف الهواء، يقوم جهاز التكييف بتبريد الفضاء الداخلي للبيت، لكنه يشحن الفضاء الخارجي بدفق من الهواء الحار. هكذا ترتفع درجات الحرارة في المدينة مقارنة مع محيطها. يتصور البعض إمكانية التخلص من النفايات الصلبة بقذفها إلى الفضاء الخارجي. إن هذا الحل ليس حلاً اقتصادياً على الإطلاق، فمهما تطورت وسائل دفع النفاث فإن المردودية الاقتصادية الخاصة بنقل النفايات إلى الفضاء تبقى منخفضة للغاية، عدا عن أن الفضاء المحيط بالأرض سيتحول إلى بحر متلاطم من النفايات ومن يدري فقد يحجب ضوء الشمس في المستقبل بما يؤدي إلى دخول الأرض في عصر جليدي. تتناثر أعداد كبيرة من الشظايا الآن حول كوكب الأرض. إن مصدر هذه الشظايا هو النشاط الفضائي الذي تقوم به دول وشركات. تشكل الشظايا خطراً كبيراً على مختلف التوابع والمسابر الفضائية. من جانب آخر، أدى ازدحام التوابع والمسابر حول الأرض إلى نفاد كل أقنية الاتصال الراديوية الممكنة وقد لايجد صانعو التوابع المستقبلية أقنية ملائمة للاتصال. أمَّا عن حرق النفايات، فلا شك أنه سيؤدي إلى كارثة بيئية في موقع الحرق بسبب النواتج الكيميائية الصلبة والغازية لعملية الحرق. أما الحل فهو بالضرورة تخفيض معدلات الاستهلاك.

المراجع

1- Eagleman; Joe R., Meteorology, (1985), wadsworth publishing company.

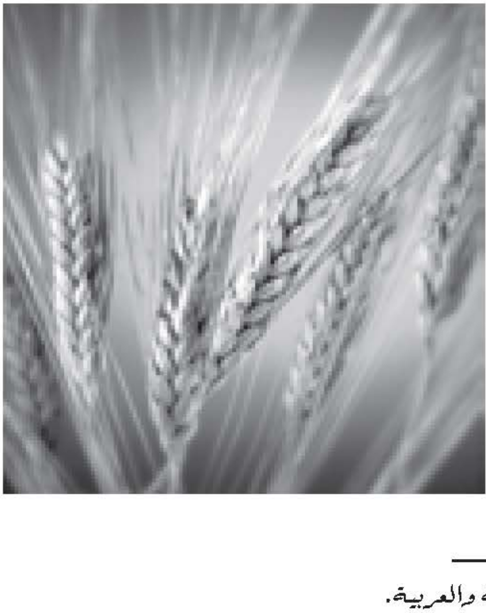
٢- فريتجوف كابرا: ترجمة معين رومية، شبكة الحياة، ٢٠٠٨م، الهيئة العامة السورية للكتاب.

3- Khilmi; H.F, Foundation of the physics of the Biosphere, (1967), Hydrometeoro logical publishing House, Leningrad.

٤- أوسبيتسكي: و.ج.: ترجمة: داود المنير، الفضاء في خدمة الإنسان، ١٩٧٩م، دار مير للطباعة والنشر، موسكو.

الغذاء والنبات سر العافية
«فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ»

❁
د. محمد غسان سلوم



يقول الله تعالى من سورة عبس، الآية (٢٤-٣٢) «فَلْيَنظُرِ الإنسانُ إِلَى طَعَامِهِ ❁ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً، فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً، وَعِنَباً وَقَضْباً ❁ وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ❁ وَحَدَائِقَ غُلْباً ❁ وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ❁ مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ».

فالغذاء الجيد المتوازن الحاوي على جميع المواد الغذائية (نشويات وسكاريات ومواد دسمة إضافة إلى الفيتامينات والمعادن هو دليل سر العافية ودوام الصحة وهناء العيش وسعادة الحياة، نخص بدراستنا

❁ أستاذ العلوم والنبات في الجامعات السورية والعربية.

هــذه الفيتامينات والأمــلاح المعدنية التي تكثر في العالــم النباتي (الخضار والفواكه والحبــوب والثمــار) فهي تقــوم بوظائف فيزيولوجية مهمة في جسم الإنسان.

وهنــاك آيات في القــرآن الكريم تدعو الإنسان إلــى أكل الطيبات وعدم الإسراف كقوله تعالى: «**كُلُواْ وَاشْرَبُـواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِـبُّ الْمُسْرِفِيـنَ**» (من سورة الأعراف- الآية: ٣١).

وقوله تعالى: «**كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ**» (من سورة طه- الآية:٨١).

وقوله تعالى: «**يَـا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِـي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً**» (من سورة البقرة- الآية:١٦٨).

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم وسخر له مافي الأرضــ تكريما له: «**أَلَمْ تَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّـرَ لَكُـم مَّا فِـي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَـةً وَمِـنَ النَّاسِ مَن يُجَـادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْـرِ عِلْـمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـابٍ مُنِيرٍ**» (من ســورة لقمــان- الآيــة:٢٠). وجعل الله نبــات الأرض غذاء لا غنــى عنه وأوجد فيــه الدواء لكل داء وجعل فيه مزيجاً من المواد الشافيــة. وطعام الإنسان من أهم مقومات الحياة، ولا يستطيع أي كائن حي أن يعيش مــن دونه فهو لازم لنمو الجسم وتعويضــ ما فقد منه وإمــداده بالطاقة اللازمة لأعماله وحركاتــه. يقول تعالى: «**هُـوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِـي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِـن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**» (من ســورة الملك- الآيــة:١٥). فالغذاء هــو الوقود الــذي يمد الجســم بالطاقة والحــرارة واستمرار الحيــاة كما يكتسب الجسم بالغذاء أيضــاً قدرة على مقاومة كثير من الأمراض وهذا يعني أنَّ لكل نوع من أنواع الغذاء دوره في مساعدة الجسم على القيام بوظائفه المعقدة.

من المعروف أن المــواد الغذائية التي يحتاجها جسم الإنسان تنتمي إلى مجموعات هي المــواد السكرية (Carpo hydrate) والمواد الدسمة (Fats) والمواد البروتينية (Proteins) إضافة إلى العناصر المعدنية والفيتامينــات (Vitamins) ولابــد مــن وجود توازن يبين نسبة المواد الغذائية التي تدخل الجسم للاستفادة منها استفادة كاملة وهــذا مايعرف بالتــوازن الغذائي (Food balance) فالمــواد السكريــة والنشويــة تــؤدي مهمة الوقود وإمداد الجسم بالطاقة اللازمــة وتعتبــر المواد الدسمــة من أهم المواد الغذائية في هذا المجال أمَّا المواد البروتينية فهي تكفــل للجسم بناء أنسجته وتجديد خلاياه.

أمَّا الأملاح المعدنية والفيتامينات فهي عوامل النمو والتجدد والهيمنة على وظائف الجسم المختلفة. ونبات الأرض مصدر لهذه الأغذية جميعاً وعلى سبيل المثال تعتبر الحبوب الكاملة (كالقمح والذرة) مصدراً للمواد السكرية والنشوية، والبقول (كالفول والعدس) مصدراً للبروتينات، والثمار (كالزيتون والجوز) مصدراً للمواد الدسمة، والفاكهة والخضراوات مصدراً للمعادن والفيتامينات تصديقاً لقوله تعالى «**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**». (من سورة الشعراء- الآية:٧-٨)

وقوله تعالى: «**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ**» (من سورة الذاريات الآية:٢٠).

نذكر من الأغذية النباتية المهمة للإنسان والمذكورة في القرآن الكريم القمح من الحبوب والزيتون من الثمار.

القمح Triticom (Wheet):

يقول تعالى: (**وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ۞ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ۞ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ۞ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**). (من سورة يس الآيات:٣٣-٣٦).

تعتبر حبوب القمح من أهم المحاصيل الغذائية والاقتصادية في العالم، ويعرف حالياً أكثر (١٢٠٠٠) ضرب أو صنف (Variety) منها. والقمح من أقدم الأغذية التي عرفها الإنسان في العصور القديمة زرع في مصر قبل بناء الأهرام وزرع في أراضي ما بين النهرين قبل مولد المسيح بنحو ثلاثة آلاف عام، ثم انتشرت زراعته في مناطق مختلفة من سطح الكرة الأرضية، ويلعب دوراً مهماً في الاقتصاد القومي نظراً لاعتباره مادة أساسية في غذاء الشعوب النامية وإن شعوب الشرق الأوسط من أكثر شعوب العالم استهلاكاً للخبز المصنّع من القمح ومعدل استهلاك الفرد الواحد في هذه البلاد من مادة الخبز يبلغ سنوياً نحو (١٤٠)كغ ولهذا تهتم الدراسات والبحوث العلمية في الدول النامية والمتقدمة بزراعة القمح وتحسين أصنافه واستنباط أصناف جديدة تتحمل العوامل البيئية غير الملائمة، كإيجاد أصناف مقاومة للجفاف وأصناف أخرى مقاومة للبرودة. يستخرج من القمح الدقيق أو الطحين ومنه يصنع الخبز والكعك والمعجنات بأنواعها ومن

القمــح القاســي (Triticum durum) تصنع المعكرونــة والبسكويــت ويستخرج أيضاً من القمح النخالة والنشاء كما يصنع منه البرغل والفريكة بطرق خاصة.

يتألف دقيق القمح من العناصر الغذائية التالية:

- ماء: ١٢٪.
- بروتين: ١٢,٩ ٪.
- دهون: ١,٩ ٪.
- نشاء: ٧٠,٢ ٪.
- سللوز: ١,٦ ٪.
- معادن: ١,٢ ٪.

وحبة القمــح تتألف من غلاف خارجي يؤلف ٩٪ مــن وزن القمح وهــو ما يسمى بالنخالــة وتلــي الغــلاف الخارجي طبقة رقيقة جداً تؤلــف ٣٪ من وزن الحبة وهي تحتوي على عنصر الآزوت أما ما يتبقى من الحبة فهو الطبقــة الداخلية النشوية وهي قوام الدقيق الأبيض الصافي وهذه الطبقة تشغــل ٨٥ ٪ من وزن الحبــة ثم الرشيم أو جنين القمح وهو قســم صغير يتمركز في زاويــة من زوايا حبة القمح ويؤلف ٤ ٪ من وزنهــا. وهو لا يكاد يــرى بالعين المجردة إلا بصعوبــة وهــو الذي ينتشـ وينمو في الظــروف الملائمة للزراعــة ويعطي نباتاً جديداً ويعيد دورة حياته.

يتألف الخبز الأسمــر (راسه بعبه) من طحين حبوب القمح كاملة بأغلفتها وأجنتها وطبقاتهــا الداخلية، ويعتبــر جنين القمح أغنى أجزاء الحبــة بالفيتامينات والمعادن ويليــه الغــلاف الخارجــي (النخالــة) أما الطبقة الداخلية المؤلفة لقوام الحبة فهي خالية من جميع هذه العناصر عدا النشاء.

تحتــوي النخالــة علــى الفيتامينــات (B١،B٢،B٣) وفيتاميــن (pp) وفيتاميــن (E) وعلــى هذا فإن تنــاول الخبز الأسمر المصنوع مــن الحبوب بكاملها يقي الجسم مــن أمراضــ مختلفــة كمرضــ البلاغرا والتهاب الأعصاب وغيرها أما الخبز الأبيض المصنوع من الدقيق الخالي من النخالة فهو خال مــن الفيتامينات كمــا تحتوي الطبقة الخارجيــة من القمح علــى معادن مختلفة هامة فهي تحتوي على الفوسفور الذي يغذي الدماغ والأعصــاب ويقويها إضافة لمعدن الحديد الــذي يمد الدم بالقــوة والحيوية والأكسجيــن والكالسيوم الذي يبني العظام ويقوي الأسنان وعلى السيليكون الذي يقوي الشعــر ويزيــده لمعاناً واليــود الذي يعدل عمل الغدة الدرقيــة ويساعد على السكينة والهدوء والبوتاسيوم والصوديوم والمنغنيز تلك العناصر التي تدخل في تكوين الأنسجة والعصارات الهاضمة.

لقد ابتليت مدينتنا بالمطاحن الحديثة التي تسحق القمح سحقاً ناعماً جداً بحيث يقتل جنين الحبة وتفصل النخالة عن القوام الداخلـي للحبوب على الرغم مما فيها من فوائد جمة.

وعلمـاء الغذاء ينبهون الناس إلى فوائد القمح الحقيقية التـي يحرمون منها بنخل الطحين حتى عرف الناس اليوم مدى جودة الطحيـن هي فـي بياضه خلافـاً للتقدير العلمي السليم.

إضافة لاحتواء النخالة على الفيتامينات والمعادن السابقة لها فوائد عدّة أخرى فهي مفيدة فـي حالة تقرحات المعـدة ومغلي النخالة يفيد كمهـدئ ضد السعال والزكام كمـا أن الخبـز الأسمر أفضـل من الخبز الأبيضـ والخبز الجـاف أسهل هضماً من الخبز الطازج الذي يكون أكثر قابلية للتكتل داخل المعدة بينمـا خلو الخبز الجاف من الماء يجعل العصـارات المعدية تصل إليه بسهولة أكثر.

الزيتون OLIV (olea eruopaea):

شجرة الزيتون شجرة مباركة ورد ذكرها فـي القرآن الكريم فـي مواضع عدة نذكر منهـا: «**وَالتِّيـنِ وَالزَّيْتُونِ۝وَطُـورِ سِينِينَ**» (من سورة التين- الآية:١-٢).

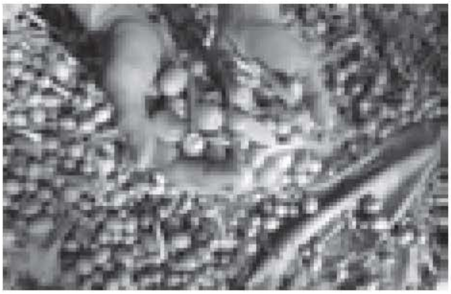
وقولـه تعالـى: «**هُـوَ الَّـذِي أَنـزَلَ مِـنَ السَّمَـاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَـرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ۝يُنبِـتُ لَكُـم بِـهِ الـزَّرْعَ وَالزَّيْتُـونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِـن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**» (من سورة النحل- الآية:١٠-١١).

وفي سورة النور يذكر الله تعالى شجرة الزيتون المباركة بقوله: «**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَـلُ نُـورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّـةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَـارٌ نُّورٌ عَلَى نُـورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُـورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْـرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّـاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**» (الآية:٣٥).

عرف الناس شجـرة الزيتون منذ أقدم العصور فقدسهـا الأقدمون وتبركوا بزيتها فـي طقوسهم الدينيـة واستوقدوا عيدانها وأكلوا ثمارهـا وغصن الزيتـون شعار من شعـارات السلام والأمـان ومازالت شعوب الأرضـ تتناقل هذا الرمـز جيلاً بعد جيل حتى جعلته الأمم المتحدة شعارها.

شجرة الزيتون كبيـرة معروفة بأوراقها الصغيـرة الخضـراء المقاومـة للجفاف، أزهارها عنقودية بيضـاء تتحول إلى ثمار خضـراء هـي الزيتـون الأخضـر، تضم

الفصيلة الزيتونية (Oleaceae) أكثر من ٤٠٠ نوع تنتشر زراعتها في المناطق المعتدلة والمدارية وهناك أنواع عدّة معروفة في سورية وبلاد حوض البحر الأبيض المتوسط.



يتركب الزيتون من:

- ماء: ٨٦٪.
- بروتين: ٥٪.
- دهون: ٢٠٪.

ثمار الزيتون مغذية ومهضمة تفتح الشهية وتقوي المعدة وتساعد على الهضم وتمنع الإمساك، وتفيد في مكافحة الرواسب والحصى الصفراوية.

زيت الزيتون: هو الدهون المستخرجة من ثمار الزيتون بعصرها والزيتون الأسود أغنى بالزيت من الزيتون الأخضر ولذلك للحصول على الزيت يترك الزيتون حتى ينضج تماماً ويصبح لونه مائلاً إلى السواد.

يعتبر زيت الزيتون من أغنى الزيوت النباتية من حيث القيمة الغذائية فهو يعطي قيمة حرارية عالية في غذاء الإنسان (١غ منه يعطي ٢٢٤ حريرة) ويشتمل زيت الزيتون على الفيتامينات (E، D، A) المذابة في الدسم وعلى حموض عضوية غير مشبعة ومفيدة للإنسان ويتألف الزيت من الغليسيرين وحمض الزيت وهو لا يذوب في الماء لأنه أخف منه ويتحول الزيت إلى صابون كيميائيا بمزجه بمادة قلوية.

زيت الزيتون أسهل هضماً من جميع الزيوت الأخرى فإذا كانت عملية هضم طعام دسم في المعدة يحتاج إلى ثماني ساعات فإن هضم وجبة مؤلفة من الخبز والزيتون لا تتطلب سوى نصف تلك المدة ومن المعروف أن الدهون ذات المنشأ الحيواني ترفع نسبة الكوليسترول في الدم أما الدهون ذات المنشأ النباتي (كزيت الزيتون) لا تسبب تلك العلة بل إنها تحل الكوليسترول وتخفّض كميته فكأنها عامل علاجي في هذا السبيل. يقول تعالى: «**شَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ**». (من سورة المؤمنون- الآية:٢٠).

ومن فوائد زيت الزيتون أيضاً أنه ينعِّم البشرة ويدر البول ويسكِّن المغص وآلام

المفاصـــل وأوجــاع الظهـــر ويستعمل في حــالات الحصيات المراريــة الكبدية وفي حالات الإمساك والتشنــج المعوي، وأظهر العلمـــاء أن زيت الزيتـــون يحتوي على مادة تسمى ليبوئيد أو أشباه الدهون هذه المواد ذات الأثــر الفعـــال في تغذيـــة الحجيرات السامية فـــي جسم الإنسان وخاصة النسيج السنجابي في الدمـــاغ، وبهذا يمكن اعتبار الزيت عاملاً في زيادة القدرة على التفكير وحسن المحاكمة (أي الذكاء).

ونظراً لاحتـــواء الزيتون على الفيتامين (D) فإنـــه يقـــي الأطفال من شـــر الكساح وتقوس الساقين ويضفي على الوجه حمرة وإشراقـــاً وفيتاميـــن (E) الموجود في زيت الزيتـــون هو مخصب مقـــوي للنسل مضاد للعقم، وإذا دهن الشعر بالزيت يمنع الشيب ويقوي الشعر ويمنع تساقطه ففي الحديث الشريف: (**كلوا الزيت وادهنوا به**) وباختصار ففـــي زيت الزيتون نور ونـــار، ودواء وغذاء وشفاء وعافية.

المراجع

١- التغذية والنمو: د.محمد غسان سلوم، كلية العلوم، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٤م.
٢- ألف باء الأغذية: زينب الحكيم، منشورات مكتبة النوري، دمشق.
٣- عالم الغذاء التغذية: أحمد الخطيب، دار المعارف للطباعة، دمشق ١٩٨٥م.
٤- الغذاء يصنع المعجزات: د.جايلورد هاوزر، دار النفائس، بيروت ١٩٨٣م.
٥- منافع الأغذية ودفع مضارها: منشورات دار الكتاب العربي، دمشق ١٩٨٢م.
٦- علم البيئة النباتية: د.محمد غسان سلوم، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٨م.
٧- أسرار عالم النبات: د.محمد غسان سلوم، دار المكتبي، دمشق ٢٠٠٩م.

نشوء فكرة النزوع العدواني

عبد الباقي يوسف ❁

تولد الفكرة العدوانية لدى شخص عندما يستكثر نعمة محققة لدى شخص آخر، فيريد أن يسلبه إياها، من هنا، فإن الفكرة العدوانية تبدأ شرارتها الأولى من الحسد، هذه الشرارة التي تتسع وتنمو حتى تبلغ مرحلة التفكير بقيام عمل عدواني تجاه ذاك الشخص الذي يرفل في تلك النعمة، فقد تكون النعمة صحة، وقد تكون نجاحاً، وقد تكون مالاً، وقد تكون رخاءً، أو جاهاً.

العدوان الإنساني الأوّل

لن يكون بوسعك أن تتعرف على دوافع النزوع العدواني لدى الإنسان، إلاّ إذا عدتَ إلى الجذر في هذه المسألة، وهنا أعيدك إلى الحالة الأولى التي ارتكب فيها الإنسان لأول مرة جريمة قتل بحق أخيه الإنسان. تبدأ ولادة فكرة هذه النزعة العدوانية من خلال هذه الآية:

«**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**» (من سورة المائدة- الآية: ٢٧).

❁ أديب وناقد.

نتعرّف على بنيــة الإنسان الشرير، كما نتعرف إلــى بنية الإنسان الخيّر، ويتبيّن لنا بأن المجرم لايميّز بيــن قريب وبعيد، فإن فعــل الجريمة بحــدّ ذاته هو تجــاوز لكل علاقــات القربــى، والعلاقــات الإنسانية، فمادام الإنسان قد أجمع على فعل الجريمة، فيكون بذلك قد تجــاوز كل الحدود، ولعل ذلك لايقتصر علــى جريمة القتل فحسب، بل علــى سائــر الجرائم والموبقــات التي يتجاوز فيها المرء الحدود والقيم والمبادئ الإنسانية، مثــل: السرقة، والكذب، والزنى، والوشاية، والبخــل، والأنانية، والاستعلاء. حيــث لايقتصر ذلك على حــالات محدّدة، فمــادام الإنسان قــد سرق، ولــم يتب عن السرقــة، وهو مستمرّ فيهــا، فيمكن له أن يتوسع في دائرة السرقــة، وما دام الإنسان قــد زنى، ولم يكف عن ذلك، ولم يتب، وهو مــا يزال مستمرّاً في الزنـــى، فيمكن له أن يُعــدّد ويتوسع في دائــرة الزنى، وعلى هذا النحــو بما يشمــل سائر ألــوان الفواحش، والموبقات، والفســاد، ولاشيء يمكن له أن يضع حدّاً لذلك سوى التوبة، أي بتر الحالة من الجذر.

إنَّ قابيل عبّر عن نزعته السلبية عندما رفض التشريع الإلهي بــأن يتزوّج كل رجل ممن يشاء من النساء، بشرط واحد، هو ألاّ تكون هذه المرأة توءمته في الولادة، وكانت أم البشــر حواء رضــي الله عنها تنجب في كل ولادة توءمــاً من ذكر وأنثى، فعندما قال له قابيل: «**لأقْتُلَنَّكَ**» قال هابيل: ولِمَ؟ قال: لأن الله تعالــى قبل قربانــك وردّ قرباني، وتنكح أختي الحسناء وأنكح أختك الدميمة، فيتحــدث النــاس أنك خير منــي ويفتخر ولــدك على ولدي، قال هابيــل: وما ذنبي؟ «**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**».

إذن كان التشريــع أن يكــون التكاثر من خــلال ذاك اللــون من الــزواج، لكن الذي حصــل أن قابيل عندما رأى توءمته جميلة، خطر له أن يرفض هــذا التشريع، ليطالب بأن يتــزوّج من توءمته /أقليمــا/، فهو قد استكثرهــا علــى أخيه هابيل الــذي كانت توءمته/ لبــودا/ أقل جمــالاً، وقد وضعت حواء ابنهــا الثاني هابيل، وابنتهــا الثانية لبــودا، بعد سنتين مــن ولادة البطن الأول، ونظــراً لهــذه الأسبقية في الــولادة، يكون الأربعة قــد كبروا معــاً، وأصبحوا في سنّ الزواج معاً، فجاء التشريع الإلهي، ومن هنا بــدأ رفض قابيل لهذا التشريع، فلم يتدخّل آدم عليه السلام بشــكل مباشر ليمنعه، بل عبّر له بأن الأمر ليس منه، بل هو عائد لله عز وجل، فإن أذن الله لمطلبه، فلا اعتراض على أمــر الله. وطلب أن يجعــل كل واحد

منهما قرباناً، والذي يتقبّل الله قربانه، تكون أقليما زوجة له.

كان هابيل يملك ماشية، فاختار كبشاً من خيرة ما لديه، وكان قابيل يملك زرعاً، فاختار أردأ ما لديه من الزرع، حيث أخذ حزمة من السنابل، وعندما وجد سنبلة جيدة بينها، فركها وأكلها. عندئذ اتجهوا جميعاً إلى الجبل، ووضعوا قربانيهما في أعلاه، فدعا آدم عليه السلام ربه بالاستجابة، فنزلت نار من السماء، أكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، عندئذ أحس قابيل بأن أخته ستذهب لأخيه، ويُروى أنه عندذاك قال له: («**لَأَقْتُلَنَّكَ**» حتى لا تنكح أختي، فأجابه هابيل: «**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**»). بمعنى: لو كنتَ تقياً يا قابيل، لتقبّل الله منك قربانك، وقد تقبّل مني قرباني لأنني تقي. لقد أدرك قابيل ما رمى إليه أخوه، ولذلك هدّده بالقتل.

عن هشام بن سَعْد، عن إسماعيل بن رافع قال: (بلغني أن ابني آدم لما أمرا بالقربان، كان أحدهما صاحب غنم، وكان أنتج له حمل في غنمه، فأحبه حتى كان يؤثره بالليل، وكان يحمله على ظهره من حبه، حتى لم يكن له مال أحب إليه منه. فلما أمر بالقربان قربه لله، عز وجل، فقبله الله منه، فما زال يرتع في الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم عليه السلام).

ويُروي أنه لما قتله (اسودّ جسدُه وكان أبيضَ، فسأله آدمُ عن أخيه فقال: ما كنت عليه وكيلاً، قال: بل قتلتَه ولذلك اسود جسدُك)

إنَّها فاجعة كبرى تلقاها الأبوان في ابنيهما الأولَين، ولكنهما لم ييْئسا، ولبثا مع بعضهما البعض يستمرّا في الحياة، وقد ولدت حواء عشرين مرة، أي عشرين ولداً، وعشرين بنتاً، وقد ولدت في البطن الأول قابيل، وتوءمته أقليما، وفي البطن الأخير عبد المغيث، وتوءمته أمة المغيث، لكن بعد موت هابيل بخمس سنوات، ولدت ولداً بمفرده هو /شيث/ كتعويض من الله لهما عن هابيل، ويُروى أن جبريل عليه السلام قال لحواء عندما ولدت ابنها شيث مفرداً: (هذا هبة الله لك بدل هابيل) وكان آدم إذ ذاك قد بلغ مئة وثلاثين سنة من العمر، وممّا يُروى (أن الله تعالى علّمه ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادة الخالق في كل ساعة منها، وأنزل عليه خمسين صحيفة فصار وصي آدم وولي عهده).

فالأصل في الجريمة الأولى، هو الحسد، وعدم الرضى بالتشريع الإلهي، هذا التشريع الذي يبيّن للإنسان الرشد من

الغي، ويضعه على صراط مستقيم، ويجعله تقياً، وفي الوقت ذاته يجنّبه الوقوع في براثن الطغيان.

بسط اليد للقتل

يجيب هابيل:

«**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**» (من سورة المائدة- الآية: ٢٨).

إنَّها التقوى التي تمنعه من الردّ بالمثل، حتى لايكون مثله، ثم أنه يتحدّث مع أخيه الذي يكبره بسنتين بأدب، لن أكون مثلك أبسطُ يدي للقتل، لأنني تقي، وخوفي من الله يمنعني من ذلك. ولعل ذلك يشير بأنه لم يكن يخافه، رغم أن قابيل كان يكبره، فقوله «لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي» يشير إلى أنه سيقاومه بمنعه من القتل، وليس للرد عليه بالقتل، فقولك لشخص: إن أردتَ أن تضربني، فتعال، ولن أضربك، لايعني ذلك أنك تستدعيه لضربك، وتستسلم له، بل لتثبت له بأنه لا يستطيع أن يضربك، كونك قادر على منعه من ذلك، وهذا ما حدث بالنسبة لقابيل، فجواب هابيل بث إليه حقيقة أنه لايستطيع أن يتقدم إليه وجهاً لوجه، وأنه سيرضخ مستسلماً له، بل إنه قادر على منعه بذلك، لكنه لن يقتله لسبب أنه شاب تقي في مقتبل عمره، ومقبل على الزواج، ويخاف الله، كما أن أخاه أيضاً في مقتبل عمره، ومقبل على الزواج بيد أنه ليس تقياً، وهذا شأن خاص به، فثق يا قابيل بأنني لن أدعك تقتلني «**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي**» وسوف أردّك، لكن في الوقت عينه لأنني تقي «**مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**» ونحن الآن في مرحلة ولادة فكرة القتل لدى قابيل، وقد ولدت هذه الفكرة عند شخص مهيأ لها، فهو قد رفض في البدء التشريع الإلهي، ثم أنه عبّر عن حجم أنانيته وحسده عندما قال لأخيه بأنّه يُفضّل أن يقتله على أن يتزوّج أقليما، ثم أنه عبر عن بخله عندما قدّم قرباناً من أردأ ما لديه من الزرع، فهذه من أشكال الطغي، ثم نجد أن هابيل أبدى موافقته على التشريع، وعبّر عن كرمه عندما اختار أفضل ما لديه من ماشيته للتقرّب إلى الله، ثم أنه لم يردّ على التهديد بالتهديد، وتلك من علامات التقوى التي تؤدّي بصاحبها إلى مخافة الله، كما أن الطغيان يؤدّي بصاحبه إلى اللاخوف من الله، فيقدم على فعل كل شيء كونه ليس تقياً، وقد أفضت به اللاتقوى إلى عدم الخوف من الله. الخوف من الله هنا هو الخوف الإيجابي الذي يمنع الاعتداء

على حقوق الآخرين، واعلم أن الخوف من الله هو أعلى مراتب التخلص من الجبن، وأعلى مراتب الشجاعة، فالخوف من الله يبث إليك شجاعة الطمأنينة، «**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**» (من سورة النحل- الآية: ٥٠).

إنَّه يرسخ في ذاتك حضور الله تبارك وتعالى، حتى تبلغ بك مرتبة متقدمة تلمس فيها بأنه سبحانه وتعالى معك في كل خطوة تخطوها، وفي كل هنيهة تدركك.

عندئذ يستكين فؤادك بسكينة الخوف من البارئ، فتتطيب نفسك بما ينثره الخوف الإلهي إلى ذراتها من نور الله، عزّ اسمه، فتدرك آنذاك لأول وهلة أن كل خوف به خصلة جبن، إلا الخوف من الله، يكون شجاعة خالصة، كل خوف يحمل شكلاً من أشكال الجبن، إلا الخوف من الله، فهو أعلى مراتب الشجاعة.

«**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**» (من سورة السجدة- الآية:١٦).

«**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**» (من سورة الإسراء- الآية ٥٧).

يتحوّل خوفك من الله إلى حصانة تتحصّن بها من أي خوف دونه، حينها يستكين في جنباتك يقين أن كل خوف من دون الله، إنما منبته اللاخوف من الله، وكل لاخوف من دون الله، إنما منبته الخوف من الله.

«**يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ**» (من سورة النور- الآية:٣٧).

يكون الخوف من عقاب الله، وهذا ما يعزّز الطاعة لديك، لأنك نظير ذلك تدرك بأنه يثيبك على طاعتك له، ولا شيء يضيع عنده مما تقوم به من عمل صالح، بل يضاعفه لك بما يشاء، وهذا هو الخلاف بين خوفك من عقاب القانون المدني، وبين خوفك من عقاب الشرع الإلهي، فهناك قد تخاف من ارتكاب مخالفة حتى تتجنّب العقاب، وتكتفي بذلك، لأنك مهما تجنّبت المخالفات، وصلحت في عملك، فإن القانون لايهبك شيئاً، إنه في أحسن الأحوال لايتعرّض لك، لكن الخوف من انتهاك حدود وشرائع الله، يجعلك غير مكتفٍ بذلك، بل تعمل الصالحات ما استطعت إليها سبيلاً، لأن الله يثيبك في الدنيا، وفي الآخرة، إلى جانب أنه يقيك عذابَي الدنيا، والآخرة. عن أبي المغيرة، عن عبد الله بن عمرو أنه قال:(وايم الله، إن كان المقتول لأشدَّ الرجلين، ولكن منعه التحرُّج أن يبسُط إلى أخيه).

إنَّ بلــوغ حالة الخوف من الله، هي بلوغ لحالــة الشعــور برؤية الله لــك في جميع الأوقات، وأن كل مــا تشعر به، أو تفكر به، لايخفى عن الله،

ثم يقول له:

«**إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ**» (من سورة المائدة- الآية:٢٩).

وهذه إشارة قوية له كي يمتنع عن تنفيذ تهديده، فيا أخــي، إن أقدمتَ على قتلي، لن تُتــرك دون عقاب، بــل سيدخلك الله النار عقاباً لك، وعندها لا تبوء بإثم قتلي فحسب، بل تبــوء بإثم حرماني من الزواج الذي شرّعه الله لي مرتين، وحرّمه عليك مرتين، مرّة عند التشريع، ومرة عند تقبّل قرباني، وعدم تقبل قربانك، واعلم يا أخي أنــك إن قتلتني، كذلك ســ«تَبُوءَ بِإِثْمِي» لأن الله لن يضيّع حقي منك، فإن لم تكن لديك حسنات، يأخذ الله من سيئاتي لتكون لك، فتُعاقَــب «بِإِثْمِي» الذي لم ترتكبه، «فَتَكُونَ » بقتلي «مِــنْ أَصْحَابِ النَّارِ» لاتكون فيها بشكل مؤقت، بل تكون مصاحباً لها «وَ» أن «ذَلِكَ» العقــاب هو «جَزَاء الظَّالِمِينَ» فلا تكن ظالماً حتى لاتبوء بـ «ذَلِكَ»

تحويل القول العدواني إلى فعل

لكن تقع الجريمة:

«**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**» (سورة المائدة- الآية:٣٠).

رغم كل هــذا النصح الذي بــدأ يتنوّع في توجهه مــن خلال ثلاث آيات متواصلة، حتــى إنه في الآية الثالثة بــدأ يأخذ شكلاً مــن التصعيد فــي لغة الخطــاب السلمي، إلاّ أنــه لم يرتدع، وقد رفضــ كل ما سمع واتبع ما «طَوَّعَتْ لَــهُ نَفْسُهُ» جعلته يطيعها في «قَتْــلَ أَخِيهِ» «فَ» استجاب لها و«قَتَلَهُ» وقــد تحوّل القــول إلى الفعــل وقعت أول جريمــة في التاريخ الإنســاني، إذا أقدم أخ فــي الثانية والعشرين، على قتل أخيه الذي يصغــره بسنتين، وهما أوّل ولدين لأبويهما، ولاشك أن ذلك كان بمثابة المأساة الحقيقية لأبويهما، فقد قُتل الثاني، وأمّا الأول تحوّل إلى قاتــل أخيه «فَأَصْبَحَ مِــنَ الْخَاسِرِينَ». ويُــروى أن آدم عليــه السلام لــم يضحك بعد ذلك مئة سنــة، ثم جاءه ملك فقال له: (حيــاك الله يا آدم وبياك. فقال: ما بياك؟ قال: أضحكك).

إذن، لقــد لجأ قابيل إلــى الغدر دون أن يتجــرّأ على مواجهته وجهاً لوجه، فقد استغفله وهو نائم في رعاية أغنامه، وانظر

هنا إلى الطريقة الجبانة التي اغتاله فيها، فهو لم يوقظه كي يتبارزان، أو يتصارعان، ليظفر أحدهما بأقليما، بل لجأ إلى وسيلة اغتيال سريعة للتخلص منه بأن حمل صخرة كبيرة، وأوقعها على رأسه، وهو نائم وقتله.

«**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**». (من سورة المائدة- الآية:٣١)

بانتهاء الجريمة، رأى نفسه أمام معضلة «كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ»، وهذا يعني أن هابيل هو ليس أول إنسان قُتل فحسب، بل هو أول إنسان مات، وأن قابيل ليس أول إنسان رأى إنساناً مقتولاً فحسب، بل أول إنسان رأى أول إنسان مات أيضاً، ولذلك وقع في حيرة كيفية مواراة جسده حتى يتمكن من نكران ارتكاب الجريمة، عندما يعود أبوه من مكّة، وكان آدم عليه السلام عند وقوع الجريمة في أول زيارة لمكة عندما قال له الله عز وجل: (هل تعلم أن لي بيتا في الأرض؟ قال: اللهم لا. قال: إن لي بيتا في مكة فأته. فقال آدم للسماء: احفظي ولدي بالأمانة، فأبت. وقال للأرض، فأبت. وقال للجبال، فأبت. فقال لقابيل فقال: نعم، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك). فهو الأخ الأكبر للعائلة، وهنا يتبيّن أيضاً بأنه خان الأمانة.

واعلم أن هيأة الإنسان كانت مختلفة عمّا هو عليه الآن، وقد ورد في الصحيحين أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «إنَّ الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل الخلق ينقص» ولعل ذلك يعني أن حواء كانت على شيء من ذلك، لأنها تحمل في كل بطن جَنينين، ولعل طول الجَنين يكون نحو خمسة أذرع، لأنه سيُصبح في طول قريب من أبَوَيه، ثم أن نسبة الدم التي ستسيل منه تكون كثيرة.

لذلك حمل «سَوْءَةَ أَخِيهِ» وهو يبحث عن طريقة كي يواريها دون أن يفلح في ذلك، «**فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ**» البحث هنا هو الحفر، ومن عادة الغراب أن «يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ» سواء ليخفي شيئاً، أو يُخرج شيئاً كان قد أخفاه سابقاً، ويبدو أن الحفر قد لفت نظر قابيل، وصار يتخيّل أنه سيوسّع الحفرة حتى تتسع لأخيه، ثم يردمه بالتراب، وهنا «قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي» وقوله «يَاوَيْلَتَا» بمثابة توبيخ للذات، فكيف «أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي» وليس من باب

الندم، أو التوبة، وذلك لأنه استمرّ في العصيان، والذي يتوب، يتقبّل الله منه التوبة إن شاء، لأن باب التوبة لاينغلق أمام أي إثم يمكن للإنسان أن يرتكبه، حتى الشرك «**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**» (سورة الشورى- الآية:٢٥)، «**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ**» (من سورة التوبة- الآية:١٠٤). ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم): «الإسلام يهدم ما قبله» أخرجه مسلم. فالويل هنا موجّه إلى عجزه في طريقة إخفاء جريمته، وليس ندماً منه على ارتكاب فعل الجريمة.

قال عبد المطلب بن عبد الله بن حنطب:(لما قتل ابن آدم أخاه وجفت الأرض بما عليها سبعة أيام ثم شربت الأرض دمه كما يشرب الماء، فناداه آدم أين أخوك هابيل؟ قال: لا أدري ما كنت عليه رقيبا، فقال الله تعالى: إنَّ دم أخيك ليناديني من الأرض، فلم قتلت أخاك؟ قال: فأين دمه إن كنت قتلته؟ فحرم الله عز وجل على الأرض يومئذ أن تشرب دما بعده أبداً).

وقيل:(لما قتل قابيلُ هابيلَ هرب إلى عدن من أرض اليمن، فأتاه إبليسُ فقال له: إنما أكلت النارُ قربانَ هابيلَ لأنه كان يخدُمها ويعبُدها، فإن عبدتَها أيضاً حصل مقصودُك، فبنى بيتَ نارٍ فعبدها وهو أولُ مَنْ عبد النار).

إنها الخسارة الكبرى التي يُمنى بها الإنسان العنيد المتجاوز لحدود الله، وقد ثبت في الصحيحين، وغيرهما من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها لأنه أوّل من سنّ القتل».

تتعلّم من هذه الآيات بأن الله خلق الإنسان كي يعيش، ويستمرّ من خلال الحياة، والاستمرار الطبيعي يكون من خلال الضوابط الإلهية التي تكفل لإنسان أن يعيش حياة عادلة، طبيعية، ومشرقة، منتجة، تقية، نافعة، لكن الإنسان إن تجاوز هذه الضوابط الإلهية سواء سرّاً أو علناً، فإنه يخرج عن مسار العدل، ومسار فطرة الطبيعة البشرية، فلن يكون له إلاّ أن يكون جائراً، مؤذياً، مظلماً، طاغياً. ثم إن شجاعة الإنسان لاتكمن في عدم خوفه من الله، بل تكمن ذروتها من قوة خوفه من الله، ولذلك يلجأ الذي لايخاف الله إلى منعرجات خفية، مثل السرقة، والوشاية، والزنى، والنفاق، والرياء، والقتل، ولذلك نرى أن كل هذه الممارسات تحدث سرّاً لأن المرتكب

لايملك شجاعة أن يمارسها علناً، وأنه سيلقى الإدانة المجتَمَعية.

من هنا يمكنك ملاحظة أن جرائم القتل في غالبيتها تقع في السرّ، وبشكل غادر، نسبة إلى الجريمة الأولى، فلكل شيء أصل، وقد أطلعتك الآيات على تفاصيل واقعة الجريمة الأولى، ثم عرّفتك على البنية النفسية للإنسان المجرم، فهو إنسان متهزهز في الأعماق، ومضطرب في التصرفات، أناني النزعة، حسود النظرة، سوداوي التفكير. في المقابل عرّفتك على البنية النفسية للإنسان التقي، فهو إنسان مستقرّ في الأعماق، منضبط في التصرّفات، إنساني النزعة، مُبارَك النظرة، مشرق التفكير. ثم انظر إلى حديث قابيل البعيد عن الأدب، وإلى أدب هابيل في جوابه، رغم أن هابيل هو أكثر شجاعة من قابيل، فلو كان ضعيفاً، لما احتاج قابيل إلى قتله كي يأخذ أقليما، بل لأخذها رغماً عن أنفه، وهو ينظر إليه نظر العين لأنه أقوى منه، ولم يكن بحاجة أن يردعه بالقتل، بل بشيء من الضرب المبرح، أو حتى بوضعه في عزلة، لكن هابيل كان مانعاً قوياً أمامه في ارتكاب هذا التجاوز على حدود الله، وأن قابيل لم يكن يُشكّل هذا المانع القوي أمام هابيل كي يتزوّج من أقليما، بل كان سيتزوّجها رغماً عن أنفه، ودون أن يجسر على فعل شيء، لأن قوة هابيل كانت واقفة له بالمرصاد لأي تجاوز، إلاّ أن هذا هو مسلك أهل الطغيان، وهو اللجوء إلى الغدر، وهذه علامة كبرى من علامات الجبن، وعدم مخافة الله.

إنَّ هذه الآيات تبيّن لك بأن الحب، هو أكثر جدوى من البغض، والحالة الإنسانية، هي أكثر جدوى من الحالة الأنانية، وأن الإنسان لن يكون بوسعه أن يقدّم شيئاً مجدياً وهو يتجاوز حدود الله، بل يستطيع أن يقدّم شيئاً مجدياً من خلال مراعاته لحدود الله، وبالتالي لايستطيع أن يكون سعيداً من خلال انتهاك حدود الله، بل تكمن سعادته على قدر مراعاته لحدود الله، وأن المستقبل البشري يكمن في النزوع الإنساني، ولايكمن في النزوع العدواني، ولذلك لم ينتصر الطغيان بمقتل قابيل لأخيه هابيل، رغم أنه لبث وحيداً، وقد غاب الطرف الذي يمثّل حالة التقوى، بل أنه بدا يتخبّط، فانظر إلى قوله: «يَاوَيْلَتَا» إذن لقد أدرك بأنه ألحق بنفسه الويل، فهو غير سعيد في قتل أخيه، لأن الاعتداء على حياة إنسان بريء لايمكن له أن يُحقق سعادة حقيقية للقاتل بأي شكل من الأشكال، لأن ذلك تجاوز لفطرة الإنسان التي فطره الله عليها، فالويل لي، ثم بصيغة

السؤال الذي فيه توبيـخ واستصغار للذات «أَعَجَزْتُ» وهـذا اعتراف ضمني له يواجه به نفسـه، لأنه قال ذلك لنفسـه، ولم يقله لأحـد، فقـد أصبح فـي حالـة عجز بعد ارتـكاب الجريمـة، وهو يفقـد صوابه في كيفيـة إخفـاء معالم جريمتـه: أعجزتَ يا قابيل أن «**تكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ**» بمعنى لم تكن حتى بذكاء وفطنة هذا الغراب، ولذلك استخـدم لأول مرة كلمة «أَخِي» وكأنه فطن للتـو بأنه خسر شيئاً لايمكن تعويضه، فهذا الأخ هو بمثابة القوة له، وأنه لم يعد بإمكانه أن يرى هابيل، وقد كبرا معاً سنة بعد سنة، وعاشا طفولتهما معاً يوما بيوم، هاهو رفيق العمر الوحيد، هاهو رفيق الطفولة الوحيد، مسجى أمامك وقد قتلته غدراً يا قابيل، إنه هابيـل الذي منعه أدبـه أن يردّ عليك حتى بكلمة جارحة، عندما قلت له بأنك ستقتله، بل قال لك: «**لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَـا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِيـنَ**» فها هي الكلمات تشتعل في مسمعه، وهاهي ذكريـات عشرين سنة مضت تتداعى في مخيلته: «**يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي**» واعلم أن استخدامه لكلمة «أَخِي» هي إشارة بانتباهـه للتـو بأنه خسر أخـاً له لن يكون بوسعه أن يراه ثانية: «**فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ**» ليس على ارتكاب الجريمة، بل على خسارة الأخ. لأنـه لو كان نادماً على فعل الجريمة، للجأ إلى الله متضرعاً بالتوبة، واعترف لأبيه بهذه الجريمة، وأنه قد ندم عليها، ولكن هذا الذي حصل، فمهما كانت النتيجة، يكون قد تاب، وأصبح صالحاً، والندم بذاته توبة، كما ورد عـن النبي (صلـى الله عليه وسلم) أنه قال: «**الندم توبة**» رواه أحمد والبخاري في تاريخه والحاكم والبيهقي.

لكن لاشيء يشير بأنه أصبح صالحاً، بل أنكر جريمته، كما رأيت، على الرغم من أن معالم الجريمة بـدت واضحة عليه، عندما تغيّرت بشرته من البياضـ إلى السواد، ثم أنـه انتهى إلى طاعة الشيطان بأن غدا أول عابد للنار.

لقد كان هابيل رمزاً للتقوى، وكان قابيل رمزاً للطغيان، وقد استمرّت الحياة رغم أن رمز الطغيان اغتـال رمز التقوى، لكن الله يعمّر الأرض بمزيـد من المتقين، فقد كثر الأتقياء في الأرض بمـوازاة تكاثر الطغاة، إلاّ أن كفة الإعمار رجحت على كفة الدمار، وكفة دعاة السلم الإنساني رجحت على كفة دعاة الحروب، وكفة زارعي الورود، رجحت على كفة زارعي الألغام، لذلك عُمرت الأرض أكثر مما دُمّـرت، أشرقت الأرض بالأتقياء أكثر مما أُظلمت بالطغاة.

تَبعات الجريمة

يقول الله:

«**مِـنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَـا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّـهُ مَن قَتَـلَ نَفْساً بِغَيْـرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَـا قَتَـلَ النَّاسَ جَمِيعـاً وَمَـنْ أَحْيَاهَـا فَكَأَنَّمَـا أَحْيَـا النَّاسَ جَمِيعـاً وَلَقَدْ جَاءتْهُـمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُـمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْـدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**» (من سورة المائدة- الآية:٣٢).

إنَّ الـذي يقتـل شخصاً، يمكـن له أن يتمـادى ليقتل غيره، فتكـون لديه القابلية لذلك، فَبناءً على هـذا «**كَأَنَّمَا قَتَـلَ النَّاسَ جَمِيعـاً**» لأنــه مهيأ أن يقتل أي شخص بعد ذلــك، كون غريزة القتــل محققة فيه، وهو شخص عدواني بامتياز. إذن يكون قد ارتكب جريمـة بحق الإنسانية جمعاء، كونه اعتدى علـى فرد من هـذه الإنسانية من دون وجه حـق، وهو بذلك يكون قد غـدر بالإنسانية التـي ينتمي إليها. ونظيـر ذلك، فإن الذي يشعر بمسؤوليته الإنسانية، فإن ذلك يدفعه كي يخلص لانتمائـه الإنساني، ويسعى إلى إنقـاذ حيـاة الناس، فـإن رأى شخصاً في كرب، سعـى للتخفيف عنه، إن رأى شخصاً في خطر، سارع إلـى إنقاذه، فَهو إن خفف عـن شخص، «**كَأَنَّمَا**» خفـف عن الإنسانية جمعـاء، وإن أنقذ حياة شخـص، «**فَكَأَنَّمَا** » أنقـذ حيـاة «**النَّاسَ جَمِيعـاً**». ويمكن أن يحدث هذا في موقف عفو، أو موقف ستر، لأن الإنسان يمكن أن يرتكب خطيئة، ويندم عليها، ويتوب إلى الله، ويصلح في شأنه، ثم يطلب منك أن تعفو عنـه، أو تستره، فيبدأ هذا الشخص صفحة جديدة من حياته، ولم يكن ليظفر بذلك لو أنك ما عفوتَ عنه، أو أنك ما سترته.

فـ«**مِـنْ أَجْـلِ**» مـا تترتب علـى مرتكب جريمة القتل «**كَتَبْنَا**» و«**مِـنْ أَجْلِ**» مايترتب لمحيـي النفس كَتَبْنَـا» وعبارة «**مِـنْ أَجْلِ**» تعنـي أنها تحمل الثـواب، وتحمل العقاب، فـ«**مِنْ أَجْلِ**» هذا تلقى العقاب، و«**مِنْ أَجْلِ**» ذاك تلقى الثواب.

عن أية نزعة إنسانية مناقبية في عصرنا نتحدث؟(١)

ترجمة: د.ماري شهرستان ❊
تقديم فابيان تريكور ❊❊

ينادي العديد من المفكرين بمناقب إنسانية جديدة تحت شعار الأخوّة. وهنا مقابلة مع ثلاثة منهم: «عبد النور بيدار»، و«تسفيتان تودوروف»، و«جان بيك»(٢).

يقول ميشيل فوكو بازدراء مستنتجاً الخلاصة بعد قراءة بحث «الكلمات والأشياء»: «الإنسان هو اختراع حيث يُظهِرُ علم الأثريات في فكرنا منشأه الحديث بكل سهولة، وربّما نهايته القريبة».

ولاحقاً بعد مرور خمسين عاماً ظلَّ الحكم معتدلاً. النزعة المضادة للإنسان لا تزال تجد مدافعين عنها مع نتائج وعواقب، لماذا تكون قيمة الإنسان أفضل من باقي الأحياء؟ وعلى أيّ أساس نجعل منه قيمة، هل نبغي مبدأ يقود أفعالنا؟ إضافة إلى ذلك هناك «مشاريع حضارية كبيرة» في العصر الحديث، مثل الاستعمار أو بعض الفلسفات العقلانية الشمولية التي تقول بأنَّ النزعة الانسانية المناقبية قد تكون جهنماً مرصوفاً بنوايا حسنة، نوعاً من الضمانة الأخلاقية في مواجهة الضلال العقائدي في زمنها. مع ذلك... لا تزال

❊ مترجمة وباحثة سورية.

❊❊ Fabien Trécourt.

النزعة الإنسانية تجـذب الناس دوماً حتى إنّها أحياناً تأخذهم إلى التقديس الأخلاقي. أي إنســان في المجال العام يتجرأ اليوم أنْ يعلــن عن نفســه بأنَّه «ضــد الإنسان»؟ أي شخص مترشح لمنصب سياسي على سبيل المثال، يستطيع أنْ يعلن عن رفضه لحقوق الإنسان؟ بل علــى العكس من ذلك، التوجه اليوم هو نحو الأنسنة على جميع الأصعدة: في الاقتصــاد، في العمل، فــي التربية... لفهم هذه العودة طرحنــا أسئلة على ثلاثة مفكرين يعتبرون نفسهم ذوي نزعة إنسانية، وسألنــا عن أيّ معنى يمكــن أنْ تأخذ قيمة «الإنسان» هذه، اليوم أو في المستقبل.

مقابلـة مـع «عبـد النـور بيـدار[٣]»: «ستحـب القاصـي (البعيـد عنـك) مثـل نفسك تماماً».

- لقـد ازدادت الهجمـات ضـد النزعـة الإنسانيـة فـي القـرن العشريـن: هـل هـذا التيّـار الفكري مركز «إثنيّ»، أو «آبائيّ»، أو «بورجـوازي»، أم «ذكـوري». لمـاذا تستمر الإرادة في الدفاع عـن النزعة الإنسانية؟ ألم يتجاوزها الزمن؟

- نشــأت مناهضــة النزعــة الإنسانية علــى خُطــى «أربــاب الفكر» فــي القرن التاســع عشر، «كارل ماركــس» و«فريدريك نيتشة»، و«سيغموند فرويــد». بالنسبة إلى «ماركــس»، تُخفي النزعــة الانسانية خلف تلــك العموميات حول «الوضــع الإنساني»، العلاقــات الطبقية بين الأفــراد. بالنسبة إلــى «نيتشة»، لا تنفصــل النزعة الإنسانية عن الوهم الدينــي، عندما تتجه إلى «تأليه الإنســان لنفســه»، وبذلك لا يمكــن لها أن تنجــو وتستمر بعد الحدث الحديث لـ«موت هذا التأليه». أمَّا بالنسبة إلى «فرويد»، فهو يؤكد بأنَّ الكائن الإنسانــي ليس كائناً حرّاً سيداً لأفعاله، ولا خالقاً واعٍ لوجوده، بل هو دمية تتحرك بدافــع من غرائزها الجنسية اللاواعيــة والمكبوتــة... وعندما نضيف إلى هذه الانتقادات الثلاث - التي تم تبنيها بدقــة من قبــل كل أرباب القــرن العشرين الهدّامين - الكوارث الأخلاقية والسياسية في القرن العشرين- الاستعمار، والإبادات، والحكومات الشمولية، والتصورات التخيّلية الخادعة بالتفوق العنصري... نفهم بأنّه قد أضحى مــن الصعوبة بمكان أنْ يكون المرء إنسانوياً بالمعنــى الكلاسيكي، أي أن يكون مقتنعاً بسمو الإنسان. أعتقد بأنَّه في بداية هــذا القرن الحــادي والعشريــن، قد حان الوقت للانتقال إلى شيء آخر أي أنْ نتخلّص من الانبهار بالهاديــين والتخلص أيضاً من الانهيار العصبي الــذي سببه مآسي القرن

الماضي. بهذا الاتجـاه أُحرِّض على إعادة التفكير بالنزعة الإنسانية بأسلوب جديد.

- كيف يمكن أن تكون النزعة الإنسانية في زمننا؟ وكيف يمكن إدخالها في مجتمعاتنا؟

– تستند النزعة الإنسانية المعاصرة إلى المقدرة الروحيـة والتعاونية بالتحدث عن عظمة الإنسان، وعلى تقوية هذه الثقافة في حياتنا. طبعاً يمكن للإنسان أنّ يكون ضعيفاً قليـل الـذكاء، عنيفاً تسكنـه أرواح قبيحة ومخيفة. وهذا ما يعيدنا به التاريخ الحديث إلـى الذكرى الأليمة. لكن الإنسان يمكن أنّ يكون رائعـاً أيضاً وأنّ يتسامى ويتفوّق على ذاتـه؛ لهذا السبـب ينبغي علينـا اليوم أنّ نخرج من عصر اليأسـ الحرج لإعادة بناء «صور عظيمة عن الإنسان» نرفع ونعلّي من خلالها حياتنا. لن أذهب إلى القول كما قال «مونتين» بـأنَّ: «كل إنسان يحمل في داخله الوضـع البشـري»، أي مقدرته على الأخوة والإبـداع – وهاتان المقدرتان هما بالنسبة إليّ المأثرتان الرئيسيتان في الإنسان. ينبغي أن يتم تنظيم مجتمعاتنا لمساعدة كل واحد فينا على تنمية هاتين الكفاءتين، لأنّنا غير قادريـن على تنميتها بمفردنا. هذا بالنسبة إلـيّ المشروع الحضاري الأكثر طموحاً في يومنا هذا.

- هل رهان حكمتك هو: «أحب الإنسان الأبعد عنك كما تحب نفسك»؟

– الإنسان «الأكثرهم بعداً» هو الشخص الذي ليست ثقافته كثقافتي والذي دينه غير دينـي. هذا «البعيد» الـذي ينبغي علينا أن نهتم به، هو أيضاً الاهتمام بأجيال أحفادنا الذيـن ينبغي علينا أنّ نورثهـم كرة أرضية وطبيعة بحالة سليمـة. الحكمة الإنسانوية القديمـة ذات المنشأ المسيحي والتي تأمر بـ«حب القريب» أضحت اليوم حكماً في كون معولم وفـي مجتمعات متعـددة الثقافات، وفي زمن المسؤولية البيئية «حب البعيد» أي الذي ليس قريباً مني لا باللغة ولا بالحضارة ولا بالانتماء إلـى العصر نفسه، لكن ينبغي علـيّ أنّ أكون قادراً علـى أنّ أنمّي تجاهه شعوراً وموقفاً أخوياً عابراً للمسافات. «حب البعيد» هو أحـد الميادين الذي من خلاله نستطيع أن نجدد نزعتنا الإنسانية.

- من أمنياتـك اختراع دائم لوجه عال للإنسانية. ماذا تقصد بالتحديد في هذا الموضـوع؟ وأيـة مسائل كبيـرة يساعدك ذلك في حلها؟

– تبـدأ الحيـاة الروحيـة حيـث يشعر الفرد بأنّـه مرتبط بشيء ما عـالٍ، شيء ما سام عظيم. غير أنّه يبـدو لي اليوم أنَّ شكل «الواقـع السامي» الأكثر حداثـة، هو القدرة

الإبداعية التي نمتلكها في داخلنا. في عالم تطورت فيه مقدرتنا على الفعل بالنسبة إلى العصور السابقة، وخصوصاً بفضل التقدم التقني، فلم تعد الآلهة هي فائقة القدرة بل الكائن الانساني. لكن ينبغي أنّ يعرف كيف يستخدم كل هذه المقدرة بإعطائها معنى وقيمة... لهذا السبب أقترح اليوم هذا الوجه «للإنسان المبدع»، هذا يعني أنّ يكون كائناً إنسانياً يستعمل كل المقدرات التي تضعها الحضارة بتصرفه، لكن ليس للتدمير وليس فقط للتسلية والترفيه، بل للتعبير عن عمق كينونته وعن غناه وفرادته. كم هو عدد الأفراد الذين تعطيهم مجتمعاتنا المسماة «متطورة» فرصة أنّ يعيشوا حياتهم مطابقة لتطلعاتهم الشخصية؟ هم قلائل جداً في الحقيقة. وهذه الحيوات ينقصها المعنى بشكل رهيب... إذا كان عليّ أنّ أستخدم صورة غنائية ستكون كالتالي: لنتعلم أن نغرس في داخلنا مهمة تحريض الإبداع على الانبثاق، عندها سنصبح مصادر إلهام لا تنضب لبعضنا بعضاً.

مقابلة مع تسفيتان تودوروف(٤)

- «قابلية الكمال هي سمة في الوضع البشري»، واحدى الانتقادات الموجهة إلى النزعة الإنسانية هي أنها «أوروبية التركيز». هل يمكن لـ«مفهوم الإنسان» أنْ يصبح عالمياً؟

- نعم أعتقد ذلك. عرفنا من علم الإنسان الاجتماعي والثقافي بأنَّ كل مجتمع له خصوصياته. فالأمر طبيعي ولا شيء يدهشنا إذن بأنَّ كل المجتمعات تقيّم قبل كل شيء الاختلافات الموجودة فيما بينها. غير أنَّها في الوقت نفسه تستمر في البحث عن سمات ثقافية عالمية. فالأنظمة الأخرى المختلفة توضّح بشكل رئيسي الصفات المشتركة عند بني البشر. فالبيولوجيا التي تعيّن هوية الجنس أو علم الإناسة الذي يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته، والذي يعين ويبرز خصائص أسلافنا عندما تميّزوا عن باقي الرئيسات من الثدييات، أو علم العادات والأخلاق الذي يوضّح الفروقات والتشابه في تصرف مختلف الأجناس الحيوانية (ونحن جنس منها). يمكننا أيضاً أن نذكر علم نفس التطور الذي يبحث في التحولات التدريجية للإنسان ودخوله في العلاقات الاجتماعية. فعلى سبيل المثال، قدرته على اكتساب لغة هي سمة كونية مهما كانت اللغة المعنية. وحتى لو أنَّ اللغات تختلف عن بعضها بعضاً إلا أنَّ الترجمة من لغة إلى أخرى هو أمر ممكن على الدوام. لا أعتقد بأنَّ العلوم الاجتماعية تنكر شرعية المعتقد القائل بـ«الكائن البشري»، ولا نجد مثل هذا

الموقف إلا عند المنظّرين العنصريين. فلو كانت الحالة بهذا الشكل لما وجدت علوم تكون نتائجها مقبولة لدى الجميع ولا «حقوق إنسان» معترف بها في العالم كله.

- تبدو النزعة الإنسانية مشوشة (أو محقّرة) أحياناً لكثرة استخدامها بشكل سطحي دون مضمون حقيقي. هل يمكن لها أن توضّح تعقيد العلاقات الإنسانية؟

- لا تزال النسخة «الزهرية (المتفائلة)» للنزعة الإنسانية موجودة، وهي التي تستند إلى رؤية مطمئنة جداً عن الكائن البشري. النزعة الإنسانية التي أدافع عنها هي مختلفة تماماً. فهي اتخاذ موقف صلب وقوي وراسخ في بنائه التاريخي ويحتوي على ثلاثة خيارات كبيرة إنتروبولوجية وأخلاقية.

ففي البدء العمومية[٥]: كل الكائنات البشرية تنتمي إلى الجنس نفسه وتتمتع بالكرامة نفسها. والحرية هي المعيار الثاني: لا توجد أيّة حتمية كافية لشرح قدر رجل أو امرأة. وكما كان «جان- جاك روسّو» يقول: كل إنسان ينبغي عليه إمّا أنّ «يذعن أو يقاوم». وفي الخلاصة، هدف الحياة الاجتماعية ينبغي أن يكون سعادة الأفراد البشرية. من هذه الناحية يتميّز الفكر الإنسانوي عن المشاريع الوهمية التي تسعى لمستقبل تعاوني مشرق. كما يتعارض مع المعتقدات الدينية التي يكون كل فعل إنساني بالنسبة إليها موجّها لخدمة دينية. ويتميز أيضاً عن بعض التجرد وحب البشر الساذج. المفكرون الإنسانويون الكبار في عصرنا ليسوا من يرسمون صورة مثالية بريئة عن البشرية، بل الذين يحتفظون في ذاكرتهم الأوقات القاتمة في ماضينا، أمثال «فاسيلي غروسمان» و«بريمو ليفي» أو «جرمين تيّون»[٦] الذين وصفوا الآلام والمعاناة في سجون القرن العشرين ومع ذلك لم يصابوا باليأس.

- إذا كانت النزعة الإنسانية تعترف بأنَّ جنة البشر «تظل ناقصة أبداً»، كما تكتب فماذا يفيد ذلك لأفق سياسي واجتماعي؟

- الجيد هو عدو الأفضل: إذا توخينا الكمال، نحكم على أنفسنا باللجوء إلى وسائل عنيفة، ضرورية لتقويم الأفراد والمجتمعات. لكن الاستسلام والمحافظة[٧] أمران لا يمكن تجنبهما: «قابلية الكمال» كما كان يقول «روسّو»، هي سمة في الوضع الإنساني. وهي فرض أولي أو (مسلمة) يستند إليها نظرياً عمل أي نظام ديمقراطي. أنّ نعي هذه القابلية نحو الكمال، وأنّ نعمل لتحقيقها هو كل معنى النزعة الإنسانية كما أراها شخصياً. وبذلك يمكن أنّ تشكّل النزعة الأفق الأخلاقي والسياسي لعصرنا.

مقابلة مع «جان بيك[8]»: يرفض أن يرى في الآخر عدواً:

- إنّك تعرِّف النزعة الإنسانية وفق معيارين: حرية المعتقد والحرية الدينية. هل تعني بذلك فكرة علمانية أم دينية:

- ينبغي ألّا ننسى أبداً بأنَّ النزعة الإنسانية في النهضة كانت تنشَر وتُجسَّد من قبل مفكرين مسيحيين - أمثال: «توماس مور»، «إيراسم»، «غيوم بوده»[9]... الذين كانوا يطالبون بحرية المعتقد كي يواجهوا السلطات الزمنية والروحية. وكما يذكر الفيلسوف الإيطالي «نوربرتو بوبيو[10]» بأنَّ الحرية الدينية كانت الحرية العامة الأولى التي تم اكتسابها في القرن السادس عشر باسم حرية المعتقد. وكان «غيّوم دورانج[11]» قد كتب يقول: «بقدر ما أعتبر نفسي كاثوليكياً صميمياً، غير أنّي لا أستطيع في الوقت نفسه أنْ أقبل بعض الأمراء الذين يحاولون الضغط على معتقد رعاياهم». وباسم هذه الحرية نفسها أي حرية المعتقد طالب مفكرو الأنوار في القرن الثامن عشر بحق الإلحاد وحق عبادة الله وحده. هذان الوجهان للنزعة الإنسانية - أي حرية المعتقد والحرية الدينية - هما ثمرة ديانة «الخروج من الديانة» التي هي المسيحية، كما برهنها بشكل واضح تماماً «مارسيل غوشه[12]» في مؤلفه: «خيبة أمل العالم».

- لماذا تعتبر اليوم بأنَّ الروابط بين العلمانية والمعتقدات الدينية ينبغي أن يعاد دراستها والتفكير بها؟

- إنّك تتحدث عن روابط وهذا جديد بالنسبة إليَ لأنَّ تاريخنا جعل من العلمانية موضوع مجابهة. وأنا أعتقد أنَّ مبدأ العلمانية ليس الحرب بل البحث عن السلام. لكن الحدث الجديد منذ قانون عام ١٩٠٥ والفصل الحميد بين الكنائس والدولة، هو الشرعة الأوروبية لحقوق الإنسان التي صادقت فرنسا عليها: ففي المادة التاسعة منها حرية الدين كحق مدني لكل فرد. دون نسيان قوة التراث الذي يرفض الواقع الديني ويود حصره داخلياً، ينبغي علينا من الآن فصاعداً أن نفكر بالعلمانية والدين معاً. فالحرية الدينية تتيح لكل فرد أن يعبِّر عن قناعاته في المجال العام، لكن الفكر العلماني يدعوه إلى التحفظ والأخذ بعين الاعتبار الحالة التي تفرض علينا احترام آراء الآخرين. وعلى الديمقراطية أن تكسب من المواجهة السلمية بين التيارات الفلسفية الكبيرة والدينية حول قضايا علم الأخلاق التي تتناول الحياة والموت والعدل واستقبال الأجنبي الغريب.

- هل يمكن لمفهوم الأخوّة أنْ يجمع المؤمنين والملحدين في مشروع إنسانوي واحد؟

- أنّ تكون الأخوّة في صدر رسالة الكتاب المقدّس، وأيضاً على واجهة دور الحكام، لايمكن إلّا أن تدعو بعضهم «أشخاص ذوي النوايا الحسنة» لأن يتعايشوا مع بعضهم بعضاً. تجد الأخوّة في العمق الديني للعلمانية، بالمعنى الاشتقاقي لكلمة «ديني religare» أي الذي يوصل أو يربط البشر ببعضهم بعضاً. وبالنسبة إلى «إيمانويل ليفينا[١٢]» أعتقد بأنَّ الأخوّة هي في أساس العلمانية بما أنّها تدعو المواطنين إلى التصرف كأخوة. فطالما هم يتشاركون في المكان المشترك نفسه، ينبغي أنّ يمارسوا التسامح وعدم التعصب فيما بينهم لتجنب أي نوع من أنواع العنف. أن يكونوا أخوة هذا لا يعني أنّ يكونوا متفقين في كل أمر، إنّما أن يرفضوا اعتبار الآخر على أنَّه عدو. لقد كتب «غاندي» يقول: «لست مضطراً أن أوافق على شيء أتسامح به». العلمانية ليست مجرد قاعدة اللعبة فحسب، بل هي فن العيش المشترك. على كل واحد منّا أنّ يكون صانعاً للسلم المدني، ذاك الخير الأعظم. لهذا السبب هي مناطة بالمواطنين كما بالدولة على حد سواء. وربما تكمن النزعة الإنسانية في هذه الحالة.

العلمانية ليست عقيدة أعلى من غيرها من العقائد -من الأديان على وجه الخصوص- إنّما هي نظام أو نهج يسمح بتعايش كل التيارات الفكرية.

«جان بيك» يصوّب التاريخ السياسي والفلسفي لهذا النموذج من المجتمع وهو يرسخه في الجدل الحالي الدائر حول التعبير الديني في المجال العام.

الهوامش

١- مقالة نشرت في العدد الشهري رقم ٢٦٦ - شهر كانون الثاني ٢٠١٥م من مجلة العلوم الإنسانية: Sciences Humaines-Quel humanisme pour notre temps.

٢- Abdennour Bidar، Tzvetan Todorov et Jean Picq.

٣- عبد النور بيدار: دكتور في الفلسفة، وعضو مرصد العلمانية، صدر له كتاب «تاريخ النزعة الانسانية في الغرب»، أرمان كولان ٢٠١٤ م.

Docteur en philosophie، membre de l'Observatoire de la laïcité، il vient de publier Histoire de l'humanisme en Occident، Armand Colin، ٢٠١٤.

٤- Tzvetan Todorov تسفيتان تودوروف: فيلسوف ومؤرخ، ألّف كتاب «الحديقة الناقصة، الفكر الإنساني

في فرنسا» غراسّة ١٩٩٨. و«أعداء الديمقراطية»، روبير لافون ٢٠١٢م.

٥- العمومية l'universalisme: في الفلسفة: مذهب لا يعترف بأية سلطة إلا بالقبول العام، بعكس الفردية والذرّية.

٦- Vassili Grossman، Primo Levi ou Germaine Tillion

٧- المحافظة: نزوع إلى إبقاء ما هو قائم ومقاومة التجديد.

٨- Jean Picq: موظف كبير وأستاذ مشارك في الـ«à l'IEP-Paris». آخر أعماله: «الحرية الدينية في الجمهورية». «الذهنية العلمانية»، أوديل جاكوب ٢٠١٤م.

٩- Thomas More، Érasme، Guillaume Budé

١٠- Norberto Bobbio

١١- Guillaume d'Orange

١٢- Marcel Gauchet

١٣- Emmanuel Levinas

البعد الجمالي للزخرفة الإسلاميّة

معصوم محمد خلف ❀



برع المسلمون في استعمال الخطوط الهندسية، وصياغتها في أشكال فنية رائعة، فظهرت المضلعات المختلفة، والأشكال النجمية، والدوائر المتداخلة..

وقد زينت هذه الزخرفة المباني، كما وشّحت التحف الخشبية والنحاسية ودخلت في صناعة الأبواب وزخرفة السقوف.

ولئن كانت هذه الزخارف دليلاً على موهبة فنية عظيمة فهي أيضاً دليل على علم متقدم بالهندسة العملية.

والزخرفة الهندسية ذات أهمية خاصة في الفن الإسلامي، ولعلَّ أهميتها تلك

❀ باحث وفنان سوري.

نتيجة مطابقتها للمواصفات التي يقبلها المنهج الإسلامي.

وهذا ما يفسر لنا ذلك الأثر الكبير الذي تفرضه على كل الفن الإسلامي إذ أصبح الأسلوب الهندسي واحداً من الأساليب التي طبعت الزخرفة النباتية نفسها بأسلوبها فكثيرا ما جاءت هذه الزخرفة بإخراج هندسي عجيب بل إنَّ الكتابة نفسها -وهي الفن الإسلامي الآخر- كثيراً ما تفنن في إخراجها الفنان المسلم فجاءت في قوالب هندسية متنوعة الأشكال.

لقد استطاعت الهندسة أن تفرض سيادتها -في الفن الإسلامي- وذلك بغلبتها على شبق الأشكال كما يقول «جارودي».

ولا يفوتنا هنا أن نذكر ما كان للفرجار من دور في تقدم هذه الزخرفة وسيادتها، فقد كان للدائرة دور كبير في هذا العطاء غير المحدود من الأشكال يؤكّد هذا ويوسع مساحته ملء بعض المساحات وترك غيرها فارغة.

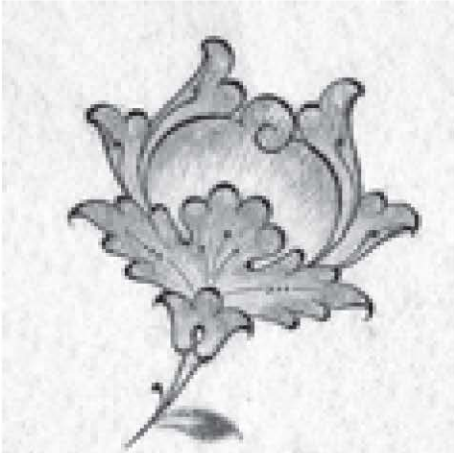


وقد استطاع المسلمون استخراج أشكال هندسية متنوعة من الدائرة، منها المسدس والمثمن والمعشر.. وبالتالي المثلث والمربع والمخمس، ومن تداخل هذه الأشكال مع بعضها وملء بعض المساحات وترك بعضها فارغا نحصل على مالا حصر له من تلك الزخرفات البديعة التي تستوقف العين لتنتقل بها رويدا رويداً من الجزء إلى الكل ومن كل جزئي إلى كل أكبر..

ولقد كان «هنري فوسيون» دقيق التعبير عميق الملاحظة حينما قال:

«ما أخال شيئا يمكنه أنّ يجرد الحياة من ثوبها الظاهر وينقلنا إلى مضمونها الدفين مثل التشكيلات الهندسية للزخارف الإسلامية، فليست هذه التشكيلات سوى ثمرة لتفكير قائم على حساب دقيق قد يتحول إلى نوع من الرسوم البيانية لأفكار فلسفية ومعان روحية، غير أنه ينبغي ألا يفوتنا أنه خلال هذا الإطار التجريدي تنطلق حياة متدفقة عبر الخطوط فتؤلف بينها تكوينات تتكاثر وتتزايد، متفرقة مرة ومجتمعة مرات وكأن هناك روحاً هائمة هي التي تصلح لأكثر من تأويل يتوقف على ما يصوب عليه المرء نظره ويتأمله منها وجميعها تخفى وتكشف في

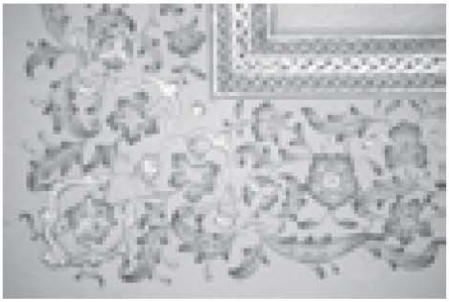
الواحد عن سر ما تتضمنه من إمكانات وطاقات بلا حدود».



للزخرفة العربيــة الإسلامية مزاياها وأشكالها الخاصة التي تميزها عن سواها من زخرفة غربيــة أو آسيوية أو أفريقية. ولا غــروَ وإن هذه الزخرفــة المستمدة من تراث شرقي -عربي قديم- غلب عليها منذ مجيء الإسلام الطابع الديني وما زال حتى يومنا. وهــذا الطابع لا يخضــع لمنظومة موحــدة، خصوصــاً وأنَّه تطبَــع بالأشكال والألوان والمواد المستعملة التي كانت سائدة في العالم الذي دخله الإسلام. وهذا العالم كبير يمتد من الصين حتى الأطلسي.

حيث ترتكز الزخرفة الإسلامية على أسس عميقة الجــذور تنبع من الديــن والتقاليد المتوارثــة. وقد هدف البنّــاءون والفنانون المسلمــون والعرب فــي أعمالهم إلى إبراز خصوصيــة هذه التقاليــد التي غلب عليها الإسلام منــذ أن جاء. من هنا نرى العلاقة الحميمة بين الإسلام وفن العمارة والزخرفة وبناء المــدن رغم الاختلافــات السطحية التي نشاهدها. فهي بمجملها تعكس روحية الدين والخطوط الكبرى التي رسمها لحياة المسلم إجمالاً والعربي تحديداً.

وكلها تعتمــد ما أسمــاه بعض مؤرخي الفن الإسلامي السكينــة والراحة الرّوحية والجسديــة والتأمــل والبساطــة. ومن هنا نرى كم اعتمد فن الزخرفة الإسلامي على الألوان والضوء ووسع المساحات.

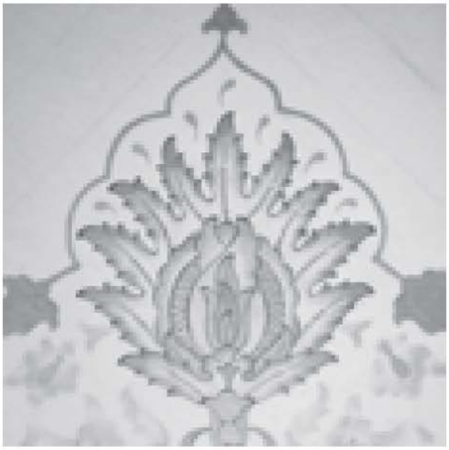


أمَّا عناصر الزخرفة العربية الإسلامية فيمكــن اختصارهــا بستــة عناصــر هي: الخط العربي، الهندسة، الرسوم الطبيعية، الحيوانــات، الضوء والمــاء. وكلها عناصر جالبــة للراحة والسكينــة والهدوء أكثر من كونهــا تعتمد على العظمة الفردية كتصوير الأشخاص البارزيــن أو العظمة المعمارية، حيــث ترتفــع القصــور الشامخــة ودور

العبادة الضخمة المزينة بكل أنواع الرسوم والتماثيـل، والمدافـن المرتفعـة المقامة تخليـداً للقابعين في الأرضـ تحتها. وقد كتـب في هذا المجال المعماري البريطاني «أون جونـز» فـي القرن التاسـع عشر: إن المبدأ الأساس فـي فن العمارة هو زخرفة المبنى لا بناء الزخرفـة. وهذا ما اعتمده البنّاءون العـرب والمسلمون.، وكما يضيف جونز، لا نجد إطلاقا زخرفة فاقدة الهدف أو زائدة أو غير ضرورية في الفن الزخرفي الإسلامي. إنّها زخرفة طبيعية وواقعية.



وأبرز عناصر الزخرفة العربية الإسلامية هو الخط العربي. فكل كلمة عربية ملفوظة أو مكتوبة منذ أن نزل القرآن أصبحت كلمة الله، وبالتالي اعتمدها الفنانون في أعمالهم الزخرفية أو التجميلية. فما من بناء أو صرح إسلامي يغيب عنه الخـط العربي. فلا بد مـن آيات تكتب على المدخل وفي القاعات والغـرف إن على حجـارة البناء أو الخشب المستعمل أو في الرسوم. وغالباً ما تضاف إلى الآيـات أسماء أصحـاب البناء وتاريخ الإنشاء والذين صمموا أو نفذوا العمل. وقد يُكتفى أحيانا بذكر اسم الله مكتوباً ومكرراً أو اسم النبي مكتوباً ومكرراً.



العنصـر الثاني: هو الفـن الهندسي الذي أدخـل عليه المهندسون المعماريون العـرب والمسلمون نماذج لم تكن معروفة أو معتمـدة قبلاً. وهذه النماذج والأنماط تُظهـر حب العربـي أو المسلـم للتناسق الهندسـي والتكـرار واستنبـاط أنماط جديـدة أو استحضـار الماضـي البعيد السابق للإسلام. وليس من شك أن الفنان

العربـي عرف كيف يمازج بين المساحات والأجزاء وبيـن الجمال الهندسي والضوء واللون، إن في العمارة نفسها أو في الفرش الذي اعتمده.

أمَّـا العنصـر الثالـث، أي الرسـوم الطبيعية، فالفنانـون العرب والمسلمون اعتمـدوا إلى حـد كبير فـي أعمالهم الزخرفيـة علـى الرسـوم المنقولة من الطبيعة بدقة وإتقان بارزين. فقد رسموا النباتات والأزهار على الجدران والأقمشة وأشيـاء أخـرى عديدة. وقـد برز هذا العنصر في مـا سمي عالمياً بالأرابسك أو الزخرفة النباتية الهندسية التي تُظهر النباتـات من أشجار وجنبـات وأعشاب على طبيعتها من دون إضافات أو تبديل. فنحن نرى شجرة نامية تتشعب أغصانها، وتبرز أوراقها بألوانها الطبيعية، وتتفتح أزهارها التي لا تذبل.

لم يشجـع الإسـلام الفنـان العربي والمسلم على رسـم الإنسان أو الحيوان. لذلـك لا نرى إلا القليل مـن رسوم يبدو فيهـا حيوان أو إنسان. فهذان المخلوقان المتحـركان همـا، فـي ضميـر المسلم ومعتقده، من خلـق الله وبالتالي يستحب تجنب إعادة خلقهما في الرسوم والأعمال الزخرفية.



أمَّـا الضوء فهو بالنسبـة للمسلم عامة وللعربـي بنوع خاص رمـز الوحدة الإلهية، فضلاً عن أن الطبيعـة التي يعيش العربي في كنفهـا تمتلئ نوراً وضـوءاً أكثر من أي طبيعـة أخرى. من هنـا كان الضوء عاملاً مهماً في الزخرفة المعمارية الإسلامية، إن في شكل البناء وما يتخلله من فسحات كبيرة وفناءات، وإن في الداخل حيث غلبت الألوان الفاتحة أو الزاهية في طلاء الجدران وفي الفرش من مقاعد وسجاد و..إلخ.

يغلـب الحر على أكثر البلـدان العربية والإسلامية. من هنا ركَز المعماريون وفنانو

الزخرفة كثيراً على أن تشمل الماء، بركاً داخلية أو صوراً جدارية للجداول والأنهار، المباني التي صمموها قديماً وحديثاً. فكانوا بذلك يتجاوبون مع تعطش العربي للماء. فإذا هو فقدها فعلاً بسبب شحتها فلا بأس أن يمتّع النظر بزخرفة تجلب إليه هذه المسرة.

كما ويعدّ فنّاً الزخرفة والتزيين من أهم الفنون العربية والإسلاميّة عراقة، حيث يشكلان سيمفونية شرقية حالمة الألوان متناغمة الألحان، نستشف من ألقها الصلة الحميمية بينها وبين الخط العربي في محور تكاملي يمثل القاعدة السليمة لجوهر الفن الإسلامي.

كما وتتمتع الزخرفة الإسلامية بمواصفات محدودة ومقاسات مضبوطة، وهي مجموعة من الباقات، التي يتم توزيعها على ساحة العمل الفني من كتاب أو مخطوط أو زاوية من إحدى الزوايا، كما أنها عمل تنسيقي يعطي للمتلقي أولوية الاطلاع والبحث في أروقة تلك اللوحة من جهة، ومن جهة أخرى يضعك أمام حديقة غناء تنبعث من أرجائها علامات الطمأنينة والعظمة والوقار.

وإنَّ أوَّل عمل نستطيع أن ننظر إليه بتمعن هو الزخرفة التي تضفي على العمل الفني قداسة وألقاً وضياءً.

حوار العدد

مع:

الفنان الكبير دريد لحام

إعداد: محمد خالد الخضر ❀



تـراه يرسم لـك ابتسامـة ووطناً، هو فنـان وضع حجـر أساس لفـن سرمدي، فتجاوز بفنه الحـدود التي قطعت أواصر الجسـد العربـي، ليعيـد بفنـه المنتمي للعروبـة والوطنية والأصالـة ربط أواصر هذا الجسـد الواحد، هو الفنـان الكبير دريـد لحام الـذي امتلك قـوة وشخصية وثقافـة عاليـة، فـأدى الأدوار المتباينة والمختلفـة وتفـرّد بالشخصيـات التـي لا يمكـن أن يتقمصها سـواه فتماهى في عوالم شخصياته وتشرب أبعادها النفسية

❀ أديب وصحفي سوري.

والاجتماعية مسقطاً عليها رؤاه المتجذرة في هموم الوطن والمؤطرة بأدواته الفنية الغنية.

وفي محاكاتها للواقع وغوصها العميق بين لبنات المجتمع وشرائحه المختلفة وفي معايشة تفاعلية وتجربة حقيقية قدمت الواقع بكل شفافية زاد من مصداقيتها وجدان الفنان الكبير دريد لحام المتلاحم مع الوجدان الجمعي المنفعل بالهم الوطني.

وعن بعض مسيرته الحافلة بالفن والعطاء كان الحوار التالي:

- الفنان الكبير دريد لحام ما هي آخر أعمالك؟

• إنَّ آخر أعمالي كانت في موسم ٢٠١٤م، وهو مسلسل «بواب الريح» وذلك لأنني أصبحت أهتم بالأعمال الانتقائية، وأصبحت خياراتي صعبة حفاظاً على تاريخي الفني الذي أصبح بينه وبين جمهوري روابط مشتركة لا يمكن أن أضحي بها، علماً أن هذا العام عُرِضَ عليّ سبعة أعمال فلم أجد نفسي في أي عمل منها، ولم أجد خياراً يمكن أن يتجاوز عملي الأخير.

«بواب الريح» الذي تضمن كثيراً من حياة شعبنا عندما كان متماسكاً وقوياً مما جعل الشعب قوياً أمام أي تدخل غريب يهدد مصلحته.

- إنَّ شخصيتك في مسلسل «سنعود بعد قليل» هي شخصية تحمل القوة والطيبة، إن هذا العمل عمل بنيوي تركيبه صعب، فكيف اشتغلت على ذلك؟

• إنَّ هذا المسلسل كان خياري بامتياز، ولم أقف محتاراً عندما عُرِضَ علي حيث قررت الموافقة على لعب هذا الدور ولعبته بشخصية دريد لحام بكل ما فيها من طيبة وما تمتلكه من بنى ثقافية وقوة من أجل الوصول إلى نتيجة تعمل بحرص على اللحمة العائلية التي أجدها اللبنة الأساسية في بناء وطن سليم وقوي.

- الفنان الكبير دريد لحام الذي أدى شخصية غوار التاريخية، لماذا خرج منها الآن؟

• إنَّ شخصية غوار كانت شخصية مرحلية مرتبطة بعمر الشباب، وقامت حينها بأداء حالات هامة وضرورية على صعيد البناء الاجتماعي، وبالطبع تلعب القدرة الفنية على أداء مثل هذا الدور ولكن لا يمكن أن تكون مقنعة وأنا بهذا العمر لذلك ذهبت إلى شخصيات أخرى تناسب عمري الآن وتؤدي قيماً تلعب دوراً

أكثر أهمية، منه وتلائم المرحلة الزمنية التي نعيشها بما فيها من تحولات لم تكن موجودة من قبل.

- دريد لحام فنان كبير قدم الكوميديا، والكوميديا الجادة، والشخصية الجادة فهل هناك متطلبات لأداء كل نمط وأين تجد نفسك؟

• إنَّ أهم المتطلبات في لعب أي دور جوهري يجب أن يكون الفنان مخلصاً له، وأن ينفصل عن واقعه ويبتعد عن نمطه النفسي ليقدم دوراً آخر يقتنع به المشاهد ويراه ناجحاً ومؤثراً وغنياً وأجد نفسي في أي عمل فني يمكن أن يساهم في خدمة المجتمع وبناء الوطن مهما كان نوع هذا العمل.

- أي الأدوار التي أدت إلى شهرة دريد لحام؟

• بالتأكيد شخصية «غوار» كان لها الدور الأول والأخير في اكتساب دريد لحام بعض الشهرة إلا أن مسيرتي الفنية، وما قمت به من أدوار لا تقل مكانة عن شخصية غوار وقد تتجاوزها في بعض الأحيان. هي أيضاً كرست ذلك في بعض الشخصيات التالية منها شخصية (أبو نمر- بو قعقور) في «الخربة» ثم شخصية (أبو سامي) في مسلسل «سنعود بعد قليل».

- هل يرتاح الفنان الكبير دريد لحام لمخرج معين، أو كاتب معين؟

• أرتاح كثيراً للكاتبين الكبيرين الدكتور ممدوح حمادة ورافي وهبي لأن قلميهما مغموسان بحبر الحياة والحقيقة وبالنسبة للمخرجين بالتأكيد أرتاح بالدرجة الأولى للعمل مع المخرج المبدع الليث حجو وخاصة أنه صديقي منذ أن كان طفلاً لذلك فهو يفهمني جداً ولذلك غامر بي بدور (أبو سامي) في مسلسل «سنعود بعد قليل» كما أرتاح أيضاً للعمل مع المثنى صبح كما حصل معي في مسلسل «بواب الريح».

- ما هي الرسالة التي يجب أن يؤديها الفنان دريد لحام من خلال أدواره المختلفة؟

• رسالة الفن بشكل عام هي لفت النظر إلى بعض تفاصيل الحياة التي لايراها الآخرون وإذا رؤوها لا ينتبهون إلى أهميتها وتكون بالنسبة لهم كعابر سبيل، وهنا تكمن الرسالة وأهميتها شرط أن تقدم شيئاً يعمل على تطوير المجتمع ويساهم في بناء حضارته وتقدمها.

- هناك عدد من الأغاني التي أدّاها دريد لحام.. لماذا غنى دريد لحام؟ وهل هناك مشاريع غنائية أخرى؟

• لا توجد مشاريع غنائية حالياً، لأنني لست مطرباً، إنَّما أغني عندما يحتاج المشهد الدرامي إلى تأثير بنيوي أكبر، لذلك كل أغنية قمت بغنائها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمشهد الذي أُدّيت فيه هذه الأغنية أو تلك ولذلك عندما تذكر أغنية ما مثل (يامو) يجب أن تذكر المشهد الذي قيلت فيه، وكيف يحدث التأثير المطلوب.

- ماذا يحضّر دريد لحام في المستقبل سواء على صعيد الدراما بأنواعها، أو على صعيد الغناء أو غير ذلك؟

• أدرس الآن عملا مع مؤسسة الإنتاج التلفزيوني أتمنى أن يرى النور قريباً، ولا بد من أنه سيكون متطوراً فنياً ومقنعاً للمشاهدين لأنني أحرص على هذا الخيار وأهميته. وفي مجال الغناء هناك تعاون إنساني مع مجموعة أحباب بلدي لإقامة حفل غنائي وطني يعود ريعه لشهداء (الجنود المجهولين) في مجال الإطفاء والكهرباء.

- في أي زمن ارتاح دريد لحام للعمل أكثر؟ هل ارتاح للماضي في زمن غوار أم الآن؟

• بالتأكيد للزمن الماضي ولا أقول زمن غوار إنَّما زمن الأبيض والأسود حيث كان الفنانون أكثر إخلاصاً وأكثر تحدياً لصعوبات العمل في ذلك الوقت لما يتطلب اجتهاداً من العاملين كافة وخصوصاً عدم إمكانية المونتاج أو خروج الكاميرا إلى خارج الاستيديو.

- ما رأيك بالدراما وتحولاتها هل تؤدي تطوراً معيناً؟ وهل أنت راضٍ عنها ولاسيما في السنوات الأخيرة؟

• بالتأكيد تطورت الدراما تطوراً جيداً حيث استفادت من تطور التكنولوجيا والأدوات اللازمة لإنتاج العمل الفني وازدياد شركات الإنتاج مما شكل تنافساً للوصول إلى الأفضل إضافة إلى المواهب الشابة التي لولا معهد الدراما لما كان لها أن ترى النور.. لذلك تجد الممثل السوري يتفوق على نظرائه في المحيط العربي.. ولكن بعض الأعمال يشوبها الاستسهال كما أن بعضها لا يعبّر تعبيراً صادقاً عن مجتمعنا سواء في الأعمال التي اعتمدت التاريخ القريب أو الحاضر إذ قدَّمت صورة مشوهة عن أخلاقنا بغية كسب مادي أكبر أو تلبية لمطالب رأس المال الخارجي.

من أهم أعمال الفنان دريد لحام

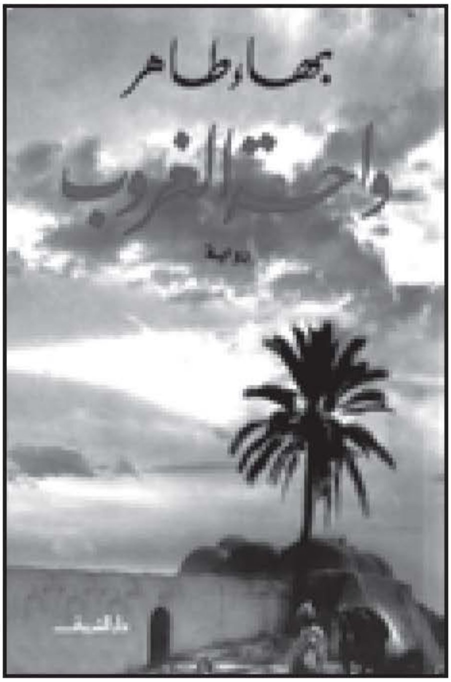
دريد لحام من أهم الفنانين السوريين، تجاوز خارطة الوطن وصولاً إلى العربية والعالمية ومن أهم أعماله:

- سنعود بعد قليل.
- بواب الريح.
- مسلسل وادي المسك.
- غوار.
- وفيلم الحدود.
- مسرحية غربة.
- شقائق النعمان.
- كاسك يا وطن.

وغير ذلك من الأعمال الكثيرة.

«واحة الغروب»* وأسئلة البحث عن الذات

❁
عرض وتقديم: عماد الفياض



لا بد من الإشارة أولاً إلى أن «واحة الغروب» لبهاء طاهر ليست سوى رواية الأسئلة الكونية والوجودية الأزلية. أسئلة الفرد المشروخ والمفجوع أمام ذاته والعالم. فرد مأزوم يريد أن يتعلم الدرس، يعرف كيف يقف وأين يضع قدميه. فرد يسأل ويسأل لكن في النهاية لا يتعلم الدرس إلا من حسابه بعد أن يكون هو نفسه ضحية السؤال.

من الجدير بالملاحظة أنه ليس فقط بطل الرواية محمود عبد الظاهر وحده الذي تسكنه الأسئلة، وإنما جميع الأبطال الآخرين في الرواية: كاثرين، الشيخ يحيى،

❁ كاتب سوري.

الشيخ صابر، إضافة إلى الإسكندر الأكبر الذي بُعث حياً من جديد ليطرح الأسئلة المربكة والمستفزة والتي ربما من الصعب الإجابة عليها. جميع من في هذه الرواية يسأل وفقاً لطريقة سرده ورؤاه المختلفة. ومن هنا كان لكل شخصية في «واحة الغروب» دورها المرسوم بحيث تقدم إرهاصات جديدة وذلك من خلال القصص المنفردة والمتشابكة بحيث تتطور الأحداث وتتصاعد وترتفع مداميك العمارة الروائية ببطء لكن بخط حلزوني متصاعد حتى يصل إلى ذُراه، وأثناء ذلك نجد أن كل شخصية تكشف بقدر ما تخفي لتترك فراغات ومضمرات في المتن الروائي على القارئ أن يتوقعها ويكملها.

ما يميز أبطال «واحة الغروب» هذا القلق الذي يسكنهم، جميعهم في رحلة بحث محمومة عن شيء ما مفقود، ربما تسرب من بين أيديهم ولا يعرفون كيف، لكنهم يبحثون عنه في محاولة لاستعادته أو على الأقل يجدون جواباً، أنهم في حنين دائم لشيء ما: المأمور محمود يمر برحلة طويلة لمعرفة الذات واكتشاف ما تسرب منه، ومعرفة أين أخطأ وأين أصاب، لذلك هو في رحلة عذاب نفسي وجلد للذات يتكبد خلالها الكثير من المشاق والخسارات، كذلك كاثرين والشيخ صابر والصاغ وصفي، وأيضا مليكة وفيونا، جميعهم في رحلة للبحث عن الذات، كل واحد منهم له هواجسه وأسئلته.

أبطال «واحة الغروب»:

إنَّ «واحة الغروب» رواية أصوات بامتياز، تُبنى على تعدد الرواة، الذين يمثلون الشخصيات الرئيسية في الرواية: محمود عبد الظاهر، كاثرين، الشيخ يحيى، الشيخ صابر، الإسكندر الأكبر، مع اختلاف رؤاهم وتكوينهم المعرفي، ومن هنا، ولأن «واحة الغروب» رواية أصوات فإنها ترفض البطولة الأحادية المطلقة والراوي الواحد وهيمنته الديكتاتورية. وتعدد الأصوات في الرواية هو ما قال به ميخائيل باختين في كتابه «مشكلات فن ديستوفسكي» وفي تعريف باختين للرواية المتعددة الأصوات «أنها تعبر عن نوعية العلاقة بين الراوي والشخصية، بحيث يسمح السابق للاحق بالحق لأن يقول الكلمة النهائية - وهكذا فإن صوت الشخصية سوف لن يكون خاضعاً بشكل كلي للراوي». وربما بناءً على هذا الأساس فإن رواية الأصوات، رواية ديمقراطية لا تحتكر الرأي.

١ - محمود عبد الظاهر الضابط المنجرح وصاحب الحلم المكسور، يتلقى

فجأةً نبأ نقله إلى واحة سيوة مغضوباً عليه لدور ملتبس له أثناء الثورة العرابية. محمود هذا شخصية مأزومة ومشروخة حتى النخاع. أزمته مركبة ومتعددة. وفي سيوة ستتضاعف أزمته لأن مهمته ستكون فقط في جمع الضرائب بأية وسيلة كانت، وهذا ما يكرهه، لأنه في سيوة سيكون هو الضحية والجلاد. تعود أزمته إلى فشل الثورة العرابية التي شارك فيها على نحو ما، ورأى بعينيه تآمر الخديوي مع الإنجليز، رأى كيف يحكم الأجانب مصر، رأى صعود الذين غيروا ولاءاتهم. وكي يحافظ على رأسه لم يقل كلمة صدق لصالح الثورة والثوار أثناء التحقيق معه، لقد أنكرها وأنكرهم واتهمهم بالبُغاة. وعلى الرغم من ذلك لم يرض عنه الأجنبي فنفي إلى سيوة، على أقصى حدود مصر الغربية. محمود عبد الظاهر يعذبه السؤال، هل تعود أزمته على ما ذُكر سابقاً أم بسبب أحداث أخرى كخيانته لنعمة السمراء وتخليه عنها، أم بسبب خيانة صديقه طلعت للثورة العرابية، أم بسبب خسارة والده لتجارته على يد تاجر يوناني. المأمور محمود عبد الظاهر مأزوم ولا يجد جواباً عن السبب، لذلك نجده يتساءل «وتسألني كاثرين ما هي أزمتي؟ لكن بالفعل ما هي أزمتي ؟٤٨».

ثم إن مشكلته المستعصية هي أنه لا يعرف ما يريد «إذن، فما الذي أريده؟ ليتني أعرف ماذا أريد! ليتني أعرف ماذا أريد ومن أكون ٧٣». أليست هذه أسئلة الوجود والهوية؟ ربما الشيء الوحيد الذي يعرفه محمود عن نفسه هو أنه صاحب مشكلة كبيرة لا يجد لها حلاً، لذلك تحول إلى شخصية عصابية تتمركز حول أزمة غاصت عميقاً في اللاوعي. وأمام هذا الواقع تحوّل محمود إلى شخصية انسحابية هروبية يجمع بين المتناقضات، وكان هذا ما اكتشفته زوجته كاثرين، فهو تارةً منغمس في اللهو والمجون والنساء، وتارةً منخرط في التعبد من صلاة وصوم. طبعاً هذا حال العاجز غير القادر على مواجهة الذات والآخر، تكون مواجهته بالهروب ومحاولة النسيان، لكنه لا ينسى، وهذه مشكلته أنه لا ينسى.

محمود عبد الظاهر بلا يقين، اليقين الوحيد المتأكد منه هو ما يعترف به «اليقين الوحيد هو تلك البذلة الرسمية التي ألبسها، والمهنة التي جاءتني دون أن أرغبها، ولم أعد أعرف لنفسي مهنة غيرها رغم كل ما جرته علَي عبر السنين، ثم هذه الواحة ١٨». البذلة الرسمية رمز السلطة التي من خلالها يستمد قوته وسطوته والتي

من خلالها يحظى باحترام وطاعة الآخرين – طبعاً خوفـاً، ولو خلع هـذه البذلة فإنه سيفقد هيبته، سيتحـول إلى إنسان عادي لا حـول له ولا قوة، لأنه لم يعد ابن حكومة يأمر فيطـاع – ثم الواحة هـذه الحقيقة المـرة التي ليسـت سوى خـواء آخر يمتد داخلـه، لقد نقلت عنه زوجته كاثرين، يقول لها «إنَّ الصحـراء تنتشر داخل نفسه ٥٧». لكن من المفارقات العجيبة أن هذا الخواء، أي وجوده في الصحـراء انقلب أخيرا إلى نعمة، عندمـا أدرك الحقيقة وبلغ المعرفة التي كان يبحث عنها.

لكن نقطة التحول في حياة محمود عبد الظاهـر كانت فـي رحلته إلـى الصحراء، هذه الرحلـة التي ليست سـوى رحلة نحو الداخـل، رحلـة لمعرفة الـذات واكتشاف الأزمة الحقيقية بوضع الإصبع على الجرح، علـى هذا الورم الذي لا بـد له أن ينفجر. فـي الصحراء أصبح المأمور محمود عارياً أمـام نفسه حين وقف متأملاً وساوسه التي يكبتها ويداري عليها ولا يريد لأحد أن يطلع عليها. في سيوة أصبح صوته مرتفعاً، مؤنباً ومحاكماً. وفي سيوة يأتـي جوابه المتأخر علـى سؤال كاثرين في بداية الرواية عندما سألته عن أزمته. «أتباهى أمام نفسي بماضٍ بطولي وأتعمد نسيان لحظة الخزي... لكن تعالَـيَ الآن! انتهى وقـت الخداع. ما الذي فعلته أنا بالضبط فـي الثورة؟ كنت أجري مـن شاطئ البحـر إلـى المستشفى لأنقل الجرحـى والقتلى؟... نساء من الإسكندرية أيضـا فعلن ذلـك وصعدن إلـى الطوابي ولـم يعتبرن أنفسهن بطـلات ولا شهيدات ١٤٧+١٤٨».

هذا الاعتراف ببدايـة أزمته أمام ذاته قـاده إلى اعتراف آخـر عندما وجد نفسه أمام أزمة ضمير جديـدة تعود إلى تدحرج حجر من المعبد كاد أن يقتل الصبي السيوي محمود. وقتهـا اندفع الشاويشـ إبراهيم لإنقاذ الصبي بينمـا المأمور محمود عبد الظاهر جبن وتراجع لكنه في اللحظة التي اطمئـن فيهـا أن الحجر ابتعـد، قفز فوق إبراهيم الذي كان يغطـي الصبي بجسده. ومن هذه اللحظـة الملتبسة اكتسب بطولة زائفـة أمام أهل سيوة بينمـا تهشمت ساق المسكين إبراهيم.

فـي اعتراف متأخر للـذات وفي حوار داخلي يقول: «حين رأيت أن الحجر الكبير سيصيبنا معاً توقفـت. تجمدت خائفاً في مكاني. كنت أنا الأقـرب إليه لكن إبراهيم تجاوزنـي بقفـزة واحدة واندفـع يحتضن الصبـي ويدفعه بعيداً ويرتمي فوقه. أفقت أنـا فارتميت بـدوري فـوق إبراهيم لكن

بعد فوات الأوان. بعد أن ضمنت حياتي واطمأننت عليها ١٥٢». أليست هذه صورة كاريكاتيرية دونكيشوتية للمأمور محمود وهو يسرق بطولة ليست له؟

من الجدير بالملاحظة أنّ جميع هذه الاعترافات من بركات سيوة حيث الصحراء التي تتجلى فيها لحظات الصدق – الصحراء التي تصنع الأنبياء. أيضا هذا الابتعاد عن القاهرة بضجيجها وصخبها أو بالأحرى الابتعاد عن السلطة الضاغطة ومركز القرار أفسح المجال أمام محمود عبد الظاهر للتنفيس عن الكبت الذي لم يعد يحتمله، هذا الكبت المتمثل بالخنوع والذل، وكذلك في تمثيله لدور البطولة المزعومة، التي يعرف بأنها ليست سوى وهم صنعه بيديه ليطمئن بأنه قام بشيء مهم. إن انتقال محمود عبد الظاهر من القاهرة إلى سيوة حيث الصحراء يعتبر نقطة التحول المهمة في حياته، حيث انتقل من خداع الذات إلى معرفة الذات، ومن الوهم إلى زوال الوهم، ويسمى هذا التحول المفاجئ الذي يطرأ على الشخصية في الأدب بلحظة التنوير epiphany، أو إدراك الحقيقة العظمى التي قال بها جيمس جويس. لقد استغرقت هذه اللحظة صفحات طويلة من الرواية، حيث مرت بطرح أسئلة كثيرة على الذات، وذلك من أجل كشف حقيقة الذات، كان فيها محمود عبد الظاهر يمر بأقسى حالات الألم والمعاناة. حتى كاثرين زوجته يريكها تناقض شخصيته أثناء وجودهما في سيوة «يشرب الخمر التي يحرمها عليه دينه، ويواظب على صلاة الجمعة في المسجد كواجب اجتماعي حتى لا يفقد احترام الناس له، أراه أيضا في بعض الليالي يقفز من الفراش في الظلام ويغتسل ثم يستغرق في الصلاة طويلاً وهو يبكي ١٧٣». تتفاقم أزمة محمود القهرية في سيوة لكنه يبحث عن العذاب بيديه لأنه يريد أن يتطهر. عندما رفض الشاويش إبراهيم عرضاً بالعودة إلى المحروسة، يقول محمود مستبطنا ما تخفيه أناه «لعلي أكون تمنيت رحيله لأنسى مرة أخرى لحظة الخزي التي لم ينتبه هو لها. لكن الأفضل أن يبقى ليذكرني بها. لم يبق عمر جديد للهرب». ليس خافياً أنه يتحدث هنا عن قصة الحجر الذي كاد أن يقتل الصبي السيوي محمود.

بالطبع كلما تتفاقم أزمة محمود عبد الظاهر وتخرج عن نطاق السيطرة وإبقائها مكبوتة فإنه يزداد كشفاً لذاته «مرةً أخرى ما هي مشكلتي؟ المشكلة هي أنت بالضبط يا حضرة الصاغ! لا ينفع في هذه الدنيا أن تكون نصف طيب ونصف شرير نصف

وطنـــي ونصف خائن. نصف شجاع ونصف جبـــان... دائماً فـــي منتصف شـــيء ما... طلعـــت كان أوضح مع نفســـه... ما دام قد خان... بـــاع نفسه وقبض الثمن... أما أنت فبعت بلا ثمن وبقيـــت قانعاً بالسخط على نفسي وعلى الإنكليز وعلى الدنيا كلها دون أن أعرف ماذا أريـــد ٢٣٥». هذا مهم جداً في التحول، أصبـــح الآن يخاطب نفسه بلا قناع، لقد تسرب اللاوعي فجأة ووضعه في لحظة صدق مع نفسه.

ثم أخيـــراً وفي حـــوار مـــع اليوزباشي وصفـــي، الضابط الجديد الـــذي قدم إلى سيـــوة، استجمـــع المأمـــور شجاعته دفعة واحدة ونطق بالـــذي كان يجب أن ينطق به من زمن –نطق الآن أمام وصفي الذي يدافع عن الاحتـــلال الإنكليزي والخديوي وينتقد ثورة عرابـــي– انفجر بـــه المأمور محمود «عرابـــي باشا أشرف من عشـــرة خديويين مجتمعيـــن. والبكباشي محمد عبيد أشرف من كل الخديويين والباشوات الخونة الذين باعونا للإنكليز ٣١٨». رغم هذا الذي قاله بقي المأمور محمـــود مؤنباً لنفسه «كلامك تأخـــر عشرين عاماً يا حضرة الصاغ! وإلى غير وصفي كان يجب ان تقوله! ٣١٩». ثم «فلا داعـــي للتباهي أمام وصفي أو غيره! لا داعي للشجاعة المتأخرة ٣٢٠».

ومن أزمات المأمـــور محمود أنه طوال الرواية لا ينسى نعمة السمراء – حبه الأول التـــي خانهـــا وتخلى عنها. أيضـــا لا ينسى صديقـــه طلعت الذي خان الثـــورة العرابية وقبض الثمن.

أخيرا استراح المأمور محمود في سيوة وأصبح في مواجهة ذاته بكل تناقضاتها. في الواحـــة بلغ الوعي الذي أراد – نطق بالذي أراد أن يقولـــه منذ عشرين عاماً – صحيح أنه تأخر في قوله لكـــن يكفيه أنه صرح به أمـــام وصفي الذي ليس سوى ممثلٍ للسلطة ومرتبطٍ بما يسمى المكتب الخاص.

أخيراً هدم المأمور محمود المعبد. هدمه بعد أن بلغ ذروة الوعي وتخلص من وقوفه في المنتصف – هدم المعبد لأنه شغل كاثرين عنه وعن أختها فيونا المريضة ولأنه لم يعد يطيق نظـــرة الغرب إلى مصـــر ومثيلاتها وجاراتها «عدت إلى المعبد.. هذا إذن هو المجد الذي يكتشفه لنا الإنجليـــز لنعرف أننا كنّا عظماء، وأننا الآن صغارٌ! الأجداد لا باس إما الأحفاد فلا يصلحـــون إلا للاحتلال ٣٣٩». ثم بعد أن تفجر المعبد وتطايرت حجارته «وتوهج فجأة نور داخلي، نعم الآن يمكن أن أرى كل شيء!.. أن أفهـــم كل ما فاتني... أسمـــع صوتاً يزعق باسمي.. فأقول وأنا أغمض عيني شكراً.. لك لأنك.. تأخرت! ٣٤١».

بهـدم المعبد تـمَّ هدم جـدار الخوف وتخلص المأمور محمود من الخوف، ومن رُهاب عقـدة الدونية أمـام الأجنبي، ومن رُهـاب الدولة أيضا، وإلـى الأبد. لأن هذا المعبد يمثل الوهـم المسيطر على النفس بما يمثله من سلطة ضاغطة. المعبد الذي دمـره المأمور محمود ليـس سوى المدفع الصدئ الذي تركته آخر حملة تأديبية على سيوة كرمز لهيبة الدولة وللخوف.

المعبد ليس سوى المقبرة التي دُفن فيها الإسكندر الأكبـر هذا الفزاعة الذي يقول عن نفسه أنه حكم العالم والناس بالخوف. والمعبد أيضا ليس سوى الخديوي الذي ثار عليـه أحمد عرابي والـذي ثار عليه جمال عبد الناصر والذي ثـار عليه الآن المأمور محمـود بعد أن زال الوهـم من أمام عينيه بأن هذا المعبد الـذي يمثل هيكلية الدولة الظالمة التي يحكمهـا الأجانب ليس سوى بناء كرتوني.

٢- كاثريـن: أيرلنديـة الأصـل، محبة للآثـار وتتقـن عدة لغـات ميتة بمـا فيها (الهيروغليفيـة) التـي تعلمتهـا بنفسهـا. تزوجت من المأمـور محمود عبد الظاهر، الـذي تقول فـي وصفه «ظل وقتـاً طويلاً متردداً في الاقتراب مني.. أظن أن الانقلاب أتى عندما عرف أننـي أيرلندية وأني أكره الإنجليز لأنَّهم يحتلون بلدي كما يحتلون بلده وأشعر بجنسيتهم التي أحملها عاراً سأتخلص منه يوم تستقل أيرلندا ٢٠+٢١». إنَّ هذا من مضمرات النص وشيء من التواطؤ السري بينهما على أن يكونا معاً، بسبب كراهيتهما المشتركة للإنكليز، ولأنهما ينتميان لبلدين يرزحـان تحت الاحتـلال الإنكليزي، ولولا ذلك لما اقترب منها محمود وتزوجها.

أيضـا تعاني كاثرين أزمات مثل محمود وإن بدرجة أقل، ويربكها السؤال كثيراً حول اكتشاف الذات والآخر. إحدى أزماتها أنها تزوجت من مايكل الذي ارتبط سابقاً بعلاقة حب مع أختها فيونا والذي كان سيتزوجها، إذن تعانـي كاثريـن عقدة اختطـاف زوج الأخـت. لكن علـى عكس محمـود كانت كاثرين مسـرورة جداً بالانتقـال إلى سيوة وقد ذهبت إليها مستعدة بأن جمعت جميع الكتـب التي تتحدث عـن تاريخها وعادات سكانهـا وتقاليدهم. لدى كاثرين حلم قديم يراودها لاكتشاف مقبـرة الإسكندر الأكبر التـي تقول بعض المصـادر بأنه دُفن فيها «أتمنى. مـن زمن بعيد أحلـم بالرحلة في الصحراء.. حلمت أن أرى الواحة التي خط فوق رمالهـا الإسكندر الكبير وعاش قصته المثيرة التي لازمته حتى الموت ٢٤». تمضي كاثرين لتحقيق حلمها حتى نهايته وربما في

ملاحقتها لهذا الحلم كانت تهرب من أزمتها. تكتشف كاثرين في سيوة جوانب معتمة في حياتها وشخصيتها لم تعرفها من قبل. إذن في هذا الجانب تشبه محموداً حين تبين لهما أن الرحلة إلى سيوة رحلة لاكتشاف الذات. وفي الصحراء ليس محمود وحده الذي تغير، أيضا كاثرين تغيرت وهذا ما تعترف به «أريد أن أقول كلانا تغير في هذه الواحة لكن لماذا لا يكون الأمر هو العكس؟ لماذا لا يكون كلانا في هذه الواحة قد وجد حقيقته؟ ٢٠٥».

تُرى عن أية حقيقة تتحدث كاثرين؟ إنَّها حقيقة اكتشاف الجوانب المعتمة في داخلها. في واحة سيوة أصبحت تعيش كابوس سافو صاحبة الحب المحرم مع بنات جنسها. حدث هذا بعد أن زارتها مليكة من دون توقع «واجهتني حتى أوشكت أن تلتصق بي وأنفاسها اللاهثة تلفح رقبتي... واحتضنتني بمنتهى الرقة... واحتضنتها بدوري لكني فجأة صرخت: «لا» «! ودفعتها بعيداً عني... أنا لست سافو ٢٠٣» إذن استيقظت الرغبة المكبوتة لدى كاثرين، لكنها حين استعادت وعيها الذي كان على وشك أن يتلاشى وهي تحتضن مليكة، أمسكت جريد النخل وصارت تضربها به وحين دخل محمود فجأة ووجد زوجته على هذه الحال ممزقة الثياب قام بضرب مليكة ودفعها إلى الخارج من دون أن يفهم تفاصيل القصة. بينما كاثرين وحدها تفهم التفاصيل خصوصاً حين ظل هذا الجرح يحفر عميقاً فيها وتسأل نفسها من تكون وتستذكر سافو ومليكة. «عندما عانقتني كان احتضانها رقيقاً كعناق طفلة. أنا التي سيطرت عليّ لحظتها فكرة سافو وغزلها الأنثوي ٢٤٣». ثم «ما زال لقاؤنا الوحيد.. حياً فإني أعيش تلك الرعدة التي شملتني وهي تقبلني أو وأنا أدس وجهها في صدري... أحاول أن أطمئن نفسي بأني عشت عمري كله امرأة طبيعية وكنت أستمتع كثيراً بالعشق مع محمود. فيتسلل خاطر يهزأ مني، وكذلك كانت «سافو» تستمتع بالعشق مع الرجال ٢٩٦».

على الرغم من أن كاثرين تكتشف أخيراً دليلاً على مقبرة الإسكندر الأكبر في سيوة. إلا أنَّها تبقى يمزقها السؤال، بحيث لا تستوعب المعادلة الصعبة بين كونها أيرلندية بلدها محتل من الإنجليز وبالوقت نفسه تحمل الجنسية الإنجليزية. ثم غدرها وخيانتها لأختها فيونا عندما تزوجت مايكل. ثم أيضا رغبتها الشبقية المفاجئة في مليكة وثورتها عليها. وأخيراً هذا الهاجس أو المس الأحادي الذي تلبَّسها

وسيطر عليها فيما إذا كانت مثل سافو أم لا. كل هذا من بركات الرحلة إلى الصحراء، رحلة اكتشاف الذات.

إنَّ جميع شخصيات «واحة الغروب» يعانون شرخاً وأزمة ضمير. شخصيات ممزقة بين ما تظهر به أمام الناس وبين ما تظهر به وجها لوجه أمام مرآة ذاتها التي لا تكذب. ربما الشخص الوحيد العاقل والعارف بكل شيء والذي اكتشف ذاته مبكراً هو الشيخ يحيى. لكن أزمته تكمن في أنه عندما وجد نفسه عاجزاً عن التغيير في سيوة المنقسمة على نفسها بين شرقيين وغربيين، بين زجالة وأجواد، بين فقراء وأغنياء، تطحنهم الخلافات والحروب فيما بينهم. أخيراً عندما وجد نفسه عاجزاً حتى عن إنقاذ مليكة فإنه هرب من الخلاص الجماعي إلى الخلاص الفردي وما كان منه سوى أن غادر الواحة ودخل الصحراء واعتكف فيها. بينما يقف الشيخ صابر على النقيض تماماً من الشيخ يحيى. الشيخ صابر لا يكف عن التآمر والبحث عن ثأر قديم. أزمته أنه لا يستطيع تحقيق ما يريد على الرغم من محاولاته الدائمة وتآمره مع وصفي الضابط الجديد في الواحة. على عكس الشخصيات الأخرى، بقي الشيخ صابر شخصية ثابتة لم تتطور أو تنتقل من حال إلى حال، بقي في مكانه مسكوناً بوسواس وأسئلة التآمر، وهكذا فإنه لم يمر بمرحلة اكتشاف الذات.

بالمقابل لدينا مليكة، ابنة سيوة التي تبحث وتسأل بطريقتها الخاصة، لكنها تعيش الحصار والقمع. مليكة ابنة الحرية والبحث عن المجهول، تعرف قيمة الآثار من دون نظريات، تقضي وقتها بين المعابد، لها عين ذكية قادرة على التقاط التفاصيل، تعلمت صنع التماثيل بالفطرة، لم يفهم أحد أنها ما تزال طفلة في الخامسة عشرة من عمرها حين زوجوها من العجوز معبد. أزمة مليكة أن الجسور مع مجتمعها الجاهل انقطعت فأرادت أن تمد جسور التواصل مع كاثرين لكن سوء الفهم من قبل كاثرين وانقطاع لغة الحوار، إضافة لهذا المحرم الكامن والذي تحرك فجأة داخل كاثرين وتذكرها لقصة سافو جعلها تطرد مليكة. بتقاليد سيوة مليكة هي الغولة التي مات زوجها لذلك عليها قضاء فترة من الزمن قبل أن تخرج من بيتها وإلا حدث مكروه. ولأن مليكة تمردت على هذه التقاليد كان مصيرها الموت قتلاً.

مقابل مليكة هناك شخصية موازية لها وتشبهها إلى حد ما، إنها فيونا أخت كاثرين. ربما الفرق بينهما أنّ فيونا مثقفة تعبّر عن

موقفها وتعرف ما تريد. أزمة فيونا أنها تعرف وتعبر عن رأيها بصراحة من دون مداورة. تذهب إلى هدفها مباشرة. وربما المأمور محمود هذا الذي قضى جزءاً كبيراً من حياته متردداً وخائفاً قد استمد الشجاعة منها. حين اتهم اليوز باشي وصفي أحمد عرابي بالخيانة، لم تسكت له فيونا، قالت له «... لكن أبي... كان يعتبر عرابي بطلاً يقاوم احتلال الإنجليز لبلده. علق صورته في مكتبه... ٢٥٧». وعندما أصر اليوزباشي وصفي على أن عرابياً خان مولاه ونشر الفوضى في البلد وأن تمرده انتهى بهزيمة منكرة. ردت عليه فيونا «كثير من زعمائنا في ايرلندا انتهت ثورتهم على الإنجليز بالهزيمة لكننا نظل نعتبرهم أبطالا. هم حاولوا على الأقل ٢٥٧». فيونا واضحة مع نفسها ومع الآخر تكره الاحتلال والظلم. تكره الأجنبي. في حوار مع أختها حول الإسكندر الأكبر تقول «... لم تعجبني سيرته أبداً. سفك كثيراً من الدماء ودمر كثيراً من المدن. يكفي ما فعله في ميناء «صور» في جبل لبنان. أغضب جلالته كثيراً أن يقاوم أهلها غزوه لمدينتهم... فقتل من أهلها الآلاف ذبحاً وصلباً... ٢٩٠» إنَّ انتقاد فيونا لإنكلترا انتقاد للإسكندر الأكبر وبالعكس. تقول لأختها كاثرين «ألا تقول إنجلترا الآن إن رسالة إمبراطوريتها هي نشر الحضارة والتمدن في العالم؟ تعالي انظري إلى هذه الحضارة المعجونة بالدم من أيرلندا إلى مصر إلى الهند... ٢٩١». لقد نفرت فيونا من وصفي منذ وصف الثوار بالخونة ولم تعد ترحب برؤيته. أزمة فيونا أنها تعرف الحقيقة وتنطق بها، وهذا يسبب لها المتاعب. على عكس المأمور محمود عبد الظاهر الذي يعرف الحقيقة، لكنه حتى ينطق بها استغرق منه هذا وقتاً طويلاً. وهي أيضا على النقيض من اليوزباشي وصفي المتآمر مع الشيخ صابر، كلاهما انتهازي يسعى وراء ما يحقق مصلحته الشخصية وبعد ذلك الطوفان.

أيضا يجب ألا ننسى الإسكندر الأكبر الذي تمت استعادته من التاريخ. استحضره إلحاح كاثرين فأتى يروي جانباً من تاريخه، كيف حقق انتصاراته وحكم الناس «... تعلمت أن الخوف لا الحكمة هو أساس الملك. تعلمت أنه لا بد من إخافة العامة دائماً بالعقاب والعذاب على الأرض وفي السماء لكي يعرفوا الطاعة والاستقامة، تعلمت أنه يجب على الحاكم ألا يسمح للعامة بالحرية أو بالمتعة بل عليه أن يعلمهم أن يجدوا المتعة في الخوف يجب أن يعبدوني في الخوف وبالخوف. هذا هو أثمن درس تعلمته من آمون والمصريين. طبقته فنجح.

١٣٨». ربما هذا أيضا اكتشاف متأخر للذات من قبل الإسكندر الأكبر.

طبعاً ومن خلال الاستماع للأبطال يتكلمون مباشرة بأصواتهم ويعبرون حتى عمّا يضمرونه، فإننا نكتشف أن «واحة الغروب» تحفر عميقاً في بنية الفرد والمجتمع والدولة، وتعمل على خلخلة السائد الفاسد المسكوت عنه، ولا توفر أحداً.

تعدد الأصوات في «واحة الغروب»:

إنَّ الرواية المتعددة الأصوات مصطلح استخدمه باختين لوصف النص الحواري الذي لا يعتمد على مركزية أحادية الصوت المسيطر. وهكذا فإنَّ مثل هذا النص يساهم في تعددية الأصوات وفي تعدد أساليب وجهات النظر.

تضاف «واحة الغروب» إلى روايات الأصوات العربية المتميزة، مثل: «الحرب في بر مصر» ليوسف القعيد، و«أصوات» لسليمان فياض، «والرجع البعيد» لفؤاد التكرلي، وغيرها من الروايات المهمة.

تنبع أهمية رواية الأصوات من قدرتها على اكتشاف الأنا والآخر وسبر النفس البشرية بما ينتابها من هواجس ونوازع عندما تقف أمام مرآة ذاتها عارية وبعيدةً عن أي رقيب. من هنا فإن أهمية تعدد الأصوات في «واحة الغروب» في جعلها لجميع الشخصيات تسرد سيرتها بنفسها من خلال استبطانها لذاتها وحوارها مع الآخر بعيداً عن الراوي المسيطر وصاحب المعرفة الكلية. إنَّ المأمور محمود عبد الظاهر وكاثرين والشيخ يحيى ومليكة والشيخ صابر والصاغ وصفي عرفهم القارئ من خلال صراعهم مع أنفسهم في محاولة تحقيق أحلامهم وكذلك في صعودهم وهبوطهم وفي قوتهم وضعفهم. لقد عرفهم أيضا من خلال ما أضمره النص ولم يقله صراحةً. لأن كل شخصية تتكلم بصوتها فإنها تضيء الجوانب المعتمة من حياتها بعيداً عن ديكتاتورية الراوي الكلي المعرفة، وذلك حين تصبح وجهاً لوجه عاريةً أمام ذاتها، حيث تسقط الأقنعة، ولا مجال للتمويه، أو خداع الذات، لذلك فإن رواية الأصوات رواية ديمقراطية.

الشرق والغرب في «واحة الغروب»:

تضاف «واحة الغروب» إلى الروايات العربية التي تعاملت مع علاقة الشرق مع الغرب، مثل: «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم، و«قنديل أم هاشم» ليحيى حقي، «أصوات» لسليمان فياض، و«موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، و«الأشجار

واغتيال مرزوق» لعبد الرحمن منيف، و«الحي اللاتيني» لسهيل إدريس. إنَّ «واحة الغروب» تشبه جميع الروايات السابقة من خلال جدلية العلاقة بين الأنا والآخر، لكنها تفترق عنها بطريقة المعالجة حين نعرف أن جميع أبطال الروايات السابقة ذهبوا للغرب وتحدثوا عن تجربتهم هناك، هذا إذا استثنينا سيمون بطلة رواية «أصوات» لسليمان فياض التي أتت إلى الشرق. هنا في «واحة الغروب» يأتي الغرب ممثلاً بكاثرين مسلحاً بالعلم والمعرفة، بينما الشرق غارق بالجهل والمرض.

لكن لا بد من التنويه بأن محمود عبد الظاهر بطل «واحة الغروب» ربما تشبه علاقته الجنسية مع زوجته كاثرين علاقة مصطفى سعيد في «موسم الهجرة إلى الشمال» مع زوجاته الأجنبيات. كلاهما يريد تحقيق الذات ومواجهة الغرب الذي كان فاتحاً وغازياً بعلمه وجيوشه، عن طريق فتوحات جنسية، وفحولة من نوع ما.

المختلف في «واحة الغروب» أن الغرب هنا يعرف ما يريد. لقد جاءت كاثرين إلى مصر مستعدة لكل شيء، ومسلحة بمعرفتها باللغات الميتة بما فيها (الهيروغليفية) – طبعاً من أجل دراسة مصر. بينما على العكس من ذلك نجد الشرق مسلحاً بالجهل، ويتجلى ذلك في رد الشيخ يحيى على كاثرين «لا يوجد في بلدنا من يعرف لغات القدماء. انتظري ربما يأتي بعض الخواجات من بلادكم ١٦٨». تقول كاثرين «قرأت كل شيء عن هذه الصحراء وعن سيوة من قبل أن نبدأ الرحلة. كل ما جلبته معي من كتب من أيرلندا من كتب الرحالة والمؤرخين وكل ما استطعت أن أجده في مكتبات القاهرة ٥٦». بينما الناس في الواحة سكنوا المعابد وأغلقوها على أنفسهم، أو خربوها ببحثهم عن كنز ما. تقول كاثرين لمحمود «إني لا أبحث عن كنزهم الملعون الذي دمروا

الهوامش

* «واحة الغروب»، رواية بهاء طاهر، الفائزة بجائزة البوكر العربية، طبعة دار الشروق، ٢٠٠٧م.

نافــذة على

إصــدارات جــديدة

إعداد: حسني هلال ❁

أسئلة النهضة



.. نعــرف وتعرفــون، أنّ الزمــن ليس عربياً، على الأقــل لجهة العوامل الفاعلة في مساره الراهن، لكننا مصممون أنّ يكون القادم عربياً في أدواته ومساره ونتائجه.. وقــد أثبتت التجربــة السياسية في سورية علــى الأقل، أنَّ العروبة ليست وجهة نظر، بــل انتمــاء عميــق وهويــة مؤسسة على وعي ناضج بالــدور الحضاري لهذه الأمة المنكوبة بأنظمة سياسية وحكومات لا تعبر عن وجــدان النـاس وضميرهم ولا ترعى مصالحهــم، بل تستند إلى حماية الأجنبي في بقائها..

❁ أديب وصحفي سوري.

كلام الأستاذ عصام خليل وزير الثقافة، جاء في افتتاح وقائع الندوة الثقافية «العروبة وأسئلة النهضة» التي جرت في الثامن والتاسع من آذار الماضي ٢٠١٥م، في مكتبة الأسد، وقامت الهيئة العامة السورية للكتاب، بإصدار وقائعها بين دفتي كتاب، استُهلَّ بدراستين للمفكر العربي سعود قبيلات وللدكتور عمار بكداش، تلتهما مداخلات عدّة.

وفي اليوم الثاني شهدت الندوة دراستين، الأولى: للباحث الدكتور أشرف بيومي، والثانية: للباحثة صفية أنطون سعادة، أعقبهما مداخلات لعدد من المشاركين. وختمت الندوة بمجموعة توصيات.

يقع الكتاب في ١٦٠ صفحة ويتضمن ملحقاً للصور.

❀ ❀ ❀

تحليق في سماء السرد



هل الإصابة في منع النساء من الكتابة، كما قال أبو الثناء الآلوسي في مخطوطته سنة ١٨٩٨م؟

أم الإصابة، في فتح أبواب سجن التاريخ الذكوري لهن، ومساعدتهن كي يعبّرن بأقلامهن وألسنتهن، عن أنفسهن بداية، وعن مجتمعهن بذكوره وإناثه بمسائله ومشاكله، تالياً ومستداماً؟

التساؤلان الآنفان، كانا -في معناهما- ضمن الأفكار والمعاني التي احتوتها مقدمة الأديبة رولا حسن لكتابها «فراشات السرد» الصادر حديثاً عن دار «بعل» في دمشق.

في كتابهــا هذا البالغ /٣١١/ صفحة، تحاول الكاتبــة أن تضيء التجربة الروائية النسائيــة السورية، مركــزة على أغلب رموزها، خصوصاً اللواتــي لم ينلن نصيبهن من الضوء الإعلامي.

لا يخرج عن حدود الإنصاف، القول:

إنَّ الشاعــرة الصحفيــة «رولا» قد ألفت ووالفت في قراءتهــا/ تحليقها في سماء الرواية النسوية السورية «فراشات السرد» بين زهرات مزايا عدّة..

- الاطلاع والمراجعة لمعظم الإصدارات النقدية في السرد.
- العرض التوثيقي للإبداعات النسوية السورية في الرواية بألوانها.
- الإخلاص للموضوعية في التأريخ، والانحياز للمغبون والمكتوم والمسكوت عنه.
- المقاربة الأنثوية والملامسة الشاعرية لمواد قراءتها.

❀ ❀ ❀

لهفة مستغانمي



رقص فأبدع.. غنى فأبــدع.. رسم فأبدع.. تكلم فأبدع..

وهكــذا في كل ما يصدر عــن الإنسان من أفعال وأقــوال- بما فيه الصمــت- يمكن، إذا ما تحققــت فيه شروط معينــة، أن يدخل حرم الإبداع.

أمّــا أن يخصص المــرء بأكثر من كرسيّ من الحــرم إيّــاه. ففي ذلــك مافيه مــن حظوة له ومياز.

تقــول الروائيــة أحــلام مستغانمــي، في جديدهــا «المجموعــة الشعريــة- عليــك اللهفة» الصادرة حديثاً عن دار نوفل:

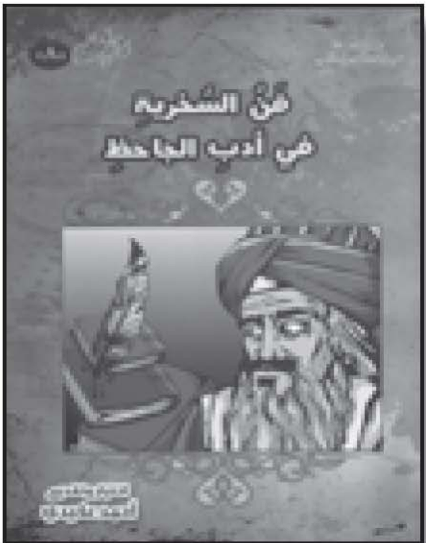
«لا تبحثــوا في هذه النصوص عن أشعاري، ما هذه المجموعة سوى مراكب ورقية، لامرأة محمولة على أمواج اللهفة، ماترك لها الحب من يدٍ سوى للتجديف بقلم».

من أجواء لهفة الشاعرة:

استغرقني حُبّكَ
أنساني أنَ أكتُبَكَ
وأنا أريدُكَ مُلهِمي ومُلتَهِمي
رَجُلي حيناً.. وحيناً قلمي
فارقْني قليلاً
أحتاجُ أن أُحبّك.. ككاتبة

❁ ❁ ❁

الجاحظ ساخراً



لئــن كان أبو عثمان (عمــرو بن بحر الشهير بـ«الجاحظ»، قصير القامة، صغير الرأس، دقيــق العنق، صغير الأذنين، أسود اللون، جاحظ العينين، مشوّه الخلقة. فكان أيضاً كبير أئمة الأدب، أو عالم الأدباء وأديب العلماء -حسب وصف أحدهم- وقد أولع بالأدب وأُغرم بالكتب، حتى قتلته مجلدات من مكتبته وقعت عليه.

يُعــدُّ الجاحــظ، أحــد الذيــن سُلبوا صباحــة الوجــه وجمال الخلقــة، ولكنهم عرفوا بالــروح الفكهة والطبيعة الساخرة.

ومما يرويه أبو عثمان عن نفسه قوله:

«أتتني امرأة وأنا على باب داري، فقالت لي: إليك حاجة وأُريد أن تمشي معي، فقمت معهــا إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي، وقالت له: مثل هذا، وانصرفت. فسألت الصائغ

عن قولها، فقال: إنها أتت إلي بفص وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان.

فقلت: ياستي، مارأيت الشيطان، فأتت بك، وقالت ما سمعت».

السخريــة في أدب الجاحظ وفي حياته، وتأثره بعصــره، بيئة وتربية وتراثاً وثقافة.

هي موضوع كتاب «**فـن السخرية في أدب الجاحظ**» الصادر مؤخراً، عن الهيئة العامة السورية للكتــاب /سلسلة قطوف/ رقم (٨). وهو من اختيار وتقديم مدير إحياء ونشر التراث العربي في الهيئة «أحمد عكيدي».

❁ ❁ ❁